

المسيران
نفسية العقل

للمعلمة السيدة محمد حسين الطيبا طبسائي

المجلد الثاني عشر

منشورات
مؤسسة الأمل للطبوعات
بيروت - لبنان



مرکز تحقیقات کامپیوتر علوم اسلامی

الميزات
في
تفسير القرآن



مرکز تحقیقات کامپیوتر علوم اسلامی

الميزان

في

تفسير القرآن

كتاب علمي ، فني ، فلسفي ، أدبي ،
تاريخي ، روائي ، اجتماعي ، حديث
يفسر القرآن بالقرآن

تأليف

العلامة السيد محمد حسين الطباطبائي

الجزء الثاني عشر

منشورات

مؤسسة الأمل للطبوعات

بيروت - لبنان

ص.ب ٧١٢٠

الطبعة الثانية
حقوق الطبع والتقليد محفوظة ومسجلة للناسر
١٣٩١ هـ - ١٩٧٢ م



مركز تحقيقات كتابية وعلوم إسلامية

تمتاز هذه الطبعة عن غيرها بالتحقيق والتصحيح الكامل
وإضافات وتغييرات هامة من قبل المؤلف

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(سورة إبراهيم مكية ، وهي اثنتان وخمسون آية)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ . أَلَمْ يَكُنْ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ
النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطٍ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ — ١ .
اللَّهُ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَوَيْلٌ لِلْكَافِرِينَ مِنْ
عَذَابٍ شَدِيدٍ — ٢ . الَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ
وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ — ٣ .
وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رُسُولٍ إِلَّا بِلِسَانٍ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلُّ اللَّهُ مَنْ
يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ — ٤ . وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا
مُوسَى بِآيَاتِنَا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَذَكِّرْهُمْ بِأَيَّامِ
اللَّهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ — ٥ .

(بيان)

السورة الكريمة تصف القرآن النازل على النبي ﷺ من حيث إنه آية رسالته يخرج به الناس من الظلمات إلى النور ويهديهم إلى صراط الله سبحانه الذي هو عزيز حميد أي غالب غير مغلوب وغني غير محتاج إلى الناس وجميل في فعله منعم عليهم ، وإذا كان المنعم غالباً غنياً حميد الأفعال كان على المنعم عليهم أن يحيبوا دعوته ويلبوا ندائه حتى يسعدوا بما أفاض عليهم من النعم ، وأن يخافوا سخطه وشديد عذابه فإنه قوي غير محتاج إلى أحد ، له أن يستغني عنهم فيذهب بهم ويأتي بآخرين كما فعل بالذين كفروا بنعمته من الأمم الماضين فإن آيات السماوات والأرض ناطقة بأن النعمة كلها له وهو رب العزة وولي الحمد لا رب سواه .

وبهذا تختتم السورة إذ يقول عز من قائل : « هذا بلاغ للناس ولينذروا به وليعلموا أنما هو إله واحد وليذكر أولوا الألباب » .

ولعل ما ذكرنا هو مراد من قال : إن السورة مفتتحة ببيان الغرض من الرسالة والكتاب يشير إلى قوله تعالى : « لتخرج الناس من الظلمات إلى النور بإذن ربهم » .

والسورة مكية على ما يدل عليه سياق آياتها ، ونسب إلى ابن عباس والحسن وقتادة أنها مكية إلا آيتين منها نزلتا في قتلى بدر من المشركين : « ألم تر إلى الذين بدلوا نعمة الله كفراً وأحلوا قومهم دار البوار جهنم يصلونها ولبس القرار » وميأتي أن الآيتين غير صريحتين ولا ظاهرتين في ذلك .

قوله تعالى : « الر كتاب أنزلناه إليك لتخرج الناس من الظلمات إلى النور بإذن ربهم » أي هذا كتاب أنزلناه إليك ، فهو خبر لمبتدأ محذوف على ما يعطيه السياق وقبل غير ذلك .

وقوله : « لتخرج الناس من الظلمات إلى النور » ظاهر السياق عموم الناس لا

خصوص قومه ﷺ ولا خصوص المؤمنين منهم إذ لا دليل على التقييد من جهة اللفظ، وكلامه تعالى صريح في عموم الرسالة كقوله : « ليكون للعالمين نذيراً » الفرقان : ١ وقوله : « لا نذكركم به ومن بلغ » الأنعام : ١٩ ، وقوله : « قل يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعاً » الأعراف : ١٥٨ ، والآيات الصريحة في دعوة اليهود وعامة أهل الكتاب ، وعمله ﷺ في دعوتهم وقبول إيمان من آمن منهم كعبد الله بن سلام وسلمان وبلال وصهيب وغيرهم تؤيد ذلك .

على أن آخر السورة : « هذا بلاغ للناس ولينذروا به » الآية ، وقد قوبل به أولها يؤيد أن المراد بالناس أعم من المؤمنين الذين خرجوا من الظلمات إلى النور بالفعل .

وقد نسب الإخراج من الظلمات إلى النور إلى النبي ﷺ لكونه أحد الأسباب الظاهرية لذلك وإليه ينتهي إيمان المؤمنين بدعوته بلا واسطة أو بواسطة ، ولا ينافيه قوله : « إنك لا تهدي من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء » القصص : ٥٦ ، فإن الآية إنما تنفي أصالته ﷺ في الهداية واستقلاله فيها من غير أن تنفي عنه مطلق الهداية حتى ما يكون على نحو الوساطة بإذن من الله تعالى ، والدليل عليه قوله تعالى : « وإنك لتهدي إلى صراط مستقيم » الشورى : ٥٢ ، ولذلك قيد سبحانه قوله : « لتخرج » بقوله : « بإذن ربهم » .

والمراد بالظلمات والنور : الضلال والهدى ، وقد تكرر في كلامه تعالى اعتبار الهدى نوراً وعدة الضلال ظلمة وجمع الظلمات دون النور ، لأن الهدى من الحق والحق واحد لا تغاير بين أجزائه ومصاديقه ولا كثرة بخلاف الضلال فإنه من اتباع الهوى والأهواء مختلفة متغاير بعضها مع بعض لا وحدة بينها ولا اتحاد لأبعاضها ومصاديقها قال تعالى : « وأن هذا صراطي مستقيماً فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله » الأنعام : ١٥٣ .

واللام في قوله : « لتخرج الناس » الخ ، لام الغرض بناء على عموم الناس كما هو ظاهر الآية ، وليس بلام العاقبة إذ لو كان كذلك لكان الناس كلهم مؤمنين ، والمعلوم خلافه .

وأما ما اعترض عليه بعضهم أن التربية الإلهية بإخراج الناس من الظلمات إلى النور وإيصالهم إلى السعادة والكمال مشروطة بالتهيب والاستعداد مع كون الفيض عاماً فالمقدار الممكن من هذه العاقبة على تقدير عمومته هو هذا المقدار .

ففيه أنه اعتراف بأن كون اللام للعاقبة خلاف ظاهر الآية ، فإن الذي ذكره لا يتم إلا بتقييد « الناس » بالمستعدين ، لكن الذي يجب أن يعلم أن هذا الغرض غرض تشريعي معناه أن للحكم غاية مقصودة وهي المصلحة التي يستعقبها ، فإن الله سبحانه يدعو الناس ليغفر لهم ويهديهم إلى الإيمان والعمل الصالح ليسعدهم بذلك ويدخلهم الجنة ، ويرسل الرسل وينزل عليهم الكتاب ليخرجوا الناس من الظلمات إلى النور بإذن ربهم ، ويريد بما يوجهه اليهم من الأمر والنهي أن يطهرهم ويذهب عنهم رجز الشيطان ، والآيات الدالة على ذلك كثيرة لا موجب لإيرادها وكذا الروايات ولعلها تزهو بالآلاف .

وقد قال سبحانه : « إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ » الزخرف : ٣ ، وقال : « وما أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانٍ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ » الآية ٤ من السورة ، فبيّن أن ما نعقله من كتابه ويظهر لنا من بيان رسوله حجة لا مناص عنه ، ونحن لا نعقل من قوله مثلاً : « يدعوكم ليغفر لكم » إبراهيم : ١٠ ، إلا أن المغفرة غرض الدعوة ، كما لا نعقل من قول السيد لعبده أو أي متبوع لتابعه : اثني بماء لأشربه أو بغذاء لأكله أو اكسر فلاناً ليستر به عورته إلا أن الشرب والأكل وستر العورة أغراض لأوامرها ، فله سبحانه فيما ينزله من الأحكام والشرائع أغراض وغايات مقصودة .

نعم بيّن سبحانه أن ساحته منزّهة عن الفقر والحاجة مبرّأة عن النقص والشين إذ قال : « إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ » العنكبوت : ٦ ، وقال : « وَرَبُّكَ الْغَنِيُّ ذُو الرَّحْمَةِ » الأنعام : ١٣٣ ، وقال : « يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ » فاطر : ١٥ ، فأفاد أنه في غنى عن كل شيء لا ينتفع بشيء من هذه الأغراض وليست أفعاله تعالى بالعبث والجفاف حتى تخلو عن الغرض ، كيف ؟ وقد وصف نفسه بالحكمة والحكيم لا يعبث ولا يجازف ، ونص على انتفاء العبث من فعله : « أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا »

المؤمنون : ١١٥ ، والأمر والنهي اللذان يتم بهما الكمال في العالم الإنساني يعودان بالآخرة الى ما يتم به الحلقة .

فله سبحانه في خلقه وأمره أغراض ، وإن كان لا يستكمل بأغراض أفعاله كما نستكمل نحن بأغراض أفعالنا لكنه سبحانه لا يتأثر عن أغراضه وبعبارة اخرى الحكم والمصالح لا تؤثر فيه تعالى كما أن مصلحة الفعل تؤثر فينا فيبعثنا تعقلها نحو الفعل ونرجح الفعل على الترك ، فإنه سبحانه هو القاهر غير المقهور والغالب غير المغلوب ، يملك كل شيء ولا يملكه شيء ، ويحكم على كل شيء ولا يحكم عليه شيء ، ولم يكن له شريك في الملك ولا ولي من الدل ، فلا يكون تعالى محكوماً بعقل بل هو الذي يهدي العقل الى ما يعقله ، ولا تضطره مصلحة الى فعل ولا مفسدة الى ترك بل هو الهادي لها الى ما توجبانه .

فالغرض والمصلحة منتزعة من مقام فعله بمعنى أن فعله يتوقف على المصلحة لكنها لا تحكم في ذاته تعالى ولا تضطره الى الفعل ، فكما أنه تعالى إذا خلق شيئاً وقال له : كن فكان كزيد مثلاً انتزع العقل من العين الخارجية نفسها أنها إيجاد من الله تعالى ووجود لزيد وحكم بأن وجوده يتوقف على إيجاده ، كذلك ينتزع العقل من فعله تعالى بالنظر الى ما أشرنا اليه من صفاته العليا أنه فعله وأنه ذو مصلحة مقصودة ثم يحكم بأن تحقق الفعل يتوقف على كونه ذا مصلحة .

فهذا هو الذي يعطيه التدبّر في كلامه تعالى في كون أفعاله تعالى مشتملة على الحكم والمصالح متوقفة على الأغراض ، والمتحصّل من ذلك أن له تعالى في أفعاله أغراضاً لكنها راجعة الى خلقه دونه .

وملخصه أن غرضه في فعله يفارق أغراضنا في أفعالنا من وجهين : أحدهما أنه تعالى لا يستكمل بأغراض أفعاله وغاياتها بخلافنا معاشر ذوي الشعور والإرادة من الإنسان وسائر الحيوانات ، وثانيهما أن المصلحة والمفسدة لا تحكمان فيه تعالى بخلاف غيره .

وأما النزاع المعروف بين الأشاعرة والمعتزلة في أن أفعال الله معلة بالأغراض أم

لا ؟ بمعنى أنه تعالى هل هو محكوم بالمصلحة الواقعية في فعله بحيث إن المصلحة ترجع له الفعل على الترك ولولاها لم يكن له ليفعل ؟ أو أنه لا غاية له في فعله وإنما يفعل بإرادة جزافية من غير غرض ؟

فذلك مما لا يهدي إلى شيء من طرفيه النظر المستوفى والحق خلاف القولين جميعاً ، وهو أمر بين الأمرين كما أشرنا إليه ولعلنا نوفق فيما سيأتي من الكتاب لعقد بحث مستقل في المسألة نستوفي فيه النظر العقلي والنقلي فيها إن شاء الله تعالى .

وفي قوله : « بإذن ربهم » التفات من التكلم مع الغير إلى الغيبة والنكته فيه التخلص إلى ذكر صفة الربوبية وتسجيل أنه تعالى هو رب هؤلاء المشركين الذين اتخذوا له أنداداً فإن وجه الكلام في الحقيقة إليهم وإن كان المخاطب به هو النبي ﷺ دونهم ولتكون هذه التسمية وهي في مفتتح الكلام مبدء لما سيذكر في السورة من الحجة على توحيد الربوبية .

قوله تعالى : « إلى صراط العزيز الحميد الله الذي له ما في السماوات وما في الأرض » العزة تقابل الذلة ، قال الراغب : العزة حالة مانعة للإنسان من أن يغلب من قوهم : أرض عزاز أي صلبة ، قال تعالى : « أيبتنفون عندهم العزة فإن العزة لله جميعاً » وتمتاز اللحم اشتد وعزاً كأنه حصل في عزاز يصعب الوصول إليه ، انتهى موضع الحاجة .

فعزة العزيز هي كونه بحيث يصعب نيله والوصول إليه ومنه عزيز القوم وهو الذي يقهر ولا يقهر لأنه ذو مقام لا يصل إليه من قصده دون أن يمنع قبل الوصول إليه ويقهر ، ومنه العزيز لما قل وجوده لصعوبة نيله ، ومنه العزيز بمعنى الشاق لأن الذي يشق على الإنسان يصعب حصوله ، قال تعالى : « عزيز عليه ما عنتم » ، التوبة : ١٢٨ ، ومنه قوله : « وعزتي في الخطاب » ، ص : ٢٣ ، أي غلبنني على ما فسر به .

والله سبحانه عزيز لأنه الذات الذي لا يقهره شيء من جهة وهو يقهر كل شيء من كل جهة ولذلك انحصرت العزة فيه تعالى فلا توجد عند غيره إلا باكتساب منه

وبإذنه قال تعالى : « أيبستغون عندهم العزة فإن العزة لله جميعاً » النساء : ١٣٩ ، وقال « من كان يريد العزة فلله العزة جميعاً » فاطر ١٠ .

والحميد فعيل بمعنى المفعول من الحمد وهو الثناء على الجميل الاختياري ، وإذ كان كل جمال ينتهي إليه سبحانه كان جميع الحمد له كما قال : « الحمد لله رب العالمين » سورة الحمد : ٢ ومن غريب القول ما عن الإمام الرازي على ما سنقله : أن الحميد معناه العالم الغني .

وقوله : « إلى صراط العزيز الحميد » بدل من قوله : « إلى النور » يبين به ما يوصل إليه الكتاب الذي أنزله على نبيه ﷺ بياناً بعد بيان فنبه أولاً بأنه نور يميز الحق من الباطل والخير من الشر والسعادة من الشقاوة ، وثانياً بأنه طريق واضح يجمع سالكيه في متنه وينتهي بهم جميعاً إلى الله العزيز الحميد .

والوجه في ذكر الصفتين الكريمتين : العزيز الحميد أنها مبدءان لما سيورد في السورة من الكلام الموجه إليهم فإن عمدة الكلام في السورة هي تذكيرهم أن الله أنعم عليهم برؤوبيته كل نعمته عظيمة ، ثم عزم عليهم من طريق رسله أن يشكروه ولا يكفروه ووعد رسله أنهم إن آمنوا أدخلهم الجنة ، وإن كفروا انتقم منهم وأوردهم مورد الشقاء والعذاب ، فليخافوا ربهم وليحذروا مخالفة أمره وكفران نعمته لأن له كل العزة لا يمنع عن حلول سخطه بهم ونزول عذابه عليهم شيء ، حميد لا يذم في إثابته المؤمنين ، ولا في تعذيب الكافرين ، كما لا يذم فيما بسط عليهم من نعمه التي لا تحصى .

فجّل الكلام في هذه السورة فيما يقتضيه الصفات الثلاث : توحيده تعالى بالربوبية وعزته وكونه حميداً في أفعاله فليخف من عزته المطلقة ، وليشكر وليوثق بما وعد وليتذكر من آيات ربوبيته .

وفي روح المعاني عن أبي حيان : النكتة في ذلك أنه لما ذكر قبل إنزاله تعالى لهذا الكتاب وإخراج الناس من الظلمات إلى النور بإذن ربهم ، ناسب ذكر هاتين الصفتين صفة العزة المتضمنة للقدرة والغلبة لإنزاله مثل هذا الكتاب المعجز الذي لا

يقدر عليه سواء ، وصفة الحمد لإنعامه بأعظم النعم لإخراج الناس من الظلمات إلى النور . قال : ووجه التقديم والتأخير على هذا ظاهر انتهى .

وهو أجني عن سياق آيات السورة البتة ولعله مأخوذ من قوله تعالى في وصف القرآن : « وإنه لكتاب عزيز لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد » حم السجدة : ٤٢ ، لكن المقام غير المقام .

وعن الإمام في تفسيره : إنما قدم ذكر العزيز على ذكر الحميد لأن الصحيح أن أول العلم بالله تعالى العلم بكونه قادراً ثم بعد ذلك العلم بكونه عالماً ثم بعد ذلك العلم بكونه غنياً عن الحاجات ، والعزيز هو القادر ، والحميد هو العالم الغني ، فلما كان العلم بكونه قادراً متقدماً على العلم بكونه عالماً بالكل غنياً عنه لا جرم قدم ذكر العزيز على ذكر الحميد . انتهى ، وهو مجازفة عجيبة .

وقريب منه في المجازفة قول بعضهم : قدم العزيز على الحميد اعتناء بأمر الصفات السلبية كما يؤذن به قولهم : التخلية أولى من التحلية فإن العزة - كما تقدم - من الصفات السلبية بخلاف الحميد . انتهى .

وربما قيل في وجه تخصيص الوصفين بالذكر أنه للترغيب في سلوك هذا الصراط لأنه صراط العزيز الحميد فيعز سالكه ويحمد سائله ، انتهى . وهو وجه الأخرى به أن يجعل من الفوائد المتفرعة دون السبب الموجب ، والوجه ما قدمناه .

« أما قوله : « الله الذي له ما في السموات والأرض » فبيان للعزيز الحميد ، والمراد بما في السموات والأرض كل ما في الكون فيشمل نفس السموات والأرض كما يشمل ما فيها ، فهو تعالى يملك كل شيء من كل جهة بحقيقة معنى الملك .

وفيه إشارة إلى الحجة في كونه تعالى عزيزاً حميداً ، فإنه تعالى وإن كان هو الذي يحق الحق بكلماته وهو الذي ينجح كل حجة في دلالتها ، لكنه جاري عباده في كلامه على ما فطرم عليه ، وذلك أنه تعالى لما ملك كل خلق وأمر بحقيقة معنى الملك فهو المالك لكل قهر وغلبة فلا قهر إلا منه ولا غلبة إلا له ، فهو تعالى عزيز وله أن

يتصرف في ما يشاء بما يشاء ولا يكون تصرفه إلا محموداً غير مذموم لأن التصرف إنما يكون مذموماً إذا كان المتصرف لا يملكه إما عقلاً أو شرعاً أو عرفاً ، وأي تصرف نسبه اليه تعالى عقل أو شرع أو عرف فإنه يملكه ، فهو تعالى حميد محمود الأفعال .

قوله تعالى : « وويل للكافرين من عذاب شديد » بيان لما تقتضيه صفة العزة من القهر لمن يردّ دعوته ويكفر بنعمته .

قوله تعالى : « الذين يستعجبون الحياة الدنيا على الآخرة ويصدّون عن سبيل الله ويبغونها عوجاً » الخ ، قال الراغب في المفردات : وقوله عز وجل : « إن استعجبوا الكفر على الإيمان » أي إن آثروه عليه ، وحقيقة الاستعجاب أن يتحرّى الإنسان في الشيء أن يحبه ، واقتضى تعدّيته بعلى معنى الإيثار ، وعلى هذا قوله تعالى : « وأما ثمود فهديناهم فاستعجبوا العمى على الهدى » ، انتهى .

ومعنى استعجاب الدنيا على الآخرة اختيار الدنيا وترك الآخرة رأساً ، ويقابله اختيار الآخرة على الدنيا بمعنى أخذ الآخرة غاية للسعي وجعل الدنيا مقدّمة لها يتوسل بها اليها ، وأما اختيار الآخرة وترك الدنيا من أصلها فإنه مضاف الى عدم إمكانه بحقيقة معنى الكلمة يوجب اختلال أمر الآخرة ، وينجرّ الى تركها بالآخرة ، فالحياة الدنيا حياة منقطعة والحياة الآخرة حياة دائمة يتوسل الى سعادتها من طريق الدنيا بالاكْتِسَاب ، فمن اختار الآخرة وأثبتها لزمه إثبات الدنيا لمكان مقدّمة ميّتها ، ومن اختار الدنيا وجعلها غاية لزمه نفي الآخرة من أصلها لأنها لو ثبتت ثبتت غاية وإذا لم يجعل غاية انتفت ، فليس بين يدي الإنسان إلا خصلتان : اختيار الآخرة على الدنيا يجعل الآخرة غاية وإثبات الدنيا معها للمقدّمية ، واختيار الدنيا على الآخرة يجعل الدنيا غاية ونفي الآخرة من أصلها .

وإيضاح المقام أن الإنسان لا بغية له إلا سعادة حياته وُحِبَّتْ لها فطريّة ، وقد أوضحنّا ذلك في مواضع متفرقة فيما تقدّم ، والذي يشبهه كتاب الله من أمر الحياة أنها دائمة غير منقطعة بالموت فلا حياة تنقسم بالنظر الى تحلّل الموت الى حياتين : الحياة الدنيا المؤجّلة بالموت والحياة الآخرة بعد الموت ، وهي تنفرع في سعادتها وشقاؤها على

الحياة الدنيا وما يكتسبه الإنسان في الدنيا من ناحية الأعمال الحيوية من حسنة أو سيئة ، ولا مفرّ للإنسان من هذه الأعمال لما عنده من حب الحياة الفطري .

وهذه الأعمال أعني السنة التي يستنّ بها الإنسان في حياته الدنيا الكاسية له التقوى أو الفجور والحسنة أو السيئة هي التي تسمّى في كتاب الله ديناً وسبيلاً ، فلا مفرّ للإنسان من سنة حسنة أو سيئة ودين حق أو باطل .

ولما كان من سنة الله سبحانه الجارية أن يهدي كل نوع من الأنواع الى سعادته وكمال ومن كمال الإنسان وسعاده أن يعيش عيشة اجتماعية ويستنّ بسنة حيوية ، شرع الله سبحانه له ديناً مبنياً على فطرته التي فطر عليها وهو سبيل الله الذي يسلكه ودينه الذي يتدين به ، فإن جرى على ما شرعته له الربوبية وهدته اليه الفطرة فقد سلك سبيل الله وابتغاه مستقيماً ، وإن اتّبع الهوى وصدّ نفسه عن سبيل الله واشتغل بما يزيّنه له الشيطان فقد ابتغى سبيل الله عوجاً منحرفاً .

أما أنه يبتغي سبيل الله فإن الله هو الذي فطره على طلب السبيل وابتغاء الصراط ولا يهدي البتة إلا الى ما يرتضيه وهو سبيل نفسه ، وأما أنه منحرف ذو عوج فلأنه لا يهدي الى الحق وماذا بعد الحق إلا الضلال ؟ والآيات القرآنية الدالة على هذا الذي قدّمناه متكاثرة لا حاجة الى إيرادها .

إذا عرفت هذا لاح لك أن قوله في تفسير الكافرين : « الذين يستحبّون الحياة الدنيا على الآخرة » مفاده أنهم يتعلّقون تمام التعلّق بالحياة الدنيا ويعرضون عن الآخرة بنفيها ، وهو الكفر بالمعاد المستلزم للكفر بالتوحيد والنبوة .

وقوله : « ويصدّون عن سبيل الله ويبغونها عوجاً » مفاده أنهم يكفّون أنفسهم عن الاستئنان بسنة الله والتدين بدينه أو يصدون ويصرفون الناس عن الإيمان بالله واليوم الآخر والتشرّع بشريعته عناداً منهم للحق ، ويطلبون سنة الله عوجاً ومنحرفة بالاستئنان بغيرها من سنة اجتماعية أي ما كانت ثم سجل عليهم الضلال بقوله سبحانه : « اذلك في ضلال بعيد » .

ويظهر بما تقدم فساد قول بعضهم : إن المراد بقوله : « يبغونها عوجاً » يبغون لها عوجاً أي يطلبون لها زيفاً واعوجاجاً حتى يعيبوها به ويصدوا الناس عنها بسببه .
وقول بعضهم : المعنى يطلبون أن يروا فيها عوجاً يكون قادحاً فيقدحوا فيها به .

وقول بعضهم : المعنى يطلبون لأهلها أن يموجوا وينحرفوا بالرد فهو المراد بطلبهم الدين منحرفاً ، والانحراف فساد ما عند المؤمنين من معارفه ، وفساد هذه الأقوال ظاهر .

قوله تعالى : وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبين لهم ، إلى آخر الآية .
اللسان هو اللغة ، قال تعالى : « بلسان عربي مبين » الشعراء : ١٩٥ .

والضمير في « قومه » عائد إلى « رسول » وفي « لهم » إلى « قومه » والحصل ما أرسلنا من رسول إلا بلسان قوم ذلك الرسول ليبين لقومه ، ومن الخطأ إرجاع ضمير قومه إلى النبي ﷺ ليفيد أن الله سبحانه كان يوحى إلى جميع الرسل بالعربية لفساد المعنى بذلك لرجوع ضمير « لهم » إلى « قومه » فيفيد أن الله أنزل التوراة لموسى مثلاً بالعربية ليبين للعرب كما في الكشف .

والمراد بإرسال الرسول بلسان قومه إرساله بلسان القوم الذين كان يعيش فيهم ويخالطهم ويعاشرهم وليس المراد به الإرسال بلسان القوم الذين هو منهم نسباً لأنه سبحانه يصرح بمهاجرة لوط عليه السلام من كلدان وهم سريانية اللسان إلى المؤتفكات ، وهم عبرانيون وسمّاهم قومه وأرسله إليهم ثم أنجاه وأهله إلا امرأته وهي منهم وأهلكهم قال تعالى : « فأمن له لوط وقال إني مهاجر إلى ربي » العنكبوت : ٢٦ وفي مواضع من كلامه تعالى « قوم لوط » .

وأما من أرسل إلى أزيد من أمة وهم أولوا العزم من الرسل فمن الدليل على أنهم كانوا يدعون أقواماً من غير أهل لسانهم ما حكاه الله من دعوة إبراهيم عليه السلام عرب الحجاز إلى الحج ، ودعوة موسى عليه السلام فرعون وقومه إلى الإيمان وعموم دعوة

النبي ﷺ وقد اشتمل القرآن على دعوة اليهود والنصارى وغيرهم وقبول إيمان من آمن منهم بالنبي ﷺ وكذا ما يستفاد من عموم دعوة نوح عليه السلام . وعلى هذا فالمراد بقوله : « وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبين لهم » - والله أعلم - أن الله لم يبن إرسال الرسل والدعوة الدينية على أساس معجز خارق للعادة الجارية ولا فوّض إلى رسله من الأمر شيئاً بل أرسلهم باللسان العادي الذي كانوا يكالمون قومهم ويحاورونهم به ليبينوا لهم مقاصد الوحي فليس لهم إلا البيان ، وأما ما وراء ذلك من الهداية والإضلال فإلى الله سبحانه لا يشاركه في ذلك رسول ولا غيره .

فتعود الآية كالبيان والإيضاح لقوله تعالى قبل : « كتاب أنزلناه إليك لتخرج الناس من الظلمات إلى النور بإذن ربهم » وأن معنى إخراجك الناس من الظلمات إلى النور أن تبين لهم ما أنزل الله لا أزيد من ذلك فيكون في معنى قوله : « وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم » النحل : ٤٤ .

وأما قوله : « فيضل الله من يشاء ويهدي من يشاء » فإشارة إلى ما أومأنا إليه أن أمر الهدى والضلال إلى الله لا يتحقق شيء منها إلا عن مشيئة منه تعالى غير أنه سبحانه أخبرنا أن هذه المشيئة منه ليست جزافية غير منتظمة بل لها نظم ثابت فمن اتبع الحق ولم يعاند هداة الله ، ومن جاحده واتبع هواه أضله الله فهو إضلال مجازاة غير الإضلال الابتدائي المذموم .

وقد قدم سبحانه الإضلال على الهداية إذ قال : « فيضل الله من يشاء ويهدي من يشاء » لأن ذلك أحوج إلى البيان بالنظر إلى أن الكلام مبني على عزته المطلقة فكان من الواجب أن يبين أن ضلال من يضل عن السبيل كهدي من اهتدى إليها إنما هو بمشيئة منه تعالى ولم يغلب في إرادته ولم يزاحم في ملكه حتى لا يخيّل إلى كل مفغل من الناس أن الله يصف نفسه بالعزة المطلقة وأنه غالب غير مغلوب وقاهر غير مقهور ثم يدعو الناس فلا يستجيبون دعوته ويأمرهم وينهاهم فيمعصون ولا بطيعون وهل هذا إلا غلبة منهم وقهر وهو مغلوب مقهور ؟

فكأنه تعالى أجاب عن ذلك بأن معنى دعوته تعالى أن يرسل رسولا بلسان

قومه فيبين لهم ما يسعدهم مما يشقيهم ، وأما ضلال من ضلّ من الناس كهدي من اهتدى منهم فبمشيئة من الله وإذنه ، وحاشاه أن يقهر في سلطانه أو يتصرف في ملكه أحد بغير إذنه .

فضلال من ضلّ منهم دليل عزته فضلا أن يكون ناقضا لها كما أن هدى من اهتدى كذلك ، ولذلك ذيل الكلام بقوله : « وهو العزيز الحكيم » فهو سبحانه عزيز لا يغلبه ولا يضره ضلال من ضل منهم ، ولا ينفعه هدى من اهتدى حكيم لا يشاء ما شاء جزافا وعبثا بل عن نظام متقن دائم .

بقوله تعالى : « ولقد أرسلنا موسى بآياتنا أن أخرج قومك من الظلمات إلى النور » إلى آخر الآية ، إذ كان الكلام في السورة مبنيا على الإنذار والتذكير بعزة الله سبحانه ناسب أن يذكر إرسال موسى بالآيات لهداية قومه فإن قصة رسالته من أوضح مصاديق ظهور العزة الإلهية من بين الرسل ، وقد قال تعالى فيه : « ولقد أرسلنا موسى بآياتنا وسلطان مبين » المؤمن : ٢٣ ، وقال حاكيا عنه عليه السلام : « وأن لا تعلوا على الله إني آتيكم بسلطان مبين » الدخان : ١٩ .

فوزان الآية أعني قوله : « ولقد أرسلنا موسى بآياتنا أن أخرج قومك من الظلمات إلى النور » ، من قوله : « كتاب أنزلناه إليك لتخرج الناس من الظلمات إلى النور بإذن ربهم » وزات التنظير بداعي التأييد وتطويب النفس كما في قوله : « إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح والنبيين من بعده » النساء ، ١٦٣ .

وأما ما ذكر بعضهم أن الآية شروع في تفصيل ما أجل في قوله : « وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبين لهم » فبعيد كل البعد . ونظيره في البعد قول بعضهم : إن المراد بالآيات التي أرسل بها موسى آيات التوراة دون المعجزات التي أرسل بها كالشعبان واليد البيضاء وغيرهما .

على أن الله سبحانه وتعالى لم يعد في كلامه التوراة من آيات رسالة موسى ولا ذكر أنه أرسله بها قط وإنما ذكر أنه أنزلها عليه وآتاه إياها .

ولم يقيد قوله: « أن أخرج قومك » - الخ - بالإذن كما قيد به قوله للنبي ﷺ « لتخرج الناس » الخ لأن قوله هنا: « أخرج قومك » أمر يتضمن معنى الإذن بخلاف قوله هناك: « لتخرج الناس » .

وقوله: « وذكرهم بأيام الله » لا شك أن المراد بها أيام خاصة ، ونسبة أيام خاصة إلى الله سبحانه مع كون جميع الأيام وكل الأشياء له تعالى ليست إلا لظهور أمره تعالى فيها ظهوراً لا يبقى معه لغيره ظهور ، فهي الأزمنة والظروف التي ظهرت أو سيظهر فيها أمره تعالى وآيات وحدانيته وسلطنته كيوم الموت الذي يظهر فيه سلطان الآخرة وتسقط فيه الأسباب الدنيوية عن التأثير ، ويوم القيامة الذي لا يملك فيه نفس لنفس شيئاً والأمر يومئذ لله ، وكالأيام التي أهلك الله فيها قوم نوح وعساد وثمود فإن هذه وأمثالها أيام ظهر فيها الغلبة والقهر الإلهيان وأن العزة لله جميعاً .

ويمكن أن يكون منها أيام ظهرت فيها النعم الإلهية ظهوراً ليس فيه لغيره تعالى صنع كيوم خروج نوح ﷺ وأصحابه من السفينة بسلام من الله وبركات ويوم إنجاء إبراهيم من النار وغيرهما فإنها أيضاً كسوابقها لا نسبة لها في الحقيقة إلى غيره تعالى فهي أيام الله منسوبة إليه كما ينسب الأيام إلى الأمم والأقوام ومنه أيام العرب كيوم ذي قار ويوم فجار ويوم بغاث وغير ذلك .

وتخصيص بعضهم الأيام بنعماء الله سبحانه بالنظر إلى ما سيأتي من ذكر نعمة تعالى كتخصيص آخرين لها بنقماته تعالى خال عن الوجه بعدما كان الكلام جارياً في السورة على ما تقتضيه عزته تعالى ، ومن مقتضى صفة عزته الإنعام على العباد والأخذ الشديد إن كفروا بنعمته .

ثم تسم الكلام بقوله: « إن في ذلك لآيات لكل صبار شكور » أي كثير الصبر عند الضرر وكثير الشكر على النعماء .

(بحث روائي)

في الدر المنثور أخرج أحمد عن أبي ذر قال : قال رسول الله ﷺ : لم يبعث الله نبياً إلا بلسان قومه .

وفيه أخرج النسائي وعبد الله بن أحمد في زوائد المسند وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه والبيهقي في شعب الإيمان عن أبي كعب عن النبي ﷺ في قوله : « وذكّرتهم بأيام الله » قال : بنعم الله وآلائه .

أقول : وهو بيان بعض المصاديق ، وروى ما في معناه الطبرسي والعميشي عن الصادق عليه السلام .

وفي أمالي الشيخ بإسناده عن عبد الله بن عباس وجابر بن عبد الله في حديث طويل عن النبي ﷺ : أيام الله نعماءه وبلاؤه وهو مثلاته سبحانه .

وفي تفسير القمي قال : قال أيام الله ثلاثة : يوم القائم ويوم الموت ويوم القيامة .
أقول : المراد بيان أيامه تعالى العظيمة لا حصر مطلق أيامه .

وفي المعاني بإسناده عن مثنى الحنطاط عن أبي جعفر وأبي عبد الله عليها السلام قال : أيام الله ثلاثة : يوم يقوم القائم ويوم الكرّة ويوم القيامة .

أقول : وهي كسابقتهما واختلاف الروايات في تعداد المصاديق يؤيد ما قدمناه في بيان الآية .

* * *

وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ أَذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنْجَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ

وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ — ٦ . وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ — ٧ . وَقَالَ مُوسَى إِنَّ تَكْفُرُوا أَنْتُمْ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ — ٨ . أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبُوءُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ قَوْمَ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ — ٩ . قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى قَالُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا تُرِيدُونَ أَنْ تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأَتُونَا بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ — ١٠ . قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِنْ نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَمَا كَانَ لَنَا أَنْ نَأْتِيَكُمْ بِسُلْطَانٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ — ١١ . وَمَا لَنَا أَلَّا تَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا وَلَنْصَبِرَنَّ عَلَىٰ مَا آذَيْتُمُونَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ — ١٢ . وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ — ١٣ . وَلَنُسَكِّنَنَّكُمْ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ ذَلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدٍ — ١٤ .

وَأَسْتَفْتَحُوا وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ - ١٥ . مِنْ وَرَائِهِ جَهَنَّمُ وَيُسْقَى
 مِنْ مَّاءٍ صَدِيدٍ - ١٦ . يَتَجَرَّعُهُ وَلَا يَكَاذُ يُسِغُهُ وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِنْ
 كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ وَمِنْ وَرَائِهِ عَذَابٌ غَلِيظٌ - ١٧ . مَثَلُ
 الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ
 لَا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَى شَيْءٍ ذَلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ - ١٨ .

(بيان)

الآيات تشتمل على ذكر نبذة من نعم الله ونقمه في أيامه ، وظاهر سياق
 الآيات أنها من كلام موسى عليه السلام غير قوله تعالى : « وإذ تأذن ربكم ، الآية فهي
 حكاية قول موسى يذكر فيها قومه ببعض أيام الله سبحانه على ما يقتضيه عزته المطلقة
 من إنزال النعم والنقم ، ووضع كل في موضعه الذي يليق به حسب ما اقتضته
 حكمته البالغة .

قوله تعالى : « وإذ قال موسى لقومه اذكروا نعمة الله عليكم ، إلى آخر الآية ،
 السوم على ما ذكره الراغب بمعنى الذهاب في ابتغاء الشيء فهو لفظ لمعنى يتركب من
 الذهاب والابتغاء فكأنه في الآية بمعنى إذاقة العذاب ، والاستحياء استبقاء الحياة .

والمعنى واذكر أيها الرسول لزيادة التثبيت في أن الله عزيز حميد إذ قال موسى
 لقومه وهم بنو إسرائيل : اذكروا نعمة الله عليكم يوم أنجاكم من آل فرعون وخاصة
 من القبط والحال أنهم مستعمرون على إذاقتكم سوء العذاب ويكثرون ذبح الذكور من
 أولادكم وعلى استبقاء حياة نسائكم للاسترقاق ، وفي ذلكم بلاء وعنة من
 ربكم عظيم .

قوله تعالى : « وإذ تأذن ربكم لئن شكرتم لأزيدنكم ولئن كفرتم إن عذابي لشديد » قال في الجمع : التأذن الإعلام يقال : آذن وتأذن ومثله أوعد وتوعد . انتهى .

وقوله : « وإذ تأذن ربكم » الخ معطوف على قوله : « وإذ قال موسى لقومه » وموقع الآية التالية : « وقال موسى » الخ ، من هذه الآية كموقع قوله : « ولقد أرسلنا موسى » الخ ، من قوله : « كتاب أنزلناه إليك لتخرج الناس من الظلمات إلى النور » الخ ، فافهم ذلك فهو الأنسب بسياق كلامه تعالى .

وذكر بعضهم أنه داخل في مقول موسى وليس بكلام مبتدئ وعليه فهو معطوف على قوله : « نعمة الله عليكم » والتقدير : اذكروا نعمة الله عليكم واذكروا إذ تأذن ربكم الخ ، وفيه أنه لو كان كذلك لكان الأنسب أن يقال : اذكروا إذ أنجاكم فأنعم عليكم وإذ تأذن ربكم الخ ، لما فيه من رعاية حكم الترتيب .

وقيل : إنه معطوف على قوله : « إذ أنجاكم » والمعنى اذكروا نعمة الله عليكم إذ تأذن ربكم ، فإن هذا التأذن نفسه نعمة لما فيه من الترغيب والترهيب الباعثين إلى نيل خير الدنيا والآخرة . مركز تحقيق كتاب توبه عنون

وفيه أن هذا التأذن ليس إلا نعمة للشاكرين منهم خاصة وأما غيرهم فهو تقمة عليهم وخسارة فنظمه في سلك ما تقدمه من غير تقييد أو استثناء ليس على ما ينبغي .

فالظاهر أنه كلام مبتدأ وقد بين تعالى هذه الحقيقة أعني كون الشكر - الذي حقيقته استعمال النعمة بنحو يذكر إنعام المنعم ويظهر إحسانه ويؤول في مورده تعالى إلى الإيمان به والتقوى - موجباً لمزيد النعمة والكفر لشديد العذاب ، في مواضع من كلامه ، وقد حكى عن نوح فيما ناجى ربه ودعا على قومه : « فقلت استغفروا ربكم إنه كان غفاراً يرسل السماء عليكم مدراراً ويمددكم بأموال وبنين » الخ نوح : ١٢ .

ومن لطيف كرمه تعالى اللائح من الآية - كما ذكره بعضهم - اشتغالها على التصريح بالوعد والتعريض في الوعيد حيث قال : « لأزيدنكم » وقال : « إن عذابي لشديد » ولم يقل : لا عذبناكم وذلك من دأب الكرام في وعدهم ووعيدهم غالباً .

والآية مطلقة لا دليل على اختصاص ما فيها من الوعد والوعيد بالدنيا ولا بالآخرة، وتأثير الإيمان والكفر والتقوى والفسق في شؤون الحياة الدنيا والآخرة معاً معلوم من القرآن .

وقد استدلل بالآية على وجوب شكر المنعم ، والحق أن الآية لا تدل على أزيد من أن الكافر على خطر من كفره فإن الله سبحانه لم يصرح بفعلية العذاب على كل كفر إذ قال : « ولئن كفرتم إن عذابي لشديد » ولم يقل : لا عذبكم .

قوله تعالى : « وقال موسى إن تكفروا أنتم ومن في الأرض جميعاً فإن الله لغني حميد » لما أمر تعالى بشكر نعمه بذكر ما تآذن به من الزيادة على الشكر والعذاب على الكفر على ما تقتضيه العزة المطلقة ذكر في تأييده من كلام موسى عليه السلام ما يجري مجرى التنظير فقال : « وقال موسى » والكلام جارٍ على هذا النمط الى تمام عشر آيات .

وأما أن الله غني وإن كفر من في الأرض جميعاً فإنه غني بالذات عن كل شيء فلا ينتفع بشكر ولا يتضرر بكفر ، وإنما يعود النفع والضرر الى الإنسان فيما أتى به ، وأما أنه حميد فلأن الحمد هو إظهار الحامد بلسانه ما لفعل المحمود من الجمال والحسن وفعله تعالى حسن جميل من كل جهة فهو جميل ظاهر الجمال ينتفع خفاؤه وإخفاؤه ، فهو تعالى محمود سواء حمده حامد باللسان أو لم يحمد .

على أن كل شيء يحمده بتمام وجوده حتى الكافر بنعمته كما قال تعالى : « وإن من شيء إلا يسبح بحمده » الإسراء : ٤٤ ، فهو تعالى محمود سواء حمده الناس بالسنتهم أو لم يحمدوه ، وله كل الحمد سواء قصد به هو أو قصد به غيره .

قوله تعالى : « ألم يأتكم نبيؤ الذين من قبلكم قوم نوح وعاد وثمود » الى آخر الآية . من كلام موسى عليه السلام يذكر قومه من أيام الله في الامم الماضين ممن فنيت أشخاصهم وخذت أنفاسهم وعفت آثارهم وانقطعت أخبارهم فلا يعلمهم بحقيقة حالهم تفصيلاً إلا الله كقوم نوح وعاد وثمود والذين من بعدهم .

ومن هنا يعلم أولاً : أن المراد بالنبأ ، في قوله : « ألم يأتكم نبيؤ الذين من قبلكم »

خبر هلاكهم وانقراضهم ، فإن النبأ هو الخبر الذي يعتنى بأمره فلا ينافي ما يتعقبه من قوله : « لا يعلمهم إلا الله » .

وثانياً : أن قوله : « قوم نوح وعاد وثمود » ، من قبيل ذكر الأمثلة ، وأن قوله : « لا يعلمهم إلا الله » بيان لقوله : « من قبلكم » والمراد بعدم العلم بهم لغير الله الجهل بحقيقة حالهم وعدم الإحاطة بتفاصيل تاريخ حياتهم .

ومن الممكن أن يكون قوله : « لا يعلمهم إلا الله » اعتراضاً وإن كان ما ذكرناه أنسب للسياق ، وأما احتمال أن يكون خبراً لقوله : « والذين من بعدهم » كما ذكره بعضهم فسخافته ظاهرة ، وأسخف منه تجويز بعضهم أن يكون حالاً من ضمير من بعدهم وكون قوله : « جاءتهم رُسُلهم » خبراً لقوله : « والذين من بعدهم » .

وقوله : « جاءتهم رُسُلهم بالبينات فردوا أيديهم في أفواههم » الظاهر أن المراد به أن رُسُلهم جاؤوهم بحجج بيّنة تبين الحق وتجليه من غير أي إيهام وريب فمنعواهم أن يتفوهوا بالحق وسدوا عليهم طريق التكلم .

فالضميران في « أيديهم » و « أفواههم » للرسل ، ورد أيديهم في أفواههم كناية عن إجبارهم على أن يسكتوا ويكفوا عن التكلم بالحق كأنهم أخذوا بأيدي رُسُلهم وردوها في أفواههم إيداناً بأن من الواجب عليهم أن تكفوا عن الكلام ، ويؤيده قوله بعد : « وقالوا إنا كفرنا بما أرسلتم به وإنا لفي شك مما تدعونا إليه مريب » فإن دعوى الشك والريب قبال الحجة البيّنة والحق الصريح الذي لا يبقى مجالاً للشك لا تتحقق إلا من جاحد مكابر متعكم مجازف لا يستطيع أن يسمع كلمة الحق فيجبر قائلها على السكوت والصمت .

وللقوم في معنى الآية أقوال آخر :

منها قول بعضهم المعنى أن الكفار ردوا أيديهم في أفواه الرسل تكذيباً لهم ورداً لما جاؤوا به ، فالضمير الأول للكفار والثاني للرسل ، وفيه أنه مستلزم لاختلاف مرجع الضميرين من غير قرينة ظاهرة .

ومنها: أن المراد أن الكفار وضعوا أيديهم على أفواه أنفسهم مومنين به إلى الرسل أن اسكتوا كما يفعله الواحد من الناس مع غيره إذا أراد إسكاته ، فالضميران معاً للكفار .

ومنها: أن المعنى عضثوا أصابعهم من شدة الغيظ من استماع دعوة الرسل ، فالضميران للكفار كما في الوجه السابق وفيه أنه كناية بعيدة غير مفهومة من اللفظ .

ومنها: أن المراد بالأيدي الحجج وهي إما جمع اليد بمعنى الجارحة لكون الحججة بمنزلة اليد التي بها البطش والدفع ، وإما جمع اليد بمعنى النعمة لكون حجج الرسل نعماً منهم على الناس والمعنى أنهم ردوا حجج الرسل إلى أفواههم التي خرجت منها .

وقريب من هذا الوجه قول بعضهم: إن المراد بالأيدي نعم الرسل وهي أوامرهم ونواهيهم والضميران أيضاً للرسل ، والمعنى أنهم كذبوا الرسل في أوامرهم ونواهيهم .

وقريب منه أيضاً قول آخرين: إن المراد بالأيدي النعم ، وضمير « أيديهم » للرسل ، و « في » في قوله « في أفواههم » بمعنى الباء والضمير للكفار والمعنى كذب الكفار بأفواههم نعم الرسل وهي حججهم .

وأنت خبير بأن هذه معانٍ بعيدة عن الفهم يحلّ كلامه تعالى أن يحمل عليها وعلى أمثالها .

وأما قوله : « وقالوا إنا كفرنا بما أرسلتم به وإنا لفي شك مما تدعونا إليه مريب » فهو نحو بيان لقوله : « فردوا أيديهم في أفواههم » والجملة الأولى أعني قولهم : « إنا كفرنا بما أرسلتم به » إنكار للشريعة الإلهية التي هي متن الرسالة ، والجملة الثانية أعني قولهم : « وإنا لفي شك » الخ ... إنكار لما جاؤوا به من الحجج والبيّنات وإظهار ريب فيما كانوا يدعون إليه وهو توحيد الربوبية .

قوله تعالى : « قالت رسلهم أفي الله شك فاطر السماوات والأرض يدعوكم ليعفركم من ذنوبكم ويؤخركم إلى أجل مسمى » أصل الفطر على ما ذكره الراغب الشقّ طولاً يقال : فطرت الشيء فطراً أي شققته طولاً ، وأفطر الشيء فطوراً وانفطر

انفطاراً أي قبل الفطر ، واستعمل في القرآن فيما انتسب إليه تعالى بمعنى الإيجاد بنوع من العناية كأنه تعالى شق عدم شقاً فأظهر من بطنه الأشياء فهي ظاهرة ما أمسك هو تعالى على شقي عدم موجودة ما كان ممسكاً لها ولو ترك الإمساك لانعدمت وزالت كما قال تعالى : « إن الله يمسك السماوات والأرض أن تزولا ولئن زالتا إن أمسكها من أحد من بعده » فاطر : ٤١ .

وعلى هذا فتفسير الفطر بالخلق الذي هو جمع الأجزاء والأبعاد كما وقع في بعض العبارات ليس على ما ينبغي ، ويؤيد ذلك أن الفطر لو كان بمعنى الخلق لكان البرهان الذي أشير إليه بقوله : « فاطر السماوات والأرض » مسوقاً لإثبات وجود الخالق فكان أجنبياً عن المقام لأن الوثنية لا تنكر وجود خالق للعالم وأنه هو الله عز اسمه لا غير ، وإنما ينكرون توحيد الربوبية والعبادة وهو أن يكون الله سبحانه هو الرب المعبود لا غير ، والبرهان على كونه تعالى خالقاً للسماوات والأرض لا ينفع فيه شيئاً .

وكيف كان فقوله : « قالت رسلهم أفي الله شك » الخ ، كلام قوبل به قولهم : « وقالوا إنا كفرنا بما أرسلتم به وإنا لنفي شك مما تدعوننا إليه مريب » وقد عرفت أن قولهم هذا يتضمن إنكارين : إنكارهم للرسالة وتشكيكهم في توحيد الربوبية فكلام الرسل المورد جواباً منهم عن قولهم بالمقابلة متضمن لجزمين .

فقولهم : « أفي الله شك فاطر السماوات والأرض » برهان على توحيد الربوبية إذ لو سيق لمجرد الإنكار على الكفار من غير إشارة إلى برهان لم يكن حاجة إلى ذكر الوصف « فاطر السماوات والأرض » ، ففي ذكره دلالة على أنه مزيل كل شك وريب عنه تعالى .

وذلك أنا نرى في أول ما نمقل أن لهذا العالم المشهود الذي هو مؤلف من أشياء كثيرة كل واحد منها محدود في نفسه متميز من غيره وجوداً ، وليس وجوده ولا وجود شيء من أجزائه من نفسه وقائماً بذاته وإلا لم يتغير ولم يعدم فوجوده ووجود أجزائه وكذا كل ما يرجع إلى الوجود من الصفات والآثار من غيرها ولغيرها وهذا الغير هو الذي نسميه « الله » عز اسمه .

فهو تعالى الذي يوجد العالم وكل جزء من أجزائه ويحده ويميزه من غيره فهو في نفسه موجود غير محدود وإلا لاحتاج إلى آخر يحده فهو تعالى واحد لا يقبل الكثرة لأن ما لا يحدد لا يقبل الكثرة .

وهو بوحده يدبر كل أمر كما أنه يوجد لأنه هو المالك لوجودها والكل أمر يرجع إلى وجودها ، ولا يشاركه غيره في شيء لأن شيئاً من الموجودات غيره لا يملك لنفسه ولا لغيره فهو تعالى رب كل شيء لا رب غيره ، كما أنه موجود كل شيء لا موجود غيره .

وهذا برهان تام سهل التناول حتى للأفهام البسيطة يناله الإنسان الذي يدعن بفطرته أن للعالم المشهود حقيقته وواقعية من غير أن يكون وهماً مجرداً كما يبديه السفسطة والشك ، ويثبت به توحيد الألوهية والربوبية ، ولذلك تمسك به في هذا المقام الذي هو مقام خصام الوثنية .

ومن هنا يظهر فساد زعم من زعم أن قوله : « أفي الله شك فاطر السماوات والأرض » حجة مسوقة لإثبات خالق للعالم ، وكذا قول من قال : إنه دليل اتصال التدبير لتوحيد الربوبية بل هو برهان عليه تعالى من جهة قيام وجود كل شيء وآثار وجوده به من كل جهة فينتج توحده في الربوبية ويزول به ما أيدوه من الشك بقولهم : « وإنا لفي شك مما تدعونا إليه مريب » (١) .

ثم قولهم : « يدعوك ليغفر لكم من ذنوبكم ويؤخركم إلى أجل مسمى » إشارة إلى برهان النبوة التي أنكروها بقولهم : « إنا كفرنا بما أرسلتم به » يريدون به دين الرسل والشريعة السماوية بالوحي .

وبيانه أن من سنته تعالى الجارية هداية كل شيء إلى كماله وسعاده النوعية ، والإنسان أحد هذه الأنواع المشمولة للهداية الإلهية فمن الواجب في العناية الإلهية

(١) فهو قريب من مضمون قوله تعالى : « قل أفأنخذتم من أمره أرباء لا يملكون لأنفسهم نفعا ولا ضرراً » الرعد : ١٧ وقد تقدم .

أن يهتدي إلى سعادة حياته . ولكن له حياة خالدة غير محدودة بالدنيا ولا منقطعة بالموت ، وسعاده في الحياة أن يعيش في الدنيا عيشة مطمئنة على أساس تعديل قواه في التمتع من أمتعة الحياة من مأكول ومشروب ولباس ونكاح وغير ذلك وهي الأعمال الصالحة ، وفي الآخرة أن يعيش على ما اكتسبه من الاعتقاد الحق والعمل الصالح .

وهو وإن كان مجهزاً بفطرة تذكره حق الاعتقاد وصالح العمل لكنه مجبول من جهة أخرى على العيشة الاجتماعية التي تدعوه إلى اتباع الأهواء والظلم والفسق ، فمجرد ذكرى الفطرة لا يكفي في حمله على سنة حقّة عادلة تحصل له الاستقامة في الاعتقاد والعمل ، وإلا لم يفسد المجتمع الإنساني ولا واحد من أجزائه قط وهم مجهزون بالفطرة .

فمن الواجب في العناية أن يمد النوع الإنساني مع ما له من الفطرة الداعية إلى الصلاح والسعادة بأمر آخر تتلقى به الهداية الإلهية وهو النبوة التي هي موقف إنساني طاهر ينكشف له عنده الاعتقاد الحق والعمل الصالح بوحى إلهي وتكليم غيبي يضمن اتباعه سعادة الفرد والمجتمع في الدنيا والآخرة .

أما سعادة الدنيا فلما تقدم كراراً أن بين المعاصي والمظالم وبين النكال والعقوبة الإلهية التي تنتهي إلى الهلاك ملازمة فلو لم يفسد المجتمع وداموا على الصلاح الفطري لم يختار منهم الهلاك ولم يفاجئهم النكال وعاشوا مساقدر لهم من الآجال الطبيعية . والعيشة المغبوظة .

وأما سعادة الآخرة فلأن اتباع الدعوة الإلهية وبعبارة أخرى الإيمان والتقوى يحليان النفس بالهيئة الصالحة ويذهبان بدران النفس الذي هو الذنوب بمقدار الاتباع .

فربوبيته تعالى لكل شيء المستوجبة لتدبيرها أحسن تدبير وهدايته كل نوع إلى غايته السعيدة تستدعي أن تعني بالناس بإرسال رسل منهم إليهم ودعوته الناس بلسان رسله إلى الإيمان والعمل الصالح ليم بذلك سعادتهم في الدنيا والآخرة ، أما في

الدنيا فبالتخلص عن النكال والعقوبة القاضية عليهم ، وأما في الآخرة فبالمغفرة الإلهية بمقدار ما تلبسوا به من الإيمان والعمل الصالح .

إذا عرفت ما ذكرناه بأن لك أن قوله تعالى حاكياً عن الرسل : « يدعوك ليغفر لكم من ذنوبكم ويؤخركم إلى أجل مسمى » إشارة منهم عليهم السلام إلى حجة النبوة العامة ، وأن قوله : « ليغفر لكم » الخ ، إشارة إلى غاية الدعوة الآخروية وقوله : « ويؤخركم » الخ إشارة إلى غايتها الدنيوية ، وقدم ما للآخرة على ما للدنيا لأن الآخرة هي المقصودة بالذات وهي دار القرار .

وقد نسبوا الدعوة في كلامهم إلى الله سبحانه للتنبيه لما هو الحق تجاه قول الكفار « تدعوننا إليه » حيث نسبوها إلى الرسل ، وقوله : « من ذنوبكم » ظاهر في التبعيض ، ولعله للدلالة على أن المغفرة على قدر الطاعة ، والمجتمع الإنساني لا يخلو عن المعصية المستوجبة المؤاخذه البتة ، فالمغفور على أي حال بعض ذنوب المجتمع لا جميعها فافهم ذلك .

وربما ذكر بعضهم أن المراد به أنه يتعقر حقوق الله لا حقوق الناس ، ورد بأنه صح عن النبي ﷺ أن الإسلام يجب ما قبله .

وربما قيل : إن « من » زائدة وايد بقوله تعالى في موضع آخر : « يغفر لكم ذنوبكم » بدون من . وفيه أن من إنما يزداد في النفي دون الإثبات كقولهم : ما جاءني من رجل وتدخل على النكرة دون المعرفة كما قيل . على أن مورد الآيتين مختلف فإن قوله : « يغفر لكم ذنوبكم » الظاهر في مغفرة الجميع إنما هو في مورد الإيمان والجهاد وهو قوله : « تؤمنون بالله ورسوله وتجاهدون في سبيل الله بأموالكم وأنفسكم » - إلى أن قال - يغفر لكم ذنوبكم « الصف : ١٢ » والذي حكاه الله عن نوح عليه السلام في مثل المقام وهو أول هؤلاء الرسل المذكورين في الآية قوله : « أن أعبدوا الله واتقوه وأطيعون يغفر لكم من ذنوبكم ويؤخركم إلى أجل مسمى » نوح : ٤ ، وهو يوافق الآية التي نحن فيها فالتبعيض لا مفر منه ظاهراً .

ومما قيل في توجيه الآية أن المراد بالبعض الكل توسعاً ، ومن ذلك أن المراد

مغفرة ما قبل الإيمان من الذنوب وأما ما بعد ذلك فمuskوت عنه ، ومن ذلك أن المراد مغفرة الكبائر وهي بعض الذنوب الى غير ذلك ، وهذه وجوه ضعيفة لا يعبؤ بها .

وقال الزمخشري في الكشاف : فإن قلت : ما معنى التبعض في قوله : « من ذنوبكم » ؟ قلت : ما علمته جاء هكذا إلا في خطاب الكافرين بقوله : « واتقوه وأطيعون يغفر لكم ذنوبكم » « يا قومنا أجيئوا داعي الله وآمنوا به يغفر لكم من ذنوبكم » ، وقال في خطاب المؤمنين : « هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم - الى أن قال - يغفر لكم ذنوبكم » وغير ذلك مما يقفك عليه الاستقراء ، وكان ذلك للفرقة بين الخطابين ، ولثلا يسوتى بين الفريقين في الميعاد . انتهى .

وكان مراده أن المغفور من الذنوب في الفريقين واحد وهو جميع الذنوب ، إلا أن تشريف مقام الإيمان أوجب أن يصرح في المؤمنين بمغفرة الجميع ، ويقتصر في وعد الكفار على مغفرة البعض والسكوت عن الباقي ، ومغفرة بعضها لا تنافي مغفرة البعض الآخر ، فليكن هذا مراده وإلا فمجرد التفرقة بين الخطابين لا ينتج ارتكاب مخالفة الواقع بتاتا .

مركز تحقيق كتاب تيسر علوم إسلامي

وقوله : « ويؤخركم الى أجل مسمى » أي لا يماجلكم بالعقوبة والهلاك ويؤخركم الى الأجل الذي لا يؤخر وقد سماه لكم ولا يبدل القول لديه ، وقد تقدم في تفسير أول سورة الأنعام أن الأجل أجلان : أجل موقوف معلق ، وأجل مسمى لا يؤخر .

ومن الدليل على هذا الذي ذكرناه قول نوح لقومه في هذا المقام على ما حكاه الله سبحانه : « ويؤخركم الى أجل مسمى إن أجل الله اذا جاء لا يؤخر » نوح : ٤ .

قوله تعالى : « قالوا إن أنتم إلا بشر مثلنا تريدون أن تصدقونا عما كان يعبد آباؤنا فأتونا بسلطان مبين » قد تقدم في مباحث النبوة في الجزء الثاني من الكتاب أن الآية المعجزة حجة عامة على نبوة النبي لا حجة عامة وخاصة الوحي والنبوة التي هي نوع اتصال بالغيب أمر خارق للعادة الجارية بين أفراد الإنسان لا يجدونها من أنفسهم فعلى من يدعيها الإثبات ، ولا طريق الى إثباتها إلا بالإتيان بخارق عادة آخر

يدلُّ على صحة هذا الاتصال الغيبي لأن حكم الأمثال واحد ، وإذا جاز أن تخترق العادة بشيء جاز أن تخترق بما يماثله .

والرسل عليهم السلام لما احتجوا على كفار أممهم في النبوة العامة بقولهم : « يدعوكم ليفقر لكم من ذنوبكم ويؤخركم الى أجل مسمى » عادت الكفار اليهم بطلب الدليل منهم على ما يدعونونه من النبوة لأنفسهم معتذرين في ذلك بقولهم : « إن أنتم إلا بشر مثلنا » ، ثم صرّحوا بما يطلبونه من الدليل وهو الآية المعجزة بقولهم : « فأتونا بسلطان مبین » .

فالمنى سلّمنا أن من مقتضى العناية الإلهية أن يدعونا الى المغفرة والرحمة ، لكنّا لا نسلم لكم أن هذه الدعوة قائمة بكم كما تدعون فإنكم بشر مثلنا لا تزيدون علينا بشيء ، ولو كان مجرد البشرية يوجب ذلك لكنّا وجدناه من أنفسنا ونحن بشر ، فإن كنتم صادقين في دعواكم هذه فأتونا بسلطان مبین أي ببرهان قاطع يتسلط على عقولنا ويضطرنا الى الإذعان بنبوتكم وهو آية معجزة غيبية تخترق العادة كما أن ما تدعونونه خارق مثلها .

مركز تحقيق كتاب توير علوم اسلامی

وهذا البيان يظهر أولاً أن كلامهم هذا من قبيل منع الدعوى ، وقولهم : « إن أنتم إلا بشر مثلنا » سند المنع ، وقولهم : « فأتونا بسلطان مبین » تصريح بطلب الدليل .

وثانياً أن قولهم : « تريدون ان تصدقونا عما كان يعبد آباؤنا » من قبيل الاعتراض الواقع بين المنع وسنده ومعناه أنكم لما كنتم بشراً مثلنا لا فضل لكم علينا بشيء فلا وجه لأن نقبل منكم ما لا نجد من أنفسنا ولا نعهده من أمثالنا ، والذي نعهده من أمثال هذه الامور أنها إنما تظهر عن أغراض ومطامع دنيوية مادية فليس إلا أنكم تريدون أن تصرفونا عن سنتنا القومية وطريقتنا المثلى .

قوله تعالى : « قالت لهم رسلهم إن نحن إلا بشر مثلكم ولكن الله يمن على من يشاء » الى آخر الآية جواب الرسل عما أوردوه على رسالتهم بأنكم بشر مثلنا فلمستم ذوي هوية ملكوتية حتى تتصلوا بالغيب فإن كنتم صادقين في دعواكم هذه القدرة الغيبية فأتونا بسلطان مبین .

ومحصل الجواب أن كوننا بشراً مثلكم مسلم لكنه يوجب خلاف ما استوجبتموه أما قولكم إن كونكم بشراً مثلنا يوجب أن لا تختصوا بخصيصة لا نجد لها من أنفسنا وهي الوحي والرسالة فجوابه: أن المماثلة في البشرية لا توجب المماثلة في جميع الكمالات الصورية والمعنوية الإنسانية كما أن اعتدال الخلقة وجمال الهيئة وكذا رزاق العقل وإصابة الرأي والفهم والذكاء كمالات صورية ومعنوية توجد في بعض أفراد الإنسان دون بعض ، فمن الجائز أن ينعم الله بالوحي والرسالة على بعض عباده دون بعض فإن الله يمن على من يشاء منهم .

وأما قولكم : « فأتونا بسلطان مبین » فإنه مبني على كون النبي ذا شخصية ملكوتية وقدرة غيبية فعالة لما تشاء ، وليس كذلك فما النبي إلا بشر مثلكم يوحى إليه بالرسالة وليس له من الأمر شيء ، وما كان له أن يأتي بآية من عنده إلا أن يشاء الله ذلك ويأذن فيه .

فقلوه : « إن نحن إلا بشر مثلكم » تسليم من الرسل لقولهم : « إن أنتم إلا بشر مثلنا » لاستنتاج خلاف ما استنتجوه منه ، وقوله : « ولكن الله يمن على من يشاء » إشارة إلى مقدمة بانضمامها يستنتج المطلوب ، وقوله : « وما كان لنا أن نأتيكم بسلطان إلا بإذن الله » جواب منهم استنتجوه من كونهم بشراً مثلهم .

وتذييل هذا الكلام بقولهم : « وعلى الله فليتوكل المؤمنون » للإشارة إلى ما يجري مجرى حجة ثانية على إرجاع الأمر كله - ومنه أمر الآية المعجزة - إلى الله وهي حجة خاصة بالمؤمنين ، وملخصها أن الإيمان بالله سبحانه يقتضي منهم أن يذعنوا بأن الإتيان بالآية إنما هو إلى الله لأن الحول والقوة له خاصة لا يملك غيره من ذلك شيئاً إلا بإذنه .

وذلك لأنه هو الله عز شأنه ، فهو الذي يبدأ منه وينتهي إليه ويقوم به كل شيء فهو رب كل شيء المالك لتدبير أمره لا يملك شيء أمراً إلا بإذنه فهو وكيل كل شيء القائم بما يرجع إليه من الأمر ، فعلى المؤمن أن يتخذ ربه وكيلاً في جميع ما يرجع إليه حتى في أعماله التي تنسب إليه لما أن القوة كلها له سبحانه وعلى الرسول أن يذعن بأن ليس له الإتيان بآية معجزة إلا بإذن الله .

والآية ظاهرة في أن الرسل عليهم السلام لم يدعوا امتناع إتيانهم بالآية المعجزة المسماة سلطاناً مبيناً ، وإنما ادّعوا امتناع أن يستقلوا بذلك من غير حاجة فيه إلى إذن الله سبحانه ، واحتجوا على ذلك أولاً ، وثانياً .

قوله تعالى : « وما لنا ألا نتوكل على الله وقد هدانا سبيلنا ولنصبرنَّ على ما آذيتمونا وعلى الله فليتوكل المتوكلون » ما استفهامية والاستفهام للإنكار ، وقوله : « وقد هدانا سبيلنا » حال من الضمير في « لنا » وسبل الأنبياء والرسل الشرائع التي كانوا يدعون إليها ، قال تعالى : « قل هذه سبيلي أدعو إلى الله على بصيرة » يوسف : ١٠٨ والمعنى ما الذي نملكه من العذر في أن لا نتوكل على الله والحال أنه تعالى هدانا سبيلنا ولم يكن لنا صنع في هذه النعمة والسعادة التي من بها علينا فإذا كان سبحانه فعل بنا هذا الفعل الذي هو كل الخير ، فمن الواجب أن نتوكل عليه في سائر الأمور .

وهذا في الحقيقة حجة ثانية على وجوب التوكل عليه وإلقاء الزمام إليه سلك فيها من طريق الآثار الدالة على وجوب التوكل عليه كما أن الحجة السابقة سلك فيها من النظر في نفس المؤثر ، وتقرير الحجة أن هدايته تعالى إيانا إلى سبيلنا دليل على وجوب التوكل عليه لأنه لا يخون عباده ولا يريد بهم إلا الخير ومع وجود الدليل على التوكل لا معنى لوجود دليل على عدم التوكل يكون عذراً لنا فيه فلا سبيل لنا إلى عدم التوكل عليه تعالى .

فقوله تعالى : « وعلى الله فليتوكل المؤمنون » يجري مجرى اللم ، وقوله : « وما لنا ألا نتوكل على الله وقد هدانا سبيلنا » مجرى الإن فتدبر في هذا البيان العذب والاحتجاج السهل الممتنع الذي قدمه القرآن الكريم إلى متدبريه في أوجز لفظ .

وقوله : « ولنصبرنَّ على ما آذيتمونا » من تفريع الصبر على ما يتن من وجوب التوكل عليه أي إذا كان من الواجب أن نتوكل عليه ونحن مؤمنون به وقد هدانا سبيلنا فلنصبرن على إيدائكم لنا في سبيل الدعوة إليه متوكلين عليه حتى يحكم بما يريد ويفعل ما يشاء من غير أن نأوي في ذلك إلى ما عندنا من ظاهر الحول والقوة .

وقوله : « وعلى الله فليتوكل المتوكلون » كلام مبني على الترتيبي أي كل من تلبس بالتوكل فعليه أن يتوكل على الله سواء كان مؤمناً أو غير مؤمن إذ لا دليل غيره غير أن المتوكل بحقيقة التوكل لا يكون إلا مؤمناً فإنه مدعن أن الأمر كله لله فلا يسعه إلا أن يطيعه فيما يأمر وينتهي عما ينهى ويرضى بما رضى به ويسخط عما سخط عنه وهذا هو الإيمان .

قوله تعالى : « وقال الذين كفروا لرسلم لنخرجكم من أرضنا أو لتعودنّ في ملتنا » هذا تهديد منهم بعد ما عجزوا في مناظرتهم وخسروا في محاجتهم ، والخطاب في قولهم : « لنخرجكم » الخ للرسل والذين آمنوا معهم فما كانوا ليرضوا أن يعود الرسل في ملتهم ويبقى أتباعهم على دين التوحيد . على أن الله سبحانه صرح بذلك في قصص بعضهم كقوله في شعيب : « قال الملأ الذين استكبروا من قومه لنخرجنك يا شعيب والذين آمنوا معك من قريتنا أو لتعودن في ملتنا » الأعراف : ٨٨ .

وقوله : « أو لتعودن في ملتنا » « عاد » من الأفعال الناقصة بمعنى الصيرورة وهي الحيلولة من حال إلى حال سواء كان عليها سابقاً أو لا ومن الدليل عليه - كما قيل - قوله : « في ملتنا » ولو كان بمعنى الرجوع إلى ما كان لتعين أن يقال : إلى ملتنا .

ومن هنا يظهر فساد ما قيل : إن ظاهر الآية أن الرسل كانوا قبل الرسالة في ملتهم فكلفهم الكفار أن يعودوا إلى ما كانوا عليه .

على أن خطابهم لم يكن للرسل خاصة بل لهم ولمن آمن بهم ممن كان على ملة الكفار من قبل فالخطاب لهم ولرسلم بالعود إلى ملتهم على تقدير كون العود بمعنى الرجوع ، إنما هو من باب التغليب .

ومن لطيف الصناعة في الآية دخول لام القسم ونون التأكيد على طرفي التردد : « لنخرجكم أو لتعودن » مع أن أو للاستدراك وتفيد معنى الاستثناء ولا معنى لأن يقال : إلا أن تعودوا والله في ملتنا ، إلا أن عودهم لما كان بإجبار من الكفار كان في معنى الإعادة وعاد قوله : « لتعودن » طرف التردد وصح دخول اللام والنون وآل المعنى إلى قولنا : والله لنخرجكم من أرضنا أو نعيدنكم في ملتنا .

قوله تعالى : « فأوحى إليهم ربهم لنهلكن الظالمين ولنسكننكم الأرض من بعدهم » إلى آخر الآية ، ضمير الجميع الأول والثاني للرسول والثالث للذين كفروا بدلالة السياق ، والتعبير عنهم بالظالمين للإشارة إلى سببية ظلمهم للإهلاك فإن تعليق الحكم بالوصف مشعر بالعلية كما أن قوله : « ذلك لمن خاف مقامي وخاف وعيد » مشعر بعلية الخوف للإسكان .

وقوله : « مقامي » مصدر ميمي أريد به قيامه تعالى على الأمر كله أو اسم مكان أريد به مرتبة قيمومته تعالى للأمر كله ، والمراد من وعيده تعالى ما أوعده به المخالفين عن أمره من العذاب .

فالمراد بالخوف من مقامه تعالى تقواه بها أنه الله القائم بأمر عباده والمراد بالخوف من وعيده تقواه بها أنه الله الذي حذر عباده من مخالفة أمره بلسان أنبيائه ورسله فيعمود على أي حال إلى التقوى وينطبق على قول موسى لقومه : « استعينوا بالله واصبروا إن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين » الأعراف : ١٢٨ كما أشار إليه في الكشف .

والمعنى فأوحى رب الرسل إليهم - وقد أخذت صفة الربوبية الخاصة بهم لمكان توكلهم الجالب للرحمة والعناية - وأقسم لنهلكن هؤلاء المهددين لكم بظلمهم ولنسكننكم هذه الأرض التي هددوكم بالإخراج منها ونورثكم إياها لصفة مخافتكم مني ومن وعيدي وكذلك نفعل فنورث الأرض عبادنا المتقين .

قوله تعالى : « واستفتحوا وخاب كل جبار عنيد » الاستفتاح طلب الفتح والنصر . والخيبة انقطاع الرجاء والخسران والهلاك ، والعنيد هو اللجوج ومنه المعاند .

والضمير في « واستفتحوا » للرسل أي طلبوا النصر من الله لما انقطعت بهم الأسباب من كل جانب وبلغ بهم ظلم الظالمين وتكذيب المعاندين كقول نوح فيما حكاه الله : « أني مغلوب فانتصر » القمر : ١٠ ، ويمكن رجوع الضمير إلى الرسل والكفار جميعاً فإن الكفار أيضاً كانوا يصرون على أن يأتهم الرسل بما يقضي بينهم كقولهم : « متى هذا الفتح » الم السجدة : ٢٨ « متى هذا الوعد » يس : ٤٨ ، وعلى هذا التقدير يكون المعنى : واستفتح الرسل والكفار جميعاً ، وكانت الخيبة للجبارين وهو

عذاب الاستئصال .

قوله تعالى : « من ورأته جهنم ويسقى من ماء صديد » إلى آخر الآيتين . الصديد القيقع السائل من الجرح ، وهو بيات للماء الذي يسقونه في جهنم . والتجرع تناول المشروب جرعة جرعة على الاستمرار ، والإساعة إجراء الشراب في الحلق يقال : ساع الشراب وأسفته أنا كذا في الجمع والباقي ظاهر .

قوله تعالى : « مثل الذين كفروا بربهم أعمالهم كرماد اشتدت به الريح في يوم عاصف » إلى آخر الآية ، يوم عاصف شديد الريح تمثيل لأعمال الكفار من حيث تترتب نتائجها عليها وبيان أنها حبط باطلة لا أثر لها من جهة السعادة فهو كقوله تعالى : « وقدمنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباء منثورا » الفرقان : ٢٣ فأعمالهم كذرات من الرماد اشتدت به الريح في يوم شديد الريح فنثرته ولم يبقَ منه شيئا هذا مثلهم من جهة أعمالهم .

ومن هنا يظهر أن لا حاجة إلى تقدير شيء في الكلام وإرجاعه إلى مثل قولنا : مثل أعمال الذين كفروا بالنعمة ، والظاهر أن الآية ليست من تمام كلام موسى بل هي كالنتيجة المحصلة من كلامه المنقول .

(بحث روائي)

في الكافي بإسناده عن معاوية بن وهب عن أبي عبد الله عليه السلام قال : من أعطي الشكر أعطي الزيادة يقول الله عز وجل : « لئن شكرتم لأزيدنكم » .

وفي الدر المنثور أخرج ابن أبي الدنيا والبيهقي في شعب الإيمان عن أبي زهير يحيى بن عطار بن مصعب عن أبيه قال : قال رسول الله ﷺ : ما أعطي أحد أربعة فمنع أربعة : ما أعطي أحد الشكر فمنع الزيادة لأن الله يقول : « لئن شكرتم لأزيدنكم » ، وما أعطي أحد الدعاء فمنع الإجابة لأن الله يقول : « ادعوني استجب لكم » ، وما أعطي أحد الاستغفار فمنع المغفرة لأن الله يقول : « استغفروا ربكم إنه

كان غفاراً ، وما أعطي أحد التوبة فمنع التقبل لأن الله يقول : « وهو الذي يقبل التوبة عن عباده » الشورى : ٢٥ .

وفيه أخرج أبو نعيم في الحلية من طريق مالك بن أنس عن جعفر بن محمد بن علي ابن الحسين قال : لما قال له سفيان الثوري : لا أقوم حتى تحدثني قال جعفر : أما إني أحدثك وما كثرة الحديث لك بخير يا سفيان إذا أنعم الله عليك بنعمة فأحببت بقاءها ودوامها فأكثر من الحمد والشكر عليها فإن الله تعالى قال في كتابه : « لئن شكرتم لأزيدنكم » وإذا استبطأت الرزق فأكثر من الاستغفار فإن الله تعالى قال في كتابه : « استغفروا ربكم إنه كان غفاراً يرسل السماء عليكم مدراراً ويمددكم بأموال وبنين - يعني في الدنيا والآخرة (١) - ويجعل لكم جنات ويجعل لكم أنهاراً » .

يا سفيان إذا حزنك أمر من سلطان أو غيره فأكثر من لا حول ولا قوة إلا بالله فإنها مفتاح الفرج وكنز من كنوز الجنة .

أقول : وفي هذا المعنى روايات كثيرة من طرق الفريقين .

وفي الكافي بإسناده عن عمر بن يزيد قال : سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول : شكر كل نعمة وإن عظمت أن تحمد الله .

وفيه بإسناده عن حماد بن عثمان قال : خرج أبو عبد الله عليه السلام من المسجد وقد ضاعت دابته فقال : لئن ردها الله علي لأشكرن الله حق شكره فما لبث أن أتى بها فقال : الحمد لله . فقال قائل له : جعلت فداك أأست قلت : لأشكرن الله حق شكره؟ فقال أبو عبد الله عليه السلام : ألم تسمعني قلت : الحمد لله ؟

وفيه بإسناده عن أبي بصير قال : قلت لأبي عبد الله عليه السلام : هل للشكر حد إذا فعله العبد كان شاكرأ ؟ قال : نعم ، قلت : وما هو ؟ قال : الحمد لله ، على كل نعمة عليه في أهل ومال ، وإن كان فيما أنعم الله عليه في ماله حق أداه ، ومنه قوله عز وجل : « سبحان الذي سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين » ومنه قوله : « أنزلني

(١) كذا في النسخة والظاهر أن يكون قوله : والآخرة زائداً وأن يقع يعني في الآخرة بمد قوله : أنهاراً .

منزلاً مباركاً وأنت خير المنزلين » ، وقوله : « رب أدخلني مدخل صدق وأخرجني مخرج صدق واجعل لي من لدنك سلطاناً نصيراً » .

وفي تفسير العياشي عن أبي ولاد قال : قلت لأبي عبد الله عليه السلام : رأيت هذه النعمة الظاهرة علينا من الله أليس إن شكرناه عليها وحمدناه زادنا كما قال الله في كتابه : « لئن شكرتم لأزيدنكم » ؟ فقال : نعم من حمد الله على نعمه وشكره وعلم أن ذلك منه لا من غيره زاد الله نعمه .

أقول : والروايتان الأخيرتان تفسران الشكر أحسن تفسير ، وينطبق عليهما ما قدمناه في البيان أن الشكر إظهار النعمة اعتقاداً وقولاً وفعلًا ، ويؤيده إطلاق قوله تعالى : « وأما بنعمة ربك فحدث » الضحى : ١١ .

وفي تفسير القمي قال : حدثني أبي رفعه عن النبي صلى الله عليه وآله : قال : من آذى جاره طمعاً في مسكنه ورثه الله داره . وهو قوله : « وقال الذين كفروا لرسولهم - إلى قوله - فأوحى إليهم ربهم لنهلكن الظالمين ولنسكننكم الأرض من بعدهم » .

وفي التفسيرين المجمع وروح المعاني عن النبي صلى الله عليه وآله : من آذى جاره أورثه الله داره .

وفي الدر المنثور أخرج ابن الضريس عن أبي مجاز قال : قال رجل لعلي بن أبي طالب : أنا أنسب الناس . قال : إنك لا تنسب الناس . قال : بلى . فقال له علي : رأيت قوله تعالى : « وعاداً وثمود وقروناً بين ذلك كثيراً » ؟ قال : أنا أنسب ذلك الكثير . قال : رأيت قوله : « ألم يأتكم نبيؤ الذين من قبلكم قوم نوح وعاد وثمود والذين من بعدهم لا يعلمهم إلا الله » فسكت .

وفي المجمع عن أبي عبد الله عليه السلام : الصيد هو الدم والقيح من فروج الزواني في النار .

وفي الدر المنثور أخرج أحمد والترمذي والنسائي وابن أبي الدنيا في صفة النار وأبو يعلى وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والطبراني وأبو نعيم في الحلية وصححه وابن مردويه والبيهقي في البعث والنشور عن أبي أمامة عن النبي صلى الله عليه وآله في قوله :

« ويسقى من ماء صديد يتجرعه » قال : يقرّب اليه فيتركه فإذا دنا منه شوى وجهه ووقعت فروة رأسه فإذا شربه قطع أمعاءه حتى يخرج من دبره يقول الله تعالى : « فسقوا ماء حميماً فقطع أمعاءهم » وقال : « وإن يستغيثوا يغاثوا بماء كالمهل يشوي الوجوه » .

وفي تفسير القمي في الآية قال : قال : يقرّب اليه فيتركه فإذا دنا منه شوى وجهه ووقعت فروة رأسه فإذا شرب تقطعت أمعاؤه ومزقت تحت قدميه وإنه ليخرج من أحدهم مثل الوادي صديد وقيح . الحديث .

وفيه في رواية أبي الجارود عن أبي جعفر عليه السلام : العنيد المعرض عن الحق .

* * *

أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ إِنَّ يَئُشًا يَذْهَبُكُمْ
وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ - ١٩ . وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ - ٢٠ .
وَبَرَزُوا لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا
فَقُلْ أَنْتُمْ مُعْتَبَرُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ قَالُوا لَوْ هَدَانَا اللَّهُ
لَهَدَيْنَاكُمْ سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجَزْنَا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِنْ مَحِيصٍ - ٢١ .
وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ
فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ
لِي فَلَا تُلُومُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيَّ
إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ - ٢٢ .
وَأَدْخِلَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا

الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ — ٢٣ . أَلَمْ تَرَ
 كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا
 فِي السَّمَاءِ — ٢٤ . تُؤْتِي أُكْلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ
 الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ — ٢٥ . وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ
 خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ — ٢٦ . يُثَبِّتُ
 اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَيُضِلُّ
 اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ — ٢٧ . أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا
 نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ — ٢٨ . جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا
 وَبِئْسَ الْقَرَارُ — ٢٩ . وَجَعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِهِ قُلْ
 تَمَتَّعُوا فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ — ٣٠ . قُلْ لِعِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا
 يُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ
 يَوْمٌ لَا يَبِيعُ فِيهِ وَلَا يَخْلَلُ — ٣١ . اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ
 وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ
 وَسَخَّرَ لَكُمْ الْفُلُوكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمْ الْأَنْهَارَ — ٣٢ .
 وَسَخَّرَ لَكُمْ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمْ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ — ٣٣ .
 وَآتَيْنَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ
 الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ — ٣٤ .

(يات)

تشتمل الآيات على تذكرة الناس في صورة خطاب النبي ﷺ مرة بعد مرة بقوله : « ألم ترَ كيف خلق الله السماوات والأرض بالحق » « ألم ترَ كيف ضرب الله مثلاً » « ألم ترَ الى الذين بدّلوا نعمة الله كفراً » .

يذكر تعالى بها أن الخلقة مبنية على الحق فهم سيبرزون جميعاً فالذين ساروا بالحق وآمنوا بالحق وعملوا الحق ينالون السعادة والجنة ، والذين اتبعوا الباطل وعبدوا الشيطان وأطاعوا الطغاة المستكبرين منهم غروراً بظاهر عزتهم وقدرتهم لزمهم شقاء لازم وتبرأ منهم متبعوهم من الجن والإنس والله العزة والحمد .

ثم يذكر أن هذا التقسم الى فريقين إنما هو لانقسام سلوكهم الى قسمين : سلوك هدى وسلوك ضلال ، والذي يلزمه الهدى هو المؤمن والذي يلزمه الضلال هو الظالم والقاضي بذلك هو الله سبحانه يفعل ما يشاء وله العزة والحمد .

ثم يذكر بالأمم الماضية الهالكة وما وقعوا فيه من البوار بسبب كفرانهم بنعمة الله العزيز الحميد ، ويعاتب الإنسان بظلمه وكفره بالنعمة الإلهية التي ملأت الوجود وإن تعدّوها لا تحصوها .

قوله تعالى : « ألم ترَ أن الله خلق السماوات والأرض بالحق » المراد بالرؤية هو العلم القاطع ، فإنه الصالح لأن يتعلق بكيفية خلق السماوات والأرض دون الرؤية البصرية .

ثم الفعل الحق ويقابله الباطل هو الذي يكون لفاعله فيه غاية مطلوبة يسلك إليه بذاته فمن المشهود أن كل واحد من الأنواع من أول تكونه متوجه إلى غاية مؤجلة لا بغية له دون أن يصل إليها ثم البعض منها غاية للبعض ينتفع به في طريق كينونته ويصلح به في حدوثه وبقائه كالعناصر الأرضية التي ينتفع بها النبات ، والنبات الذي ينتفع به الحيوان وهكذا قال تعالى : « وما خلقنا السماوات والأرض وما بينهما لاعبين ما خلقناهما إلا بالحق ولكن أكثرهم لا يعلمون » الدخان : ٣٩ . وقال : « وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما باطلاً ذلك ظن الذين كفروا » ص : ٢٧ .

فلا تزال الحلقة تقع مرحلة بعد مرحلة وتنال غاية بعد غاية حتى تتوقف في غاية لا غاية بعدها ، وذلك رجوعها إلى الله سبحانه ، قال تعالى : « وأنت إلى ربك المنتهى » النجم : ٤٢ .

وبالجملة الفعل إنما يكون فعلاً حقاً إذا كان له أمر يقصده الفاعل بفعله وغاية يسلك بالفعل إليها ، وأما إذا كان فعلاً لا يقصد به إلا نفسه من غير أن يكون هناك غرض مطلوب فهو الفعل الباطل ، وإذا كان الفعل الباطل ذا نظام وترتيب فهو الذي يسمى لعباً كما يلعب الصبيان بإتيان حركات منظمة مرتبة لا غاية لهم وراءها ولا أن لهم همّاً إلا إيجاد ما تخیلوه من صورة الفعل لشوق نفساني منهم إلى ذلك .

وفعله تعالى ملازم للحق مصاحب له فخلق السماوات والأرض يخلف عالماً باقياً بعد زواله ، ولو لم يكن كذلك كان باطلاً لا أثر له ولا خلف يخلفه ، وكان العالم المشهود بما فيه من النظام البديع لعباً منه سبحانه اتخذته حاجة منه إليه كالتنفس من كرب وسأمة والتفرج من همٍّ أو التخلص من وحشة وحدة ونحو ذلك وهو سبحانه العزيز الحميد لا تمسه حاجة ولا يذله فقر وفاقة .

وبما مرّ يظهر أن الباء في قوله : « بالحق » للمصاحبة وأن قول بعضهم : أن الباء للسببية أو الآلة وأن المعنى كيف خلقها بقوله الحق أو للعرض الحق ليس على ما ينبغي .

قوله تعالى : « إن يشأ يذهبكم ويأت بخلق جديد وما ذلك على الله بعزيز » أي بشاق صعب ، والخطاب لعمامة البشر يجعل النبي ﷺ مثلاً لهم يمثلون به لأن الخطاب متوجه إليه في قوله قبل وبعد : « ألم تر » وما ذلك .

قد تقدم أن كون الحلقة بالحق هو مقتضى كونه تعالى عزيزاً غنياً بالذات إذ لو لم يقتض غناه ذلك وأمكن صدور اللعب منه تعالى وكان هذا الخلق المشهود بماله من النظام البديع لعباً لا يقصد به إلا حدوث وفناء كانت ذلك لشوق خيالي منه إليه وحاجة داخلية كتنفيس كرب وتفريج همٍّ أو أنس عن وحشة وسأمة ونحو ذلك وغناه تعالى بالذات يدفع ذلك .

ولعل هذه النكتة هي التي أوجبت تعقيب قوله : « كيف خلق الله السماوات والارض » بقوله : « إن يشأ يذهبكم » الخ ، فقوله : « إن يشأ يذهبكم » الخ ، في موضع البيان لما تقدمه والمعنى ألم تعلم أن الله خلق هذا الخلق المشهود عن عزة منه وغنى وأنه إن يشأ يذهبكم ويأت بخلق جديد وما ذلك عليه تعالى بعزير وهو الله عز اسمه له الأسماء الحسنى وكل العزة والكبرياء .

وبهذا يظهر أن وضع الظاهر في موضع المضمّر في قوله : « على الله » للدلالة على الحجة وأن عدم عزة ذلك عليه تعالى من جهة كونه هو الله عز اسمه .

فإن قلت : لو كان الإتيان بقوله : « إن يشأ » الخ ، للدلالة على غناه المطلق وعدم كونه لاعبا بالخلق لكان الأنسب الاقتصار على قوله : « إن يشأ يذهبكم » وترك قوله : « ويأت بخلق جديد » فإن إذهاب القديم والإتيان بجديد لا ينفي اللعب لجواز أن يكون نفس إذهاب بعض وإتيان بعض لعباً .

قلت : هذا كذلك لو قيل : إن يشأ يذهب جميع الخلق ويأت بخلق جديد ولكن لما قيل : « إن يشأ يذهبكم » الخ والخطاب لعامة البشر أو لامة النبي ﷺ فقط أو للموجودين في عصره كان من اللازم أن يعقبه بقوله : « ويأت بخلق جديد » فإن هذا الخلق المشهود بما بين أجزائه من الارتباط والتعلق لا يتم الغرض منه إلا بهذه الصفة الموجودة والتركيب والتألف الخاص ، ولو أذهب الناس على بقاء من السماوات والأرض بحالها الحاضرة كان ذلك باطلاً ولعباً من جهة أخرى .

وبعبارة أخرى إذهاب الإنسان فقط من غير إتيان بخلق جديد على إبقاء لسائر الخلق المشهود لعب باطل كما أن إذهاب الخلق من أصله من غير غاية مترتبة لعب باطل ، وإنما الحق الذي يكشف عن غناه تعالى أن يذهب قوماً ويأتي بآخرين وهو الذي تذكره الآية الكريمة ، فافهم ذلك .

قوله تعالى : « وبرزوا لله جميعاً » إلى آخر الآية ، البروز هو الخروج إلى البراز بفتح الباء وهو القضاء ، يقال : برز إليه إذا خرج إليه بحيث لا يحجبه عنه حاجب ، ومنه المبارزة والبراز كخروج المقاتل من الصف إلى كفؤه من العدو .

والتبع بفتحيتين جمع تابع كخدم وخادم ، وقيل : اسم جمع ، وقيل : مصدر جيء به للمبالغة ، والإغناء الإفادة وضمن معنى الدفع ولذا عدّي بمن كما قيل ، والجزع والصبر متقابلان ، والمحيص اسم مكان من حاص يحيص حصاً وحيوصاً إذا زال عن المكروه كما في المجمع فالمحيص هو المكان الذي يزول اليه الإنسان عن المكروه والشدة .

وقوله : « وبرزوا لله جميعاً » أي ظهوروا له تعالى ظهوراً لا يحجبهم عنه حاجب وهذا بالنسبة الى أنفسهم حيث كانوا يتوهمون في الدنيا أن ربهم في غيبة عنهم وهم غائبون عنه ، فإذا كان يوم القيامة زال كل ستر متوهم وشاهدوا أن لا حاجب هناك يحجبهم عنه ، وأما هو تعالى فلا ساتر يستر عنه في دنيا ولا آخرة ، قال تعالى : « إن الله لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء » آل عمران : ٥ .

ويمكن أن تكون الجملة كناية عن خلوصهم لحساب الأعمال وتعلق المشيئة الإلهية بانقطاع الأعمال وإنجاز الجزاء الموعود كما قال : « سنفرغ لكم أيها الثقلان » الرحمن : ٣١ .

وقوله : « فقال الضعفاء للذين استكبروا - الى قوله - من شيء » تخصم بين الكفار يوم القيامة - على ما يعطيه السياق - فالضعفاء هم المقلدون المطيعون لأولياهم من الكفار ، والمستكبرون هم أولياؤهم المتبوعون أولوا الطول والقوة المستنكفون عن الإيمان بالله وآياته .

والمعنى فقال الضعفاء المقلدون للذين استكبروا منهم إنا كنا في الدنيا لكم تابعين مطيعين من غير أن نسألكم حجة على ما تأمرونا به فهل أنتم مفيدون لنا اليوم تدفعون عنا شيئاً من عذاب الله الذي قضى علينا .

وعلى هذا فلفظة « من » في قوله « من عذاب الله » للبيان ، وفي قوله « من شيء » زائدة للتأكيد كما في قولنا : ما جاءني من أحد ، والنفي والاستفهام متقاربان حكماً ولا دليل على امتناع تقدم البيان على المبين وخاصة مع اتصالهما وعدم الفصل بينهما .

وقوله : « قالوا لو هدانا الله هديناكم » ظاهر السياق أن المراد بالهداية هنا الهداية الى طريق التخلص من العذاب ويمكن أن يكون المراد بها الهداية الى الدين الحق في الدنيا ، والمآل واحد لما بين الدنيا والآخرة من التطابق ، ولا يبرز في الاخرى إلا ما كان كامناً في الاولى ، قال تعالى حكاية عن أهل الجنة : « وقالوا الحمد لله الذي هدانا

لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله لقد جاءت رُسُل ربنا بالحق» الأعراف : ٤٣ ، مزجوا الهدايتين بعضاً ببعض كما هو ظاهر .

وقوله : « سواء علينا أجزعنا أم صبرنا ما لنا من محيص » سواء والاستواء والتساوي واحد ، وسواء خبر لمبتدأ محذوف والجملة الاستفهامية بيان لذلك ، وقوله : « ما لنا من محيص » بيان آخر للتساوي ، والمعنى الأمران متساويان علينا وبالنسبة إلينا وهما الجزع والصبر لا مهرب لنا عن العذاب اللازم .

قوله تعالى : « وقال الشيطان لما قضي الأمر» الى آخر الآية في الجمع الإصرارخ الإغاثة بإجابة الصارخ ويقال : استصرخني فلان فأصرخته أي استغاثني فأغثته . انتهى .

وهذا كلام جامع يلقى الشيطان يوم القيامة الى الظالمين يبين فيه موقعه منهم وينبئهم أهل الجمع منهم بوجه الحق في الرابطة التي كانت بينه وبينهم في الدنيا وقد وعد الله سبحانه أنه سينبئهم يوم القيامة بما كانوا فيه يختلفون ، وأن الحق سيظهر يوم القيامة عن قبل كل من كان له من قبله خفاء أو التباس ، فالملائكة يتبرؤون من شركهم والجن والقرناء من الشياطين يطردونهم ، والأصنام والآلهة التي اتخذوها أرباباً من دون الله يكفرون بشركهم ، وكبرائهم وأئمة الضلال لا يستجيبون لهم ، والمجرمون أنفسهم يعترفون بضلالهم وجرمهم ، كل ذلك واقعة في آيات كثيرة غير خفية على المتتبع المتدبر فيها .

والشيطان وإن كان بمعنى الشرير وربما أطلق في كلامه تعالى على كل شرير من الجن والإنس كقوله : « وكذلك جعلنا لكل نبي عدواً شياطين الإنس والجن » الأنعام : ١١٢ ، لكن المراد به في الآية الشيطان الذي هو مصدر كل غواية وضلال في بني آدم وهو إبليس فإن ظاهر السياق أنه يخاطب بكلامه هذا عامة الظالمين من أهل الجمع ويعترف أنه كان يدعوهم الى الشرك ، وقد نص القرآن على أن الذي له هذا الشأن هو إبليس وقد ادعى هو ذلك ولم يرد الله ذلك عليه كما في قوله : « قال فبعزتك لأغوينهم أجمعين إلا عبادك منهم المخلصين - الى أن قال - لأملأن جهنم منك ومن تبعك منهم أجمعين » ص : ٨٥ .

وأما ذريته وقبيله الذين يذكركم القرآن بقوله: «إنه يراكم هو وقبيله من حيث لا ترونهم إنا جعلنا الشياطين أولياء للذين لا يؤمنون» الأعراف: ٢٧، وقوله: «أفنتخذونه وذريته أولياء» الكهف: ٥٠ فولاية الواحد منهم إما لبعض الناس دون بعض أو في بعض الأعمال دون بعض، وإما ولاية على نحو العونية فهو العون، والأصل الذي ينتهي إليه أمر الإضلال والإغواء هو إبليس.

فهذا القائل: «إن الله وعدهم وعد الحق» الخ هو إبليس يريد بكلامه ردّ اللوم على فعل المعاصي اليهم والتبرّي من شركهم فقوله: «إن الله وعدهم وعد الحق ووعدتكم فأخلفتكم» أي وعدهم الله وعداً حققه الوقوع وصدقته المشاهدة من البعث والجمع والحساب وفصل القضاء والجنة والنار، ووعدتكم أنا أن لا بعث ولا حساب ولا جنة ولا نار ولم أفِ بما وعدت حيث ظهر خلاف ما وعدت. كذا ذكره المفسرون.

وعلى هذا فالموعود جميع ما يرجع إلى المعاد إثباتاً ونفيّاً أثبتته الله سبحانه ونفاه إبليس، وإخلاف الوعد كناية عن ظهور الكذب وعدم الوقوع من إطلاق المزوم وإرادة اللازم.

ومن الممكن - بل هو الوجه - أن يشمل الوعد ما يترتب على الإيمان والشرك في الدنيا والآخرة جميعاً لأنها متطابقتان فقد وعد الله أهل الإيمان حياة طيبة وعيشة سعيدة، وأهل الشرك المعرضين عن ذكره معيشة ضنكاً وتحرّجاً في صدورهم وعذاباً في قلوبهم في الدنيا، ووعد الجميع بعثاً وحساباً وجنة وناراً في الآخرة.

ووعد إبليس أولياءه بالأهواء اللذيذة والآمال الطويلة وأنسأهم الموت وصرفهم عن البعث والحساب وخوفهم الفقر والذلّة وملازمة الناس، وكان مفتاحه في جميع ذلك إغفالهم عن مقام ربهم وتزيين ما بين أيديهم من الأسباب مستقلة بالتأثير خالقة لآثارها وتصوير نفوسهم لهم في صورة الاستقلال مهيمنة على سائر الأسباب تدبرها كيف شاءت فتغريهم على الاعتماد بأنفسهم دون الله وتسخير الأسباب في سبيل الآمال والأمان.

وبالجملة وعدهم الله فيما يرجع إلى الدنيا والآخرة بما وفي لهم فيه، ودعاهم إبليس من طريق الإغفال والتزيين إلى الأوهام والأمان وهي بين ما لا يناله الإنسان قطعاً وما إذا ناله وجده غير ما كان يظنه، فيتركه إلى ما يظنه كما يريد هذا في الدنيا

وأما الآخرة فينسيه شؤنها كما تقدم .

وقوله : « وما كان لي عليكم من سلطان إلا أن دعوتكم فاستجبتم لي » السلطان - كما ذكره الراغب - هو السلاطة وهو التمكن من القهر ، وتسمى الحجة أيضاً سلطاناً لما فيها من التمكن من قهر العقول على ما لها من النتائج ، وكثيراً ما يطلق ويراد به ذو السلطان كالمملك وغيره .

والظاهر أن المراد ما هو أعم من السلطة الصورية والمعنوية فالمعنى وما كان في الدنيا لي عليكم من تسلط لا من جهة أشخاصكم وأعيانكم فاجبركم على معصية الله بسلب اختياركم وتحميل إرادتي عليكم ، ولا من جهة عقولكم فاقم لكم الحجة على الشرك كيفما شئت فتضطر عقولكم لقبوله وتطيعها نفوسكم فيما تأمرها به .

والظاهر أيضاً أن يكون الاستثناء في قوله : « إلا أن دعوتكم » منقطعاً والمعنى لكن دعوتكم من غير أي سلطان فاستجبتم لي ، ودعوتكم الناس إلى الشرك والمعصية وإن كانت بأذن الله لكنها لم تكن تسليطاً فإن الدعوة إلى فعل ليست تسلطاً من الداعي على فعل المدعو وإن كانت نوع تسلط على نفس الدعوة ، ومن الدليل عليه قوله تعالى فيما يأذن له « واستفزز من استطعت منهم بصوتك » إلى أن قال - وعدهم وما يعدهم الشيطان إلا غروراً إن عبادي ليس لك عليهم سلطان وكفى بربك وكيلاً » أسرى : ٦٥ .

ومن هنا يظهر سقوط ما وجه به الرازي في تفسيره كون الاستثناء متصلًا إذ قال : إن القدرة على حمل الإنسان على الشيء قارة تكون بالقهر من الحامل ، وقارة تكون بثقوية الداعية في قلبه ، وذلك بإلقاء الوسواس إليه ، وهذا نوع من أنواع التسلط فكأنه قال : ما كان لي تسلط عليكم إلا بالوسوسة لا بالضرب ونحوه .

وجه السقوط : أن عدم كون مجرد الدعوة سلطاناً وتمكنا من القهر على المدعو بديهي لا يقبل التشكيك فعده من أنواع التسلط مما لا يصفى إليه .

نعم : ربما انبعثت من المدعو ميل نفساني إلى المدعو إليه فانقاد للدعوة وسلط الداعي بدعوته على نفسه ، لكنه تسليط من المدعو لا تسلط من الداعي وبعبارة

اخرى هي سلطة يملكها المدعو من نفسه فيملكها الداعي وليس الداعي يملكها عليه من نفسه ، وإبليس إنما ينفي التسلط الذي يملكه من نفسه لا ما يسلطونه على أنفسهم بالانقياد بقرينة قوله : « فلا تلوموني ولوموا أنفسكم » .

وهذا هو التسلط الذي يثبتته الله سبحانه له في قوله : « إنه ليس له سلطان على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون إنما سلطانه على الذين يتولونه والذين هم به مشركون » النحل : ١٠٠ ، أو قوله : « إن عبادي ليس لك عليهم سلطان إلا من اتبعك من الغاوين » الحجر : ٤٢ ، والآيات - كما ترى - ظاهرة في أن سلطانه متفرع على الاتباع والتولي والإشراك لا بالعكس .

ولانتفاء سلطانه عليهم بالمرة استنتج قوله بعد : « فلا تلوموني ولوموا أنفسكم » والفاء للتفريع أي إذا لم يكن لي عليكم سلطان بوجه من الوجوه - كما يدل عليه وقوع النكرة في سياق النفي والتأكيد بمن في قوله : « وما كان لي عليكم من سلطان » - فلا يعود إلي شيء من اللوم المائد إليكم من جهة الشرك والمعصية فلا يحق لكم أن تلوموني بل الواجب عليكم أن تلوموا أنفسكم لأن لكم السلطان على عملكم .

وقوله : « ما أنا بمصرخكم وما أنتم بمصرخي » أي ما أنا بمغيثكم ومنجيكم وما أنتم بمغيثي ومنجي فلا أنا شافع لكم ولا أنتم شافعون لي اليوم .

وقوله : « اني كفرت بما أشركتمون من قبل » أي اني تبرأت من إشراككم إياي في الدنيا ، والمراد بالإشراك الإشراك في الطاعة دون الإشراك في العبادة كما يظهر من قوله تعالى خطاباً لأهل الجمع : « ألم أعهد إليكم يا بني آدم أن لا تعبدوا الشيطان إنه لكم عدو مبين وأن اعبدوني » يس : ٦١ .

وهذا الكلام منه تبرّ من شركهم كما حكى سبحانه تباري كل متبوع باطل من تابعه يوم القيامة وهو إظهار أن إشراكهم إياه بالله في الدنيا لم يكن إلا وهمًا سرايباً قال تعالى : « ويوم القيامة يكفرون بشرككم » فاطر : ١٤ وقال : « وقال الذين اتبعوا لو أن لنا كرة فنتبرء منهم كما تبرؤا منا » البقرة : ١٦٧ وقال : « قال الذين حق عليهم القول ربنا هؤلاء الذين أغوينا أغويناهم كما غوينا تبرأنا إليك ما كانوا إيانا يعبدون وقيل ادعوا شركاءكم فدعوهم فلم يستجيبوا لهم » القصص : ٦٤ .

وقوله : « إن الظالمين لهم عذاب أليم » من تمام كلام إبليس على ما يعطيه السياق يسجل عليهم العذاب الأليم لأنهم ظالمون ظلماً لا يرجع إلا الى أنفسهم .

وظاهر السياق أن قوله : « ما أنا بمصرخكم وما أنتم بمصرخي » كناية عن انتفاء الرابطة بينه وبين تابعيه كما يشير تعالى اليه في مواضع أخرى بمثل قوله : « لقد تقطع بينكم وضل عنكم ما كنتم تزعمون » الأنعام : ٩٤ ، وقوله : « فزيتنا بينهم وقال شركاؤهم ما كنتم إيانا تعبدون » يونس : ٢٨ .

وذلك لظهور أنه لو لم يكن كناية لكان قوله : « وما أنتم بمصرخي » مستدر كاً مستغنى عنه لعدم تعلق غرض به فلا هم يتوهمون أنهم قادرون على إغاثة إبليس والشفاعة له ولا هو يتوهم ذلك ولا المقام يوهم ذلك فهو يقول : « لا تلوموني ولوموا أنفسكم » لأن الرابطة مقطوعة بيني وبينكم لا ينفعكم أني كنت متبوعكم ولا ينفعني أنكم كنتم أتباعي إني تبرأت من شرككم فليست بشريك له تعالى ، وإنما تبرأت لأنكم ظالمون في أنفسكم والظالمون لهم عذاب أليم لا مسوغ يومئذ للحماية عنهم والتقرب منهم . وهذا السياق - كما ترى - يشهد أن تابعي إبليس يلومونه يوم القيامة على ما أصابهم من المصيبة على اتباعه متوقعين منه أن يشاركهم في مصابهم بنحو ، وهو يرد عليهم ذلك بأنه لا رابط بينه وبينهم فلا يلحق لومهم إلا بأنفسهم ولا يسهه أن يماسهم ويقرب منهم لأنه يخاف العذاب الأليم الذي هبى للظالمين وهم ظالمون ، فهو قريب المعنى من قوله تعالى : « كمثل الشيطان إذ قال للانسان اكفر فلما كفر قال إني بريء منك إني أخاف الله رب العالمين » الحشر : ١٦ .

ولعله من هنا قال بعضهم : إن المراد بقوله : « إني كفرت » الخ ... كفرة في الدنيا على أن يكون « من قبل » متعلقاً بقوله : « كفرت » فقط ، أو به وبقوله : « أشر كتموني » على سبيل التنازع .

وبالجملة المطلوب العمدة في الآية أن الإنسان هو المسؤول عن عمله لأن السلطان له لا لغيره فلا يلومن إلا نفسه ، وأما رابطة التبعية والمتبوعية فهي وهمية لا حقيقة لها وسيظهر هذه الحقيقة يوم القيامة عندما يتبرء منه الشيطان ويعبد لاأئمة الى نفسه كما

بيّن في الآية السابقة أن الرابطة بين الضعفاء والمستكبرين وهمية لا تغني عنهم شيئاً عندما تقع اليها الحاجة يوم القيامة حين انكشاف الحقائق .

وللمفسرين في فقرات الآية أقوال شتى مختلفة أغمضنا عن إيرادها ، ومن أراد الاطلاع عليها فليراجع مطوّلات التفاسير .

وفي الآية دلالة واضحة على أن للانسان سلطاناً على عمله هو الذي يوجب ارتباط الجزء به ويسلبه عن غيره ، وهو الذي يعيد اللائمة اليه لا الى غيره ، وأما كونه مستقلاً بهذا السلطان فلا دلالة فيها على ذلك البتة ، وقد تكلمنا في ذلك في الجزء الأول من الكتاب في ذيل قوله : « وما يضلُّ به إلا الفاسقين » البقرة : ٢٦ .

قوله تعالى : « وأدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات جنات » الخ بيان ما ينتهي اليه حال السعداء من المؤمنين ، وفي قوله : « تحييتهم فيها سلام » مقابلة حالهم من انعكاس السلام والتحية المباركة من بعضهم الى بعض مع حال غيرهم المذكورين في الآيتين السابقتين من الخصام وتحية بعضهم بعضاً بالكفر والتبرّي والإيأس .

قوله تعالى : « ألم تر كيف ضرب الله مثلاً كلمة طيبة كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها » ذكرُوا أن « كلمة » بدل اشتمال من « مثلاً » و « كشجرة » صفة بعد صفة لقوله « كلمة » أو خبر مبتدأ محذوف والتقدير هي كشجرة ، وقيل : إن « كلمة » مفعول أول متأخر لضرب و « مثلاً » مفعوله الثاني قدّم لدفع محذور الفصل بين « كلمة » وصفتها وهي « كشجرة » والتقدير ضرب الله كلمة طيبة كشجرة طيبة الخ ... مثلاً .

وقيل : « ضرب » متعدّ لواحد و « كلمة » منصوب بفعل مقدّر كجعل واتخذ والتقدير ضرب الله مثلاً جعل كلمة طيبة كشجرة طيبة الخ ، وأظن أن هذا أحسن الوجوه لو وجّه بكون « كلمة طيبة » الخ عطف بيان لقوله : « ضرب الله مثلاً » من بيان الجملة للجملة ، ويتعيّن حينئذ نصب « كلمة » بمقدّر هو جعل أو اتخذ لأن المدلول أنه مثل الكلمة بالشجرة وشبهها بها وهو معنى قولنا : اتخذ كلمة طيبة كشجرة الخ .

وقوله : « أصلها ثابت » أي مرتكز في الأرض ضارب بعروقه فيها ، وقوله : « وفرعها في السماء » أي ما يتفرع على ذلك الأصل من أغصانها في جهة العلو فكل ما

علا وأظلّ سماء ، وقوله : « تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها » أي تثمر ثمرها المأكول كل زمان بإذن الله ، وهذا نهاية ما تفيده شجرة من البركات .

واختلفوا في الآية أولاً في المراد من الكلمة الطيبة فقيل : هي شهادة أن لا إله إلا الله ، وقيل : الإيمان ، وقيل : القرآن ، وقيل : مطلق التسبيح والتنزيه ، وقيل : الثناء على الله مطلقاً ، وقيل : كل كلمة حسنة ، وقيل : جميع الطاعات ، وقيل : المؤمن . وثانياً في المراد من الشجرة الطيبة فقيل : النخلة وهو قول الأكثرين ، وقيل : شجرة جوز الهند ، وقيل : كل شجرة تثمر ثمرة طيبة كالتين والعنب والرمان ، وقيل : شجرة صفتها ما وصفه الله وإن لم تكن موجودة بالفعل .

ثم اختلفوا في المراد بالحين فقيل : شهران ، وقيل : ستة أشهر ، وقيل : سنة كاملة ، وقيل : كل غداة وعشي ، وقيل : جميع الأوقات .

والاشتغال بأمثال هذه المشاجرات بما يصرف الإنسان عما يهيمه من البحث عن معارف كتاب الله والحصول على مقاصد الآيات الكريمة وأغراضها .

والذي يعطيه التدبر في الآيات أن المراد بالكلمة الطيبة التي شُبِّهت بشجرة طيبة من صفتها كذا وكذا هو الاعتقاد الحق الثابت فإنه تعالى يقول بعدد وهو كالنتيجة المأخوذة من التمثيل : « يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة » الآية والقول هي الكلمة ولا كل كلمة بما هي لفظ بل بما هي معتمدة على اعتقاد وعزم يستقيم عليه الإنسان ولا يزيغ عنه عملاً .

وقد تعرض تعالى لما يقرب من هذا المعنى في مواضع من كلامه كقوله : « إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون » الأحقاف : ١٣ ، وقوله : « إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة أن لا تخافوا ولا تحزنوا » حم السجدة : ٣٠ ، وقوله : « إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه » فاطر : ١٠ .

وهذا القول والكلمة الطيبة هو الذي يرتب تعالى عليه تثبيتته في الدنيا والآخرة أهله وهم الذين آمنوا ثم يقابله بإضلال الظالمين ويقابله بوجه آخر بشأن المشركين ، وبهذا يظهر أن المراد بالمثل هو كلمة التوحيد وشهادة أن لا إله إلا الله حقّ شهادته .

فالقول بالوحدانية والاستقامة عليه هو حق القول الذي له أصل ثابت محفوظ عن كل تغير وزوال وبطلان وهو الله عز اسمه أو أرض الحقائق ، وله فروع نشأت ونمت من غير عائق يعوقه عن ذلك من عقائد حقة فرعية وأخلاق زاكية وأعمال صالحة يحبي بها المؤمن حياته الطيبة ويعمر بها العالم الإنساني حق عمارته وهي التي تلائم سير النظام الكوني الذي أدى الى ظهور الإنسان بوجوده المفطور على الاعتقاد الحق والعمل الصالح .

والكامل من المؤمنين وهم الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا فتحققوا بهذا القول الثابت والكلمة الطيبة مثلهم كمثل قولهم الذي ثبتوا لا يزال الناس منتفعين بخيرات وجودهم ومنعمين ببركاتهم .

وكذلك كل كلمة حقة وكل عمل صالح مثله هذا المثل ، له أصل ثابت وفروع رشيدة وثمرات طيبة مفيدة نافعة .

فالمثل المذكور في الآية يجري في الجميع كما يؤيده التعبير بكلمة طيبة بلفظ النكرة غير أن المراد في الآية على ما يعطيه السياق هو أصل التوحيد الذي يتفرع عليه سائر الاعتقادات الحقة ، وينمو عليه الأخلاق الزاكية وتنشأ منه الأعمال الصالحة .

ثم ختم الله سبحانه الآية بقوله : « ويضرب الله الأمثال للناس لعلهم يتذكرون » ليتذكروا به المتذكر أن لا يحيص لمريد السعادة عن التحقق بكلمة التوحيد والاستقامة عليها .

قوله تعالى : « ومثل كلمة خبيثة كشجرة خبيثة اجتثت من فوق الأرض ما لها من قرار » الاجتثاث الاقتلاع ، يقال : جثته واجتثته أي قلعته واقتلعه ، والجث بالضم ما ارتفع من الأرض كالأكمة ، وجثة الشيء شخصه الناقص . كذا في المفردات . والكلمة الخبيثة ما يقابل الكلمة الطيبة ولذا اختلفوا فيها فقال كل قوم فيها ما يقابل ما قاله في الكلمة الطيبة وكذا اختلفوا في المراد بالشجرة الخبيثة ف قيل : هي الحنظلة ، وقيل : الكشوث وهو نبت يلتف على الشوك والشجر . لا أصل له في الأرض ولا ورق عليه ، وقيل : شجرة الثوم ، وقيل : شجرة الشوك ، وقيل : الطحلب ، وقيل : الكساء ، وقيل : كل شجرة لا تطيب لها ثمرة .

وقد عرفت حال هذه الاختلافات في الآية السابقة ، وعرفت أيضاً ما يعطيه التدبر في معنى الكلمة الطيبة وما مثلت به ويجري ما يقابله في الكلمة الخبيثة وما

مثلت به حرفاً بحرف فإنما هي كلمة الشرك مثلت بشجرة خبيثة مفروضة اقتلعت من فوق الأرض ليس لها أصل ثابت وما لها من قرار ، وإذا كانت خبيثة فلا أثر لها إلا الضرّ والشرّ .

قوله تعالى : « يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت » إلى آخر الآية الظاهر أن « بالقول » متعلق بقوله : « يثبت » لا بقوله : « آمنوا » ، والباء للآلة أو السببية لا للتعدي ، وأن قوله : « في الحياة الدنيا وفي الآخرة » متعلق أيضاً بقوله : « يثبت » لا بقوله : « الثابت » .

فيعود المعنى إلى أن الذين آمنوا إذا ثبتوا على إيمانهم واستقاموا ثبتهم الله عليه في الدنيا والآخرة ، ولولا تثبيته تعالى لهم لم ينفعهم الثبات من أنفسهم شيئاً ولم يستفيدوا شيئاً من فوائده فإليه تعالى يرجع الأمر كله ، فقوله تعالى : « يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت » ، في باب الهداية يوازن قوله : « فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم » الصف : ٥ ، في باب الإضلال .

غير أن بين البابين فرقاً وهو أن الهدى يبتدىء من الله سبحانه ويترتب عليه اهتداء العبد ، والضلال يبتدىء من العبد بسوء اختياره فيجازيه الله بالضلال على الضلال ، كما قال : « وما يضلّ به إلا الفاسقين » البقرة : ٢٦ وقد تكررت الآيات القرآنية أن الهداية من الله سبحانه ليس لغيره فيها صنع .

وتوضيح المقام أن الله سبحانه خلق الإنسان على فطرة سليمة ركز فيها معرفة ربوبيته وألهمها فجورها وتقواها ، وهذه هداية فطرية أولية ثم أيدها بالدعوة الدينية التي قام بها أنبيأؤه ورسله .

ثم إن الإنسان لو جرى على سلامة فطرته واشتاق إلى المعرفة والعمل الصالح هداه الله فاهتدى العبد للإيمان عن هدايته تعالى ، وأما جريه على سلامة الفطرة فلو سمّي اهتداء فإنما هو اهتداء متفرّع على السلامة الفطرية لو سمّيت هداية .

ولو انحرف الإنسان عن صراط الفطرة بسوء اختياره وجهل مقام ربه وأخذ إلى الأرض واتبع الهوى وعاند الحق فهو ضلال منه غير مسبوق بإضلال من الله - وحاشاه سبحانه - لكنه يستعقب إضلاله عن الطريق مجازاة وتثبيته على ما هو

عليه بقطع الرحمة منه وسلب التوفيق عنه وهذا إضلال مسبق بضلاله من نفسه بسوء اختياره وإزاغة له عن زيغ منه .

ومن هنا وجه اختلاف السياق في الآيتين ، أما قوله : « فلما زاغوا أزاع الله قلوبهم » فقد فرض فيه زيغ منهم ثم إزاغة منه تعالى ، وأما قوله : « يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت » فقد فرض فيه إيمان ثابت على التثبيت وهو في نفسه يستلزم هداية منه واهتداء منهم ثم أضيف إلى ذلك القول الثابت وهو ثباتهم واستقامتهم بحسن اختيارهم على ما آمنوا به وهو فعلهم فيعقبه الله بتثبيتهم بسبب ذلك القول الثابت وحفظهم من الزيغ والزلل يدفع عنهم بذلك مخاطر الحياة في الدنيا والآخرة وهذا هداية منه تعالى غير مسبقة باهتداء من عند أنفسهم يرتبط بها فافهم ذلك .

وكيف كان فهذا التثبيت بالنظر إلى التمثيل بمنزلة لإحكام الشجرة الطيبة من جهة ثبوت أصلها في الأرض ، وإذا ثبت أصل الشجرة نمت وتفرعت بالفروع وأتت بالأثمار في كل حين والدنيا والآخرة تحاذيان : « كل حين » فإن الدنيا والآخرة تشملان جميع الأحيان فهذا ما يعطيه السياق من معنى الآية .

وقيل : إن المعنى يثبت الله الذين آمنوا ويقرتهم في كرامته وثوابه بالقول الثابت الذي وجد منهم وهو كلمة الإيمان لأنه ثابت بالحجج والأدلة فالمراد بتثبيتهم تقريبهم منه وإسكانهم الجنة وبثبوت قولهم تأييده بالحجة والبرهان ، وفيه أنه تقييد من غير مقيّد .

وقيل : المعنى أنه يثبتهم بالتمكين في الأرض والنصرة والفتح والغلبة في الدنيا وإسكان الجنة في الآخرة . وهو بعيد من السياق .

وقوله : « ويضلّ الله الظالمين » ظاهر المقابلة بين الظالمين والذين آمنوا في الجملة السابقة أن المراد بهم أهل الكفر بالله وبآياته على أنه تعالى فسّر الظالمين بقول مطلق في بعض كلامه بما يقرب منه إذ قال : « أن لعنة الله على الظالمين الذين يصدّون عن سبيل الله ويبغونها عوجاً وهم بالآخرة كافرون » الأعراف : ٤٥ .

والجملة كالنتيجة المستخرجة من المثل الثاني المذكور : « ومثل كلمة خبيثة كشجرة خبيثة اجتثت من فوق الأرض ما لها من قرار » والمعنى أن الله يضلّ أهل

الكفر بجرمانهم من صراط الهداية فلا يهتدون إلى عيشة سعيدة في الدنيا ولا إلى نعمة باقية ورضوان من الله في الآخرة فلا يوجد عندهم إن كشف عن قلوبهم إلا الشك والتردد والقلق والاضطراب والأسى والأسف والحسرة .

وقوله : « ويفعل الله ما يشاء » أي يجري تثبيت هؤلاء وإضلال أولئك على ما تقتضيه مشيئته لا مانع له ولا دافع فلا حائل بين مشيئته وفعله .

ويظهر من ذلك أن الله تعالى قد شاء تثبيت هؤلاء وإضلال أولئك وهو فاعلها لا محالة فمن القضاء المحتوم سعادة المؤمن وشقاء الكافر وقد وردت به الرواية .

ووقوع لفظ الجلالة في قوله : « ويضل الله » وقوله : « ويفعل الله » من وقوع الظاهر موقع المضمر ويدل على فخامة الأمر ومهابة الموقف كما قيل .

قوله تعالى : « ألم تر إلى الذين بدّلوا نعمة الله كفوفاً وأحلّوا قومهم دار البوار » قال في الجمع : الإحلال وضع الشيء في محل إما بمجاورة إن كان من قبيل الأجسام أو بمداخلة إن كان من قبيل الأعراض ، والبوار الهلاك يقال : بار الشيء يبور بوراً إذا هلك ورجل بور أي هالك وقوم بور أيضاً . انتهى .

وقال الراغب : البوار فرط الكساد ولما كان فرط الكساد يؤدي إلى الفساد كما قيل : كسد حتى فسد ، عبّر بالبوار عن الهلاك يقال : بار الشيء يبور بوراً وبوراً قال عز وجل : « تجارة لن تبور » انتهى .

والآية تذكر حال أئمة الكفر ورؤساء الضلال في ظلمهم وكفرانهم نعمة الله سبحانه التي أحاطت بهم من كل جهة بدل أن يشكروها ويؤمنوا بربهم ، وقد ذكر قبل كيفية خلقه تعالى السماوات والأرض على غنى منه وهي نعمة ، ثم ذكر كلمة الحق التي يدعو إليها وما لها من الآثار الثابتة الطيبة وهي نعمة .

والآية مطلقة لا دليل على تقييدها بكفار مكة أو كفار قريش وإن كان الخطاب فيها للنبي ﷺ ، وكان في ذيلها مثل قوله : « قل تمتّعوا فإن مصيركم إلى النار » لظهور أن ذلك لا يوجب تقييداً في الآية مع إطلاق مضمونها وشمولها للطواغيت من الأمم وما صنعوا بأقوامهم .

فقوله : « ألم تر إلى الذين بدّلوا نعمة الله كفوفاً » يذكر حال أئمة الكفر ورؤساء

الضلال من الامم السابقة ومن هذه الامة والدليل على اختصاصه بهم قوله : « وأحلّوا قومهم دار البوار » المشعر بكونهم نافذي الكلمة مطاعين في قومهم فهم الأئمة والرؤساء . والمراد بتبديلهم نعمة الله كفرة بتبديلهم شكر نعمته الواجب عليهم كفرة ففي الجملة مضاف محذوف والتقدير : بدّلوا شكر نعمة الله كفرة ، ويمكن أن يراد بتبديل نفس النعمة كفرة بنوع من التجوّز ، ونظير الآية في هذه العناية قوله تعالى : « وتعملون رزقكم أنكم تكذبون » الواقعة : ٨٢ .

وذكر إحلالهم قومهم دار البوار يستلزم إحلال أنفسهم فيها لأنهم أئمة الضلال ضلّوا ثم أضلّوا والتبعة تبعة الضلال ، ونظير الآية في هذا المعنى قوله في فرعون : « يقدم قومه يوم القيامة فأوردهم النار » هود : ٩٨ .

والمعنى ألم تنظر الى الأئمة والرؤساء من الامم السابقة ومن أمتك الذين بدّلوا شكر نعمة الله كفرة واتبعتهم قومهم فحلّوا وأحلّوا قومهم دار الهلاك وهو الشقاء والنار . قوله تعالى : « جهنم يصلونها وبئس القرار » بيان لدار البوار ، واحتمال بعضهم أن يكون « جهنم » منصوباً بالاستعمال ، والتقدير يصلون جهنم يصلونها والجملة مستأنفة خال عن الوجه لأن النصب مرجوح ولا نكتة تستوجب الاستئناف .

ومن هنا يظهر فساد قول من قال إن الآيات مدنية ، والمراد بالذين كفروا هم عظماء مكة وصناديد قريش الذين جمعوا الجموع على النبي ﷺ وحاربوه ببدر فقتلوا وأحلّوا قومهم دار البوار .

وذلك أنك عرفت من معنى الآية أنها مطلقة ولا موجب لتخصيصها بقتلى بدر من الكفار أصلاً ، بل الآية تشمل كل إمام ضلال أحلّ قومه دار البوار ممن تقدّم وتأخر ، والمراد بإحلال دار البوار إقرارهم في شقاء النار وإن لم يقتلوا ولا ماتوا ولا دخلوا النار بعد .

على أن ظاهر الآية التالية « وجعلوا لله أنداداً ليضلّوا عن سبيله قل تمتعوا فإن مصيركم الى النار » أن ضمير الجمع راجع الى الذين كفروا المذكورين في هذه الآية ولازمه كون خطاب قل تمتعوا خطاباً للساقيين منهم وهم الذين أسلموا يوم الفتح وهو إيعاد بشقاء قطعي منجز من غير استثناء .

قوله تعالى : « وجعلوا لله أنداداً ليضلّوا عن سبيله قل تمتعوا فإن مصيركم الى النار » الأنداد جمع ندّ وهو المثل وهم الآلهة الذين اتخذوهم آلهة من دون الله من الملائكة والجن والإنس .

وإنما جعلوها أنداداً مع اعترافهم بأنهم مخلوقون لله سبحانه من جهة أنهم سمّوهم آلهة وأرباباً ونسبوا اليهم تدبير أمر العالم ثم عبدوهم خوفاً وطمعاً مع أن الأمر والخلق كله لله وقد اعترفت بذلك فطرتهم وأيد الله ذلك بما ألهمه أنبياءه ورسله من الآيات والحجج الدالة على وحدانيته .

فهم كانوا على بصيرة من أمر التوحيد لم يتخذوا الأنداد عن غفلة أو خطأ بل عمدوا الى ذلك ابتغاء عرض الحياة الدنيا وليستعبدوا الناس ويستدرّوهم بإضلالهم عن سبيل الله ، ولذلك علّل اتخاذهم الأنداد بقوله : « ليضلّوا عن سبيله » ثم أمر النبي ﷺ أن يوعدهم بالنار التي اليها مرجعهم لا مرجع لهم سواها ، فقال : « قل تمتعوا فإن مصيركم الى النار » .

وكان من طبع الكلام أن يقال لهم : اتخذوا الأنداد أو أضلّوا عن سبيل الله فإن مصيركم الى النار ، لكن بدل من قوله : « تمتعوا » ليصرّح بغرضهم الفاسد الذي كانوا يخفونه ليكون أبلغ في فسادهم .

قوله تعالى : « قل لعبادي الذين آمنوا يقيموا الصلاة وينفقوا مما رزقناهم سراً وعلانية من قبل أن يأتي يوم لا بيع فيه ولا خلاق » لما توعدّهم على لسان رسوله بعذاب يوم القيامة لإضلالهم الناس عن سبيل الله ، أمره أن يأمر عباده الذين آمنوا بالقيام سبيله من قبل أن يأتي يوم القيامة فلا يسمعهم تدارك ما فات منهم من السعادة بشيء من الأسباب الدائرة بينهم لذلك وهي ترجع الى أحد شيئين : إما المعارضة بإعطاء شيء وأخذ ما يعادله وهو البيع بالمعنى الأعم ، وإما الخلّة والمحبة ، ولا أثر من هذه الأسباب في يوم محض للحساب والجزاء فإن ذلك شأن يوم القيامة لا شأن له دون ذلك .

ومن هنا يظهر أن قوله : « يقيموا الصلاة وينفقوا » بيان لسبيل الله وقد اكتفى بهذين الركنين اللذين بهما يلحق سائر الوظائف الشرعية مما يصلح حياة الإنسان الدنيوية فيما بينه وبين ربه وما بينه وبين سائر أفراد نوعه .

وقوله: « يقيموا الصلاة وينفقوا » الخ مجزومان لوقوعهما في جواب الأمر ومقول القول محذوف لدلالة الفعلين عليه ، والتقدير: قل : أقيموا الصلاة وأنفقوا « الخ » يقيموا الصلاة وينفقوا « الخ » .

والإشكال فيه بأن المجزوم في جواب الأمر يجب أن يكون مترتباً عليه ولا يلزم من الأمر بالصلاة والانفاق أن يطيعوا ذلك .

ساقط فإن اللازم فيه أن يكون الجواب مما يقتضيه الأمر بوجه ، وأمر عباده المؤمنين وهم عباد مؤمنون مما يقتضي الطاعة بلا إشكال .

والانفاق المذكور في الآية مطلق الانفاق في سبيل الله فإن السورة مكية ولم تنزل آية الزكاة بعد ، والمراد بالانفاق سرّاً وعلانية أن يجري الانفاق على ما يقتضيه الأدب الديني الحق فيسر به فيما يحسن الاسرار ويعلمن فيما يحسن الاعلان ، والمطلوب بذلك على أي حال الاتيان بما يصلح ما في مظنة الفساد ويقم أود المجتمع من أمور المسلمين .

ولا ينافي ما في هذه الآية من نفي المخالة قوله تعالى : « الأخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو إلا المتقين » الزخرف : ٦٧ فإن النسبة بين الآيتين نسبة العموم والخصوص المطلق فتخصص هذه الآية بتلك الآية ويتحصل المراد من الآيتين أن كل خلة من غير جهة التقوى ترتفع يوم القيامة ، وأما الخلة التي من جهتها وهي الخلة في ذات الله فإنها تثبت وتنفع فنفي الخلال مطلقاً ثم إثبات بعضه في الآيتين نظير نفي الشفاعة مطلقاً في قوله : « ولا خلة ولا شفاعة » البقرة : ٢٥٤ ثم إثباتها فيما كان بإذن الله كما في قوله : « إلا من شهد بالحق وهم يعلمون » الزخرف : ٨٦ .

وما قيل في نفي التنافي : إن المراد بالخلال في الآية النافية المخالة التي هي من الأسباب الدنيوية لتدارك ما فات بخلاف ما في الآية المثبتة ، وكذا ما قيل : إن المراد بالمخالة المنفية هي التي تكون بحسب ميل الطبع ورغبة النفس بخلاف المخالة المثبتة فإنها التي تكون في ذات الله ، مرجعها بالحقيقة إلى ما ذكرناه .

قوله تعالى : « الله الذي خلق السماوات والأرض » الخ ، لما ذكر سبحانه جعلهم الله أنداداً لإضلال الناس عن سبيل الله وأوعد عليه أورد في هذه الآية إلى تمام

ثلاث آيات الحجة على اختصاص الربوبية بنفسه تعالى وتقدس من طريق اختصاص التدبير العام به من نظم الخلقة وإنزال الماء وإخراج الرزق وتسخير البحار - الفلك - والأنهار والشمس والقمر والليل والنهار .

وأشار في آخر الآيات إلى أنها ومالا تخص من غيرها نعمة منه تعالى للإنسان لأن البيات في هذه السورة - كما تقدمت الإشارة إليه - يجري في ضوء الاسمين : العزيز الحميد .

فقوله : « الله الذي خلق » الخ ، في معنى قولنا : فهو الرب وحده دون الذين جعلتموهم أنداداً له .

. وقوله : « وأنزل من السماء ماء فأخرج به » الخ ، المراد بالسماء جهة العلو وهو معناها اللغوي ، والماء النازل منها هو المطر النازل منها فاله يفتي الماء في الأرض الذي تعيش به ذوات الحياة من النبات والحيوان .

قوله تعالى : « وسخر لكم الفلك لتجري في البحر بأمره وسخر لكم الأنهار » تسخير الفلك للناس هو جعلها بحيث تنفعهم في مقاصدهم وهي العبور بأنفسهم وأحلامهم وغير ذلك من غير أن ترسب في الماء أو تمتنع عن الحركة .

وأما قول بعضهم : تسخيرها لهم هو إقذارهم على صنعتها واستعمالها بإلهامهم طريق ذلك بعيد ، فإن الظاهر من تسخير شيء للإنسان هو التصرف فيه يجعله موافقاً لما يقصده من منافع نفسه دون التصرف في الإنسان نفسه بإلهام ونحوه .

وكان من طبع الكلام أن يقال : وسخر لكم البحر لتجري فيه الفلك بأمره وسخر لكم الأنهار غير أنه عكس ، وقيل : وسخر لكم الفلك لتجري في البحر بأمره لكون الفلك من أوضح النعم البحرية وإن لم تنحصر فيها نعمه ولعل ذلك هو السبب في العكس ، لأن المقام مقام عدّة النعمة والنعمة في الفلك أوضح وإن كانت في البحر أعظم .

وإسناد جريها في البحر إلى أمره تعالى مع كونه مستنداً إلى الأسباب الطبيعية العاملة كالرياح والبخار وسائر الأسباب ، لكونه تعالى هو السبب المحيط الذي إليه يفتي كل سبب .

وقوله : « وسخر لكم الأنهار ، وهي المياه الجارية في مختلف أقطار الأرض وتسخيرها هو تذليلها بحيث ينتفع بها الإنسان بالشرب والغسل وإزالة الأوساخ وغير ذلك ويعيش بها الحيوان والنبات المسخران له .

قوله تعالى : « وسخر لكم الشمس والقمر دائبين وسخر لكم الليل والنهار » قال الراغب : الدأب إدامة السير دأب في السير دأباً ، قال تعالى : « وسخر لكم الشمس والقمر دائبين » والدأب العادة المستمرة دائماً على حالة ، قال تعالى : « كدأب آل فرعون » أي كعادتهم التي يستمرون عليها . انتهى ، ومعنى الآية واضح .

قوله تعالى : « وآتاكم من كل ما سألتموه وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها إن الإنسان لظلوم كفار » السؤال هو الطلب ويفارقه أن السؤال إنما يكون ممن يعقل والطلب أعم وإنما تنبه الإنسان للسؤال من جهة الحاجة الداعية إليه فأظهر له أن يرفع ما حلت به من حاجة وكانت الوسيلة العادية إليه هي اللفظ فتوصل به إليه وربما توصل إليه بإشارة أو كتابة وسمي سؤالاً حقيقة من غير تجويز .

وإذ كان الله سبحانه هو الذي يرفع حاجة كل محتاج ممن سواه لا يتعلق شيء بذاته فيما يحتاج إليه في وجوده وبقائه إلا بذيل جوده وكرمه سواء أقر به أو أنكره وهو تعالى أعلم بهم وبحاجاتهم ظاهرة وباطنة من أنفسهم كان كل من سواه عاكفاً على باب جوده سائلاً يسأله رفع ما حلت به من حاجة سواء أعطاه أو منعه وسواء أجابه في جميع ما سأل أو بعضه .

هذا هو حق السؤال وحقيقته يختص به تعالى لا يتعداه إلى غيره ، ومن السؤال ما هو لفظي — كما تقدم — ربما يسأل به الله سبحانه وربها يسأل به غيره فهو تعالى مسئول يسأله كل شيء بحقيقة السؤال ويسأله بعض الناس من المؤمنين به بالسؤال اللفظي .

هذا بالنسبة إلى السؤال وأما بالنسبة إلى الإيتاء وهو الإعطاء فقد أطلق من غير أن يقيد باستثناء ونحوه فيدل على أنه ما من سؤال إلا وعنده إعطاء ، وهذه قرينة أن الخطاب للنوع كما يؤيده أيضاً قوله ذيل : « إن الإنسان لظلوم كفار » .

والمعنى : أن النوع الإنساني لم يحتج بنوعيته إلى نعمة من النعم إلا رفع الله حاجته

إما كلاً أو بعضاً وإن كان الفرد منه رباً احتاج وسأل ولم يقض حاجته .
وهذا المعنى هو الذي يؤيده قوله تعالى : « أجيب دعوة الداع إذا دعان »
البقرة : ١٨٦ فقد مرّ في تفسير الآية أنه تعالى لا يردّ دعاء من دعاه إلا أن لا يكون
دعاه حقيقة أو يكون دعاء إلا أنه ليس دعاءه بل دعاء غيره ، والفرد من الإنسان رباً
لم يواطىء لسانه قلبه أو لفى في دعائه لكن النوع بنوعيته لا يعرف هذراً ولا نفاقاً
ولا يعرف رباً غيره سبحانه فكلماً مسته حاجة فإنه يسأله حقيقة ولا يسأله إلا من
ربه فجميع أديته مستجابة وسؤالاته مؤداة وحاجاته مقضية .

وقد ظهر مما تقدم أن « من » في قوله : « من كل ما سألتموه » ابتدائية تفيد
أن الذي يؤتيه الله مأخوذ مما سأله سواء كان جميع ما سأله كما في بعض الموارد أو
بعضه كما في بعضها الآخر ، ولو كانت من تبعية لأفادت أنه تعالى يؤتي في كل سؤال
بعض المسئول والواقع خلافه كما أنه لو قيل : وآتاكم كل ما سألتموه أفاد إتياء الجميع
وليس كذلك ، ولو قيل : مما سألتموه أفاد أن من الجائز أن لا يستجاب بعض الأدعية
ويرد بعض الأسئلة من أصله والآية - وهي في مقام الامتنان - تأبى ذلك .

فبالجملة معنى الآية أن الله تعالى أعطى النوع الإنساني ما سأله فما من حاجة من
حوائجه إلا رفع كلها أو بعضها حسب ما تقتضيه حكته البالغة .

وربما قيل : إن تقدير الكلام : وآتاكم من كل ما سألتموه وما لم تسأله وهو
مبني على كون المراد بالسؤال هو السؤال اللفظي وقد تقدم خلافه ، وسياق
الآية لا يساعد عليه .

وقوله : « وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها » قال الراغب : الإحصاء : التحصيل
بالعدد يقال : أحصيت كذا وذلك من لفظ الحصى واستعمال ذلك فيه من حيث إنهم
كانوا يعتمدونه بالعد كاعتقادنا فيه على الأصابع . انتهى .

وفي الجملة إشارة إلى خروج النعم عن طوق الإحصاء ولازمه كون حوائج الإنسان
التي رفعها الله بنعمه غير مقدور للإنسان إحصاؤها .

وكيف يمكن إحصاء نعمه تعالى وعالم الوجود بجميع أجزائه وما يلحق بها من
الأوصاف والأحوال مرتبطة منتظمة نافع بعضها في بعض متوقف بعضها على بعض ،

فجميع نعمه بالنسبة الى الجميع وهذا أمر لا يحيط به إحصاء .

ولعل ذلك هو السر في إفراد النعمة في قوله : « نعمة الله » فإن الحق أن ليس هناك إلا النعمة فلا حاجة الى تفخيمها بالجمع ليدلّ على الكثرة ، والمراد بالنعمة جنس المنعم فيفيد ما يفيد الجمع .

وقوله : « إن الإنسان لظلوم كفّار » أي كثير الكفران يظلم نفسه فلا يشكر نعمة الله ويكفر بها فيؤدّي ذلك الى البوار والخسران ، أو كثير الظلم لنعم الله لا يشكرها ويكفر بها ، والجملة استئناف بياني يؤكّد بها ما يستفاد من البيان السابق ، فإن الواقف على ما مرّ بيانه من حال نعمه تعالى وما آتى الإنسان من كل ما سأله منها لا يرتاب في أن الإنسان وهو غافل عنها طبعاً ظالم لنفسه كافر بنعمة ربه .

(بحث روائي)

في الدرّ المنثور أخرج الترمذي والنسائي والبزار وأبو يعلى وابن جرير وابن أبي حاتم وابن حبان والحاكم وصحّحه وابن مردويه عن أنس قال : أتى رسول الله ﷺ بقناع من بسر فقال : مثل كلمة طيبة كشجرة طيبة - حتى بلغ - تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها . قال : هي النخلة . ومثل كلمة خبيثة كشجرة خبيثة - حتى بلغ - ما لها من قرار . قال : هي الحنظلة .

أقول : وكون الشجرة الطيبة هي النخلة مروي في عدة روايات عنه ﷺ ، وهي لا تدلّ على أزيد من انطباق المثل عليها ، وذيل الرواية ينافي الرواية التالية .

وفيه أخرج ابن مردويه عن أبي هريرة قال : قعد ناس من أصحاب رسول الله ﷺ فذكروا هذه الآية : اجتثت من فوق الأرض ما لها من قرار فقالوا : يا رسول الله نراه الكأّة ، فقال رسول الله ﷺ : الكأّة من المن وماؤها شفاء للعين ، والعجوة من الجنة وهي شفاء من السم .

أقول : والكلام يجري في الحنظلة فإن لها خواص طيبة هامة .

وفيه أخرج البيهقي في سننه عن عليّ قال : الحين ستة أشهر .

أقول : والكلام فيه كالكلام في سابقه .

وفي الكافي بإسناده عن عمرو بن حريث قال : سألت أبا عبد الله عليه السلام عن قول الله : « كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء » قال : فقال : رسول الله صلى الله عليه وآله أصلها وأمير المؤمنين فرعها والأئمة من ذريتها أغصانها وعلم الأئمة ثمرتها وشيعتهم المؤمنون ورقها ، هل في هذا فضل ؟ قال : قلت : لا والله . قال : والله إن المؤمن ليولد فتورق ورقة فيها ، وإن المؤمن ليموت فتسقط ورقة منها .

أقول : والرواية مبنية على كون المراد بالكلمة الطيبة هو النبي صلى الله عليه وآله ، وقد أطلقت الكلمة في كلامه على الإنسان كقوله : « بكلمة منه اسمه المسيح عيسى بن مريم » آل عمران : ٤٥ ، ومع ذلك فالرواية من باب التطبيق ومن الدليل عليه اختلاف الروايات في كيفية التطبيق ففي بعضها أن الأصل رسول الله صلى الله عليه وآله والفرع علي عليه السلام والأغصان الأئمة عليهم السلام والثمرات علمهم والورق الشيعة كما في هذه الرواية ، وفي بعضها أن الشجرة رسول الله صلى الله عليه وآله وفرعها علي والغصن فاطمة وثمرها أولادها وورقها شيعة كما فيما رواه الصدوق عن جابر عن أبي جعفر عليه السلام ، وفي بعضها أن النبي والأئمة هم الأصل الثابت والفرع الولاية لمن دخل فيها كما في الكافي بإسناده عن محمد الحلبي عن أبي عبد الله عليه السلام .

وفي المجمع روى أبو الجارود عن أبي جعفر عليه السلام أن هذا - يعني قوله : كشجرة خبيثة النخ - مثل بني أمية .

وفي تفسير العياشي عن عبد الرحمن بن سالم الأشل عن أبيه عن أبي عبد الله عليه السلام « ضرب الله مثلاً كلمة طيبة كشجرة طيبة » الآيتين قال : هذا مثل ضربه الله لأهل بيت نبيه صلى الله عليه وآله ، ولئن عاداهم هو مثل كلمة خبيثة كشجرة خبيثة اجتثت من فوق الأرض ما لها من قرار .

أقول : قال الآلوسي في تفسير روح المعاني ما لفظه : وروى الإمامية وأنت تعرف حالهم عن أبي جعفر رضي الله عنه تفسيرها - يعني الشجرة الخبيثة - ببني أمية وتفسير الشجرة الطيبة برسول الله صلى الله عليه وآله وعلي كرم الله وجهه وفاطمة رضي الله عنها وما تولد منها ، وفي بعض روايات أهل السنة ما يعكس على تفسير الشجرة

الحبيشة ببني أمية ، فقد أخرج ابن مردويه عن عدي بن حاتم قال : قال رسول الله ﷺ : إن الله تعالى قلب العباد ظهراً وبطناً فكان خير عباده العرب وقلب العرب ظهراً وبطناً فكان خير العرب قريشاً وهي الشجرة المباركة التي قال الله تعالى في كتابه « مثل كلمة طيبة كشجرة طيبة » لأن بني أمية من قريش . انتهى موضع الحاجة .

وهو عجيب فإن كون أمة أو طائفة مباركة بحسب طبعهم لا يوجب كون جميع الشعب المنشعبة منها كذلك فالرواية على تقدير تسليمها لا تدل إلا على أن قريشاً شجرة مباركة وأما أن جميع الشعب المنشعبة منها مباركة طيبة كبني عبد الدار مثلاً أو كون كل فرد منهم كذلك كأبي جهل وأبي لهب فلا قطعاً فأي ملازمة بين كون شجرة بحسب أصلها مباركة طيبة وبين كون بعض فروعها التي انفصلت منها ونمت نماءً فاسداً ، مباركة طيبة ؟

وقد روى ابن مردويه هذا عن عائشة أنها قالت لمروان بن الحكم : سمعت رسول الله ﷺ يقول لأبيك وجدك : إنكم الشجرة الملعونة في القرآن .

وروى أصحاب التفسير كالطبري وغيره عن سهل بن ساعد وعبد الله بن عمر ويعلى بن مرة والحسين بن علي وسعيد بن المسيب أنهم الذين نزل فيهم قوله تعالى : « وما جعلنا الرؤيا التي أريناك إلا فتنة للناس والشجرة الملعونة في القرآن » الآية ، ولفظ سعد : رأى رسول الله ﷺ بني فلان ينزون على منبره نزو القردة فساء ذلك فما استجمع ضاحكاً حتى مات ، وأنزل الله : « وما جعلنا الرؤيا » الآية .

وستأتي الرواية عن عمرو بن علي في تفسير قوله : « الذين بدلوا نعمة الله كفراً » أنهم الأفجران من قريش بنو المغيرة وبنو أمية .

وفي تفسير العياشي عن صفوان بن مهران عن أبي عبد الله عليه السلام قال : الشيطان ليأتي الرجل من أوليائنا فيأتيه عند موته ويأتيه عن يمينه وعن يساره ليصدّه عما هو عليه فيأبى الله ذلك ، وكذلك قال الله : « يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة » .

وفيه عن زرارة وحمran ومحمد بن مسلم عن أبي جعفر وأبي عبد الله عليه السلام قالوا : إذا وضع الرجل في قبره أتاه ملكان ملك عن يمينه وملك عن شماله وأقيم الشيطان بين

يديه عيناه من نحاس فيقال له : ما تقول في هذا الرجل الذي خرج من بين ظهرانيكم يزعم أنه رسول الله ؟ فيفزع لذلك فزعة فيقول إن كان مؤمناً : محمد رسول الله فيقال عند ذلك : ثم نومة لا حلم فيها ويفسح له في قبره تسعة أذرع ويرى مقعدة من الجنة وهو قول الله : « يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا » وإن كان كافراً قالوا : من هذا الرجل الذي كان بين ظهرانيكم يقول : إنه رسول الله ؟ فيقول : ما أدري فيخلى بينه وبين الشيطان .

وفي الدر المنثور أخرج الطيالسي والبخاري ومسلم وأبو داود والترمذي والنسائي وابن ماجه وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه عن البراء بن عازب أن رسول الله ﷺ قال : المسلم إذا سئل في القبر يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله فذلك قوله سبحانه : « يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة » .

وفيه أخرج الطبراني في الأوسط وابن مردويه عن أبي سعيد الخدري سمعت رسول الله ﷺ يقول في هذه الآية : « يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة » قال : في الآخرة القبر .

أقول : وهناك روايات كثيرة من طرق الشيعة وأهل السنة وردت في تفصيل سؤال القبر وإثبات الملكين منكر ونكير وثبات المؤمن وضلال الكافر عند ذلك وقد وقع في كثير منها التمسك بالآية .

وظاهرها أن المراد بالآخرة هو القبر وعالم الموت ، ولعل ذلك مبني على ظاهر معنى التثبيت فإن الظاهر من إعطاء الثبات أن يكون في مقام يجوز فيه الزلل والخطأ ، وهذا إنما يتصور في غير يوم القيامة الذي ليس فيه إلا المجازاة بالأعمال وأما بالنظر إلى أن كل ثابت في الوجود فلانما ثباته بالله سبحانه سواء كان مما يجوز عليه الزوال أم لا فلا فرق بين البرزخ والقيامة في أن المؤمن ثابت بتثبيت الله سبحانه والأولى أخذ الروايات من قبيل التطبيق .

وفي تفسير العياشي عن الأصبغ بن نباتة قال : قال أمير المؤمنين عليه السلام في

قوله : « ألم ترَ إلى الذين بدلوا نعمة الله كفراً » قال : نحن نعمة الله التي أنعم الله بها على العباد .

أقول : وهو من الجري والتطبيق .

وفيه عن معصم المسرف عن علي بن أبي طالب عليه السلام في قوله : « وأحلوا قومهم دار البوار » قال : هما الأفجران من قريش بنو أمية وبنو المغيرة .

أقول : ورواه أيضاً في البرهان عن ابن شهر آشوب عن أبي الطفيل عنه عليه السلام .

وفي الدر المنثور أخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والطبراني في الأوسط وابن مردويه والحاكم وصححه من طرق عن علي بن أبي طالب في قوله : « ألم ترَ إلى الذين بدلوا نعمة الله كفراً » قال : هما الأفجران من قريش بنو أمية وبنو المغيرة فأما بنو المغيرة فقطع الله دابرهم يوم بدر وأما بنو أمية فتمتعوا إلى حين .

أقول : وهو مروي عن عمر كما يأتي .

وفيه أخرج البخاري في تاريخه وابن جرير وابن المنذر وابن مردويه عن عمر بن الخطاب في قوله : « ألم ترَ إلى الذين بدلوا نعمة الله كفراً » قال : هما الأفجران من قريش بنو المغيرة وبنو أمية ، فأما بنو المغيرة فكفيتهم يوم بدر ، وأما بنو أمية فتمتعوا إلى حين .

وفيه أخرج ابن مردويه عن ابن عباس أنه قال لعمر : يا أمير المؤمنين هذه الآية : « الذين بدلوا نعمة الله كفراً » قال : هم الأفجران من قريش أخوالي وأعمامك فأما أخوالي فاستأصلهم الله يوم بدر وأما أعمامك فأملى الله لهم إلى حين .

وفي تفسير العياشي عن ذريح عن أبي عبد الله عليه السلام قال : سمعته يقول : جاء ابن الكواء إلى أمير المؤمنين عليه السلام فسأله عن قول الله : « ألم ترَ إلى الذين بدلوا » الآية قال : تلك قريش بدلوا نعمة الله كفراً وكذبوا نبية يوم بدر .

أقول : واختلاف التطبيق في كلامه عليه السلام من الشاهد على أنه من باب بيان انطباق الآية لا من قبيل سبب النزول .

وفي الكافي عن علي بن محمد عن بعض أصحابه رفعه قال : كان علي بن الحسين عليه السلام إذا قرأ هذه الآية : « وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها » يقول : سبحان الذي لم

يجعل في أحد من معرفة نعمه إلا المعرفة بالتقصير عن معرفتها كما لم يجعل في أحد [من ظ] معرفة إدراكه أكثر من العلم أنه لا يدركه فشكر جل وعز معرفة العارفين بالتقصير عن معرفة شكره فجعل معرفتهم بالتقصير شكراً كما علم علم العالمين أنهم لا لا يدركونه فجعله علماً . الحديث .

* * *

وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ - ٣٥ . رَبِّ إِنَّهُمْ أَضَلَلَنَ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ - ٣٦ . رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْتِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ - ٣٧ . رَبَّنَا إِنَّكَ نَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ وَمَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ - ٣٨ . الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعٌ الدُّعَاءِ - ٣٩ . رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ - ٤٠ . رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ - ٤١ .

(بيان)

تتضمن الآيات تذكرة ثانية بحملة من نعمه عقيب التذكرة الاولى التي يتضمنها قوله : « وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنْجَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ » الآية

فذكر سبحانه أولاً نعمته على جمع من عباده المؤمنين وهم بنو إسرائيل من ولد إبراهيم ثم ذكر ثانياً نعمته على جمع آخر منهم وهم بنو إسماعيل من ولد إبراهيم وهي التي يتضمنها دعاء إبراهيم عليه السلام : « رب اجعل هذا البلد آمناً » إلى آخر دعائه وفيها نعمة توفيقه تعالى لهم أن يجتنبوا عبادة الأصنام ونعمة الأمن بمكة وميل الأقدرة إلى أهله ورزقهم من الثمرات وغير ذلك كل ذلك لأن الله سبحانه هو العزيز الحميد .

قوله تعالى : « وإذ قال إبراهيم رب اجعل هذا البلد آمناً » أي واذكر إذ قال إبراهيم والإشارة إلى مكة شرفها الله تعالى .

وقد حكى الله سبحانه نظير هذا الدعاء على اختصار فيه عن إبراهيم عليه السلام في موضع آخر بقوله : « وإذ قال إبراهيم رب اجعل هذا بلداً آمناً وارزق أهله من الثمرات من آمن منهم بالله واليوم الآخر قال ومن كفر فامتعه قليلاً ثم اضطره إلى عذاب النار وبئس المصير » البقرة : ١٢٦ .

ومن الممكن أن يستفاد من اختلاف الحكيتين في التعبير أعني قوله : « اجعل هذا بلداً آمناً » وقوله : « اجعل هذا البلد آمناً » أنها دعاءان دعا عليهما في زمانين مختلفين ، وأنه بعد ما أسكن إسماعيل وأمه أرض مكة ورجع إلى أرض فلسطين ثم عاد إليها وجد من إقبال جرهم إلى مجاورتها مكاناً ما سرّ بذلك فدعا عند ذلك مشيراً إلى مكانهم « رب اجعل هذا بلداً آمناً » فسأل ربه أن يجعل المكان بلداً ولم يكن به وأن يرزق أهله المؤمنين من الثمرات ، ثم لما عاد إليهم بعد ذلك بزمان وحد المكان بلداً فسأل ربه أن يجعل البلد آمناً .

وبما يؤيد كونها دعاءين ما فيها من الاختلاف من غير هذه الجهة ففي آية البقرة الدعاء لأهل البلد بالرزق من الثمرات وفي الآيات المبحوث عنها الدعاء بذلك لذريته خاصة مع أمور أخرى دعا بها لهم .

وعلى هذا يكون هذا الدعاء المحكي عن إبراهيم عليه السلام في هذه الآيات آخر ما أورده الله تعالى في كتابه من كلام إبراهيم عليه السلام ودعائه ، وقد دعا به بعد ما أسكن إسماعيل وأمه بها وجاورتها قبيلة جرهم وبنى البيت الحرام وبنيت بلدة مكة بأيدي القاطنين هناك كما تدل عليه فقرات الآيات .

وعلى تقدير أن يكون المحكيان دعاء واحداً يكون قوله : « رب اجعل » الخ تقديره : رب اجعل هذا البلد بلداً آمناً وقد حذف في إحدى الآيتين المشار إليه وفي الاخرى الموصوف اختصاراً .

والمراد بالأمن الذي سأله ﷺ الأمن التشريعي دون التكويني - كما تقدم في تفسير آية البقرة - فهو يسأل ربه أن يشرع لأرض مكة حكم الحرم والأمن ، وهو - على خلاف ما ربما يتوهم - من أعظم النعم التي أنعم الله بها على عباده فلما لو تأملنا هذا الحكم الإلهي الذي شرعه إبراهيم ﷺ بإذن ربه أعني حكم الحرم والأمن وأمعنا فيما يعتقده الناس من تقديس هذا البيت العتيق وما أحاط به من حرم الله الأمن وقد ركز ذلك في نفوسهم منذ أربعة آلاف سنة حتى اليوم وجدنا ما لا يحصى من الخيرات والبركات الدينية والدنيوية عائدة إلى أهلها وإلى سائر أهل الحق ممن يحن إليهم ويتعلق قلبه بهم ، وقد ضبط التاريخ من ذلك شيئاً كثيراً وما لم يضبط أكثر فعمله تعالى مكة بلداً آمناً من النعم العظيمة التي أنعم الله بها على عباده .

قوله تعالى : « واجنبني وبني » أنت نعبد الأصنام رب إنهن أضللن كثيراً من الناس - إلى قوله - غفور رحيم ، يقال : جنبه وأجنبه أي أبعده ، وسؤاله ﷺ أن يجنبه الله ويبعده وبنيه من عبادة الأصنام لئلا والتجاء إليه تعالى من الإضلال الذي نسب إليه في قوله : « رب إنهن أضللن » الخ .

ومن المعلوم أن هذا الإبعاد والإجنب منه تعالى كيفما كان وأياً ما كان تصرف ما وتأثير منه تعالى في عبده بنحو ، غير أنه ليس بنحو يؤدي إلى الإلجاء والاضطرار ولا ينجر إلى القهر والإجبار بسلب صفة الاختيار منه إذ لا مزية لمثل هذا الابتعاد حتى يسأل ذلك مثل إبراهيم خليل الله .

فرجع بالحقيقة إلى ما تقدم في قوله تعالى : « يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت » الآية ، أن كل خير من فعل أو ترك فإنه منسوب إليه تعالى أولاً ، ثم إلى العبد ثانياً بخلاف الشر من فعل أو ترك فإنه منسوب إلى العبد ابتداءً ولو نسب إليه تعالى فإنما ينسب إذا كان على سبيل المجازاة ، وقد أوضحنا ذلك .

فالاجتناب من عبادة الأصنام إنما يتحقق عن إجنباب من الله رحمة منه لعبده وعناية ، وليس في الحقيقة إلا أمراً تلبس واتصف به العبد غير أنه إنما يملكه بتعليمك

الله سبحانه فهو المالك له بذاته والعبد يملكه بأمر منه وإذن كما أن العبد إنما يهتدي عن هداية من الله ، وليس هناك إلا هدى واحد لكنه مملوك لله سبحانه لذاته والعبد إنما يملكه بتمليك منه سبحانه ، وأبسط كلمة في هذا المعنى ما وقع في أخبار آل العصمة أن الله يوفق عبده لفعل الخير وترك الشر هذا .

فتلخص أن المراد بقوله ﷺ « واجنبي » سؤال ما لله سبحانه من الصنع في ترك العبد عبادة الأصنام ، وبعبارة أخرى هو يسأل ربه أن يحفظه وبنيه من عبادة الأصنام ويهديهم إلى الحق إن هم عرضوا أنفسهم لذلك وأن يفيض عليهم إن استفاضوا لا أن يحفظهم منها سواء عرضوا لذلك أنفسهم أو لم يعرضوا وأن يفيض عليهم سواء استفاضوا أو امتنعوا فهذا معنى دعائه ﷺ .

ومنه يعلم أن نتيجة الدعاء لبعض المدعويين لهم وإن كان بلفظ يستوعب الجميع ، وهذا البعض هم المستعدون لذلك دون المعاندين والمستكبرين منهم وسنزيده بياناً .

ثم هو ﷺ يدعو بهذا الدعاء لنفسه وبنيه : « واجنبي وبنيتي أن نعبد الأصنام » وبنوه جميع من جاء من نسله بعده وهم بنو إسماعيل وبنو إسحاق فإن الابن كما يطلق على الولد من غير واسطة كذلك يطلق على غيره ، ويصدق ذلك القرآن الكريم قال تعالى : « ملة أبيكم إبراهيم » الحج : ٧٨ وقد تكرر إطلاق بني إسرائيل على اليهود في نيف وأربعين موضعاً من كلامه تعالى .

فهو ﷺ يسأل البعد عن عبادة الأصنام لنفسه وجميع من بعده من بنيه بالمعنى الذي تقدم ، اللهم إلا أن يقال : إن قرائن الحال والمقال تدل على اختصاص الدعاء بآل إسماعيل القاطنين بالحجاز فلا يعم بني إسحاق .

ثم عقب ﷺ دعاءه : « واجنبي وبنيتي أن نعبد الأصنام » بقوله : « رب إنهن أضللن كثيراً من الناس » وهو في مقام التعليل لدعائه ، وقد أعاد النداء : « رب » إثارة للرحمة الإلهية ، أي إني إنما أسألك أن تبعدني وبنيتي عن عبادتهن لأنهن أضللن كثيراً من الناس ونسبة الاضلال إلى الأصنام لمكان الربط الذي بين الضلال وبينهن وإن لم يكن ارتباطاً شعورياً وليس من اللازم في نسبة أي فعل أو أثر إلى شيء أن يقوم به قياماً شعورياً وهو ظاهر .

ثم قوله **فَمَنْ تَبِعْنِي فَإِنَّهُ مِنِّي** : « فمن تبعني فإنه مني ومن عصاني فإنك غفور رحيم » تفريع على ما تقدم من كلامه أي إذا كان كثير من الناس أضلهم الأصنام بعبادتهم واستعدت بك وعرضت نفسي وبني عليك أن تجنبنا من عبادتهم افترقنا نحن والناس طائفتين : الضالون عن طريق توحيدك والعارضون لأنفسهم على حفظك وإجنبابك فمن تبعني « الخ » .

وقد عبّر **فَمَنْ تَبِعْنِي** في تفريعه بقوله : « فمن تبعني » والإتباع إنما يكون في طريق - وقد لوّح إلى الطريق أيضاً بقوله : « أضللن » لأن الضلال إنما يكون عن الطريق - فمراده باتباعه التدين بدينه والسير بسيرته لا مجرد الاعتقاد بوحدايته تعالى بل سلوك طريقته المبنية على توحيد الله سبحانه ليكون في ذلك عرض النفس على رحمته تعالى وإجنبابه من عبادة الأصنام .

ومن الدليل على كون المراد بالاتباع هو سلوك سبيله قوله في ما يعادله من كلامه : « ومن عصاني » فإنه نسب العصيان إلى نفسه ولم يقل : ومن كفر بك أو عصاك أو فسق عن الحق ونحو ذلك كما لم يقل : فمن آمن بك أو أطاعك أو اتقاك وما أشبهه . فمراده باتباعه سلوك طريقه والتدين بجميع ما أتى به من الاعتقاد والعمل وبمعصياته ترك سيرته وما أتى به من الشريعة اعتقاداً وعملًا كأنه **فَمَنْ تَبِعْنِي** يقول : من تبعني وعمل بشريعتي وسار بسيرتي فإنه ملحق بي ومن أبثاني تنزيلاً أسألك أن تجنبني وإياه أن نعبد الأصنام ، ومن عصاني بترك طريقتي كلها أو بعضها سواء كان من بني أو غيرهم فلا ألحقه بنفسي ولا أسألك إجنبابه وإبعاده بل أخلتي بينه وبين مغفرتك ورحمتك .

ومن هنا يظهر أولاً أن قوله **فَمَنْ تَبِعْنِي** : « فمن تبعني فإنه مني ومن عصاني فإنك غفور رحيم » تفسير لقوله : « واجنبني وبني أن نعبد الأصنام » بالتصرف في البنين تعميماً وتخصيصاً فهو كتعميم البنين لكل من تبعه من جهة وتخصيصه بالعاصين له منهم من جهة أخرى فليسوا منه ولا ملحقين به ، وبالجملة هو **فَمَنْ تَبِعْنِي** يلحق الذين اتبعوه من بعده بنفسه وأما غير متبعيه فيخلّي بينهم وبين رحيم الغفور الرحيم كما قال تعالى : « إن أولى الناس بإبراهيم للذين اتبعوه وهذا النبي والذين آمنوا » آل عمران : ٦٨ .

وهذه التوسعة والتضييق منه **فَمَنْ تَبِعْنِي** نظير مجموع ما وقع منه ومن ربه في الفقرة

الآخرى من دعائه على ما يحكيه آية البقرة : « وارزق أهله من الثمرات من آمن منهم بالله واليوم الآخر قال ومن كفر فامتعه قليلاً ثم أضطره إلى عذاب النار وبئس المصير » حيث سأل الرزق أولاً لأهل البلد ثم خصه لمن آمن منهم فعممه الله سبحانه بقوله : « ومن كفر » ثانياً .

وثانياً : أن من الممكن أن يستفاد من قوله ﷺ فيمن تبعه : إنه مني وسكوته فيمن عصاه بعد ما كان دعاؤه في نفسه وبنيه أن ذلك تبين منه لكل من تبعه وإلحاق له بنفسه ، ونفي لكل من عصاه عن نفسه وإن كان من بنيه بالولادة ، أو إلحاق لتابعيه بنفسه مع السكوت عن غيرهم بناء على عدم صراحة السكوت في النفي .

ولا إشكال في ذلك بعد ظهور الدليل فإن الولادة الطبيعية لا يجب أن تكون هي الملاك في النسب إثباتاً ونفياً ، ولا تجد واحدة من الأمم يقتصرون في النسب إثباتاً ونفياً على مجرد الولادة الطبيعية بل لا يزالون يتصرفون بالتوسعة والتضييق للإسلام أيضاً تصرفات في ذلك كنفي الدعي والمولود من الزنا والكافر والمتردد وإلحاق الرضيع والمولود على الفراش إلى غير ذلك ، وفي كلامه تعالى في ابن نوح : « إنه ليس من أهلك إنه عمل غير صالح » هود : ٤٦ .

وثالثاً : أنه ﷺ وإن لم يسأل المغفرة والرحمة صريحاً لمن عصاه وإنما عرضهم للمغفرة والرحمة بقوله : « ومن عصاني فإنك غفور رحيم » لكنه لا يخلو عن إيماء ما إلى الطلب لمن ترك طريقته وسيرته التي تعد الإنسان للرحمة الإلهية بحفظه من عبادة الأصنام ، وهذا المقدار من المعصية لا يمنع عن شمول الرحمة وإن لم يكن مقتضياً أيضاً لذلك ، وليس المراد به نفس الشرك بالله حتى ينافي سؤال المغفرة كما قال تعالى : « إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء » النساء : ١١٦ .

هذا محصل ما يعطيه التدبر في الآيتين الكريمتين وهو في معزل عما استشكله المفسرون في أطراف الآيتين ثم ذهبوا في التخلص عنه مذاهب شتى بعيدة عن الذوق السليم .

فقد استشكلوا أولاً قوله ﷺ : « واجنبني وبنيتي » أن نعبد الأصنام ، من حيث إن ظاهره سؤال الحفظ عن عبادة الأصنام لنفسه وبنيه جميعاً فيكون دعاء غير مستجاب فإن قريشاً من بنيه وقد كلنوا وثنيين يعبدون الأصنام ، وكيف يمكن أن يدعو

مثل الخليل عليه السلام ثم لا يستجاب له؟ أم كيف يمكن أن يذكر تعالى دعاءه وهو لغو غير معني به ثم لا يذكر رده على خلاف مسلك القرآن في جميع المواضع المشابهة؟ ثم كيف يمكن أن يسأل لنفسه المصونية والعصمة عن عبادة الأصنام وهو نبي والأنبياء معصومون؟ وقد قيل في الجواب عن إشكال عدم استجابة دعائه في بنيه أن المراد ببنيه أبناءه بلا واسطة كإسماعيل وإسحاق وغيرهما وقد استجيب دعاؤه فيهم ، وقيل : المراد الموجودون من بنيه وقت الدعاء وهم موحدون ، وقيل : إن الله قد استجاب دعاءه في بعض بنيه دون بعض ولا نقص فيه .

وقيل : إن المشركين من بنيه لم يكونوا يعبدون الأصنام وإنما كانوا يتخذونها شفعاء ، وقيل : إنهم كانوا يعبدون الأوثان دون الأصنام وبينهما فرق فإن الأصنام هي التماثيل المصورة والأوثان هي التماثيل غير المصورة ، وقيل : إنهم ما كانوا يعبدون الأصنام بل كان الواحد منهم ينصب حجراً ويقول : هذا حجر والبيت حجر ، فكان يدور حوله ويسمونه الدوار .

وسقوط هذه الوجوه ظاهرة : أما الأول والثاني فلكونها خلاف ظاهر اللفظ وأما الثالث فلأن الإشكال ليس في ورود نقص على النبي بعدم استجابة دعائه أو بعضه لحكمة بل من جهة منافاته لمسلك القرآن في حكاية لغو الكلام من غير رده ، وأما باقي الوجوه فلأن ملاك الضلال في عبادة الأصنام هو شرك العبادة وهو موجود في جميع ما افترضوه من الوجوه .

وقيل في الجواب عن إشكال سؤال النبي الإبعاد والإجناب عن الشرك وهو نبي معصوم : أن المراد الثبات والدوام على ذلك ، وقيل : إنه عليه السلام ذكر ذلك هضماً لنفسه وإظهاراً للحاجة إلى فضله تعالى ، وقيل : المراد سؤال الحفظ عن الشرك الخفي وإلا فالأنبياء مصنونون عن الشرك الجلي هذا .

وهذه وجوه ردئية ، أما الأول فلأنه لا ينحسم به مادة الإشكال إذ العصمة والمصونية كما أنها لازمة للنبوّة حدوثاً لازمة لها بقاء فلو لم يصح للنبي أن يسأل حدوثها لمكان اللزوم لم يصح له أن يسأل بقاءها لذلك بعينه ، والأصل في جوابهم هذا أنهم يزعمون انفصال الفيض عن المفيض واستقلال المستفيض فيما استفاضه بمعنى أن الله سبحانه

إذا أفاض بشيء على شيء خرج ما أفاضه من ملكه ووقع في ملك المستفيض ولا معنى للسؤال ممن لا يملك وإذا قضى سبحانه بشيء حدوثاً أو بقاء قضاء حتم لا يتغير عما هو عليه فإنه لا يتعلق على خلافه قدرة ولا مشيئة وهو خطأ فإن الحاجة من جانب المستفيض باقية على حالها قبل الإفاضة لا تختلف أصلاً وملكه تعالى باقٍ بعد الإفاضة على ما كان عليه قبلها ولا يزال سبحانه قادراً له أن يشاء ما يشاء وإن كان لا يشاء فيها قضى بخلافه قضاء حتم ، والسؤال والطلب من آثار الحاجة لا من آثار فقدان قافهم ذلك وقد أشبعنا القول في هذا المعنى في المباحث المتقدمة مراراً .

وأما الثاني فلأن هضم النفس إنما يستقيم في غير الضروريات وأما الأمور الضرورية فلا ، فلا معنى لقول القائل : لست إنساناً وهو يريد نفي الماهية هضمًا لنفسه اللهم إلا أن يريد نفي الكمال وكذا القول في إظهار الحاجة وهم لا يرون في الأمور الضرورية المحتومة كالعصمة في الأنبياء حاجة .

وأما الثالث فلأن الشرك الخفي هو الركون والتوجه إلى غير الله على مراتبه ، وإبراهيم عليه السلام يعطل قوله : « واجتنبني » الخ بقوله : « إنهن أضللن » الخ فهو إنما يسأل الإبعاد من عبادة هذه الأصنام وهي الشرك الجلي دون الحفظ عن الركون والتوجه إلى غير الله تعالى اللهم إلا أن يدعى أن المراد بالصنم كل ما يتوجه إليه غير الله سبحانه ، وكذا المراد بالعبادة مطلق التوجه والالتفات وهو دعوى لا دليل عليها .

ثم استشكلوا في قوله عليه السلام : « ومن عصاني فإنك غفور رحيم » من حيث اشتماله على طلب المغفرة للمشركين ، ولا تتعلق المغفرة بالشرك بنص قوله تعالى : « إن الله لا يغفر أن يُشرك به » الآية .

وقد قيل في الجواب عن الإشكال : إن الشرك كان جائزاً للمغفرة في الشرائع السابقة وإنما رفع ذلك في هذه الشريعة بقوله : « إن الله لا يغفر أن يُشرك به » الآية فأبراهيم عليه السلام جرى في دعائه على ما كان عليه الأمر في شريعته .

وقيل : إن المراد : « ومن عصاني فإنك غفور رحيم » له بعد توبته ففي الكلام قيد محذوف ، وقيل : المراد « ومن عصاني وأقام على الشرك فإنك غفور رحيم » بأن تنقله من الشرك إلى التوحيد فتغفر له وترحمه .

وقيل : المراد بالمغفرة والرحمة الستر على الشرك في الدنيا والرحمة بعدم معالجة العقاب فالمعنى ومن عصاني بالإقامة على الشرك فاستر عليه ذلك وارحمه بتأخير العقاب عنه ، وقيل : إن الكلام على ظاهره وكان ذلك منه ﷺ قبل أن يعلم أن الله لا يغفر الشرك ، ولا نقص يحل ذلك لأن مغفرة الشرك جائزة عقلاً وإنمسا منع منها الدليل السمعي وليس من الواجب أن يعلم بجميع الأدلة السمعية في يوم واحد ، وقيل : المراد بالمعصية ما دون الشرك .

وهذه أجوبة فاسدة أما الأول : فلأن دعوى كون الشرك جائز المغفرة في الشرائع السابقة دعوى لا دليل عليها بل الدليل على خلافها فقد خاطب الله آدم ﷺ بمثل قوله : - وهو أول الشرائع السابقة - « والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون » البقرة : ٣٩ ، وحكى عن المسيح ﷺ وشريعته آخر الشرائع السابقة قوله : « إنه من يشرك بالله فقد حرم الله عليه الجنة ومأواه النار وما للظالمين من أنصار » المائدة : ٧٢ ، والتدبر في آيات القيامة والجنة والنار وفي آيات الشفاعة وفي دعوات الأنبياء المحكية في القرآن لا يدع شكاً في أن الشرك لا نجاة لصاحبه بشفاعة أو غيره إلا بالتوبة قبل الموت .

وأما الثاني فلأن تقييد المغفرة والرحمة بالتوبة تقييد من غير مقيد على أن تقييد المعصية بالتوبة يفسد المعادلة في قوله : « فمن تبعني فإنه مني ومن عصاني » الخ ، فإن العاصي التائب يعود من تبعه ويلحق به ﷺ فلا يبقى للمعادلة أزيد من طرف واحد .

وأما الثالث والرابع فلما فيها من ارتكاب خلاف الظاهر فإن ظاهر طلب المغفرة للعاصي أن يغفر الله له حينما هو عاص لا أن يغفر الله له بعد خروجه بالتوبة عن المعصية إلى الطاعة وكذا ظاهر مغفرة العصيان رفع تبعات معصيته مطلقاً أو في الآخرة ، وأما رفع التبعة الدنيوية فقط فأمر بعيد عن الفهم .

وأما الخامس فهو أبعد الوجوه ، وكيف يجوز الاجترار على مثل الخليل ﷺ وهو في أواخر عمره - كما تقدم - أن يحل ما هو من واضحات المعارف الدينية ثم يجري على جهله فيشفع عند ربه للمشركين ويسأل لهم المغفرة من غير أن يستأذن الله في ذلك ولو استأذنه لأنباء أن ذلك مما لا يكون ثم يورد الله سبحانه في كلامه ما ارتكبه

من لغو الكلام جهلاً ولا يردده ببيان ما هو الحق في ذلك ، وقد اعتذر سبحانه عن استغفاره لأبيه المشرك ورفع عن ساحتة كل غميضة فيما قال : « وما كان استغفار إبراهيم لأبيه إلا عن موعدة وعدها إياه فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه » التوبة : ١١٤ .
وأما السادس فتقييد المعصية بما دون الشرك تقييد من غير مقيد ، اللهم إلا أن يقرر بما يرجع إلى ما قدمناه .

فهذه جملة ما ذكره المفسرون في ذيل الآيتين أوردناها ملخصة وقد وقعوا فيما وقعوا لإهمالهم تحقيق القول في معنى حفظه تعالى عن الشرك ، ومعنى تفرع قوله : « فمن تبمني فإنه مني » الخ على ما تقدمه .

قوله تعالى : « ربنا إني أسكنت من ذريتي بواد غير ذي زرع عند بيتك المحرم » إلى آخر الآية « من ذريتي » في تأويل مفعول « أسكنت » أو سادة مسددة و « من » فيه للتبعض ، ومراده عليه السلام ببعض ذريته ابنه إسماعيل ومن سيولد له من الأولاد دون إسماعيل وحده بدليل قوله : بعد « ربنا ليقموا الصلاة » .

والمراد بغير ذي زرع غير المزروع وهو آكد وأبلغ لأنه يدل - كما قيل - على عدم صلاحيته لأن يزرع لكونه أرضاً حجرية رملية خالية عن المواد الصالحة للزرع وهذا كقوله : « قرآننا غير ذي عوج » .

ونسبة البيت إلى الله سبحانه لأنه مبني لغرض لا يصلح إلا له تعالى وهو عبادته ، وكونه محرماً هو ما جعل الله له من الحرمة تشريعاً ، والظرف أعني قوله « عند بيتك المحرم » متعلق بقوله : « أسكنت » .

وهذه الجملة من دعائه عليه السلام أعني قوله : « ربنا إني أسكنت » - إلى قوله - المحرم » من الشاهد على ما قدمناه من أنه عليه السلام إنما دعا بهذا الدعاء في أواخر عمره بعد ما بنى الكعبة وبنى الناس بلدة مكة وعمرها ، كما أن من الشاهد عليه أيضاً قوله : « الحمد لله الذي وهب لي على الكبر إسماعيل وإسحاق » .

وبذلك يندفع ما ربما يستشكل فيقال : كيف سماه بيتاً وقال : أسكنت من ذريتي عنده ولم يبنه بعد ؟ كأن السائل يقدر أنه إنما دعا به يوم أتى بإسماعيل وأمه إلى أرض مكة وكانت أرضاً قفراء لا أنيس بها ولا نبت .

ولا حاجة إلى دفعه بأنه كان يعلم بما علمه الله أنه سيبني هناك بيتاً لله أو بأن البيت كان قبل ذلك وإنما خربته بعض الطوائف أو رفعه الله إلى السماء في الطوفان وليت شعري إذا اندفع بها هذا الإشكال فكيف يندفع بها ما يتوجه من الإشكال على هذا التقدير إلى ظاهر قوله : رب اجعل هذا البلد آمناً وظاهر قوله : « وهب لي على الكبر إسماعيل وإسحاق » .

وقوله : « ربنا ليقموا الصلاة » بيان لغرضه من إسكانهم هناك ، وهو بانضمام ما تقدم من قوله : « بواد غير ذي زرع » وما يعقبه من قوله : « فاجعل أفئدة من الناس تهوي إليهم وارزقهم من الثمرات » يفيد أنه عليه السلام إنما اختار وادياً غير ذي زرع أعزل من أمتعة الحياة من ماء عذب ونبات ذي خضرة وشجر ذي بهجة وهواء معتدل خالياً من السكنة ليمحضوا في عبادة الله من غير أن يشغلهم شواغل الدنيا .

وقوله : « فاجعل أفئدة من الناس تهوي إليهم » الخ من الهوي بمعنى السقوط أي تحن وتميل إليهم بالمساكنة معهم أو بالحج إلى البيت فيأتسوا بهم ، وارزقهم من الثمرات ، بالنقل إليهم تجارة لعلهم يشكرون .

قوله تعالى : « ربنا إنك تعلم ما نخفي وما نعلن » إلى آخر الآية معناه ظاهر ، وقوله : « وما يخفى على الله شيء في الأرض ولا في السماء » من تمام كلام إبراهيم عليه السلام أو من كلامه تعالى ، وعلى الأول ففي قوله : « على الله » التفات وجهه الإشارة إلى علة الحكم كأنه قيل : إنك تعلم ما نخفي وما نعلن لأنك الله الذي ما يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء ، ولا يبعد أن يستفاد من هذا التعليل أن المراد بالسماء ما هو خفي علينا غائب عن حسنا والأرض بخلافه فافهم ذلك .

قوله تعالى : « الحمد لله الذي وهب لي على الكبر إسماعيل وإسحاق إن ربّي لسميع الدعاء » كالجملة المعترضة بين فقرات دعائه دعاه إلى إirاده تذكّره في ضمن ما أورده من الأدعية عظيم نعمة الله عليه إذ وهب له ولدين صالحين مثلها بعدما انقطع عنه الأسباب العادية المؤدية إلى ظهور النسل ، وأنه إنما وهبها له باستجابة دعائه للولد فحمد الله على ما وهبها وأثنى عليه على استجابة دعائه في ذلك .

قوله تعالى : « رب اجعلني مقيم الصلاة ومن ذريتي ربنا وتقبل دعاء » الكلام

في استناد إقامته الصلاة إلى الله سبحانه نظير الكلام في استناد إجنابه أن يعبد الأصنام فإن لإقامة الصلاة نسبة إليه تعالى بالإذن والمشية كما أن لها نسبة إلى العبد بالتصدي والعمل وقد مرّ الكلام فيه .

وهذه الفقرة ثاني دعاء يشترك فيه هو **رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدِي وَلِلْمُؤْمِنِينَ** .
 أولاً : « واجنبني وبني » أن نعبد الأصنام ، كما يلحق به دعاؤه الثالث المشترك فيه :
 « ربنا اغفر لي ولوالدي وللمؤمنين » .

وقد أفرد نفسه في جميع الفقرات الثلاث عن غيره إذ قال : « واجنبني واجعلني مقيم الصلاة » « اغفر لي » لأن مطلوبه لحوق ذريته به كما قال في موضع آخر : « واجعل لي لسان صدق في الآخرين » الشعراء : ٨٤ وفي موضع آخر كما حكاها الله بقوله : « وإذا ابتلى إبراهيم ربه بكلمات فأتمن قال إني جاعلك للناس إماماً قال ومن ذريتي » البقرة : ١٢٤ .

وأما قوله في الفقرة الأولى « واجنبني وبني » وهما « اجعلني مقيم الصلاة ومن ذريتي » فقد تقدم أن المراد ببنيه بعضهم لا جميعهم فتتطابق الفقرتان .

ومن تطابق الفقرتين أنه أكد دعاءه في هذه الفقرة بقوله : « ربنا وتقبل دعاء » فإن سؤال تقبل الدعاء إلحاح وإصرار وتأکید كما أن التعليل في الفقرة الأولى ، بقوله : « رب إنهن أضللن كثيراً من الناس » تأكيد في الحقيقة لما فيها من الدعاء ، بقوله : « واجنبني » الخ .

قوله تعالى : « ربنا اغفر لي ولوالدي وللمؤمنين يوم يقوم الحساب » ختم **رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدِي وَلِلْمُؤْمِنِينَ** وهو آخر ما ذكر من دعائه في القرآن الكريم كما تقدم - بطلب المغفرة للمؤمنين يوم القيامة ، ويشبه آخر ما دعا به نوح **رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدِي وَلِلْمُؤْمِنِينَ** مما ذكر في القرآن : « رب اغفر لي ولوالدي وللمؤمنين وللمؤمنات » نوح : ٢٨ .

وفي الآية دليل على أنه **رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدِي وَلِلْمُؤْمِنِينَ** لم يكن ولد آزر المشرك لصلبه فإنه **رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدِي وَلِلْمُؤْمِنِينَ** - كما ترى - يستغفر لوالديه وهو على الكبر وفي آخر عهده « وقد تبرء من آزر في أوائل عهده بعدما استغفر له عن موعدة وعده إياه قال تعالى : « قال سلام عليك ما استغفر لك رب » مريم : ٤٧ ، وقال : « واغفر لأبي إنه كان من الضالين » الشعراء : ٨٦ ،

وقال : « وما كان استغفار إبراهيم لأبيه إلا عن موعدة وعدها إياه فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه » التوبة : ١١٤ وقد تقدم تفصيل القول في قصصه عليه السلام في سورة الأنعام في الجزء السابع من الكتاب .

ومن لطيف ما في دعائه عليه السلام اختلاف النداء المكرر الذي فيه بلفظ « رب » و « ربنا » والعناية فيما أضيف إلى نفسه بما يختص بنفسه من السبق والإمامة ، وفيما أضيف إلى نفسه وغيره إلى المشتركات .

(بحث روائي)

في الدر المنثور أخرج أبو نعيم في الدلائل عن عقيل بن أبي طالب أن النبي صلى الله عليه وآله لما أتاه الستة نفر من الأنصار جلس إليهم عند حجرة العقبة فدعاهم إلى الله وإلى عبادته والمؤازرة على دينه فسألوه أن يعرض عليهم ما أوحى إليه فقرأ من سورة إبراهيم : « وإذ قال إبراهيم رب اجعل هذا البلد آمناً واجنبني وبني أن نعبد الأصنام » إلى آخر السورة فرق القوم وأخبتوا حين سمعوا منه ما سمعوا وأجابوه .

وفي تفسير العياشي عن أبي عبيدة عن أبي عبد الله عليه السلام قال : من أحبنا فهو منا أهل البيت فقلت : جعلت فداك منكم ؟ قال : منا والله أما سمعت قول الله وهو قول إبراهيم عليه السلام : « فمن تبعني فإنه مني » .

وفيه عن محمد الحلي عن أبي عبد الله عليه السلام قال : من اتقى الله منكم وأصلح فهو منا أهل البيت قال : منكم أهل البيت ؟ قال منا أهل البيت قال فيها إبراهيم : « فمن تبعني فإنه مني » قال عمر بن يزيد : قلت له : من آل محمد ؟ قال إبي والله من آل محمد إبي والله من أنفسهم أما تسمع قول الله تعالى : « إني أولى الناس بإبراهيم للذين اتبعوه » وقول إبراهيم : « فمن تبعني فإنه مني » ؟

أقول : وقد ورد في بعض الروايات أن بني إسماعيل لم يعبدوا صنماً قط إثر دعاء إبراهيم : واجنبني وبني أن نعبد الأصنام ، وأنهم إنما قالوا : هؤلاء شفعاؤنا عند الله والظاهر أن الرواية موضوعة ، وقد تقدمت الإشارة إليه في البيان السابق .

وكذا ما ورد في بعض الروايات من طرق العامة والخاصة أن أرض الطائف كانت في الاردن من أرض فلسطين فلما دعا إبراهيم عليه السلام لبنيه بقوله : « وارزقهم من الثمرات » أمر الله بها فسارت بترابها إلى مكة فطافت على البيت سبعة أشواط ثم استقرت حيث الطائف الآن .

وهذا وإن كان ممكن الوقوع في نفسه من طريق الاعجاز لكن لا يكفي لثبوتة أمثال هذه الروايات الضعيفة والمرسلة . على أن هذه الآيات في مقام الامتنان ولو قارن هذا الدعاء واستجابته تعالى له مثل هذه الآية العظيمة العجيبة والمعجزة الباهرة لاشير اليها مزيداً للامتنان . والله أعلم .

وفي مرسله المياشي عن حريز عن ذكره عن أحدهما عليها السلام أنه كان يقرأ « رب اغفر لي ولولدي » يعني : إسماعيل وإسحاق ، وفي مرسلته الاخرى عن جابر عن أبي جعفر عليه السلام مثله وظاهر هذه الرواية أن القراءة مبنية على كفر والد إبراهيم والروايتان ضعيفتان لا يعبا بهما .

مركز تحقيق كتاب توحيد علوم اسلامی

وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخَّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ — ٤٢ . مُطْعِمِينَ مُقْنِعِي رُؤْسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ — ٤٣ . وَأَنْذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا رَبَّنَا أَخِّرْنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ نَجِبْ دَعْوَتَكَ وَتَتَّبِعِ الرُّسُلَ أَوَلَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُمْ مِنْ قَبْلِ مَا لَكُم مِّنْ ذَوَالٍ — ٤٤ . وَسَكَنْتُمْ فِي مَسَاكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمْ الْأَمْثَالَ — ٤٥ . وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ وَعِنْدَ اللَّهِ

مَكْرُهُمْ وَإِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ - ٤٦ . فَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ
مُخْلِفًا وَعْدِهِ رُسُلَهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ - ٤٧ . يَوْمَ تُبَدَّلُ
الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ - ٤٨ .
وَتَرَى الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ - ٤٩ . سَرَابِيلُهُمْ مِنْ
قَطِرَانٍ وَتَغْشَى وُجُوهَهُمُ النَّارُ - ٥٠ . لِيَجْزِيَ اللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ
إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ - ٥١ . هَذَا بَلَاغٌ لِلنَّاسِ وَلِيُنذَرُوا بِهِ
وَلِيَعْلَمُوا أَنَّهَا هُوَ إِلَهُ وَاحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُولُوا الْأَلْبَابِ - ٥٢ .

(بيان)

لما أنذر وبشر سبحانه في الآيات السابقة ودعا إلى صراطه بما أنه العزيز الحميد
ختم بيانه بدفع ما ربما يسبق إلى أوهام ضعفاء العقول من الناس من أن الأمر لو كان على
ما ذكر وكانت هذه الدعوة دعوة نبوية من لدن رب عزيز حميد فما بال هؤلاء الظالمين
يتمتعون بما شاؤوا ؟ وما باله لا يأخذ الظالمين بظلمهم ولا يلجم المتخلفين عن دعوته
المخالفين عن أمره ؟ أهو في غفلة عما يعملونه أم هو مخلف وعده رسله يعدمهم بالنصر
ثم لا يفي بوعدده ؟ .

فأجاب تعالى أنه ليس بغافل عما يعمل الظالمون ، ولا مخلف وعده رسله كيف ؟
وهو تعالى عليم بما يمكرون وعزيز ذو انتقام بل إنما يؤخرهم ليوم شديد وهو يوم
الجزاء . على أنه تعالى ربما أخذهم بذنوبهم في الدنيا كما أخذ الأمم الماضين .

ثم ختم السورة بقوله : « هذا بلاغ للناس ولينذروا به وليعلموا أنما هو إله واحد
وليذكروا أولوا الألباب » وهي آية جامعة لغرض السورة كما سيجيء بيانه إن شاء الله .

قوله تعالى : « ولا تحسبن الله غافلاً عما يعمل الظالمون » إلى آخر الآيتين يقال : شخص بصره أي سكن بحيث لا يطرف جفنه ، ويقال : بعير مهطع إذا صوب عنقه أي رفعه وهطع وأهطع بمعنى ، ويقال : أقنع رأسه إذا رفعه ، وقوله : لا يرتد اليهم طرفهم أي لا يقدر على أن يطرفوا من هول ما يشاهدونه ، وقوله : وأفندتهم هواء أي قلوبهم خالية عن التعقل والتدبير لشدة الموقف أو أنها زائلة .

والمعنى : ولا تحسبن الله ولا تظننه غافلاً عما يعمل هؤلاء الظالمون بما تشاهد من تتمهم وإترافهم في العيش وإفسادهم في الأرض إنما يهلهم الله ويؤخر عقابهم إلى يوم يسكن فيه أبصارهم فلا تطرف والحال أنهم مادون لأعناقهم رافعون لرؤسهم لا يقدر على رد طرفهم وقلوبهم مدهوشة خالية عن كل تحيّل وتدبير من شدة هول يوم القيامة وفي الآية إنذار للظالمين وتعزية لغيرهم .

قوله تعالى : « وأنذر الناس يوم يأتيهم العذاب » إلى آخر الآية . في الآية إنذار بعد إنذار وبين الإنذارين فرق من جهتين :

إحداهما : أن الإنذار في الآيتين السابقتين إنذار بما أعد الله من أهوال يوم القيامة وأليم العذاب فيه ، وأما الذي في هذه الآية وما يتلوها فهو إنذار بعذاب الاستئصال في الدنيا ومن الدليل عليه قوله : « فيقول الذين ظلموا ربنا أخّرنا إلى أجل قريب » الخ . وبذلك يظهر أن لا وجه لما ذكره بعضهم أن المراد بهذا اليوم الذي يأتيهم فيه العذاب هو يوم القيامة ، وكذا ما ذكره آخرون أن المراد به يوم الموت .

والثانية : أن الإنذار الأول إنذار بعذاب قطعي لا صارف له عن أمة ظالمة ولا فرد ظالم من أمة وأما الإنذار الثاني فهو إنذار بعذاب غير مصروف عن أمة ظالمة وأما الفرد فربما صرف عنه ، ولذلك ترى أنه تعالى يقول أولاً : « وأنذر الناس » ثم يقول : « فيقول الذين ظلموا » الخ ولم يقل : فيقولون أي الناس لأن عذاب الاستئصال لا يصيب المؤمنين قال تعالى : « ثم ننجي رسلنا والذين آمنوا كذلك حقاً علينا ننج المؤمنين » يونس : ١٠٣ وإنما يصيب الأمة الظالمة بحلول أجلهم وهم طائفة من ظالمي الأمة لا جميع أفرادها .

وبالجملة فقوله : « وأنذر الناس يوم يأتيهم العذاب » إنذار للناس بعذاب الاستئصال الذي يقطع دابر الظالمين منهم ، وقد تقدم في تفسير سورة يونس وغيره أن ذلك

مكتوب على الأمم قضاء بينهم وبين رسولهم حتى هذه الأمة المحمدية وقد تكرر هذا الوعيد منه تعالى في عدة مواضع من كلامه .

وهذا هو اليوم الذي يطهر الله الأرض فيه من قذارة الشرك والظلم ولا يعبد عليها يومئذ إلا الله سبحانه فإن الدعوة عامة والأمة هم أهل الأرض فإذا عصى الله عنهم الشرك لم يبق منهم إلا المؤمنون ويكون الدين كله لله ، قال تعالى : « ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادي الصالحون » .

وما تقدم يظهر الجواب عما أورد على كون المراد بالعذاب في الآية عذاب الاستئصال أن القصر في الآية السابقة ينافيه فإن قوله : « إنها يؤخرهم ليوم تشخص فيه الأبصار » يقصر أخذهم وعقابهم في يوم القيامة .

وذلك لما عرفت أن العذاب المنذر به في الآيتين السابقتين هو العذاب الذي لا يصرفه عنهم صارف ولا يتخلف عنه أحد من الظالمين وهو مقصور في عذاب يوم القيامة ، ولا ينافي انحصاره في يوم القيامة وجود نوع آخر من العذاب في الدنيا .

على أن القصر لو تم على ما يريد المعتبر لدفع ما يدل عليه الآيات الكثيرة الدالة على نزول العذاب بهذه الأمة كما أشرنا إليه من علوم راسخة على أن حمل العذاب في الآية على عذاب يوم القيامة يوجب صرف الآيات عن ظهورها ورفع اليد عما يعطيه السياق فيها ولا مساغ له .

وقوله : « فيقول الذين ظلموا ربنا أخرنا إلى أجل قريب نجب دعوتك ونتبع الرسل » المراد به الظالمون من الناس وهم الذين يأخذهم العذاب المستأصل ولا يتخطاهم ، ومرادهم بقولهم : « أخرنا إلى أجل قريب » الاستمهال بمدة قصيرة تضاف إلى عمرهم في الدنيا حتى يتداركوا فيه ما فوتوه بظلمهم والدليل عليه قولهم : « نجب دعوتك ونتبع الرسل » .

والتعبير بالرسول بلفظ الجمع في قولهم : « ونتبع الرسل » مع أن الآية تصف حال ظالمي هذه الأمة ظاهراً وكان مقتضى ذلك أن يقال : ونتبع الرسول إنما هو للدلالة على أن الملاك في نزول هذا العذاب القضاء بين الرسالة وبين منكرها من غير اختصاص ذلك برسول دون رسول كما يفيد قوله : « ولكل أمة رسول فإذا جاء رسولهم

قضي بينهم بالقسط وهم لا يظلمون « يونس : ٤٧ .

وقوله : « أولم تكونوا أقسمتم من قبل ما لكم من زوال » الإقسام تعليق الحكم في الكلام بأمر شريف من جهة شرافته ليدلّ به على صدقه إذ لو كذب المتكلم وقد أقسم في كلامه لأذهب بذلك شرف المقسم به كقولنا : والله إن كذا لكذا ولعمري إن الأمر على كذا ، ويعدّ القسم أقوى أسباب التأكيد . ولا يبعد أن يكون الإقسام في الآية كناية عن إيراد الكلام في صورة جازمة غير قابلة للتريد .

والكلام على تقدير القول ، والمعنى يقال لهم توبيخاً وتبكيثاً : ألم تكونوا أقسمتم من قبل نزول العذاب ما لكم من زوال وأنكم بما عندكم من القوة والسطوة ووسائل الدفاع أمة خالدة مهيمنة على الحوادث فما لكم تستمهلون إلى أجل قريب .

قوله تعالى : « وسكنتم في مساكن الذين ظلموا أنفسهم » إلى آخر الآية معطوف على محل قوله : « أقسمتم » في الآية السابقة ، والمعنى : أولم تكونوا سكنتم في مساكن الذين ظلموا أنفسهم من الأمم السابقة ، وظهر لكم أن هذه الدعوة حقّة ويتعقبها لو ردّت عذاب مستأصل ، من جهتين : جهة المشاهدة حيث تبين لكم كيف فعلنا بأولئك الظالمين الذين سكنتم في مساكنهم ؟ وجهة البيان حيث ضربنا لكم الأمثال وأنذرناكم عذاباً مستأصلاً يتعقبه إنكار الحق وردّ الدعوة النبوية ويقطع دابر الظالمين .

قوله تعالى : « وقد مكروا مكرمهم وعند الله مكرمهم وإن كان مكرمهم لتزول منه الجبال » حال من الضمير في « فعلنا » في الآية السابقة أو من الضمير في « بهم » فيها أو من الضميرين جميعاً على ما قيل ، وضمائر الجمع راجعة إلى « الذين ظلموا » .

والمراد بكون مكرمهم عند الله إحاطته تعالى به بعلمه وقدرته ، ومن المعلوم أن المكر إنما يكون مكرراً إذا لم يحيط به المكور به وجهه ، وأما إذا كان المكور به عالماً بما هيأه الماكر من المكر وقادراً على دفعه لقي المكر أو عاد مكرراً على نفس الماكر كما قال تعالى : « وما يمكرون إلا بأنفسهم وما يشعرون » الأنعام : ١٢٣ .

وقوله : « وإن كان مكرمهم لتزول منه الجبال » إن وصليّة - على ما قيل - واللام في « لتزول » متعلق بمقدّر يدلّ عليه لفظ المكر كقولنا : يقتضي أو يوجب وما أشبه ذلك ، والتقدير : الله محيط بمكرهم عالم به قادر على دفعه إن كان مكرمهم

دون هذه الشدة وإن كان على هذه الشدة .

والمعنى تبين لكم كيف فعلنا بهم والحال أنهم مكروا ما في وسعهم من المكر والله محيط بمكرهم وإن كان مكرهم عظيماً موجباً لزوال الجبال .

وربما قيل : إن « إن » نافية واللام هي الداخلة على المنفي والمراد بالجبال الآيات والمعجزات كناية والمعنى وما كانت مكرهم لتبطل به آيات الله ومعجزاته التي هي كالجبال الراسيات التي لا تزول عن مكانها ، وأيد هذا المعنى بقراءة ابن مسعود « وما كان مكرهم » وهو معنى بعيد .

وقرى أيضاً : « لتزول » بفتح اللام الأولى وضم اللام الثانية ، وعلى هذا تكون « إن » مخففة من المشددة والمعنى والتحقيق أن مكرهم كان من العظمة بحيث تزول منه الجبال .

قوله تعالى : « فلا تحسبن الله يخلف وعده » إن الله عزيز ذو انتقام ، تفريع على ما تقدم أن ترك مؤاخذه الظالمين بعملهم إنما هو لتأخيرهم إلى يوم القيامة أي إذا كان الأمر كذلك فلا تحسبن الله يخلفاً لما وعد رسوله من نصرهم ومؤاخذه المتخلفين عن دعوتهم ، وكيف يخلف وعده وهو عزيز ذو انتقام شديد ولازم عزته المطلقة أن لا يخلف وعده فإن إخلاف الوعد إما لكون الواعد غير قادر على إنجاز ما وعده أو لتغير من الرأي بعروض حال ثانية تقهره على خلاف ما بعثته إليه الحال الأولى التي أوجبت عليه الوعد والله سبحانه عزيز على الإطلاق لا يتصف بمعجز ولا تقهره حال ولا شيء آخر وهو الواحد القهار .

ولازم اتصافه بالانتقام أن ينتقم للحق ممن استكبر عنه واستعلى عليه وينتصف للمظلوم من الظالم .

وذو انتقام من أسمائه تعالى الحسنى التي سمى الله تعالى بها نفسه في مواضع من كلامه وقارنه في جميعها باسمه العزيز ، قال تعالى : « والله عزيز ذو انتقام » آل عمران : ٤ ، المائدة : ٩٥ ، وقال : « أليس الله بعزيز ذي انتقام » الزمر : ٣٧ ، وقال في الآية المبحوث عنها : « إن الله عزيز ذو انتقام » ومن ذلك يظهر أن « ذا انتقام » من فروع اسم « العزيز » .

(كلام في معنى الانتقام ونسبته اليه تعالى)

الانتقام هو العقوبة لكن لا كل عقوبة بل عقوبة خاصة وهي أن تذيق غيرك من الشر ما يعادل ما أذاقك منه أو تزيد عليه ، قال تعالى : « ومن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم واتقوا الله » .

وهو أصل حيوي معمول به عند الإنسان وربما يشاهد من بعض الحيوان أيضاً أعمال يشبه أن تكون منه ، وأياً ما كان يختلف الغرض الذي يبعث الإنسان اليه فالداعي اليه في الانتقام الفردي هو التشفي غالباً فإذا سلب الواحد من الإنسان غيره شيئاً من الخير أو أذاقه شيئاً من الشر وجسد الذي فعل به ذلك في نفسه من الأسى والأسف ما لا تسكن فورته ولا تخمد ناره إلا بأن يذيقه من الشر ما يعادل ما ذاق منه أو يزبد عليه فالعامل الذي يدعو اليه هو الإحساس الباطني وأما العقل فربما أجازاه وأنفذه وربما استنكف .

والانتقام الاجتماعي ونعني به القصاصات وأنواع المؤاخذات التي نعثر عليها في السنن والقوانين الدائرة في المجتمعات أعم من الراقية والهمجية الغالب فيه أن يكون الغرض الداعي اليه غاية فكرية ومطلوباً عقلياً وهو حفظ النظام عن الاختلال وسدّ طريق الهرج والمرج فلولا أصل الانتقام ومؤاخذه المجرم الجاني بما أجرم وجني اختلال الأمن العام وارتحل السلام من بين الناس .

ولذا كان هذا النوع من الانتقام حقاً من حقوق المجتمع وإن كان ربما استصحب حقاً فردياً كمن ظلم غيره بما فيه مؤاخذه قانونية فربما يؤاخذ الظالم استيفاء لحق المجتمع وإن أبطل المظلوم حقه بالعفو .

فقد تبين أن من الانتقام ما يبتني على الإحساس وهو الإنتقام الفردي الذي غايته التشفي ، ومنه ما يبتني على العقل وهو الانتقام الاجتماعي الذي غايته حفظ النظام وهو من حقوق المجتمع وإن شئت قلت من حقوق السنة أو القانون الجاري في المجتمع فإن استقامة الأحكام المعدلة لحياة الناس وسلامتها في نفسها تقتضي مؤاخذه المجرم المتخلف عنها وإذاقته جزاء سيئته المرة ، فهو من حقوق السنة والقانون كما أنه من حقوق المجتمع .

إذا عرفت هذا علمت أن ما ينسب إليه تعالى في الكتاب والسنة من الانتقام هو ما كان حقاً من حقوق الدين الإلهي والشرعية السماوية وإن شئت فقل من حقوق المجتمع الاسلامي وإن كان ربها استصحب الحق الفردي فيما إذا انتصف سبحانه للمظلوم من ظالمه فهو الولي الحميد .

وأما الانتقام الفردي المبني على الإحساس لغاية التشفي فساحته المقدسة أعز من أن يتضرر بإجرام المجرمين ومعصية المسيئين أو ينتفع بطاعة المحسنين .

ومن هنا يظهر سقوط ما ربما استشكله بعضهم أن الانتقام إنما يكون لتشفي القلب وإذا كان تعالى لا ينتفع ولا يتضرر بشيء من أعمال عباده خيراً أو شراً طاعة أو معصية فلا وجه لنسبة الانتقام إليه كما أن رحمته غير المتناهية تأبى أن يعذبهم بعذاب خالد غير متناه كيف لا ؟ والواحد من أرباب الرحمة يرحم المجرم المقدم على أي معصية إذا كان عن جهالة منه وهو تعالى يصف الإنسان - وهو مخلوقه المعلوم له حاله - بذلك إذ يقول : « إنه كان ظلوماً جهولاً » الأحزاب : ٧٢ .

وجه السقوط أن فيه خلطاً بين الانتقام الفردي والاجتماعي ، والذي يثبت فيه تعالى هو الاجتماعي منه دون الفردي كما توهم كما أن فيه خلطاً بين الرحمة النفسانية التي هي تأثر وانفعال قلبي من الإنسان وبين الرحمة العقلية التي هي تتميم نقص الناقص المستعد لذلك ، والتي تثبت فيه تعالى هي الرحمة العقلية دون الرحمة النفسانية ولم يثبت الخلود في العذاب إلا فيما إذا بطل استعداد الرحمة وإمكان الإفاضة قال تعالى : « بلى من كسب سيئة وأحاطت به خطيئته فاولئك أصحاب النار هم فيها خالدون » البقرة : ٨١ .

وهنا نكتة يجب أن تتنبه لها وهي أن الذي تقدم من معنى الانتقام المنسوب إليه تعالى إنما يتأتى على مسلك المجازاة والثواب والعقاب ، وأما على مسلك نتائج الأعمال فترجع حقيقته إلى حقوق الصور السيئة المؤلمة بالنفس الإنسانية عن الملكات الرديئة التي اكتسبتها في الحياة الدنيا ، بعد الموت ، وقد تقدم البحث في الجزء الأول من الكتاب في ذيل قوله تعالى : « إن الله لا يستحي أن يضرب مثلاً ما » الآية البقرة : ٢٦ في جزاء الأعمال .

قوله تعالى : « يوم تبدل الأرض غير الأرض والسموات » وبرزوا لله الواحد

القهار « الظرف متعلق بقوله : « ذو انتقام » وتخصيص انتقامه تعالى بيوم القيامة مع عمومته لجميع الأوقات والظروف إنما هو لكون اليوم أعلى مظاهر الانتقام الإلهي كما أن تخصيص بوزم الله بذلك اليوم كذلك ، وعلى هذا النسق جلّ الأوصاف المذكورة في كلامه تعالى ليوم القيامة كقوله : « الأمر يومئذ لله » الانفطار - ١٩ ، وقوله : « ما لكم من الله من عاصم » المؤمن : ٣٣ ، إلى غير ذلك وقد تقدمت الإشارة إليه كراراً .

والظاهر أن اللام في الأرض للعهد في الموضعين معاً وكذا في السماوات والسماوات معطوفة على الأرض الاولى والمعنى تبدل هذه الأرض غير هذه الأرض وتبدل هذه السماوات غير هذه السماوات .

وللمفسرين في معنى تبدل الأرض والسماوات أقوال مختلفة :

وقيل : تبدل الأرض فضة والسماوات ذهباً وربما قيل إن الأرض تبدل من أرض نقية كالفضة والسماوات كذلك .

وقيل : تبدل الأرض ناراً والسماوات جناناً .

وقيل : تبدل الأرض خبزة نقية تأكل الناس منها طول يوم القيامة .

وقيل : تبدل الأرض لكل فريق مما يقتضيه حاله فتبدل لبعض المؤمنين خبزة يأكل منها ما دام في العرصات وبعض آخر فضة وتبدل للكافر ناراً .

وقيل : التبديل هو أنه يزداد في الأرض وينقص منها وتذهب آكامها وجبالها وأوديتها وشجرها وتمد مد الأديم وتصير مستوية لا ترى فيها عوجاً ولا أمثاً ، وتتغير السماوات بذهاب الشمس والقمر والنجوم وبالجملة يتغير كل من الأرض والسماوات عما هو عليه في الدنيا من الصفات والأشكال .

ومنشأ اختلافهم في تفسير التبديل اختلاف الروايات الواردة في تفسير الآية مع أن الروايات لو صحت واتصلت كان اختلافها أقوى شاهد على أن ظاهرها غير مراد وأن بياناتها واقعة موقع التمثيل للتقريب .

والتدبر الكافي في الآيات التي تحوم حول تبديل الأرض والسماء يفيد أن أمر التبديل أعظم مما نتصوره من بسط الجبل على السهل أو تبديل التراب فضة أو خبزاً

نقياً مثلاً كقوله تعالى: « وأشرقَت الأرض بنور ربها » الزمر - ٦٩ وقوله: « وسُيِّرَتِ الجبال فكانت سراباً » النبأ: ٢٠ ، وقوله: « وترى الجبال تحسبها جامدة وهي تمرّ مرّاً السحاب » النمل: ٨٨ إن كانت الآية ناظرة إلى يوم القيامة ، إلى غير ذلك من الآيات.

فالأيات تنبئ عن نظام غير هذا النظام الذي نعمده وشؤون دون ما نتصوره فأشراق الأرض يومئذ بنور ربها غير إشراق بسيطها بنور الشمس أو الكواكب أو غيرها ، وسير الجبال ينتهي عادة إلى زوالها عن مكانها وتلاشيها مثلاً لا إلى كونها سراباً ، وهكذا نرجو أن يوفقنا الله سبحانه لبسط الكلام في هذا المعنى فيما سيأتي إن شاء الله تعالى .

وقوله: « وبرزوا لله الواحد القهار » معنى بروزهم وظهورهم لله يومئذ - مع كون الأشياء بارزة غير خفية عليه دائماً - سقوط جميع العلل والأسباب التي كانت تحجبهم عنه تعالى ما داموا في الدنيا فلا يبقى يومئذ - على ما يشاهدون - شيء من الأسباب يملكهم ويتولى أمرهم ويستقل بالتأثير فيهم إلا الله سبحانه كما يدل عليه آيات كثيرة فهم لا يلتفتون إلى جانب ولا يتوجهون إلى جهة في ظاهرهم وباطنهم وحاضرهم والماضي الغائب من أحوالهم وأعمالهم إلا وجدوه سبحانه شاهداً مهيمناً عليه محيطاً به .

والدليل على هذا الذي ذكرناه توصيفه تعالى بالواحد القهار المشعر بنوع من الغلبة فبروزهم لله يومئذ إنما هو ناشئ عن كونه تعالى هو الواحد الذي يقوم به وجود كل شيء ، ويقهر كل من دونه من مؤثر فلا يحول بينهم وبينه حائل فهم بارزون له بروزاً مطلقاً.

قوله تعالى: « وترى المجرمين يومئذ مقرّنين في الأصفاد » سرابيلهم من قطران وتغشى وجوههم النار « المقرّنين من التقرين وهو جمع الشيء إلى نظيره والأصفاد جمع الصفد وهو الغلّ الذي يجمع اليد إلى العنق أو هو مطلق السلسلة يقرن بين المقيدين ، والسرابيل جمع السربال وهو القميص والقطران شيء أسود منتن يطلى به الإبل فإنهم يطلون به فيصير كالقميص عليهم ، والغشاوة بالفتح الستر والتغطية يقال: غشي يغشي غشاوة أي ستره وغطاه ، ومعنى الآيتين واضح .

قوله تعالى: « ليجزي الله كل نفس ما كسبت » إن الله سريع الحساب « معنى

الآية واضح ، وهي بظاهرها تدل على أن الذي تجزى به كل نفس هو عين ما كسبته من حسنة أو سيئة وإن تبدلت صورته ، فهي من الآيات الدالة على أن الذي يلحق بهم يوم القيامة هو نتيجة أعمالهم .

فالآية تفسر أولاً معنى الجزاء في يوم الجزاء ، وثانياً معنى انتقامه تعالى يومئذ وأنه ليس من قبيل عقوبة المجرم العاصي تشفياً منه بل إلحاق ما يستدعيه عمل المجرم به وإن شئت فقل إيصال ما اكتسبه المجرم بعينه إليه .

وفي تعليل هذا الجزاء وهو في يوم القيامة بقوله : « إن الله سريع الحساب » إيماء إلى أن الجزاء واقع من غير فصل ومهل إلا أن ظرف ظهوره هو ذلك اليوم لا غير ، أو أن الحكم بالجزاء وكتابته واقع عند العمل وتحققه يوم القيامة ومآل الوجهين واحد في الحقيقة .

قوله تعالى : « هذا بلاغ للناس ولينذروا به وليعلموا أنما هو إله واحد وليذكروا أولوا الألباب » البلاغ بمعنى التبليغ على ما ذكره الراغب أو بمعنى الكفاية على ما ذكره غيره .

والآية خاتمة السورة فالأنسب أن تكون الإشارة بهذا إلى ما أورد في السورة من البيان لا إلى مجموع القرآن كما ذكره بعضهم ولا إلى ما ذكر من قوله تعالى « ولا تحسبن الله غافلاً عما يعمل الظالمون » إلى آخر السورة كما ذكره آخرون .

وقوله : « ولينذروا به » الخ ، اللام فيه للغاية وهو معطوف على محذوف إنما تحذف لفخامة أمره وعظم شأنه لا يحيط به أفهام الناس لاشتغاله من الأسرار الإلهية على ما لا يطيقونه ، وإنما تسع عقولهم ما ذكر من غاياته وهو الإنذار والعلم بوحديته تعالى والتذكير ، فهم ينذرون بما ذكر فيها من مؤاخذته تعالى الظالمين عاجلاً وآجلاً ، وتم عليهم الحجة بما ذكر فيها من آيات التوحيد ، ويتذكرون المؤمنون منهم خاصة بما فيها من المعارف الإلهية .

وبهذا يتطابق ختم السورة ومفتتحها أعني قوله في أول السورة : « كتاب أنزلناه إليك لتخرج الناس من الظلمات إلى النور بإذن ربهم إلى صراط العزيز الحميد » فقد تقدم أن مدلول الآية أمر النبي ﷺ بالدعوة والتبليغ إلى صراط الله بما أنه

تعالى ربهم العزيز الحميد ليخرج الناس من الظلمات إلى النور بإذنه فإنهم إن استجابوا الدعوة وآمنوا خرجوا بذلك من ظلمات الكفر إلى نور الإيمان بالفعل وإن لم يستجيبوا أُنذروا ووقفوا على التوحيد الحق وخرجوا من الجهل إلى العلم وهو نوع خروج من الظلمة إلى النور وإن كان وبالأعلى عليهم وخساراً ففي الدعوة - على أي حال - إنذار للناس وإعلامهم أنما هو إله واحد وتذكر لاولي الألباب منهم خاصة وهم المؤمنون .

(بحث روائي)

في المعاني بإسناده عن ثوبان أن يهودياً جاء إلى النبي ﷺ فقال : يا محمد فرفعه ثوبان برجله وقال : قل : يا رسول الله فقال : لا أدعوه إلا بأسماء أهله قال : أرأيت قول الله : « يوم تبدل الأرض غير الأرض والسموات » أين الناس يومئذ ؟ قال : في الظلمة دون المحشر . قال : فما أول ما يأكل أهل الجنة إذا دخلوها ؟ قال : كببد الحوت قال : فما شرايبهم على إثر ذلك ، قال : السلسبيل . قال صدقت يا محمد .

أقول : وروى الحديث في الدر المنثور عن مسلم وابن جرير والحاكم والبيهقي في الدلائل عن ثوبان مثله إلى قوله : في الظلمة وروى أيضاً عن عدة عن عائشة أنها سألت النبي ﷺ عن ذلك فقال : على الصراط .

وفي تفسير العياشي عن ثوير بن أبي فاختة عن الحسين بن علي عليه السلام قال : « تبدل الأرض غير الأرض » يعني بأرض لم يكتسب عليها الذنوب بارزة ليست عليها جبال ولا نبات كما دحاها أول مرة .

أقول : ورواه القمي أيضاً في تفسيره ، وفيه دلالة على حدوث الجبال وكذا النبات بعد تمام خلقه الأرض .

وفي الدر المنثور أخرج البزار وابن المنذر والطبراني وابن مردويه والبيهقي في البعث عن ابن مسعود قال : قال رسول الله ﷺ في قول الله : يوم تبدل الأرض غير الأرض . قال : أرض بيضاء كأنها فضة لم يسفك فيها دم حرام ولم تعمل فيها خطيئة .

أقول : ورواه أيضاً عن ابن مردويه عن علي عنه عليه السلام مثله .

وفيه أخرج ابن أبي الدنيا في صفة الجنة وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن علي بن أبي طالب في الآية قال : تبدل الأرض من فضة والسماء من ذهب .

أقول : وحمل بعضهم الكلام على التشبيه كما وقع في حديث ابن مسعود السابق .

وفي الكافي بإسناده عن زرارة عن أبي جعفر عليه السلام قال : سأله أبرش الكلبي عن قول الله عز وجل : « يوم تبدل الأرض غير الأرض » قال : تبدل خبزة نقيّة يأكل الناس منها حتى يفرغ من الحساب . فقال الأبرش : فقلت : إن الناس يومئذ لفي شغل من الأكل فقال أبو جعفر عليه السلام فهم في النار لا يشتغلون عن أكل الضريع وشرب الحميم وهم في عذاب فكيف يشتغلون عنه في الحساب ؟

أقول : وقوله : « تبدل خبزة نقيّة » يحتمل التشبيه كما ربما يستفاد من الخبر الآتي .

وفي إرشاد المفيد واحتجاج الطبرسي عن عبد الرحمان بن عبد الله الزهري قال : حجّ هشام بن عبد الملك فدخل المسجد الحرام متكئاً على ولد سالم مولاه ومحمد ابن علي بن الحسين عليه السلام جالس في المسجد فقال له سالم مولاه : يا أمير المؤمنين هذا محمد بن عليّ قال هشام : المفتونون به أهل العراق ؟ قال : نعم . فقال : إذهب إليه فقل له : يقول لك أمير المؤمنين : ما الذي يأكل الناس ويشربون إلى أن يفصل بينهم يوم القيامة ؟ قال أبو جعفر عليه السلام : يحشر الناس على مثل قرص نقي فيها أنهار متفجرة يأكلون ويشربون حتى يفرغ من الحساب .

قال : فرآى هشام أنه قد ظفر به فقال : الله أكبر إذهب إليه فقل : ما أشغلهم عن الأكل والشرب يومئذ . فقال أبو جعفر عليه السلام : هم في النار أشغل ولم يشتغلوا عن ذلك قالوا أفيضوا علينا من الماء أو مما رزقكم الله . فسكت هشام لا يرجع كلاماً .

وفي الدر المنثور أخرج ابن مردويه عن أفلح مولى أبي أيوب أن رجلاً من يهود سأل النبي صلى الله عليه وآله « يوم تبدل الأرض غير الأرض » ما الذي تبدل به ؟ فقال : خبزة ،

فقال اليهودي : درمكة بأبي أنت ، قال : فضحك ثم قال : قاتل الله اليهود هل تدرون ما الدرمة ؟ لباب الخبز .

وفيه أخرج أحمد وابن جرير وابن أبي حاتم وأبو نعيم في الدلائل عن أبي أيوب الأنصاري قال : أتى النبي ﷺ خبر من اليهود وقال : رأيت إذ يقول الله : « يوم تبدل الأرض غير الأرض » فأين الخلق عند ذلك ؟ قال : أضيف الله لن يعجزهم ما لديه . أقول : واختلاف الروايات في تفسير التبديل لا يخلو عن دلالة على أنها أمثال مضروبة للتقريب والمسلم من معنى التبديل أن حقيقة الأرض والسماء وما فيها يومئذ هي هي غير أن النظام الجاري فيها يومئذ هو غير النظام الجاري فيها في الدنيا .

وفي المعاني بإسناده عن محمد بن مسلم قال : سمعت أبا جعفر عليه السلام يقول : لقد خلق الله عز وجل في الأرض منذ خلقها سبعة عالمين ليس فيهم من ولد آدم ، خلقهم من أديم الأرض فأسكنهم فيها واحداً بعد واحد مع عالمه .

ثم خلق الله عز وجل آدم أبا البشر وخلق ذريته منه لا والله ما خلقت الجنة من أرواح المؤمنين منذ خلقها ، ولا خلقت النار من أرواح الكفار والمعصاة منذ خلقها عز وجل لعلمكم ترون إذا كان يوم القيامة وصير أبدان أهل الجنة مع أرواحهم في الجنة وصير أبدان أهل النار مع أرواحهم في النار أن الله تعالى لا يعبد في بلاده ولا يخلق خلقاً يعبدونه ويوحدونه ؟ بلى والله ليخلقن الله خلقاً من غير فحولة ولا إناث يعبدونه ويوحدونه ويعظمونه ويخلق لهم أرضاً تحملهم وسماء تظلمهم أليس الله عز وجل يقول : « يوم تبدل الأرض غير الأرض والسموات » ؟ وقد قال عز وجل : « أفبعينا بالخلق الأول بل هم في لبس من خلق جديد » .

أقول : ورواه العياشي في تفسيره عن محمد بن مسلم عنه عليه السلام مثله ، وهو غير المعاني التي أوردناها سابقاً .

وفي تفسير القمي قوله : « يوم تبدل الأرض غير الأرض » قال تبدل خبزة بيضاء في الموقف يأكل منها المؤمنون « وترى المجرمين يومئذ مقرنين في الأصفاد » قال : قال : مقرنين بعضهم إلى بعض « سراويلهم من قطران » قال : قال : السراويل القميص .

قال : وفي رواية أبي الجارود عن أبي جعفر عليه السلام في قوله : « سرابيلهم من قطران » هو الصفر الحارّ المذاب انتهى حره يقول الله عز وجل : « وتغشى وجوههم النار » سريلوا ذلك الصفر وتغشى وجوههم النار .

أقول : يعني أن المراد بالجملتين : « سرابيلهم من قطران وتغشى وجوههم النار » جميعاً بيان أنهم مستورون مغيثون أما أبدانهم فبالقطران وأما وجوههم فبالنار .



(سورة الحجر مكية ، وهي تسع وتسعون آية)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَقُرْآنٍ مُبِينٍ - ١ . رَبُّمَا يَوَدُّ الَّذِينَ
كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ - ٢ . ذَرُهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِيمُ الْأَمَلُ
فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ - ٣ . وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ
مَعْلُومٌ - ٤ . مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَأْخِرُونَ - ٥ . وَقَالُوا
يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ - ٦ . لَوْ مَا تَأْتِينَا
بِالْمَلَأْنِكَ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ - ٧ . مَا نُنْزِلُ الْمَلَأْنِكَ إِلَّا
بِالْحَقِّ وَمَا كَانُوا إِذَا مُنْظَرِينَ - ٨ . إِنَّا نَحْنُ نُزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ
لَحَافِظُونَ - ٩ .

(بيان)

تشتمل السورة على الكلام حول استهزاء الكفار بالنبي صلى الله عليه وآله ورميه
بالجنون ورمي القرآن الكريم بأنه من أهدار المجانين ففيها تعزية للنبي صلى الله عليه وآله
وآله وأمره بالصبر والثبات والصفح عنهم وتطبيب لنفسه الشريفة وإنذار وتبشير .

وهي مكية على ما تشهد به آياتها ، ونقل في الجمع عن الحسن استثناء قوله :
« ولقد آتيناك سبعاً من المثاني » الآية ، وقوله : « كما أنزلنا على المقتسمين الذين جعلوا
القرآن عضين » وسيأتي ما فيه .

وتشتمل السورة على قوله تعالى : « فاصدع بما تؤمر وأعرض عن المشركين » الخ ، والآية تقبل الانطباق على ما ضبطه التاريخ أن النبي ﷺ اکتتم في أول البعثة ثلاث سنين أو أربعاً أو خمساً لا يعلن دعوته لاشتداد الأمر عليه فكان لا يدعو إلا أحماداً ممن يرجو منهم الإيمان يدعوهم خفية ويسرّ اليهم الدعوة حتى أذن له ربه في ذلك وأمره أن يعلن دعوته .

وتؤيده الروايات المأثورة من طرق الشيعة وأهل السنة أنه ﷺ كان يكتتم في أول بعثته سنين لا يظهر فيها دعوته لعامة الناس حتى أنزل الله تعالى عليه : « فاصدع بما تؤمر وأعرض عن المشركين إنا كفيناك المستهزئين » فخرج إلى الناس وأظهر الدعوة ، وعليه فالسورة مكية نازلة في أول الدعوة العلنية .

ومن غرر الآيات القرآنية المشتملة على حقائق جمّة في السورة قوله تعالى : « وإن من شيء إلا عندنا خزائنه » الآية ، وقوله : « إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون » .

قوله تعالى : « الر تلك آيات الكتاب وقرآن مبين » الإشارة إلى الآيات الكريمة القرآنية فالمراد بالكتاب القرآن ، وتكبير القرآن للدلالة على عظم شأنه وفخامة أمره كما أن التعبير بتلك وهي للإشارة إلى البعيد لذلك .

والمعنى هذه الآيات العالية منزلة الرفيعة درجة التي ننزلها إليك آيات الكتاب الإلهي وآيات قرآن عظيم الشأن فاصل بين الحق والباطل على خلاف ما يرميها به الكفار بما يرمونك بالجنّة مستهزئين بكلام الله .

ومن الممكن أن يراد بالكتاب اللوح المحفوظ فإن القرآن منه وفيه ، قال تعالى : « إنه لقرآن كريم في كتاب مكنون » الواقعة : ٧٨ ، وقال : « بل هو قرآن مجيد في لوح محفوظ » البروج : ٢٢ فيكون قوله : « تلك آيات الكتاب وقرآن مبين » كاللخص من قوله : « والكتاب المبين إنا جعلناه قرآناً عربياً لعلكم تعقلون وإنه في أم الكتاب لدينا لعلي حكيم » الزخرف : ٤ .

قوله تعالى : « ربما يودّ الذين كفروا لو كانوا مسلمين » توطئة لما سيتعرض له من قولهم للنبي : « يا أيها الذي نزل عليه الذكر إنك لمجنون » يشير به إلى أنهم سيندمون

على ما هم عليه من الكفر ويتمنون الإسلام لله والإيمان بكتابه يوم لا سبيل لهم إلى تحصيل ذلك .

فقوله : « ربما يودّ » المراد به ودادة التمني لا مطلق الودادة والحب ، والدليل على ذلك قوله في بيان هذه المودة : « لو كانوا مسلمين » فإن لفظي « لو » و « كانوا » تدلان على أن ودادتهم ودادة تمنّ وأنهم يتمنون الإسلام بالنسبة إلى ماضي حالهم مما فاتهم ولن يعود اليهم فليس إلا الإسلام ما داموا في الدنيا .

فالآية تدلّ على أن الذين كفروا سيندمون على كفرهم ويتمنون أن لو كانوا مسلمين بعد انطواء بساط الحياة الدنيا .

قوله تعالى : « ذرهم يأكلوا ويتمتعوا ويلههم الأمل فسوف يعلمون » الإلهاء الصرف والإشغال يقال : ألهاه كذا عن كذا أي شغله عنه وأنساه ذكره .

وقوله : « ذرهم يأكلوا ويتمتعوا ويلههم الأمل » أمر برفع اليد عنهم وتركهم وما هم فيه من الباطل ، وهو كناية عن النهي عن الجدال معهم والاحتجاج عليهم لإثبات هذه الحقيقة وهي أنهم سوف يودّون الإسلام ويتمنونه ولا سبيل لهم إلى تحصيله وتدارك ما فات منه ، وقوله : « فسوف يعلمون » في موضع التعليل للأمر أي ذرهم ولا تجادلهم ولا تحاجّهم فلا حاجة إلى ذلك لأنهم سوف يعلمون ذلك فإن الحق ظاهر لا محالة .

وفي الآية تعريض لهم أنهم لا غاية لهم في حياتهم إلا الأكل والتمتع بلذات المادة والتلهي بالآمال والأمانى فلا منطق لهم إلا منطق الأنعام والحيوان العجم فمن الحريّ أن يُترَكوا وما هم فيه ، ولا يلقي اليهم الحجج الحقّة المبنية على أساس العقل السليم والمنطق الإنساني .

قوله تعالى : « وما أهلكنا من قرية إلا ولها كتاب معلوم » إلى آخر الآيتين تثبيت وتوكيد لقوله في الآية السابقة : « فسوف يعلمون » على ما يعطيه السياق والمعنى دعم فإنهم لا يسمعون في هذه الحياة الدنيا وإنما يودّون الإسلام بعد حلول أجلهم ونزول الهلاك بهم ، والناس ليسوا بذوي خيرة في ذلك بل لكل أمة كتاب معلوم عند الله مكتوب فيه أجلهم لا يقدرّون أن يستقدموه ولا يستأخروه ساعة .

وفي الآيتين دلالة على أن الأمة من الإنسان لها كتاب كما أن للفرد منه كتاباً ، قال تعالى : « وكل إنسان ألزمناه طائره في عنقه ونخرج له يوم القيامة كتاباً يلقاه منشوراً » أمري : ١٣ .

قوله تعالى : « وقالوا يا أيها الذي نزل عليه الذكر إنك لمجنون » كلام خارج مخرج الاستهزاء ، ولذلك خاطبوه ﷺ لا باسمه بل بوصف نزول الذكر عليه كما كان يدعيه ، وجاءوا بالفعل المجهول للدلالة على أن منزله غير معلوم عندهم ولا اعتماد ولا وثوق لهم بما يدعيه هو أن الله تعالى هو الذي أنزله ، وتوصيفه بالذي نزل عليه الذكر وكذا تسمية النازل عليه ذكراً كل ذلك من الاستهزاء كما أن قولهم : « إنك لمجنون » رمي وتكذيب .

قوله تعالى : « لو ما تأتينا بالملائكة إن كنت من الصادقين » لو ما مثل هلا للتخصيص أي هلا تأتينا بالملائكة إن كنت صادقاً في دعوى النبوة ليشهدوا على صدق دعواك وينذروا معك ، فهو قريب المعنى من قولهم على ما حكاه الله : « لولا أنزل اليه ملك فيكون معه نذيراً » الفرقان : ٧ .

ووجه اقتراحهم على الأنبياء أن يأتوا بالملائكة ويظهروهم لهم اعتقادهم أن البشرية كينونة مادية مغمورة في قذارة الشهوة والغضب لا نسبة بينها وبين العالم السماوي الذي هو محض النورانية والطهارة فمن ادعى نوعاً من الاتصال بذلك العالم الروحاني فعليه أن يأتي ببعض أهله من الملائكة الكرام ليصدقوه في دعواه ويعينوه في دعوته .

على أن الملائكة عند الوثنيين آلهة دون الله سبحانه فدعوتهم إلى التوحيد معناها أن هؤلاء الآلهة في معزل من الشفاعة والعبادة بأمر من الله سبحانه وهو إله الآلهة ولا دليل على ذلك كاعترافهم به فلينزلوا وليعترفوا ويصدقوا النبوة .

قوله تعالى : « ما ننزل الملائكة إلا بالحق وما كانوا إذا منظرين » جواب عما اقترحوا على النبي ﷺ أن يأتهم بالملائكة حتى يصدقوه ، ومحصل الجواب أن السنة الإلهية جارية على ستر ملائكته عنهم تحت أستار الغيب فلو أنزلهم وأظهرهم لهم عن اقتراحهم ذلك كان ذلك آية سماوية خارقة للعادة نازلة عن اقتراحهم ، ومن شأن الآية المعجزة النازلة عن اقتراح الناس أن يعقبا عذاب الاستئصال والهلاك القطعي

إن لم يؤمنوا بها ، وهؤلاء الكفار المعاندون ليسوا بمؤمنين فهو الهلاك .

وبالجملة لو أنزل الله الملائكة والحال هذا الحال - هم يقترحون آية فاصلة تظهر الحق وتميط الباطل - لأنزلهم بالحق الفاصل المميز وما كانوا إذا منظرين بل يهلكون ويقطع دابرهم ، هذا محصل ما ذكره بعضهم .

وقيل : المراد بالحق في الآية الموت ، والمعنى ما نزل الملائكة على الناس إلا مصاحباً للحق الذي هو الموت وما كانوا إذا منظرين ، وكأنه مأخوذ من قوله تعالى : « يوم يرون الملائكة لا بشرى يومئذ للمجرمين » الآية .

وقيل : المراد بالحق الرسالة أي ما نزل الملائكة إلا بالوحي والرسالة وكأنه مأخوذ من نحو قوله : « قد جاءكم الرسول بالحق » النساء : ١٧٠ ، وقوله : « فقد كذبوا بالحق لما جاءهم » الأنعام : ٥ .

فهذه وجوه مذكورة في تفسير الآية ودونها وجوه مذكورة في مختلف التفسير وهي جميعاً لا تخلو من شيء وهو أن شيئاً منها لا ينطبق على الحصر الموجود في قوله : « ما نزل الملائكة إلا بالحق » فنزول الملائكة لا يختص بعذاب الاستئصال فقط ولا بالموت فقط ، ولا بالوحي والرسالة فقط ، وتوجيه الآية بما يختص بأحد المعاني الثلاث المذكورة للحق يحتاج إلى تقييدها بقيود كثيرة يدفعها إطلاق الآية كما هو ظاهر لمن راجع الوجوه المقررة آنفاً .

ويمكن أن يقرر معنى الآية باستمداد من التدبر في آيات آخر أن ظرف الحياة المادية أعني هذه النشأة الدنيوية ظرف يختلط فيه الحق والباطل من غير أن يتمحض الحق في الظهور بجميع خواصه وآثاره كما يشير إليه قوله تعالى : « كذلك يضرب الله الحق والباطل » الرعد : ١٧ ، وقد تقدم تفصيل القول في ذلك فما يظهر فيه شيء من الحق إلا وهو يحتمل شيئاً من اللبس والشك كما بصدقه استقراء الموارد التي صادفناها مدى أعمارنا ، ومن الشاهد عليه قوله تعالى : « ولو جعلناه ملكاً لجعلناه رجلاً وللبسنا عليهم ما يلبسون » الأنعام : ٩ ، والظرف ظرف الامتحان والاختيار ولا اختيار إلا مع إمكان التباس الحق بالباطل واختلاط الخير والشر بنحو حتى يقف الإنسان على ملتقى الطريقين ومنشعب النجدين فيستدل على الخير والشر بآثارهما وأمارتهما ثم يختار

ما يستحقه من السعادة والشفاعة .

وأما عالم الملائكة وظرف وجودهم فإنما هو عالم الحق غير مشوب بشيء من الباطل كما يدلّ عليه قوله تعالى : « لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون » التحريم : ٦ ، وقوله : « بل عباد مكرمون لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون » الأنبياء : ٢٧ .

فقتضى الآيات وما في معناها أنهم في أنفسهم مخلوقات شريفة ووجودات ظاهرة نورانية منزّهة عن النقص والشين لا تحتل النش والشقاء وليس عندها إمكان الفساد والمعصية والتقصير فلا يحكم فيها هذا النظام المادي المبني على أساس الإمكان والاختيار وجواز الصلاح والفساد والطاعة والمعصية والسعادة والشقاء جميعاً ، وسيوافيك البحث المستوفى فيه فيما يناسبه من المورد إن شاء الله .

وسبأني أيضاً أن الإنسان لا طريق له إلى هذا الظرف الحق ما دام متوغلاً في هذا العالم المادي متورطاً في ورطات الشهوات والأهواء كأهل الكفر والفسوق إلا ببطلان عالمهم وخروجهم إلى العالم الحق وظهوره عليهم وانكشاف الغطاء عنهم كما يشير إليه قوله : « لقد كنت في غفلة من هذا فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد » ق : ٢٢ ، وهذا هو العالم الذي يسمى بالنسبة إلى الإنسان آخرة .

فتبيّن أن ظهور عالم الملائكة للناس المتوغلين في عالم المادة متوقف على تبدل الظرف والانتقال من الدنيا إلى الآخرة وهو الموت ، اللهم إلا في المصطفين من عباد الله وأوليائه المطهرين من أقدار الذنوب الملازمين لساحة قربهم لهم أهلية مشاهدة الغيب وهم في عالم الشهادة كالأنبياء عليهم السلام .

ولعل ما قدمناه هو المراد بقوله : « ما ننزل الملائكة إلا بالحق وما كانوا إذا منظرين » ، فإنهم إنمّا اقترحوا نزول الملائكة ليشاهدوهم في صورهم الأصلية حتى يصدقوا وهذا الحال لا تتمهد لهم إلا بالموت كما قال تعالى : « وقال الذين لا يرجون لقاءنا لولا أنزل علينا الملائكة - إلى أن قال - يوم يرون الملائكة لا بشرى يومئذ للمجرمين ويقولون حجراً محجوراً وقدّمنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباء منثوراً » الفرقان : ٢٣ .

وقد اجتمع المعنيان في قوله تعالى : « وقالوا لولا أنزل عليه ملك ولو أنزلنا ملكاً لقضي الأمر ثم لا ينظرون ولو جعلناه ملكاً لجعلناه رجلاً وللبسنا عليهم ما يلبسون » الأنعام : ٩ ، يقول تعالى : لو أنزلنا عليه الملائكة آية خارقة للعادة مصدقة للنبوّة كان لازمه القضاء عليهم وهلاكهم ولو قلدنا الملك النبوة والرسالة كان لازمه أن نصوّره في صورة رجل من الإنسان ، وأن نوقفه موقفاً يحتمل اللبس فإن الرسالة إحدى وسائل الامتحان والابتلاء الإلهي ولا امتحان إلا بما يحتمل السعادة والشقاء والفوز والخيبة ويحوز معه النجاة والهلاك ، ولو توصل إلى الرسالة بما يضطر العقول إلى الإيمان ويلجئ النفوس إلى القبول واليقين لبطل ذلك كله .

قوله تعالى : « إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون » صدر الآية مسوق سوق الحصر ، وظاهر السياق أن الحصر ناظر إلى ما ذكر من ردهم القرآن بأنه من أهدار الجنون وأنه ﷺ مجنون لا عبرة بما صنع ولا حجة ومن اقتراحهم أن يأتيهم بالملائكة ليصدقوه في دعوته وأن القرآن كتاب سماوي حق .

والمعنى - على هذا والله أعلم - أن هذا الذكر لم تأت به أنت من عندك حتى يعجزوك ويبطلوه بعنادهم وشدة بطشهم وتكلف لحفظه ثم لا تقدر ، وليس نازلاً من عند الملائكة حتى يفتقر إلى نزولهم وتصديقهم إياه بل نحن أنزلنا هذا الذكر إنزالاً تدريجياً وإنا له لحافظون بما له من صفة الذكر بما لنا من العناية الكاملة به .

فهو ذكر حي خالد مصون من أن يموت وينسى من أصله ، مصون من الزيادة عليه بما يبطل به كونه ذكراً ، مصون من النقص كذلك ، مصون من التغيير في صورته وسياقه بحيث يتغير به صفة كونه ذكراً لله مبيّناً لحقائق معارفه .

فالآية تدل على كون كتاب الله محفوظاً من التحريف بجميع أقسامه من جهة كونه ذكراً لله سبحانه فهو ذكر حي خالد .

ونظير الآية في الدلالة على كون الكتاب العزيز محفوظاً بحفظ الله مصوناً من التحريف والتصرف بأي وجه كان من جهة كونه ذكراً له سبحانه قوله تعالى : « إن الذين كفروا بالذكر لما جاءهم وإنه لكتاب عزيز لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من

خلفه تنزيل من حكيم حميد ، حم السجدة : ٤٢ .

وقد ظهر بما تقدم أن اللام في الذكر للعهد الذكري وأن المراد بالوصف لحافظون هو الاستقبال كما هو الظاهر من اسم الفاعل فيندفع به ما ربما يورد على الآية أنها لو دلت على نفي التحريف من القرآن لأنه ذكر لدلت على نفيه من التوراة والإنجيل أيضاً لأن كلا منهما ذكر مع أن كلامه تعالى صريح في وقوع التحريف فيها .

وذلك أن الآية بقرينة السياق إنما تدل على حفظ الذكر الذي هو القرآن بعد إنزاله إلى الأبد ، ولا دلالة فيها على عاثة الذكر للحفظ الإلهي ودوران الحكم مداره . وسنستوفي البحث عما يرجع إلى هذا الشأن إن شاء الله تعالى .

(بحث روائي)

في تفسير القمي بإسناده عن أبيه عن ابن أبي عمير عن عمر بن أذينة عن رفاعه عن أبي عبد الله عليه السلام قال : إذا كان يوم القيامة نادى مناد من عند الله : لا يدخل الجنة إلا مسلم فيومئذ يود الذين كفروا لو كانوا مسلمين . ثم قال : « ذرهم يأكلوا ويتمتعوا ويلههم الأمل » أي شغلهم « فسوف يعلمون » .

أقول : وروى العياشي عن عبد الله بن عطاء المكي عن أبي جعفر وأبي عبد الله عليهما السلام في تفسير الآية مثله .

وفي الدر المنثور أخرج الطبراني في الأوسط وابن مردويه بسند صحيح عن جابر بن عبد الله قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إن ناساً من أمتي يعذبون بذنوبهم فيكونون في النار ما شاء الله أن يكونوا ثم يعيدهم أهل الشرك فيقولون : ما نرى ما كنتم فيه من تصديقكم نفعمكم فلا يبقى موحداً إلا أخرجه الله تعالى من النار . ثم قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ربما يود الذين كفروا لو كانوا مسلمين » .

أقول : وهذا المعنى مروى بطرق أخرى عن أبي موسى الأشعري وأبي سعيد الخدري وأنس بن مالك عنه عليه السلام .

وفيه أخرج ابن أبي حاتم وابن شاهين في السنة عن علي بن أبي طالب قال :

قال رسول الله ﷺ : إن أصحاب الكبائر من موحدي الأمم كلها الذين ماتوا على كبائرهم غير نادمين ولا تائبين من دخل منهم جهنم لا تترق أعينهم ، ولا تسود وجوههم ، ولا يقرنون بالشياطين ولا يغفلون بالسلاسل ، ولا يجرعون الحميم ، ولا يلبسون القطران حرم الله أجسادهم على الخلود من أجل التوحيد ، وصورهم على النار من أجل السجود .

فمنهم من تأخذه النار إلى قدميه ، ومنهم من تأخذه النار إلى عقبه ، ومنهم من تأخذه النار إلى فخذه ، ومنهم من تأخذه النار إلى حجزته ، ومنهم من تأخذه النار إلى عنقه على قدر ذنوبهم وأعمالهم ، ومنهم من يمكث فيها شهراً ثم يخرج منها ، ومنهم من يمكث فيها سنة ثم يخرج منها ، وأطولهم فيها مكثاً بقدر الدنيا منذ يوم خلقت إلى أن تفتنى .

فإذا أراد الله أن يخرجهم منها قالت اليهود والنصارى ومن في النار من أهل الأديان والأوثان لمن في النار من أهل التوحيد : آمنتم بالله وكتبه ورسله فتحن وأنتم اليوم في النار سواء فيغضب الله لهم غضباً لم يفضبه لشيء فيما مضى فيخرجهم إلى عين بين الجنة والصراط فينبتون فيها نبات الطرائث في حميل السيل ثم يدخلون الجنة مكتوب في جباههم : هؤلاء الجهنميون عتقاء الرحمن فيمكثون في الجنة ما شاء الله أن يمكثوا .

ثم يسألون الله تعالى أن يمحو ذلك الاسم عنهم فيبعث الله ملكاً فيمحوه ثم يبعث الله ملائكة معهم مسامير من نار فيطبّقونها على من بقي فيها يسملونها بتلك المسامير فينساهم الله على عرشه ، ويشغل عنهم أهل الجنة بنعيمهم ولذاتهم ، وذلك قوله : « ربما يود الذين كفروا لو كانوا مسلمين » .

أقول : الطرثوث نبت وحميل السيل غشاؤه ، وقد روي من طرق الشيعة ما يقرب من الحديث مضموناً .

وفيه أخرج أحمد وابن مردويه عن أبي سعيد أن رسول الله ﷺ غرس عوداً بين يديه وآخر إلى جنبه وآخر بعده . قال : أتدرون ما هذا ؟ قالوا : الله ورسوله أعلم . قال : فإن هذا الإنسان وهذا أجله وهذا أمه فيتعاطى الأمل فيختلجه الأجل دون ذلك .

أقول : وروي ما يقرب من معناه بطرق عن انس عنه عليه السلام .

وفي المجمع عن أمير المؤمنين عليه السلام أنه قال : ان اخوف ما اخاف عليكم اثنان : اتباع الهوى ، وطول الأمل ، فإن اتباع الهوى يصد عن الحق ، وطول الأمل ينسي الآخرة .

وفي تفسير القمي في قوله تعالى : « ما نزل الملائكة إلا بالحق وما كانوا إذا منظرين » قال : قال عليه السلام : لو أنزلنا بالملائكة لم ينظروا وهلكوا .

كلام في أن القرآن مصون عن التحريف في فصول :

الفصل - ١

من ضروريات التاريخ أن النبي العربي محمداً عليه السلام جاء قبل اربعة عشر قرناً - تقريباً - وادعى النبوة وانتفض للدعوة وآمن به أمة من العرب وغيرهم ، وانه جاء بكتاب يسميه القرآن وينسبه إلى ربه متضمن لمجل المعارف وكليات الشريعة التي كان يدعو إليها ، وكان يتحدى به ويعدده آية لنبوته ، وان القرآن الموجود اليوم بأيدينا هو القرآن الذي جاء به وقرأه على الناس المعاصرين له في الجملة بمعنى أنه لم يضع من أصله بأن يفقد كله ثم يوضع كتاب آخر يشابهه في نظمه او لا يشابهه وينسب اليه ويشتهر بين الناس بأنه القرآن النازل على النبي عليه السلام .

فهذه امور لا يرتاب في شيء منها إلا مصاب في فهمه ولا احتمال بعض ذلك أحد من الباحثين في مسألة التحريف من المخالفين والمؤلفين .

وإنما احتمال بعض من قال به من المخالف او المؤلف زيادة شيء يسير كالجملة او الآية ^(١) او النقص او التعبير في جملة او آية في كلماتها او إعرابها ، وأما جل الكتاب الإلهي فهو على ما هو في عهد النبي عليه السلام لم يضع ولم يفقد .

(١) كقول بعض من غير المنتحلين بالاسلام أن قوله تعالى : « إنك ميت وإنهم ميتون » من وضع أبي بكر وضعه حين سمع عمر وهو شاعر سيفه يهدد بالقتل من قال : إن النبي مات فقرأها على عمر فصرقه .

ثم إنا نحمد القرآن يتحدث بأوصاف ترجع إلى عامة آياته ونجد ما بأيدينا من القرآن أعني ما بين الدفتين واجداً لما وصف به من أوصاف تحدث بها من غير أن يتغير في شيء منها أو يفوته ويفقد .

فنجده يتحدث بالبلاغة والفصاحة ونجد ما بأيدينا مشتملاً على ذلك النظم العجيب البديع لا يعدله ولا يشابهه شيء من كلام البلغاء والفصحاء المحفوظ منهم والمروي عنهم من شعر أو نثر أو خطبة أو رسالة أو محاضرة أو غير ذلك، وهذا النظم موجود في جميع الآيات سواء كتاباً متشابهاً مثاني تقشعرت منه الجلود والقلوب .

ونجده يتحدث بقوله: « أفلا يتدبرون القرآن ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً » النساء: ٨٢ بعدم وجود اختلاف فيه ونجد ما بأيدينا من القرآن يفي بذلك أحسن الوفاء وأوفاه فما من إبهام أو خلل يترأى في آية إلا ويرفعه آية أخرى ، وما من خلاف أو مناقضة يتوهم بادىء الرأي من شطر إلا وهناك ما يدفعه ويفسره .

ونجده يتحدث بغير ذلك مما لا يختص فهمه بأهل اللغة العربية كما في قوله: « قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً » أسرى: ٨٨ ، وقوله: « إنه لقول فصل وما هو بالهزل » الطارق: ١٤ ، ثم نجد ما بأيدينا من القرآن يستوفي البيان في صريح الحق الذي لا مرية فيه ، ويهدي إلى آخر ما يهتدي إليه العقل من أصول المعارف الحقيقية وكليات الشرائع الفطرية وتفاصيل الفضائل الخلقية من غير أن نعث فيها على شيء من النقيصة والخلل أو نحصل على شيء من التناقض والزلل بل نجد جميع المعارف على سعتها وكثرتها حية بحياة واحدة مدبرة بروح واحد هو مبدء جميع المعارف القرآنية والأصل الذي ينتهي الجميع ويرجع وهو التوحيد فالله ينتهي الجميع بالتعليل وهو يعود إلى كل منها بالتركيب .

ونجده يغوص في أخبار الماضين من الأنبياء وأممهم ونجد ما عندنا من كلام الله يورد قصصهم ويفصل القول فيها على ما يليق بطهارة الدين ويناسب نزاهة ساحة النبوة وخلوصها للعبودية والطاعة ، وكلما طبقنا قصة من القصص القرآنية على ما يماثلها مما ورد في المهددين النجلى ذلك أحسن الانجلاء .

ونجده يورد آيات في الملاحم ويخبر عن الحوادث الآتية في آيات كثيرة بالتصريح

أو بالتلويح ثم نجدها فيما هو بأيدينا من القرآن على تلك الشريطة صادقة مصدقة .

ونجده يصف نفسه بأوصاف زاكية جميلة كما يصف نفسه بأنه نور وأنه هادي يهدي إلى صراط مستقيم وإلى الملة التي هي أقوم ونجد ما بأيدينا من القرآن لا يفقد شيئاً من ذلك ولا يهمل من أمر الهداية والدلالة ولا دققة .

ومن أجمع الأوصاف التي يذكرها القرآن لنفسه أنه ذكر الله فإنه يذكر به تعالى بما انه آية دالة عليه حية خالدة ، وبما انه يصفه بأسمائه الحسنی وصفاته العليا ، ويصف سنته في الصنع والإيجاد ، ويصف ملائكته وكتبه ورسله ، ويصف شرائعه وأحكامه ، ويصف ما ينتهي إليه أمر الخلقة وهو المعاد ورجوع الكل إليه سبحانه ، وتفاصيل ما يؤل إليه أمر الناس من السعادة والشقاء ، والجنة والنار .

ففي جميع ذلك ذكر الله ، وهو الذي يرومه القرآن بإطلاق القول بأنه ذكر ونجد ما بأيدينا من القرآن لا يفقد شيئاً من معنى الذكر .

ولكون الذكر من أجمع الصفات في الدلالة على شؤون القرآن عبّر عنه بالذكر في الآيات السقي أخبر فيها عن حفظه القرآن عن البطلان والتغيير والتحريف كقوله تعالى : « إن الذين يلحدون في آياتنا لا يخفون علينا أفمن يلقى في النار خير أم من يأتي آمناً يوم القيامة أعمالوا ما شئتم إنه بما تعملون بصير » ، إن الذين كفروا بالذكر لما جاءهم وإنه لكتاب عزيز لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد » حم السجدة : ٤٢ ، فذكر تعالى أن القرآن من حيث هو ذكر لا يغلبه باطل ولا يدخل فيه حالاً ولا في مستقبل الزمان لا بإبطال ولا بنسخ ولا بتغيير أو تحريف يوجب زوال ذكره عنه .

وكقوله تعالى : « إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون » الحجر : ٩ ، فقد أطلق الذكر وأطلق الحفظ فالقرآن محفوظ بحفظ الله عن كل زيادة ونقصية وتغيير في اللفظ أو في الترتيب يزيله عن الذكرية ويبطل كونه ذكراً لله سبحانه بوجه .

ومن سخيّف القول إرجاع ضمير « له » إلى النبي ﷺ فإنه مدفوع بالسياق وإنما كان المشركون يستهزؤون بالنبي لأجل القرآن الذي كان يدّعي نزوله عليه كما يشير إليه بقوله سابقاً : « وقالوا يا أيها الذي نزل عليه الذكر إنك لمجنون » وقد

مرّة تفسير الآية .

فقد تبين ممّا فصلناه أن القرآن الذي أنزله الله على نبيه ﷺ ووصفه بأنه ذكر محفوظ على ما أنزل مصون بصيانة إلهية عن الزيادة والنقيصة والتغيير كما وعد الله نبيه فيه .

وخلاصة الحجة أن القرآن أنزله الله على نبيه ووصفه في آيات كثيرة بأوصاف خاصة لو كان تغير في شيء من هذه الأوصاف بزيادة أو نقيصة أو تغيير في لفظ أو ترتيب مؤثر فقد آثار تلك الصفة قطعاً لكننا نجد القرآن الذي بأيدينا واحداً لا آثار تلك الصفات الممدودة على أتم ما يمكن وأحسن ما يكون فلم يقع فيه تحريف يسلبه شيئاً من صفاته فالذي بأيدينا منه هو القرآن المنزل على النبي ﷺ بعينه فلو فرض سقوط شيء منه أو تغير في إعراب أو حرف أو ترتيب وجب أن يكون في أمر لا يؤثر في شيء من أوصافه كالإعجاز وارتفاع الاختلاف والهداية والنورية والذكورية والهيمنة على سائر الكتب السماوية إلى غير ذلك، وذلك كآية مكررة ساقطة أو اختلاف في نقطة أو إعراب ونحوها .

الفصل ٢ - مركز تحقيق بايزيد علوم إسلامي

ويدلّ على عدم وقوع التحريف الأخبار الكثيرة المروية عن النبي ﷺ من طرق الفريقين الآمرة بالرجوع إلى القرآن عند الفتن وفي حل عقد المشكلات .

وكذا حديث الثقلين المتواتر من طرق الفريقين : « إني تارك فيكم الثقلين كتاب الله وعترتي أهل بيتي ما إن تمسكتم بهما لن تضلوا بعدي أبداً » الحديث فلا معنى للأمر بالتمسك بكتاب محرّف ونفي الضلال أبداً ممن تمسك به .

وكذا الأخبار الكثيرة الواردة عن النبي ﷺ وأئمة أهل البيت عليهم السلام الآمرة بعرض الأخبار على الكتاب ، وما ذكره بعضهم أن ذلك في الأخبار الفقهية ومن الجائز أن نلتزم بعدم وقوع التحريف في خصوص آيات الأحكام ولا ينفع ذلك سائر الآيات مدفوع بأن أخبار العرض مطلقة فتخصيصها بذلك تخصيص من غير تخصص .

على أن لسان أخبار العرض كالصريح أو هو صريح في أن الأمر بالعرض إنما هو

لتمييز الصدق من الكذب والحق من الباطل ومن المعلوم أن الدس والوضع غير مقصورين في أخبار الفقه بل الدواعي إلى الدس والوضع في المعارف الاعتقادية وقصص الأنبياء والامم الماضين وأوصاف المبدء والمعاد أكثر وأوفر ويؤيد ذلك ما بأيدينا من الاسرائيليات وما يحذو حذوها مما أمر الجعل فيها أوضح وأبين .

وكذا الأخبار التي تتضمن تمسك أئمة أهل البيت عليهم السلام بمختلف الآيات القرآنية في كل باب على ما يوافق القرآن الموجود عندنا حتى في الموارد التي فيها آحاد من الروايات بالتحريف، وهذا أحسن شاهد على أن المراد في كثير من روايات التحريف من قولهم عليهم السلام : كذا نزل هو التفسير بحسب التنزيل في مقابل البطن والتأويل .

وكذا الروايات الواردة عن أمير المؤمنين وسائر الأئمة من ذريته عليهم السلام في أن ما بأيدي الناس قرآن نازل من عند الله سبحانه وإن كان غير ما ألقه علي عليه السلام من المصحف ولم يشركوه عليه السلام في التأليف في زمن أبي بكر ولا في زمن عثمان ومن هذا الباب قولهم عليهم السلام لشيعتهم : « اقرؤا كما قرء الناس » .

ومقتضى هذه الروايات أن لو كان القرآن الدائر بين الناس مخالفا لما ألقه علي عليه السلام في شيء فلانما يخالفه في ترتيب السور أو في ترتيب بعض الآيات التي لا يؤثر اختلال ترتيبها في مدلولها شيئا ولا في الأوصاف التي وصف الله سبحانه بها القرآن النازل من عنده ما يختل به آثارها .

فمجموع هذه الروايات على اختلاف أصنافها يدل دلالة قاطعة على أن الذي بأيدينا من القرآن هو القرآن النازل على النبي صلى الله عليه وآله وسلم من غير أن يفقد شيئا من أوصافه الكريمة وآثارها وبركاتها .

الفصل - ٣

ذهب جماعة من محدثي الشيعة والحشوية وجماعة من محدثي أهل السنة إلى وقوع التحريف بمعنى النقص والتغيير في اللفظ أو الترتيب دون الزيادة فلم يذهب إليها أحد من المسلمين كما قيل .

واحتجوا على نفي الزيادة بالإجماع وعلى وقوع النقص والتغيير بوجوه كثيرة .

أحدها: الأخبار الكثيرة المروية من طرق الشيعة وأهل السنة الدالة على سقوط بعض السور والآيات وكذا الجمل وأجزاء الجمل والكلمات والحروف في الجمع الأول الذي أُلّف فيه القرآن في زمن أبي بكر، وكذا في الجمع الثاني الذي كان في زمن عثمان وكذا التغيير وهذه روايات كثيرة روتها الشيعة في جوامعها المعتبرة وغيرها ، وقد ادّعى بعضهم أنها تبلغ ألفي حديث ، وروتها أهل السنة في صحاحهم كصحيح البخاري ومسلم وسنن أبي داود والنسائي وأحمد وسائر الجوامع وكتب التفسير وغيرها وقد ذكر الألوسي في تفسيره أنها فوق حد الإحصاء .

وهذا غير ما يخالف فيه مصحف عبد الله بن مسعود المصحف المعروف بما ينيف على ستين موضعاً ، وما يخالف فيه مصحف أبي بن كعب المصحف العثماني وهو في بضع وثلاثين موضعاً ، وما يختلف فيه المصاحف العثمانية التي اكتبها وأرسلها إلى الآفاق وهي خمسة أو سبعة أرسلها إلى مكة وإلى الشام وإلى البصرة وإلى الكوفة وإلى اليمن وإلى البحرين وحبس واحداً بالمدينة والاختلاف الذي فيما بينها يبلغ خمسة وأربعين حرفاً ، وقيل : بضع وخمسين حرفاً (١) .

وغير الاختلاف في الترتيب بين المصاحف العثمانية والجمع الأول في زمن أبي بكر فقد كانت سورة الأنفال في التأليف الأول في المثاني وسورة براءة في المثني وهما في الجمع الثاني موضوعتان في الطوال على ما ستجيء روايته .

وغير الاختلاف في ترتيب السور الموجود بين مصحف عبد الله بن مسعود وأبي ابن كعب على ما وردت به الرواية وبين المصاحف العثمانية ، وغير الاختلافات القرائية الشاذة التي رويت عن الصحابة والتابعين فربما بلغ عدد المجموع الألف أو زاد عليه .

الوجه الثاني : أن العقل يحكم بأنه إذا كان القرآن متفرقاً متشتتاً منتشرأ عند الناس وتصدتّى لجمعه غير المعصوم يمتنع عادة أن يكون جمعه كاملاً موافقاً للواقع .

الوجه الثالث : ما روته العامة والخاصة أن علياً عليه السلام اعتزل الناس بعد رحلة النبي ﷺ ولم يرتد إلا للصلاة حتى جمع القرآن ثم حمله إلى الناس وأعلمهم أنه القرآن

(١) ذكره ابن طائوس في سعد السعود .

الذي أنزله الله على نبيه ﷺ وقد جمعه فردوه واستغنوا عنه بما جمعه لهم زيد بن ثابت ولو لم يكن بعض ما فيه مخالفاً لبعض ما في مصحف زيد لم يكن لملحه اليهم وإعلامهم ودعوتهم اليه وجه ، وقد كان ﷺ أعلم الناس بكتاب الله بعد نبيه ﷺ وقد أرجع الناس اليه في حديث الثقلين المتواتر وقال في الحديث المتفق عليه : عليّ مع الحق والحق مع علي .

الوجه الرابع : ما ورد من الروايات أنه يقع في هذه الأمة ما وقع في بني إسرائيل حذو النعل بالنعل والقذة بالقذة ، وقد حرّفت بنو إسرائيل كتاب نبيهم على ما يصرح به القرآن الكريم والروايات المأثورة ، فلا بد أن يقع نظيره في هذه الأمة فيحرفوا كتاب ربهم وهو القرآن الكريم .

ففي صحيح البخاري عن أبي سعيد الخدري أن رسول الله ﷺ قال : لتتبعن سنن من كان قبلكم شبراً بشبر وذراعاً بذراع حتى لو دخلوا جحر ضب لتبعتموه ، قلنا : يا رسول الله بآبائنا وأمهاتنا اليهود والنصارى ؟ قال : فمن ؟

والرواية مستفيضة مروية في جوامع الحديث عن عدة من الصحابة كأبي سعيد الخدري - كما مر - وأبي هريرة وعبد الله بن عمر ، وابن عباس وحذيفة وعبد الله بن مسعود وسهل بن سعد وعمر بن عوف وعمرو بن العاص وشداد بن أوس والمستورد بن شداد في ألفاظ متقاربة .

وهي مروية مستفيضة من طرق الشيعة عن عدة من أئمة أهل البيت عليهم السلام عن النبي ﷺ كما في تفسير القمي عنه ﷺ : لتركبن سبيل من كان قبلكم حذو النعل بالنعل والقذة بالقذة لا تخطئون طريقهم ولا تخطيء شبر بشبر وذراع بذراع وباع بباع حتى لو كان من قبلكم دخل جحر ضب لدخلتموه قالوا : اليهود والنصارى تعني يا رسول الله ؟ قال : فمن أعني ؟ لتنقضن عرى الاسلام عروة عروة فيكون أول ما تنقضون من دينكم الأمانة وآخره الصلاة .

والجواب عن استدلالهم بإجماع الأمة على نفي تحريف القرآن بالزيادة بأنها حجة مدخولة لكونها دورية .

بيان ذلك : أن الإجماع ليس في نفسه حجة عقلية يقينية بل هو عند القائلين

باعتباره حجة شرعية لو أفاد شيئاً من الاعتقاد فإنما يفيد الظن سواء في ذلك محصله ومنقوله على خلاف ما يزعمه كثير منهم أن الإجماع المحصل مفيد للقطع وذلك أن الذي يفيد الإجماع من الاعتقاد لا يزيد على مجموع الاعتقادات التي تفيدها آحاد الأقوال والواحد من الأقوال المتوافقة لا يفيد إلا الظن بإصابة الواقع ، وانضمام القول الثاني الذي يوافقه إليه إنما يفيد قوة الظن دون القطع لأن القطع اعتقاد خاص بسيط مغاير للظن وليس بالمركب من عدة ظنون .

وهكذا كلما انضم قول الى قول وتراكمت الأقوال المتوافقة زاد الظن قوة وتراكمت الظنون واقتربت من القطع من غير أن تنقلب إليه كما تقدم ، هذا في المحصل من الإجماع وهو الذي نحصله بتتبع جميع الأقوال والحصول على كل قول قول ، وأما المنقول منه الذي ينقله الواحد والاثنان من اهل العلم والبحث فالأمر فيه أوضح فهو كآحاد الروايات لا يفيد إلا الظن إن أفاد شيئاً من الاعتقاد .

فالإجماع حجة ظنية شرعية دليل اعتبارها عند اهل السنة مثلاً قوله ﷺ :
« لا تجتمع أمتي على خطأ أو ضلال » وعند الشيعة دخول قول المعصوم في أقوال
المجمعين أو كشف أقوالهم عن قوله بوجه تحقيق كتاب تبيين علوم إسلامي

فحجية الإجماع بالجملة متوقفة على صحة النبوة وذلك ظاهر ، وصحة النبوة اليوم متوقفة على سلامة القرآن من التحريف المستوجب لزوال صفات القرآن الكريمة عنه كاهداية وفصل القول وخاصة الإعجاز فإنه لا دليل حياً خالداً على خصوص نبوة النبي ﷺ غير القرآن الكريم بكونه آية معجزة ، ومع احتمال التحريف بزيادة أو نقيصة أو أي تغيير آخر لا وثوق بشيء من آياته ومحتوياته أنه كلام الله محضاً وبذلك تسقط الحجة وتفسد الآية ، ومع سقوط كتاب الله عن الحجية يسقط الإجماع عن الحجية .

ولا ينفع في المقام ما قدمناه في أول الكلام أن وجود القرآن المنزل على النبي ﷺ فيما بأيدينا من القرآن في الجملة من ضروريات التاريخ .

وذلك لأن مجرد اشتغال ما بأيدينا منه على القرآن الواقعي لا يدفع احتمال زيادة أو نقيصة أو أي تغيير آخر في كل آية أو جملة أريد التمسك بها لإثبات مطلوب .

والجواب عن الوجه الأول الذي أقيم لوقوع التحريف بالنقص والتغيير وهو الذي تمسك فيه بالأخبار :

أما أولاً فبأن التمسك بالأخبار بما أنها حجة شرعية يشتمل من الدور على ما يشتمل عليه التمسك بالإجماع بنظير البيان الذي تقدم آنفاً .

فلا يبقى للمستدل بها إلا أن يتمسك بها بما أنها أسناد ومصادر تاريخية وليس فيها حديث متواتر ولا محفوف بقرائن قطعية تضطرّ العقل إلى قبوله بل هي آحاد متفرقة متشتتة مختلفة منها صحاح ومنها ضعاف في أسنادها ومنها قاصرة في دلالتها فما أشدّ منها ما هو صحيح في سنده تام في دلالة .

وهذا النوع على شذوذه وفدوته غير مأمون فيه الوضع والدسّ فإن انسراب الإسرائيليات وما يلحق بها من الموضوعات والمدسوسات بين رواياتنا لا سبيل إلى إنكاره ولا حجية في خبر لا يؤمن فيه الدسّ والوضع .

ومع الغضّ عن ذلك فهي تذكر من الآيات والسور ما لا يشبه النظم القرآني بوجه ، ومع الغضّ عن جميع ذلك فإنها مخالفة للكتاب مردودة :

أما ما ذكرنا أن أكثرها ضعيفة الأسناد فيعلم ذلك بالرجوع إلى أسانيدنا فهي مراسيل أو مقطوعة الأسناد أو ضعيفتها ، والسلام منها من هذه العلل أقلّ قليل .

وأما ما ذكرنا أن منها ما هو قاصر في دلالتها فإن كثيراً مما وقع فيها من الآيات المحكيّة من قبيل التفسير وذكر معنى الآيات لا من حكاية متن الآية المهرّقة وذلك كما في روضة الكافي عن أبي الحسن الأول في قول الله : « أولئك الذين يعلم الله ما في قلوبهم فأعرض عنهم فقد سبقت عليهم كلمة الشقاء وسبق لهم العذاب وقل لهم في أنفسهم قولاً بليفاً » .

وما في الكافي عن الصادق عليه السلام في قوله تعالى : « وإن تلووا أو تعرضوا » قال : « إن تلووا الأمر وتعرضوا عما أمرتم به فإن الله كان بما تعملون خبيراً » إلى غير ذلك من روايات التفسير المعدودة من أخبار التحريف .

ويلحق بهذا الباب ما لا يحصى من الروايات المشيرة إلى سبب النزول المعدودة من أخبار التحريف كالروايات التي تذكر هذه الآية هكذا : « يا أيها الرسول بلغ ما

أنزل اليك في عليّ ، والآية نازلة في حقه عليه السلام ، وما روي أن وفد بني تميم كانوا إذا قدموا رسول الله ﷺ وقفوا على باب الحجرة ونادوه أن اخرج إلينا فذكرت الآية فيها هكذا : « إن الذين ينادونك من وراء الحجرات بنو تميم أكثرهم لا يعقلون » فظن أن في الآية سقطاً .

ويلحق بهذا الباب أيضاً ما لا يحصى من الأخبار الواردة في جري القرآن وانطباقه كما ورد في قوله : « وسيعلم الذين ظلموا آل محمد حقهم » وما ورد من قوله : « ومن يطع الله ورسوله في ولاية علي والأئمة من بعده فقد فاز فوزاً عظيماً » وهي كثيرة جداً .

ويلحق بها أيضاً ما أتبع فيه القراءة بشيء من الذكر والدعاء فتوهم أنه من سقط القرآن كما في الكافي عن عبدالعزيز بن المهدي قال : سألت الرضا عليه السلام عن التوحيد فقال : كل من قرء قل هو الله أحد وآمن بها فقد عرف التوحيد ، قال : [قلت ظ] كيف نقرؤها ؟ قال : كما يقرؤها الناس وزاد فيه كذلك الله ربي كذلك الله ربي .

ومن قبيل قصور الدلالة ما نجد في كثير من الآيات المعدودة من المحرفة اختلاف الروايات في لفظ الآية كالتى وردت في قوله تعالى : « ولقد نصركم الله ببدر وأنتم أذلة » ففي بعضها أن الآية هكذا : « ولقد نصركم الله ببدر وأنتم ضعفاء » وفي بعضها : « ولقد نصركم الله ببدر وأنتم قليل » .

وهذا الاختلاف ربما كان قرينة على أن المراد هو التفسير بالمعنى كما في الآية المذكورة ، ويؤيده ما ورد في بعضها من قوله عليه السلام : لا يجوز وصفهم بأنهم أذلة وفيهم رسول الله ﷺ .

وربما لم يكن إلا من التعارض والتنافي بين الروايات القاضي بسقوطها كآية الرجم على ما ورد في روايات الخاصة والعامة وهي في بعضها : « إذا زنى الشيخ والشيخة فارجوهما البتة فإنها قضيا الشهوة » وفي بعضها : « الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجوهما البتة فإنها قضيا الشهوة » وفي بعضها « بما قضيا من اللذة » وفي بعضها آخرها : « نكالا من الله والله عليم حكيم » وفي بعضها : « نكالا من الله والله عزيز حكيم » . وكآية الكرسي على التنزيل التي وردت فيها روايات فهي في بعضها هكذا :

الله لا إله إلا هو الحي القيوم لا تأخذه سنة ولا نوم له ما في السماوات وما في الأرض وما بينهما وما تحت الثرى عالم الغيب والشهادة فلا يظهر على غيبه أحداً من ذا الذي يشفع عنده - الى قوله - وهو العلي العظيم والحمد لله رب العالمين .

وفي بعضها - الى قوله - هم فيها خالدون والحمد لله رب العالمين ، وفي بعضها هكذا : « له ما في السماوات وما في الأرض وما بينهما وما تحت الثرى عالم الغيب والشهادة الرحمان الرحيم » الخ . وفي بعضها : « عالم الغيب والشهادة الرحمان الرحيم بديع السماوات والأرض ذو الجلال والإكرام رب العرش العظيم » وفي بعضها : « عالم الغيب والشهادة العزيز الحكيم » .

وما ذكره بعض المحدثين أن اختلاف هذه الروايات في الآيات المنقولة غير ضائر لاتفاقها في أصل التحريف . مردود بأن ذلك لا يصلح ضعف الدلالة ودفع بعضها لبعض .

وأما ما ذكرنا من شيوع الدس والوضع في الروايات فلا يرتاب فيه من راجع الروايات المنقولة في الصنع والإيجاد وقصص الأنبياء والامم والأخبار الواردة في تفاسير الآيات والحوادث الواقعة في صدر الإسلام وأعظم ما بهم أمره لأعداء الدين ولا يألون جهداً في إطفاء نوره وإخماد ناره وإعفاء أثره هو القرآن الكريم الذي هو الكهف المنيع والركن الشديد الذي يأوي اليه ويتحصن به المعارف الدينية ، والسند الحي الخالد لمنشور النبوة ومواد الدعوة لعلمهم بأنه لو بطلت حجة القرآن لفسد بذلك أمر النبوة واختل نظام الدين ولم يستقر من بنيته حجر على حجر .

والمعجب من هؤلاء المحتجين بروايات منسوبة الى الصحابة او الى أئمة اهل البيت عليهم السلام على تحريف كتاب الله سبحانه وإبطال حججه ، وببطلان حجة القرآن تذهب النبوة سدى والمعارف الدينية لغى لا أثر لها ، وماذا يغني قولنا : إن رجلاً في تاريخ كذا ادعى النبوة وأتى بالقرآن معجزة أما هو فقد مات وأما قرآنه فقد حرق ، ولم يبق بأيدينا مما يؤيد أمره إلا أن المؤمنين به أجمعوا على صدقه في دعواه وأن القرآن الذي جاء به كان معجزاً دالاً على نبوته ، والإجماع حجة لأن النبي المذكور اعتبر حججه او لأنه يكشف مثلاً عن قول أئمة اهل بيته ؟

وبالجملة احتمال الدس - وهو قريب جداً مؤيد بالشواهد والقرائن - يدفع

حجية هذه الروايات ويفسد اعتبارها فلا يبقى معه لها لا حجية شرعية ولا حجية عقلانية حتى ما كان منها صحيح الاسناد فان صحة السند وعدالة رجال الطريق إنما يدفع تعمدهم الكذب دون دس غيرهم في اصولهم وجوامعهم ما لم يرووه .

وأما ما ذكرناه أن روايات التحريف تذكر آيات وسوراً لا يشبها نظمها النظم القرآني بوجه فهو ظاهر لمن راجعها فإنه يعثر فيها بشيء كثير من ذلك كسورتي الخلع والحقد اللتين رويتا بمعدة من طرق أهل السنة فسورة الخلع هي : بسم الله الرحمن الرحيم اللهم إنا نستعينك ونستغفرك ، ونثني عليك ولا نكفرك ، ونخلع ونترك من يفجرك ، وسورة الحقد هي : « بسم الله الرحمن الرحيم اللهم إياك نعبد ولك نصلي ونسجد ، وإليك نسعى ونحفد ، نرجو رحمتك ونخشى نقمتهك إن عذابك بالكافرين ملحق » .

وكذا ما أورده بعض الروايات من سورة الولاية وغيرها أقاويل مختلفة رام واضعها أن يقلد النظم القرآني فخرج الكلام عن الأسلوب العربي المألوف ولم يبلغ النظم الإلهي المعجز فعاد يستبشعه الطبع وينكره الذوق ولك أن تراجعها حتى تشاهد صدق ما ادعينا ، وتقضي أن أكثر المعنيين بهذه السور والآيات المختلفة المجهولة إنما دعاهم إلى ذلك التعبد الشديد بالروايات والإهمال في عرضها على الكتاب ، ولولا ذلك لكفتهم للحكم بأنها ليست بكلام إلهي نظرة .

وأما ما ذكرنا أن روايات التحريف على تقدير صحة أسنادها مخالفة للكتاب فليس المراد به مجرد مخالفتها لظاهر قوله تعالى : « إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون » وقوله : « وإنه لكتاب عزيز لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه » الآيتان حتى تكون مخالفة ظنية لكون ظهور الألفاظ من الأدلة الظنية بل المراد مخالفتها للدلالة القطعية من مجموع القرآن الذي بأيدينا حسب ما قررناه في الحجة الأولى التي أقناها لنفي التحريف .

كيف لا ؟ والقرآن الذي بأيدينا متشابه الأجزاء في نظمه البديع المعجز كاف في رفع الاختلافات المتراءاة بين آياته وأبعاضه غير ناقص ولا قاصر في إعطاء معارفه الحقيقية وعلومه الإلهية الكلية والجزئية المرتبطة بعضها ببعض المترتبة فروعها على أصولها المنعطفة أطرافها على أوساطها إلى غير ذلك من خواص النظم القرآني الذي

وصفه الله بها .

والجواب عن الوجه الثاني أن دعوى الامتناع العادي مجازفة بينة نعم يجوز العقل عدم موافقة التأليف في نفسه للواقع إلا أن تقوم قرائن تدل على ذلك وهي قاطعة كما قدمنا ، وأما أن يحكم العقل بوجوب مخالفتها للواقع كما هو مقتضى الامتناع العادي فلا .

والجواب عن الوجه الثالث أن جمعه عليه السلام القرآن وحمله إليهم وعرضه عليهم لا يدل على مخالفة ما جمعه لما جمعه في شيء من الحقائق الدينية الأصلية أو الفرعية إلا أن يكون في شيء من ترتيب السور أو الآيات من السور التي نزلت نجوماً بحيث لا يرجع إلى مخالفة في بعض الحقائق الدينية .

ولو كان كذلك لعارضهم بالاحتجاج ودافع فيه ولم يقنع بمجرد إعراضهم عما جمعه واستغنائهم عنه كما روي عنه عليه السلام في موارد شتى ، ولم ينقل عنه عليه السلام فيما روي من احتجاجاته أنه قرأ في أمر ولايته ولا غيرها آية أو سورة تدل على ذلك ، وجبتهم على إسقاطها أو تحريفها .

وهل كان ذلك حفظاً لوحدة المسلمين وتحرزاً عن شق العصا فإنما كان يتصور ذلك بعد استقرار الأمر واجتماع الناس على ما جمع لهم لا حين الجمع وقبل أن يقع في الأيدي ويسير في البلاد .

وليت شعري هل يسعنا أن ندعي أن ذاك الجهم الغفير من الآيات التي يرون سقوطها وربما ادعوا أنها تبلغ الألوف كانت جميعاً في الولاية أو كانت خفية مستورة عن عامة المسلمين لا يعرفها إلا النزر القليل منهم مع توفر دواعيهم وكثرة رغباتهم على أخذ القرآن كما نزل وتعلمه ، وبلوغ اجتهاد النبي صلى الله عليه وآله وسلم في تبليغه وإرساله إلى الآفاق وتعليمه وبيانه ، وقد نص على ذلك القرآن قال تعالى : « ويعلمهم الكتاب والحكمة » الجمعة : ٢ ، وقال : « لتبين للناس ما نزل إليهم » النحل : ٤٤ فكيف ضاع ؟ وأين ذهب ؟ ما يشير إليه بعض المراسيل أنه سقط في آية من أول سورة النساء بين قوله : « وإن خفتم أن لا تقسطوا في اليتامى » وقوله : « فانكحوا ما طاب لكم من النساء » أكثر من ثلث القرآن أي أكثر من ألفي آية ، وما ورد من طرق أهل السنة أن سورة

براهة كانت مبسطة تعدل سورة البقرة ، وأن الأحزاب كانت أعظم من البقرة وقد سقطت منه مائتا آية إلى غير ذلك !

أو أن هذه الآيات - وقد دلت هذه الروايات على بلوغها في الكثرة - كانت منسوخة التلاوة كما ذكره جمع من المفسرين من أهل السنة حفظاً لما ورد في بعض رواياتهم أن من القرآن ما أنساه الله ونسخ تلاوته .

فما معنى إنساء الآية ونسخ تلاوتها ؟ أكان ذلك لنسخ العمل بها فما هي هذه الآيات المنسوخة الواقعة في القرآن كآية الصدقة وآية نكاح الزانية والزاني وآية العدة وغيرها ؟ وهم مع ذلك يقسمون منسوخ التلاوة إلى منسوخ التلاوة والعمل معاً ومنسوخ التلاوة دون العمل كآية الرجم .

أم كان ذلك لكونها غير واجدة لبعض صفات كلام الله حتى أبطلها الله بإحباط ذكرها وإذهاب أثرها فلم يكن من الكتاب العزيز الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، ولا منزهاً من الاختلاف ، ولا قولاً فصلاً ولا هادياً إلى الحق وإلى طريق مستقيم ، ولا معجزاً يتحدى به ولا ، ولا ، فإما معنى الآيات الكثيرة التي تصف القرآن بأنه في لوح محفوظ ، وأنه كتاب عزيز لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، وأنه قول فصل ، وأنه هدى ، وأنه نور ، وأنه فرقان بين الحق والباطل ، وأنه آية معجزة ، وأنه ، وأنه ؟ .

فهل يسعنا أن نقول : إن هذه الآيات على كثرتها وإباء سياقها عن التقييد مقيدة ببعض فبعض الكتاب فقط وهو غير المنسي ومنسوخ التلاوة لا يأتيه الباطل وقول فصل وهدى ونور وفرقان ومعجزة خالدة ؟

وهل جعل الكلام منسوخ التلاوة ونسياً منسياً غير إبطاله وإماتته ؟ وهل صيرورة القول النافع بحيث لا ينفع للأبد ولا يصلح شأنًا مما فسد غير إلغائه وطرحه وإيماله ؟ وكيف يجامع ذلك كون القرآن ذكراً ؟

فالحق أن روايات التحريف المروية من طرق الفريقين وكذا الروايات المروية في نسخ تلاوة بعض الآيات القرآنية مخالفة للكتاب مخالفة قطعية .

والجواب عن الوجه الرابع : أن أصل الأخبار القاضية بمائلة الحوادث الواقعة في

هذه الامة لما وقع في بني إسرائيل مما لا ريب فيه ، وهي متظافرة او متواترة ، لكن هذه الروايات لا تدل على المماثلة من جميع الجهات ، وهو ظاهر بل الضرورة تدفعه .

فالمراد بالمماثلة هي المماثلة في الجملة من حيث النتائج والآثار ، وحينئذ فمن الجائز أن تكون مماثلة هذه الامة لبني إسرائيل في مسألة تحريف الكتاب إنما هي في حدوث الاختلاف والتفرق بين الامة بانشعابها إلى مذاهب شتى يكفر بعضهم بعضاً وافتراقها إلى ثلاث وسبعين فرقة كما افترقت النصارى إلى اثنتين وسبعين واليهود إلى واحدة وسبعين وقد ورد هذا المعنى في كثير من هذه الروايات حتى ادعى بعضهم كونها متواترة .

ومن المعلوم أن الجميع مستندون فيما اختاروه إلى كتاب الله ، وليس ذلك إلا من جهة تحريف الكلم عن مواضعه ، وتفسير القرآن الكريم بالرأي ، والاعتماد على الأخبار الواردة في تفسير الآيات من غير العرض على الكتاب وتمييز الصحيح منها من السقيم .

وبالجملة أصل الروايات الدالة على المماثلة بين الامتين لا يدل على شيء من التحريف الذي يدعونه نعم وقع في بعضها ذكر التحريف بالتغيير والإسقاط ، وهذه الطائفة على ما بها من السقم مخالفة للكتاب كما تقدم .

مركز تحقيق كتاب التكملة - الفصل -

في تاريخ اليعقوبي : قال عمر بن الخطاب لأبي بكر : يا خليفة رسول الله إن حملة القرآن قد قتل أكثرهم يوم اليامة فلو جمعت القرآن فإني أخاف عليه أن يذهب حملته ، فقال له ابو بكر : أفعل ما لم يفعله رسول الله ؟ فلم يزل به عمر حتى جمعه وكتبه في صحف ، وكان مفرقاً في الجريد وغيرها .

وأجلس خمسة وعشرين رجلاً من قريش وخمسين رجلاً من الأنصار فقال : اكتبوا القرآن واعرضوا على سعيد بن العاص فإنه رجل فصيح .

وروى بعضهم أن علي بن أبي طالب عليه السلام كان جمعه لما قبض رسول الله ﷺ وأتى به يحمله على جمل فقال : هذا القرآن قد جمعته . قال : وكان قد جزأه سبعة أجزاء ثم ذكر الأجزاء .

وفي تاريخ أبي الفداء : وقتل في قتال مسيلة جماعة من القراء من المهاجرين

والأنصار، ولما رأى أبو بكر كثرة من قتل أمر يجمع القرآن من أفواه الرجال وجريد النخل والجلود ، وترك ذلك المكتوب عند حفصة بنت عمر زوج النبي ﷺ ، انتهى .
والأصل فيما ذكره الروايات فقد أخرج البخاري في صحيحه عن زيد بن ثابت قال : أرسل إلي أبو بكر مقتل أهل اليمامة فإذا عمر بن الخطاب عنده فقال أبو بكر إن عمر أتاني فقال : إن القتل قد استحرّ بقرء القرآن وإني أخشى أن يستحر القتل بالقرء في المواطن فيذهب كثير من القرآن ، وإني أرى أن تأمر يجمع القرآن ، فقلت لعمر : كيف نفعل شيئاً لم يفعله رسول الله ﷺ ؟ قال عمر : هذا والله خير ، فلم يزل يراجعني حتى شرح الله صدري لذلك ورأيت الذي رأى عمر .

قال زيد : قال أبو بكر : إنك شاب عاقل لا نتهمك وقد كنت تكتب الوحي لرسول الله ﷺ فتتبع القرآن فاجمعه فوالله لو كلفوني نقل جبل من الجبال ما كان أثقل عليّ مما أمرني به من جمع القرآن ، قلت : كيف تفعلان شيئاً لم يفعله رسول الله ﷺ ؟ قال : هو والله خير .

فلم يزل أبو بكر يراجعني حتى شرح الله صدري للذي شرح له صدر أبي بكر وعمر فتتبع القرآن أجمعه من العسف والخفاف وصدور الرجال ، ووجدت آخر سورة التوبة مع خزيمة الأنصاري لم أجدها مع غيره : « لقد جاءكم رسول ، حتى خافه برأه ، فكانت الصحف عند أبي بكر حتى توفاه الله تعالى ثم عند عمر حياته ثم عند حفصة بنت عمر .

وعن ابن أبي داود من طريق يحيى بن عبد الرحمن بن حاطب قال : قدم عمر فقال : من كان تلقى من رسول الله ﷺ شيئاً من القرآن فليأت به وكانوا يكتبون ذلك في الصحف والألواح والعصب ، وكان لا يقبل من أحد شيئاً حتى يشهد شهادان .
وعنه أيضاً من طريق هشام بن عروة عن أبيه - وفي الطريق انقطاع - أن أبا بكر قال لعمر ولزيد : اقمدا على باب المسجد فمن جاءكما بشاهدين على شيء من كتاب الله فاكتباه .

وفي الإتيان عن ابن أشتة في المصاحف عن الليث بن سعد قال : أول من جمع القرآن أبو بكر وكتبه زيد ، وكان الناس يأتون زيد بن ثابت فكان لا يكتب آية إلا

بشاهدي عدل ، وإن آخر سورة براءة لم يوجد إلا مع أبي خزيمة بن ثابت فقال :
اكتبوها فإن رسول الله ﷺ جعل شهادته بشهادة رجلين فكتب وإن عمر أتى بآية
الرجم فلم يكتبها لأنه كان وحده .

وعن ابن أبي داود في المصاحف من طريق محمد بن إسحاق عن يحيى بن عباد بن
عبد الله بن الزبير عن أبيه قال : أتاني الحارث بن خزيمة بهاتين الآيتين من آخر سورة
براءة فقال : أشهد أني سمعتها من رسول الله ﷺ ووعيتها ، فقال عمر : وأنا أشهد
لقد سمعتها ثم قال : لو كانت ثلاث آيات لجعلتها سورة على حدة فانظروا آخر سورة
من القرآن فالحقوها في آخرها .

وعنه أيضاً من طريق أبي العالية عن أبي بن كعب أنهم جمعوا القرآن فلما انتهوا
إلى الآية التي في سورة براءة « ثم انصرفوا صرف الله قلوبهم بأنهم قوم لا يفقهون »
ظنوا أن هذا آخر ما أنزل فقال أبي : إن رسول الله ﷺ أقرأني بعد هذا آيتين « لقد
جاءكم رسول » إلى آخر السورة .

وفي الإتقان عن الديرعاقولي في فوائده حدثنا إبراهيم بن يسار حدثنا سفيان بن
عيينة عن الزهري عن عبيد عن زيد بن ثابت قال : قال : قبض النبي ﷺ ولم يكن
القرآن جمع في شيء .

وفي مستدرك الحاكم بإسناده عن زيد بن ثابت قال : كنا عند رسول الله ﷺ
نؤلف القرآن من الرقاع ، الحديث .

أقول : ولعل المراد ضم بعض الآيات النازلة نجوماً إلى بعض السور أو إلحاق
بعض السور إلى بعضها مما يتأثر صنفاً كالطوال والمئين والمفصلات ، فقد ورد لها ذكر
في الأحاديث النبوية ، وإلا فتأليف القرآن وجمعه مصحفاً واحداً إنما كان بعد ما قبض
النبي ﷺ بلا إشكال ، وعلى مثل هذا ينبغي أن يحمل ما يأتي .

في صحيح النسائي عن ابن عمر قال : جمعت القرآن فقرأت به كل ليلة فبلغ النبي
ﷺ فقال : اقرأه في شهر .

وفي الإتقان عن ابن أبي داود بسند حسن عن محمد بن كعب القرظي قال : جمع
القرآن على عهد رسول الله ﷺ خمسة من الأنصار : معاذ بن جبل وعبد الله بن الصامت

وأبي بن كعب وأبو الدرداء وأبو أيوب الأنصاري .

وفيه عن البيهقي في المدخل عن ابن سيرين قال : جمع القرآن على عهد رسول الله ﷺ أربعة لا يختلف فيهم معاذ بن جبل وأبي بن كعب وأبو زيد واختلفوا في رجلين من ثلاثة : أبي الدرداء وعثمان ، وقيل : عثمان وتميم الداري .

وفيه عنه وعن ابن أبي داود عن الشعبي قال : جمع القرآن في عهد النبي ﷺ ستة : أبي وزيد ومعاذ وأبو الدرداء وسعيد بن عبيد وأبو زيد وجمع بن حارثة ، وقد أخذه إلا سورتين أو ثلاث .

وفيه أيضاً عن ابن أشتة في كتاب المصاحف من طريق كهس عن ابن بريدة قال : أول من جمع القرآن في مصحف سالم مولى أبي حذيفة أقسم لا يرتدي برداء حتى يجمعه فجمعه . الحديث .

أقول : أقصى ما قدل عليه هذه الروايات مجرد جمعهم ما نزلت من السور والآيات ، وأما العناية بترتيب السور والآيات كما هو اليوم أو بترتيب آخر فلا . هذا هو الجمع الأول في عهد أبي بكر .

الفصل - ٥ - في علوم الدار

وقد جمع القرآن ثانياً في عهد عثمان لما اختلفت المصاحف وكثرت القراءات .

قال اليعقوبي في تاريخه : وجمع عثمان القرآن وألفه وصير الطوال مع الطوال والقصار مع القصار من السور ، وكتب في جمع المصاحف من الآفاق حتى جمعت ثم سلقها بالماء الحار والخل ، وقيل : أحرقها فلم يبق مصحف حتى فعل به ذلك خلا مصحف ابن مسعود .

وكان ابن مسعود بالكوفة فامتنع أن يدفع مصحفه إلى عبد الله بن عامر وكتب [إليه ظ] عثمان أن أشخصه إن لم يكن هذا الدين خبالاً وهذه الأمة فساداً فدخل المسجد وعثمان يخطب فقال عثمان : إنه قد قدمت عليكم دابة سوء فكلتم ابن مسعود بكلام غليظ فأمر به عثمان فجرح برجله حتى كسر له ضلعان فتكلمت عائشة وقالت قولاً كثيراً .

وبعث بها إلى الأمصار وبعث بمصحف إلى الكوفة ومصحف إلى البصرة ومصحف إلى المدينة ومصحف إلى مكة ومصحف إلى مصر ومصحف إلى الشام ومصحف إلى البحرين ومصحف إلى اليمن ومصحف إلى الجزيرة .

وأمر الناس أن يقرؤا على نسخة واحدة ، وكان سبب ذلك أنه بلغه أن الناس يقولون : قرآن آل فلان فأراد أن يكون نسخته واحدة ، وقيل : إن ابن مسعود كان كتب بذلك إليه فلما بلغه أنه كان يحرق المصاحف قال : لم أرد هذا ، وقيل : كتب إليه بذلك حذيفة بن اليمان . انتهى موضع الحاجة .

وفي الإتيان روى البخاري عن أنس أن حذيفة بن اليمان قدم على عثمان وكان يغازي أهل الشام في فتح أرمينية وأذربيجان مع أهل العراق فأفزع حذيفة اختلافهم في القراءة فقال لعثمان : أدرك الأمة قبل أن يختلفوا في اليهود والنصارى فأرسل إلى حفصة أن أرسل إلينا الصحف فنسخها في المصاحف ثم ردها إليك ، فأرسلت بها حفصة إلى عثمان فأمر زيد بن ثابت وعبد الله بن الزبير وسعيد بن العاص وعبد الرحمن ابن الحارث بن هشام فنسخوها في المصاحف .

وقال عثمان للرهط القرشيين الثلاثة : إذا اختلفتم أنتم وزيد بن ثابت في شيء من القرآن فاكتبوه بلسان قريش فإنه إنما نزل بلسانهم ، ففعلوا حتى إذا نسخوا الصحف في المصاحف رده عثمان الصحف إلى حفصة وأرسل إلى كل أفق بمصحف مما نسخوا وأمر بما سواه من القرآن في كل صحيفة أو مصحف أن يحرق .

قال زيد : آية من الأحزاب حين نسخنا المصحف قد كنت أسمع رسول الله ﷺ يقرأ بها فالتمسناها فوجدناها مع خزيمة بن ثابت الأنصاري : « من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه » فألحقناها في سورتها في المصحف .

وفيه أخرج ابن أشتة من طريق أيوب عن أبي قلابة قال : حدثني رجل من بني عامر يقال له : أنس بن مالك قال : اختلفوا في القرآن على عهد عثمان حتى اقتتل الغلمان والمعلمون فبلغ ذلك عثمان بن عفان فقال : عندي تكذيبون به وتلحنون فيه فمن نأى عني كان أشد تكذيباً وأكثر لحناً يا أصحاب محمد اجتمعوا واكتبوا للناس إماماً .

فاجتمعوا فكانوا إذا اختلفوا وتدارؤا في آية قالوا : هذه أقرأها رسول الله ﷺ

فلاناً فيرسل إليه وهو على رأس ثلاث من المدينة فيقال له : كيف أقرأك رسول الله ﷺ آية كذا وكذا ؟ فيقول كذا وكذا فيكتبونها وقد تركوا لذلك مكاناً .

وفيه عن ابن أبي داود من طريق ابن سيرين عن كثير بن أفلح قال : لما أراد عثمان أن يكتب المصاحف جمع له اثني عشر رجلاً من قریش والأنصار فبعثوا إلى الربة التي في بيت عمر فجاء بها وكان عثمان يتعاهدهم فكانوا إذا تدارؤا في شيء أخروه . قال محمد : فظننت أنما كانوا يؤخرونه لينظروا أحدثهم عهداً بالعرضة الأخيرة فيكتبونه على قوله .

وفيه أخرج ابن أبي داود بسند صحيح عن سويد بن غفلة قال : قال علي : لا تقولوا في عثمان إلا خيراً فوالله ما فعل الذي فعل في المصاحف إلا عن ملاء منا قال ما تقولون في هذه القراءة ؟ فقد بلغني أن بعضهم يقول : إن قراءتي خير من قراءتك وهذا يكاد يكون كفراً قلنا : فما ترى ؟ [قال : أرى ظ] أن يجمع الناس على مصحف واحد فلا يكون فرقة ولا اختلاف . قلنا : فنعم ما رأيت .

وفي الدر المنثور أخرج ابن الضريس عن علباء بن أحران عثمان بن عفان لما أراد أن يكتب المصاحف أرادوا أن يلقوا الواو التي في براءة والذين يكتزون الذهب والفضة قال أبي : لتلحقنها أو لأضعن سيفي على عاتقي فألحقوها .

وفي الاتفاق عن أحمد وأبي داود والترمذي والنسائي وابن حبان والحاكم عن ابن عباس قال : قلت لعثمان : ما حملكم على أن عمدتم إلى الأنفال وهي من المثاني ، وإلى براءة وهي من المثني فقربتم بينها ولم تكتبوا بينها سطر بسم الله الرحمن الرحيم ، ووضعتموها في السبع الطوال .

فقال عثمان : كان رسول الله ﷺ تنزل عليه السورة ذات العدد فكان إذا أنزل عليه الشيء دعا بعض من كان يكتب ، فيقول : ضعوا هؤلاء الآيات في السورة التي يذكر فيها كذا وكذا ، وكانت الأنفال من أوائل ما نزل بالمدينة ، وكانت براءة من آخر القرآن نزولاً وكانت قصتها شبيهة بقصتها فظننت أنها منها فقبض رسول الله ﷺ ولم يبين لنا أنها منها .

فمن أجل ذلك قرنت بينها ، ولم اكتب بينها سطر بسم الله الرحمن الرحيم

ووضعتها في السبع الطوال .

أقول : السبع الطوال - على ما يظهر من هذه الرواية وروي أيضاً عن ابن جبير - هي البقرة وآل عمران والنساء والمائدة والأنعام والأعراف ويونس ، وقد كانت موضوعة في الجمع الأول على هذا الترتيب ثم غير عثمان هذا الترتيب فأخذ الأنفال وهي من المثاني وبراءة وهي من المثين قبل المثاني فوضعها بين الأعراف ويونس مقدماً الأنفال على براءة .

الفصل - ٦

الروايات الموضوعة في الفصلين السابقين هي أشهر الروايات الواردة في باب جمع القرآن وتأليفه بين صحيحة وسقيمة ، وهي تدل على أن الجمع الأول كان جمعاً لشتات السور المكتوبة في المسبب واللخاف والأكتاف والجلود والرقاع وإلحاق الآيات النازلة متفرقة إلى سور تناسبها .

وان الجمع الثاني وهو الجمع العثماني كان رد المصاحف المنتشرة عن الجمع الأول بعد عروض تعارض النسخ واختلاف القراءات عليها إلى مصحف واحد بجمع عليه عدا ما كان من قول زيد أنه ألحق قوله : « من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه » الآية ، في سورة الأحزاب في المصحف فقد كانت المصاحف تتلى خمس عشرة سنة وليست فيها الآية .

وقد روى البخاري عن ابن الزبير قال : قلت لعثمان « والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجاً ، قد نسختها الآية الأخرى فلم تكتبها أو تدعها ؟ قال : يا بن أخي لا أغير شيئاً منه من مكانه .

والذي يعطيه النظر الحر في أمر هذه الروايات ودلائلها - وهي عمدة ما في هذا الباب - أنها آحاد غير متواترة لكنها محفوفة بقرائن قطعية فقد كان النبي ﷺ يبلغ الناس ما نزل إليه من ربه من غير أن يكتم منه شيئاً ، وكان يعلمهم ويبين لهم ما نزل إليهم من ربه على ما نص عليه القرآن ، ولم يزل جماعة منهم يعلمون ويتعلمون القرآن تعلم تلاوة وبيان وهم القراء الذين قتل جم غفير منهم في غزوة اليمامة .

وكان الناس على رغبة شديدة في اخذ القرآن وتماطيه ولم يترك هذا الشأن ولا ارتفع القرآن من بينهم ولا يوماً او بعض يوم حتى جمع القرآن في مصحف واحد ثم أجمع عليه فلم يبتل القرآن بما ابتليت به التوراة والإنجيل وكتب سائر الأنبياء .

أضف إلى ذلك روايات لا تحصى كثرة وردت من طرق الشيعة وأهل السنة في قراءاته ﷺ كثيراً من السور القرآنية في الفرائض اليومية وغيرها بمسمع من ملا الناس ، وقد سمى في هذه الروايات جم غفير من السور القرآنية مكيتها ومدنيتها .

أضف إلى ذلك ما تقدم في رواية عثمان بن أبي العاص في تفسير قوله تعالى : « إن الله يأمر بالعدل والإحسان » الآية النحل : ٩٠ من قوله ﷺ أن جبريل أتاني بهذه الآية وأمرني أن أضعها في موضعها من السورة ، ونظير الرواية في الدلالة ما دل على قراءته ﷺ لبعض السور النازلة نجوماً كآل عمران والنساء وغيرها فيدل على أنه ﷺ كان يأمر كتّاب الوحي بإلحاق بعض الآيات في موضعها .

وأعظم الشواهد القاطعة ما تقدم في أول هذه الأبحاث أن القرآن الموجود بأيدينا واجد لما وصفه الله تعالى من الأوصاف الكريمة .

وبالجملة الذي تدل عليه هذه الروايات هي :

أولاً : أن الموجود فيما بين الدفتين من القرآن هو كلام الله تعالى فلم يزد فيه شيء ولم يتغير منه شيء وأما النقص فإنها لا تفي بنفيه نفياً قطعياً كما روي بعدة طرق أن عمر كان يذكر كثيراً آية الرجم ولم تكتب عنه وأما حملهم الرواية وسائر ما ورد في التحريف - وقد ذكر الألوسي في تفسيره أنها فوق حد الإحصاء - على منسوخ التلاوة فقد عرفت فسادها وتحققت أن إثبات منسوخ التلاوة أشنع من إثبات أصل التحريف .

على أن من كان له مصحف غير ما جمعه زيد أولاً بأمر من أبي بكر وثانياً بأمر من عثمان كعلي بن أبي طالب وأبي بن كعب وعبد الله بن مسعود لم ينكر شيئاً مما حواه المصحف الدائر غير ما نقل عن ابن مسعود أنه لم يكتب في مصحفه المعوذتين وكان يقول : إنها عوذتان نزل بهما جبريل على رسول الله ﷺ ليعوذ بهما الحسنين عليهما السلام ، وقد رده سائر الصحابة وقواترت النصوص من أئمة أهل البيت عليهم السلام على أنهما سورتان من القرآن .

وبالجملة الروايات السابقة - كما ترى - أحساد محفوفة بالقرائن القطعية نافية للتحريف بالزيادة والتغيير قطعاً دون النقص إلا ظناً ، ودعوى بعضهم التواتر من حيث الجهات الثلاث لا مستند لها .

والتعويل في ذلك على ما قدمناه من الحجة في أول هذه الأبحاث ان القرآن الذي بأيدينا واحد للصفات الكريمة التي وصف الله سبحانه بها القرآن الواقعي الذي أنزله على رسوله ﷺ ككونه قولاً فصلاً ورافعاً للاختلاف وذكرأً وهادياً ونوراً ومبيناً للمعارف الحقيقية والشرائع الفطرية وآية معجزة إلى غير ذلك من صفاته الكريمة .

ومن الحري أن نعول على هذا الوجه فإن حجة القرآن على كونه كلام الله المنزل على رسوله ﷺ هي نفسه المتصفة بهاتيك الصفات الكريمة من غير أن يتوقف في ذلك على امر آخر وراء نفسه كأنما ما كان فحجته معه أينما تحقق وببد من كان ومن أي طريق وصل .

وبعبارة أخرى لا يتوقف القرآن النازل من عند الله إلى النبي ﷺ في كونه متصفاً بصفاته الكريمة على ثبوت استناده إليه ﷺ بنقل متواتر أو متظافر - وإن كان واجداً لذلك - بل الأمر بالعكس فاتصافه بصفاته الكريمة هو الحجة على الاستناد فليس كالكتب والرسائل المنسوبة إلى المصنفين والكتاب ، والأقاييل المأثورة عن العلماء وأصحاب الأنظار المتوقفة صحة استنادها إلى نقل قطعي وبلوغ متواتر أو مستفيض مثلاً بل نفس ذاته هي الحجة على ثبوته .

وثانياً : ان ترتيب السور إنما هو من الصحابة في الجمع الأول والثاني ومن الدليل عليه ما تقدم في الروايات من وضع عثمان الأنفال وبراءة بين الأعراف ويونس وقد كانتا في الجمع الأول متأخرتين .

ومن الدليل عليه ما ورد من مغايرة ترتيب مصاحف سائر الصحابة للجمع الأول والثاني كليهما كما روي ان مصحف علي عليه السلام كان مرتباً على ترتيب النزول فكان أوله اقرء ثم المدثر ثم نون ثم المزمل ثم تبت ثم التكوير وهكذا إلى آخر المكي والمدني نقله في الإتيقان عن ابن فارس ، وفي تاريخ اليعقوبي ترتيب آخر لمصحفه عليه السلام .

ونقل عن ابن أشته في المصاحف بإسناده عن أبي جعفر الكوفي ترتيب مصحف أبي وهو يفاير المصحف الدائر مغايرة شديدة ، وكذا عنه فيه بإسناده عن جرير بن عبد الحميد ترتيب مصحف عبد الله بن مسعود آخذاً من الطوال ثم المثني ثم المثاني ثم المفصل وهو أيضاً مغاير للمصحف الدائر .

وقد ذهب كثير منهم إلى أن ترتيب السور توقيفي وأن النبي ﷺ هو الذي أمر بهذا الترتيب بإشارة من جبريل بأمر من الله سبحانه حتى أفرط بعضهم فادّعى ثبوت ذلك بالتواتر وليت شعري أين هذا التواتر وقد تقدمت عدة روايات الباب ولا أثر فيها من هذا المعنى ، وسيأتي استدلال بعضهم على ذلك بما ورد من نزول القرآن من اللوح المحفوظ إلى السماء الدنيا جملة ثم منها على النبي ﷺ تدريجاً .

وثالثاً : أن وقوع بعض الآيات القرآنية التي نزلت متفرقة موقعها الذي هي فيه الآن لم يخل عن مداخلتها من الصحابة بالاجتهاد كما هو ظاهر روايات الجمع الأول وقد تقدمت .

وأما رواية عثمان بن أبي العاص عن النبي ﷺ : « أتاني جبريل فأمرني أن أضع هذه الآية بهذا الموضع من السورة » إن الله يأمر بالعدل والإحسان ، الآية فلا تدل على أزيد من فعله ﷺ في بعض الآيات في الجملة لا بالجملة ، وعلى تقدير التسليم لا دلالة لما بأيدينا من الروايات المتقدمة على مطابقة ترتيب الصحابة ترتيبه ﷺ ، ومجرد حسن الظن بهم لا يسمح للروايات بدلالة تدل بها على ذلك وإنما يفيد أنهم ما كانوا ليعمدوا إلى مخالفة ترتيبه ﷺ فيما علموه لا فيما جهلوه . وفي روايات الجمع الأول المتقدمة أوضح الشواهد على أنهم ما كانوا على علم بموضع جميع الآيات ولا بنفسها .

ويدل على ذلك الروايات المستفيضة التي وردت من طرق الشيعة وأهل السنة أن النبي ﷺ والمؤمنين إنما كانوا يعلمون تمام السورة بنزول البسملة كما رواه أبو داود والحاكم والبيهقي والبزار من طريق سعيد بن جبير - على ما في الإتيان - عن ابن عباس قال : كان النبي ﷺ لا يعرف فصل السورة حتى تنزل عليه بسم الله الرحمن الرحيم ، زاد البزار : فإذا نزلت عرف أن السورة قد ختمت واستقبلت أو ابتدأت سورة أخرى .

وأيضاً عن الحاكم من وجه آخر عن سعيد عن ابن عباس قال : كانت المسلمون لا يعلمون انقضاء السورة حتى تنزل بسم الله الرحمن الرحيم فإذا نزلت علموا أن السورة

قد انقضت ، إسناده على شرط الشيخين .

وأيضاً عنه من وجه آخر عن سعيد عن ابن عباس أن النبي ﷺ إذا جاءه جبريل فقرأ بسم الله الرحمن الرحيم علم أنها سورة ، إسناده صحيح .

أقول : وروي ما يقرب من ذلك في عدة روايات أخر وروي ذلك من طرق الشيعة عن الباقر عليه السلام .

والروايات — كما ترى — صريحة في دلالتها على أن الآيات كانت مرتبة عند النبي ﷺ بحسب ترتيب النزول فكانت المكتيات في السورة المكية والمدنيات في سورة مدنية اللهم إلا أن يفرض سورة نزل بعضها بمكة وبعضها بالمدينة ، ولا يتحقق هذا الفرض إلا في سورة واحدة .

ولازم ذلك أن يكون ما نشاهده من اختلاف مواضع الآيات مستنداً إلى اجتهاد من الصحابة .

توضيح ذلك أن هناك ما لا يحصى من روايات أسباب النزول يدل على كون آيات كثيرة في السور المدنية نازلة بمكة وبالعكس وعلى كون آيات من القرآن نازلة مثلاً في أواخر عهد النبي ﷺ وهي واقعة في سور نازلة في أوائل الهجرة ، وقد نزلت بين الوقتين سور أخرى كثيرة ، وذلك كسورة البقرة التي نزلت في السنة الأولى من الهجرة وفيها آيات الربا وقد وردت الروايات على أنها من آخر ما نزلت على النبي ﷺ حتى ورد عن عمر أنه قال : مات رسول الله ولم يبين لنا آيات الربا ، وفيها قوله تعالى : « واتقوا يوماً ترجعون فيه إلى الله » الآية البقرة : ٢٨١ ، وقد ورد أنها آخر ما نزل من القرآن على النبي ﷺ .

فهذه الآيات النازلة مفرقة الموضوع في سور لا تجانسها في المكية والمدنية موضوع في غير موضعها بحسب ترتيب النزول وليس إلا عن اجتهاد من الصحابة .

ويؤيد ذلك ما في الإتقان عن ابن حجر : وقد ورد عن علي أنه جمع القرآن على ترتيب النزول عقب موت النبي ﷺ أخرجه ابن أبي داود وهو من مسلمات مداليل روايات الشيعة .

هذا ما يدل عليه ظاهر روايات الباب المتقدمة لكن الجمهور أصروا على أن

ترتيب الآيات توقيفي فأيات المصحف الدائر اليوم وهو المصحف العثماني مرتبة على ما رتبها عليه النبي ﷺ بإشارة من جبريل ، وأولوا ظاهر الروايات بأن جمع الصعابة لم يكن جمع ترتيب وإنما كان جمعاً لما كانوا يعلمونه ويحفظونه عن النبي ﷺ من السور وآياتها المرتبة ، بين دفتين وفي مكان واحد .

وأنت خير بأن كيفية الجمع الأول الذي تدلّ عليها الروايات تدفع هذه الدعوى دفعا صريحا .

وربما استدل عليه بما ادّعاه بعضهم من الإجماع على ذلك فقد نقل السيوطي في الاتقان عن الزركشي دعوى الإجماع عليه وعن أبي جعفر بن الزبير نفي الخلاف فيه بين المسلمين ، وهو إجماع منقول لا يعتمد عليه بعد وجود الخلاف في أصل التحريف ودلالة ما تقدم من الروايات على خلافه .

وربما استدل عليه بالتواتر ويوجد ذلك في كلام كثير منهم ادعوا تواتر الترتيب الموجود عن النبي ﷺ وهو عجيب وقد نقل في الإتقان بعد نقله ما رواه البخاري وغيره بعدة طرق عن أنس أنه قال : مات النبي ﷺ ولم يجمع القرآن غير أربعة : أبو الدرداء ومعاذ بن جبل وزيد بن ثابت وأبو زيد ، وفي رواية « أبي بن كعب » بدل أبي الدرداء - عن المازري أنه قال : وقد تمسك بقول أنس هذا جماعة من الملاحدة ولا متمسك لهم فيه فإننا لا نسلم حمله على ظاهره سلمنا ولكن من أين لهم أن الواقع في نفس الأمر كذلك ؟ سلمناه لكن لا يلزم من كون كل من الجمل الغفير لم يحفظه كله أن لا يكون حفظ مجموع الجمل الغفير وليس من شرط التواتر أن يحفظ كل فرد جميعه بل إذا حفظ الكل الكل ولو على التوزيع كفى ، انتهى .

أما دعواه أن ظاهر كلام أنس غير مراد فهو مما لا يصفى إليه في الأبحاث اللفظية المبنية على ظاهر اللفظ إلا بقرينة من نفس كلام المتكلم أو ما ينوب منابه أما مجرد الدعوى والاستناد إلى قول آخرين فلا .

على أنه لو حمل كلام أنس على خلاف ظاهره كان من الواجب أن يحمل على أن هؤلاء الأربعة إنما جمعوا في عهد النبي ﷺ معظم القرآن وأكثر سور وآياته لا على

أنهم وغيرهم من الصحابة جمعوا جميع القرآن على ما في المصحف العثماني وحفظوا ترتيب سورته وآياته وضبطوا موضع كل واحدة واحدة منها عن آخرها فهذا زيد بن ثابت نفسه - وهو أحد الأربعة المذكورين في حديث أنس والمتصدي للجمع الأول والثاني كليهما - يصرح في رواياته أنه لم يحفظ جميع الآيات .

ونظيره ما في الاتفاق عن ابن أشته في المصاحف بسند صحيح عن محمد بن سيرين قال : مات أبو بكر ولم يجمع القرآن وقتل عمر ولم يجمع القرآن .

وأما قوله : سلناه ولكن من أين لهم أن الواقع في نفس الأمر كذلك ؟ فنقول على نفسه فمن أين لهذا القائل أن الواقع في نفس الأمر كما يدعيه وقد عرفت الشواهد على خلاف ما يدعيه ؟

وأما قوله : إنه يكفي في تحقق التواتر أن يحفظ الكل كل القرآن على سبيل التوزيع فغالطة واضحة لأنه إنما يفيد كون مجموع القرآن من حيث المجموع منقولاً بالتواتر وأما كون كل واحدة واحدة من الآيات القرآنية محفوظة من حيث محلها وموضعها بالتواتر فلا وهو ظاهر .

ونقل في الاتفاق عن البغوي أنه قال في شرح السنة : الصحابة جمعوا بين الدفتين القرآن الذي أنزله الله على رسوله من غير أن زادوا أو نقصوا منه شيئاً خوف ذهاب بعضه بذهاب حفظته فكتبوه كما سمعوا من رسول الله ﷺ من غير أن قدموا شيئاً أو آخروه أو وضعوا له ترتيباً لم يأخذوه من رسول الله ﷺ .

وكان رسول الله ﷺ يلقي أصحابه ويعلمهم ما نزل عليه من القرآن على الترتيب الذي هو الآن في مصاحفنا بتوقيف جبريل إياه على ذلك وإعلامه عند نزول كل آية أن هذه الآية تكتب عقب آية كذا في سورة كذا .

فثبت أن سعي الصحابة كان في جمعه في موضع واحد لا في ترتيبه فإن القرآن مكتوب في اللوح المحفوظ على هذا الترتيب أنزله الله جملة إلى السماء الدنيا ثم كان ينزله مفرقاً عند الحاجة وترتيب النزول غير ترتيب التلاوة انتهى .

ونقل عن ابن الحصار أنه قال : ترتيب السور ووضع الآيات مواضعها إنما كان بالوحي كان رسول الله ﷺ يقول : ضعوا آية كذا في موضع كذا ، وقد حصل اليقين

من النقل المتواتر بهذا الترتيب من رسول الله ﷺ ، وإنما أجمع الصحابة على وضعه هكذا في المصحف انتهى ، ونقل أيضاً ما يقرب من ذلك عن جماعة غيرهم كالبيهقي والطبري وابن حجر .

أما قولهم : إن الصحابة إنما كتبوا المصحف على الترتيب الذي أخذوه عن النبي ﷺ من غير أن يخالفوه في شيء فمما لا يدل عليه شيء من الروايات المتقدمة ، وإنما المسلم من دلالتها أنهم إنما أثبتوا ما قامت عليه البينة من متن الآيات ولا إشارة في ذلك إلى كيفية ترتيب الآيات النازلة مفرقة وهو ظاهر نعم في رواية ابن عباس المتقدمة عن عثمان ما يشير إلى ذلك غير أن الذي فيه أنه كان ﷺ يأمر بعض كتاب الوحي بذلك وهو غير إعلامه جميع الصحابة ذلك على أن الرواية معارضة بروايات الجمع الأول وأخبار نزول بسم الله وغيرها .

وأما قولهم : إن النبي ﷺ لقن الصحابة هذا الترتيب الموجود في مصاحفنا بتوقيف من جبريل ووحى سماوي فكأنه إشارة إلى حديث عثمان بن أبي العاص المتقدم في آية « إن الله يأمر بالعدل والإحسان » وقد عرفت بما تقدم أنه حديث واحد في خصوص موضع آية واحدة ، وأين ذلك من مواضع جميع الآيات المفرقة .

وأما قولهم : إن القرآن مكتوب على هذا الترتيب في اللوح المحفوظ أنزله الله إلى السماء الدنيا ثم أنزله الله مفرقاً عند الحاجة الخ ، فإشارة إلى ما روي مستفيضاً من طرق الشيعة وأهل السنة من نزول القرآن جملة من اللوح المحفوظ إلى السماء الدنيا ثم نزوله منها نجوماً إلى النبي ﷺ لكن الروايات ليس فيها أدنى دلالة على كون القرآن مكتوباً في اللوح المحفوظ منظماً في السماء الدنيا على الترتيب الموجود في المصحف الذي عندنا وهو ظاهر .

على أنه سيأتي إن شاء الله الكلام في معنى كتابة القرآن في اللوح المحفوظ ونزوله إلى السماء الدنيا في ذيل ما يناسب ذلك من الآيات كأول سورتي الزخرف والدخان وسورة القدر .

وأما قولهم : إنه قد حصل اليقين بالنقل المتواتر عن رسول الله ﷺ بهذا الترتيب الموجود في المصحف فقد عرفت أنه دعوى خالية عن الدليل وأن هذا التواتر

لا خبر عنه بالنسبة إلى كل آية آية كيف وقد تكاثرت الروايات أن ابن مسعود لم يكتب في مصحفه المعوذتين وكان يقول : إنها ليستا من القرآن وإنما نزل بهما جبريل تعويذاً للحسنين ، وكان يحكمها عن المصاحف ، ولم ينقل عنه أنه رجع عن قوله فكيف خفي عليه هذا التواتر طول حياته بعد الجمع الأول .

الفصل - ٧

يتعلق بالبحث السابق البحث في روايات الإنشاء - وقد مرّت إشارة إجمالية إليها - وهي عدّة روايات وردت من طرق أهل السنة في نسخ القرآن وإنشائه حملوا عليها ما ورد من روايات التحريف سقوطاً وتغييراً .

فمنها ما في الدر المنثور عن ابن أبي حاتم والحاكم في الكنى وابن عدي وابن عساكر عن ابن عباس قال : كان مما ينزل على النبي ﷺ الوحي بالليل وينسأ بالنهار فأنزل الله : « ما ننسخ من آية أو ننسأها نأت بخير منها أو مثلها » .

وفيه عن أبي داود في ناسخه والبيهقي في الدلائل عن أبي أمامة أن رهطاً من الأنصار من أصحاب النبي ﷺ أخبروه أن رجلاً قام من جوف الليل يريد أن يفتح سورة كان قد وعأها فلم يقدر منها على شيء إلا بسم الله الرحمن الرحيم ووقع ذلك لناس من أصحابه فأصبحوا فسألوا رسول الله ﷺ عن السورة فسكت ساعة لم يرجع إليهم شيئاً ثم قال : نسخت البارحة فنسخت من صدورهم ومن كل شيء كانت فيه .

أقول : والقصة مروية بعدّة طرق في ألفاظ متقاربة مضموناً .

وفيه عن عبد الرزاق وسعيد بن منصور وأبي داود في ناسخه وابن عساف والنسائي وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والحاكم وصححه عن سعد بن أبي وقاص أنه قرأ : « ما ننسخ من آية أو ننسأها » ف قيل له : إن سعيد بن المسيّب يقرأ « ننسأها » فقال سعد : إن القرآن لم ينزل على المسيّب ولا آل المسيّب ، قال الله : « سنقرئك فلا تنسى » « واذكر ربك إذا نسيت » .

أقول : يريد بالتمسك بالآيتين أن الله رفع النسيان عن النبي ﷺ فيتمتعين أن يقرأ « ننسأها » من النسيء بمعنى الترك والتأخير فيكون المراد بقوله : « ما ننسخ من

آية « إزالة الآية عن العمل دون التلاوة كآية صدقة النجوى » وبقوله : « أو ننسأها » ترك الآية ورفعها من عندهم بالمرّة وإزالتها عن العمل والتلاوة كما روي تفسيرها بذلك عن ابن عباس ومجاهد وقتادة وغيرهم .

وفيه أخرج ابن الأنباري عن أبي ظبيان قال : قال لنا ابن عباس : أيّ القراءتين تعدّون أول ؟ قلنا : قراءة عبد الله وقراءتنا هي الأخيرة . فقال : رسول الله ﷺ كان يعرض عليه جبريل القرآن كل سنة مرة في شهر رمضان وإنه عرضه عليه في آخر سنة مرتين فشهد منه عبد الله ما نسخ ما بدل .

أقول : وهذا المعنى مروي بطرق أخرى عن ابن عباس وعبد الله بن مسعود نفسه وغيرهما من الصحابة والتابعين ، وهناك روايات أخر في الإنشاء .

ومحصل ما استفيد منها أن النسخ قد يكون في الحكم كآيات المنسوخة المثبتة في المصحف ، وقد يكون في التلاوة مع نسخ حكمها أو من غير نسخ حكمها وقد تقدم في تفسير قوله : « ما ننسخ من آية » البقرة : ١٠٦ وسيأتي في قوله : « وإذا بدلنا آية مكان آية » النحل : ١٠١ أن الآيتين أجنبيتان عن الإنشاء بمعنى نسخ التلاوة ، وتقدم أيضاً في الفصول السابقة أن هذه الروايات مخالفة لصريح الكتاب فالوجه عطفها على روايات التحريف وطرح القبيلين جميعاً .

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي شِعْرِ الْأَوَّلِينَ - ١٠ . وَمَا يَأْتِيهِمْ
مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ - ١١ . كَذَلِكَ نَسْلُكُهُ فِي قُلُوبِ
الْمُجْرِمِينَ - ١٢ . لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ - ١٣ .
وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَاباً مِنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ - ١٤ . لَقَالُوا
إِنَّمَا سُكَّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَسْحُورُونَ - ١٥ .

(بيات)

لما ذكر استهزاءهم بكتابه ونبيه وما افترحوا عليه من الإتيان بالملائكة آية للرسالة عقبه بثلاث طوائف من الآيات وهي المصدرة بقوله : « ولقد أرسلنا من قبلك » الخ وقوله : « ولقد جعلنا في السماء بروجا » الخ وقوله : « ولقد خلقنا الإنسان من صلصال » الخ .

فبيّن في أولها أن هذا الاستهزاء دأب وسنة جارية للمجرمين وليسوا بمؤمنين ولو جاءتهم أية آية ، وفي الثانية أن هناك آيات سماوية وأرضية كافية لمن وفق للإيمان وفي الثالثة أن الاختلاف بالإيمان والكفر في نوع الإنسان وضلال أهل الضلال مما تعين لهم يوم أبدع الله خلق الإنسان ، فخلق آدم وجرى هنالك ما جرى من أمر الملائكة بالسجود وإباء إبليس عن ذلك .

قوله تعالى : « ولقد أرسلنا من قبلك في شيع الأولين » إلى آخر الآيتين . الشيع جمع شيعه وهي الفرقة المتفقة على سنة أو مذهب يتبعونه ، قال تعالى : « من الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعاً كل حزب بما لديهم فرحون » الروم : ٣٢ .

وقوله : « ولقد أرسلنا » أي رسلاً وقد حذف للاستغناء عنه فإن العناية بأصل تحقق الإرسال من قبل من غير نظر إلى من أرسل بل بيان أن البشر الأولين كالأخرين جرت عادتهم على أن لا يحترموا الرسالة الإلهية ويستهزؤا بمن أتى بها ويمضوا على إجرامهم لتكون في ذلك تعزية للنبي ﷺ فلا يضيق صدره بما قابلوه به من الإنكار والاستهزاء كما سيعود إليه في آخر السورة بقوله : « ولقد نعلم أنك يضيق صدرك بما يقولون » الخ الآية ٩٧ من السورة .

والمعنى : طب نفساً فنحن نزلنا الذكر عليك ونحن نحفظه ولا يضيقن صدرك بما يقولون فهو دأب المجرمين من الأمم الإنسانية أقسم لقد أرسلنا من قبلك في فرق الأولين وشيعهم وحالهم هذه الحال ما يأتيهم من رسول إلا كانوا به يستهزؤن .

قوله تعالى : « كذلك نسلكه في قلوب المجرمين » إلى آخر الآيتين . السلوك : النفاذ والإنفاذ يقال : سلك الطريق أي نفذ فيه وسلك الحيط في الإبرة أي أنفذه فيها

وأدخله وذكروا أن سلك وأسلك بمعنى .

والضميران في « نسلكه » و « به » للذكر المتقدم ذكره وهو القرآن الكريم والمعنى أن حال رسالتك ودعوتك بالذكر المنزل إليك تشبه حال الرسالة من قبلك فكما أرسلنا من قبلك فقابلوها بالرد والاستهزاء كذلك ندخل هذا الذكر وننفذه في قلوب هؤلاء المجرمين ، ونبتأ به : أنهم لا يؤمنون بالذكر وقد مضت طريقة الأولين وسنتهم في أنهم يستهزؤون بالحق ولا يتبعونه فالآيتان قريبتا المعنى من قوله : « فما كانوا ليؤمنوا بما كذبوا به من قبل » .

وربما قيل : إن الضميرين للشرك أو الاستهزاء المفهوم من الآيات السابقة والباء في « به » للسببية ، والمعنى كذلك ننفذ الشرك أو الاستهزاء في قلوب المجرمين لا يؤمنون بسبب الشرك أو الاستهزاء الخ .

وهو معنى بعيد ، والمتبادر إلى الذهن من لفظة « لا يؤمنون به » أن الباء للتعديّة دون السببية .

وربما قيل : إن الضمير الأول للاستهزاء المفهوم من سابق الكلام ، والثاني للذكر المذكور سابقاً ، والمعنى مثل ما سلكتنا الاستهزاء في قلوب شيع الأولين نسلك الاستهزاء وننفذه في قلوب هؤلاء المجرمين لا يؤمنون بالذكر « الخ » .

ولا بأس به وإن كانت يستأزم التفرقة بين الضميرين المتواليين لكن إباء قوله : « لا يؤمنون به » أن يرجع ضميره إلى الاستهزاء يكفي قرينة لذلك .

وكذا لا يرد على الوجهين ما أورد أن رجوع ضمير « نسلكه » إلى الاستهزاء يوجب كون المشرّكين ملجئين إلى الشرك مجبرين عليه .

وجه عدم الورود : أنه تعالى علّق السلوك على المجرمين فيكون مفاده أنهم كانوا متلبّسين بالإجرام قبل فعل السلوك بهم ثم فعل بهم ذلك فينطبق على الإضلال الإلهي مجازاة ولا مانع منه ، وإنما المنوع هو الإضلال الابتدائي ولا دليل عليه في الآية بل الدليل على خلافه ، والآية من قبيل قوله تعالى : « يضلّ به كثيراً ويهدي به كثيراً وما يضلّ به إلا الفاسقين » البقرة : ٢٦ ، وقد تقدم تفصيل القول فيه .

وقد ظهر بما تقدم أن المراد بسنة الأولين السنة التي سنّها الأولون لا السنة التي

سُنَّها الله في الأولين فالسنة سنتهم دون سنة الله فيهم - كما ذكره بعض المفسرين - فهو الأنسب لمقام ذمتهم وتعزيتهم ﷺ بذكر ردِّهم واستهزائهم لرسولهم .

قوله تعالى : « ولو فتحنا عليهم باباً من السماء فظلوا فيه يعرجون لقالوا إنما سكرت أبصارنا » الخ ، العروج في السماء الصعود إليها والتسكير الغشاوة .

والمراد بفتح باب من السماء عليهم إيجاد طريق يتيسر لهم به الدخول في العالم العلوي الذي هو مأوى الملائكة وليس كما يظنّ سقفاً جرمانياً له باب ذو مصراعين يفتح ويغلق ، وقد قال تعالى : « ففتحنا أبواب السماء بماء منهمر » القمر : ١١ .

وقد اختار سبحانه من بين الخوارق التي يظنّ أنها ترفع عنهم الشبهة وتزيل عن نفوسهم الريب فتح باب من السماء وعروجهم فيه لأنه كان يعظم في أعينهم أكثر من غيره ، ولذلك لما اقترحوا عليه أموراً من الخوارق العظيمة ذكروا الرقي في السماء في آخر تلك الخوارق المذكورة على سبيل الترقّي كما حكاه الله عنهم بقوله : « وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعاً - إلى أن قال - أو ترقى في السماء ولن نؤمن لرقيك حتى تنزل علينا كتاباً نقرؤه » أسرى : ٩٣ ، فالرقي في السماء والتصرف في أمورها كتزويل كتاب مقروء منها أي نفوذ البشر في العالم العلوي وتمكّنه فيه ومنه أعجب الخوارق عندهم .

على أن السماء مأوى الملائكة الكرام ومحل صدور الأحكام والأوامر الإلهية وفيها ألواح التقادير ومنها مجاري الأمور ومنبع الوحي وإليها صعود كتب الأعمال ، فعروج الإنسان فيها يوجب اطلاعه على مجاري الأمور وأسباب الخوارق وحقائق الوحي والنبوة والدعوة والسعادة والشقاوة وبالجملة يوجب إشرافه على كل حقيقة ، وخاصة إذا كان عروجاً مستمراً لا مرة ودفعة كما يشير إليه قوله تعالى : « فظلوا فيه يعرجون » حيث عبّر بقوله : « ظلوا » ولم يقل : فعرجوا فيه .

فالفتح والعروج بهذا النعت يطلعمهم على أصول هذه الدعوة الحقّة وأعراقها لكنهم لما في قلوبهم من الفساد وفي نفوسهم من قذارة الريبة والشبهة المستحكة يخطئون أبصارهم فيما يشاهدون بل يتهمون النبي ﷺ أنه سحرهم فهم مسحورون من قبله . فالعنى : ولو فتحنا عليهم باباً من السماء ويسرنا لهم الدخول في عالمها فداموا

يخرجون فيه عروجاً بعد عروج حتى يتكرر لهم مشاهدة ما فيه من أسرار الغيب
وملكوت الأشياء لقالوا إنما غشيت أبصارنا فشهدت أموراً لا حقيقة لها بل نحن قوم
مسحورون .

* * *

وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجاً وَزَيَّنَّاها لِلنَّاظِرِينَ - ١٦ . وَحَفِظْنَاهَا
مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ - ١٧ . إِلَّا مَنْ اسْتَرَقَ السَّمْعَ فَاتَّبَعَهُ شِهَابٌ
مُبِينٌ - ١٨ . وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا
مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْزُونٍ - ١٩ . وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ وَمَنْ لَسْتُمْ لَهُ
بِرَازِقِينَ - ٢٠ . وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنْزِلُهُ إِلَّا
بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ - ٢١ . وَأَرْسَلْنَا الرِّيَّاحَ لَوَاقِحَ فَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً
فَأَسْقَيْنَا كُمُوهُ وَمَا أَنْتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ - ٢٢ . وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ
وَنَحْنُ الْوَارِثُونَ - ٢٣ . وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَقْدِمِينَ مِنْكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا
الْمُسْتَأْخِرِينَ - ٢٤ . وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَخْشُرُهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ - ٢٥ .

(بيان)

لما ذكر سبحانه إعراضهم عن آية القرآن المعجزة واقتراحهم آية أخرى وهي
الإتيان بالملائكة وأجاب عنه أنه ممتنع وملزم لفنائهم عدل إلى عدة من آيات
السما والارض الدالة على التوحيد ليعتبروا بها إن كانوا يعقلون وتم الحجة بها على
المجرمين ، وقد ضمن سبحانه فيها طرفاً عالياً من المعارف الحقيقية والأسرار الإلهية .
قوله تعالى : « ولقد جعلنا في السماء بروجاً وزينناها للناظرين » إلى آخر الآيات

الثلاث ، البروج جمع برج وهو القصر سميت بها منازل الشمس والقمر من السماء بحسب الحسن تشبيهاً لها بالقصور التي ينزلها الملوك .

والضمير في قوله : « وزيناها » للسماء كما في قوله : « وحفظناها » وتزينها للناظرين هو ما نشاهده في جوتها من البهجة والجمال الذي يولته الأبواب بنجومها الزاهرة وكواكبها اللامعة على اختلاف أقدارها وتنوع لمعاتها وقد كرر سبحانه ذكر هذا التزيين الكاشف عن مزيد عنايته به كقوله : « وزينا السماء الدنيا بمصابيح وحفظاً » حم السجدة : ١٢ ، وقوله : « إنا زينا السماء الدنيا بزينة الكواكب وحفظاً من كل شيطان مارد ، لا يسمعون إلى الملا الأعلى ويقذفون من كل جانب دحوراً ولهم عذاب واصب إلا من خطف الخطفة فاتبعه شهاب ثاقب » الصافات : ١٠ .

واستراق السمع أخذ الخبر المسموع في خفية كمن يصغي خفية إلى حديث قوم يسرونه فيما بينهم ، واستراق السمع من الشياطين هو محاولتهم أن يطلعوا على بعض ما يحدث به الملائكة فيما بينهم كما يدل عليه ما تقدم آنفاً من آيات سورة الصافات .

والشهاب هو الشعلة الخارجة من النار ويطلق على ما يشاهد في الجو من أجرام مضيئة كأن الواحد منها كوكب ينقض دفعة من جانب إلى آخر فيسير سيراً سريعاً ثم لا يلبث دون أن ينطفئ .

فظاهر معنى الآيات : ولقد جعلنا في السماء — وهي جهة العلو — بروجاً وقصوراً هي منازل الشمس والقمر وزيناها أي السماء للناظرين بزينة النجوم والكواكب وحفظناها أي السماء من كل شيطان رجيم أن ينفذ فيها فيطلع على ما تحويه من الملكوت إلا من استرق السمع من الشياطين بالاقتراب منه ليسمع ما يحدث به الملائكة من أحاديث الغيب المتعلقة بمستقبل الحوادث وغيرها فإنه يتبعه شهاب مبین .

وسنتكلم إن شاء الله في الشهب ومعنى رمي الشياطين فيها سيأتي من تفسير سورة الصافات .

قوله تعالى : « والأرض مددناها وألقينا فيها رواسي وأنبتنا فيها من كل شيء موزون » مد الأرض بسطها طولاً وعرضاً وبذلك صلحت للزراع والسكنى ولو اغشيت جبلاً شاهقة مضرّة لفقدت كمال حياة الحيوان عليها .

والرواسي صفة محذوفة الموصوف والتقدير وألقينا فيها جبلاً رواسي وهو جمع راسية بمعنى الثابتة إشارة إلى ما وقع في غير هذا الموضع أنها تمنع الأرض من الميدان كما قال : « وألقى في الأرض رواسي أن تميد بكم » النحل : ١٥ .

والموزون من الوزن وهو تقدير الأجسام من جهة ثقلها ثم عمم لكل تقدير لكل ما يمكن أن يتقدر بوجه كتقدير الطول بالشبر والذراع ونحو ذلك وتقدير الحجم وتقدير الحرارة والنور والقدرة وغيرها ، وفي كلامه تعالى : « ونضع الموازين القسط ليوم القيامة » الأنبياء : ٤٧ ، وهو توزين الأعمال ولا يتصف بثقل وخفة من نوع ما للأجسام الأرضية منها .

وربما يكتفى به عن كون الشيء بحيث لا يزيد ولا ينقص عما يقتضيه الطبع أو الحكمة كما يقال : كلامه موزون وقامته موزونة وأفعاله موزونة أي مستعسنة متناسبة الأجزاء لا تزيد ولا تنقص مما يقتضيه الطبع أو الحكمة .

وبالنظر إلى اختلاف اعتباراته المذكورة ذكر بعضهم أن المراد به إخراج كل ما يوزن من المعدنيات كالذهب والفضة وسائر الفلزات ، وقال بعضهم : إنه إنبات النباتات على ما لكل نوع منها من النظام البديع الموزون ، وقيل : إنه خلق كل أمر مقدر معلوم .

والذي يجب التنبيه له التعبير بقوله : « من كل شيء موزون » دون أن يقال : من كل نبات موزون فهو يشمل غير النبات مما يظهر وينمو في الأرض كما أنه يشمل النبات لمكان قوله : « وأنبتنا » دون أن يقال : أخرجنا أو خلقنا وقد جيء بمن وظاهرها التبعيض فالمراد - والله أعلم - إنبات كل أمر موزون ذي ثقل مادي يمكن أن يزيد وينقص من الأجسام النباتية والأرضية ، ولا مانع على هذا من أخذ الموزون بكل من معنييه الحقيقي والكنائي .

والمعنى : والأرض بسطناها وطرحنا فيها جبلاً ثابتة لتسكنها من الميد وأنبتنا فيها من كل شيء موزون - ثقل واقع تحت الجاذبة أو متناسب - مقداراً تقتضيه الحكمة .

قوله تعالى : « وجعلنا لكم فيها معاش ومن لستم له برازقين » المعاش جمع

معيشة وهي ما به يعيش الحيوان ويدوم حياته من المأكل والمشروب وغيرها وبأني مصدرأ كالعيش والمعاش .

وقوله : « ومن لستم له برازقين » معطوف على الضمير المجرور في « لكم » على ما ذهب إليه من النحاة الكوفيون ويونس والأخفش من جواز العطف على الضمير المجرور من غير إعادة الجارة ، وأما على قول غيرهم فربما يعطف على معاش والتقدير وجعلنا لكم من لستم له برازقين كالبيد والحيوان الأهلي ، وربما جعل « من » مبتدأ محذوف الخبر والتقدير : ومن لستم له برازقين جعلنا له فيها معاش وهذا كله تكلف ظاهر .

وكيف كان ، المراد بمن العبيد والنواب - على ما قيل - أتى بلفظة من وهي لاولي العقل تغليباً هذا ، وليس من العبيد أن يكون المراد به كل ما عدا الإنسان من الحيوان والنبات وغيرها فإنها تسأل الرزق كما يسأله العقلاء ومن دأبه سبحانه في كلامه أن يطلق الألفاظ المختصة بالعقلاء على غيرهم إذا أضيف إليها شيء من الآثار المختصة بهم كقوله تعالى في الأصنام : « فاسألوهم إن كانوا ينطقون » الأنبياء : ٦٣ ، وقوله : « فإنهم عدولي » الشعراء : ٧٧ ، إلى غير ذلك من الآيات المتعرضة لحال الأصنام التي كانوا يعبدونها ولا يستقيم للمعبود إلا أن يكون عاقلاً ، وكذا قوله : « فقال لها وللأرض ائتيا طوعاً أو كرهاً قالتا أتينا طائعين » حم السجدة : ١١ ، وغير ذلك . والمعنى : وجعلنا لكم معشر البشر في الأرض أشياء تعيشون بها مما تدام به الحياة ولغيركم من أرباب الحياة مثل ذلك .

قوله تعالى : « وإن من شيء إلا عندنا خزائنه وما ننزله إلا بقدر معلوم » الخزائن جمع خزانة وهي مكان خزن المال وحفظه وادخاره ، والقدر بفتححتين أو فتح فسكون مبلغ الشيء وكميته المتعينة .

ولما كانت الآية واقعة في سياق الكلام في الرزق الذي يعيش به الإنسان والحيوان كان المراد بالشيء الموصوف في الآية النبات وما يتبعه من الحبوب والثمار فالمراد بخزائنه التي عند الله وهو ينزل بقدر معلوم المطر النازل من السماء الذي ينبت به النبات فيأتي بالحبوب والأثمار ويعيش بذلك الإنسان والحيوان هذا ملخص ما ذكره جمع

من المفسرين .

ولا يخفى عليك ما فيه من التكلف فتخصيص ما في قوله : « وإن من شيء » من العموم وحصره في النبات من تخصيص الأكثر من غير شك والمورد لا يخص وأردى منه تسمية المطر خزائن النبات وليس إلا سبباً من أسبابه وجزء من أجزاء كثيرة يتكوّن النبات بتركيبها الخاص ، على أن المطر إنما تتكون حينما ينزل فكيف يسمى خزانة وليس بوجود ولا أن الذي هو خزائنه موجود فيه .

وذكر بعض المفسرين أن المراد بكون خزائن كل شيء عند الله سبحانه شمول قدرته المطلقة له .

فله تعالى من كل نوع من أنواع الأشياء كالإنسان والفرس والنخلة وغير ذلك من الأعيان وصفاتها وآثارها وأفعالها مقدورات في التقدير غير متناهية عدداً لا يخرج منها دائماً من التقدير والفرض إلى التحقق والفعلية إلا قدر معلوم وعدد معين محدود . وعلى هذا فالمراد من كل شيء نوعه لا شخصه كالإنسان مثلاً لا كزيد وعمرو ، والمراد من القدر المعلوم الكميّة المعينة من الأفراد والمراد من وجود خزائنه ووجوده في خزائنه وجوده بحسب التقدير لا بحسب التحقق فيرجع إلى نوع من التشبيه والمجاز . وأنت خبير بأن فيه تخصيصاً للشيء من غير تخصّص ، وفيه قصر للقدر في العدد من غير دليل ، والقدر في اللفظة قريب المعنى من الحد وهو المفهوم من سياق قوله تعالى : « قد جعل الله لكل شيء قدراً » الطلاق : ٣ ، وقوله : « وكل شيء عنده بمقدار » الرعد : ٨ ، وقوله : « إنا كل شيء خلقناه بقدر » القمر : ٤٩ ، وقوله : « وخلق كل شيء فقدره تقديراً » الفرقان : ٢ إلى غير ذلك .

وفيه إرجاع الكلام إلى معنى مجازي استعاري من غير موجب مع ما فيه من ورود الخزائن بصيغة الجمع من غير نكتة ظاهرة .

وذكر بعض معاصري المفسرين وجهاً آخر وهو أن المراد بالخزائن العناصر المختلفة التي تتألف منها الأرزاق وغيرها وقد أعد الله منها في عالمنا المشهود كمية عظيمة لا تنفد بعروض التركيب ، والأسباب الكلية التي تعمل في تركيب المركبات كالضوء والحرارة والرياح الدائمة المنظمة وغيرها التي تتكوّن منها الأشياء مما يحتاج إليه الإنسان

في إدامة حياته وغيره .

فكل من هذه الأشياء مدخرة بأجزائها والقوى الفعالة فيها في تلك الخزائن غير القابلة للنفاد من جهة عظمة مقداره ومن جهة ما يعود اليه من الأجزاء الجديدة بالتحلل تركيب المركبات بموت أو فساد ورجوعها إلى عناصرها الأولية كالنبات يفسد والحيوان يموت فيعود عناصرها بالتحلل التركيب إلى مقارها ويتسع بذلك المكان لكيثونة نبات وحيوان آخر يخلفان سلفها .

فالضوء وخاصة ضوء الشمس الذي يعمل الليل والنهار والفصول الأربعة ويربي النبات والحيوان وسائر المركبات ويسوقها إلى غاياتها ومقاصدها من خزائن الله تعالى والرياح التي تلقح النبات وتسوق السحب وتنقل الأهوية من مكان إلى مكان وتدفع فاسد الهواء وتجري السفن خزانة أخرى ، والماء النازل من السماء الذي تحتاج اليه المركبات ذوات الحياة في كينونتها وبقائها خزانة أخرى ، وكذلك العناصر البسيطة التي تتركب منها المركبات كل منها خزانة تنزل من مجموعها أو من عدة منها الأشياء المركبة ، ولا ينزل قط إلا عدد معلوم من كل نوع من غير أن تنفذ به الخزائن .

وعلى هذا فمراد الآية بالشيء هو نوعه لا شخصه كما تقدم في الوجه الأول والمراد بخزائنه مجموع ما في الكون من أصوله وعناصره وأسبابه العامة المادية ومجموع الشيء موجود في مجموع خزائنه لا في كل واحد منها والمراد بنزوله بقدر معلوم كينونة عدد محدود منه في كل حين من غير أن يستوفى عدد جميع ما في خزائنه .

وهذا وجه حسن في نفسه تؤيده الأبحاث العلمية عن كينونة هذه الحوادث وتصدقه آيات كثيرة متفرقة في الكتاب العزيز كقوله في الآية التالية : « وأرسلنا الرياح لواقح وأنزلنا من السماء ماء فأسقيناكموه » وقوله : « وجعلنا من الماء كل شيء حي » الأنبياء : ٣٠ ، وقوله : « وسخر لكم الشمس والقمر دائبين » إبراهيم : ٣٣ ، وقوله : « والسحاب المسخر بين السماء والأرض » البقرة : ١٦٤ إلى غير ذلك من الآيات .

لكن الآية وهي من آيات القدر كما يعطيه سياقها تأبى الحمل عليه كما تأبى عنه أخواتها وكيف يحمل عليه قوله : « وخلق كل شيء فقدره تقديراً » ؟ الفرقان : ٢ ، وقوله : « الذي خلق فسوى والذي قدر فهدى » الأعلى : ٣ ، وقوله : « وكل شيء

عنده بمقدار « الرعد : ٨ ، وقوله : « إلا امرأته قدرناها من الغابرين » النمل : ٥٧ ، وقوله : « من أي شيء خلقه من نطفة خلقه فقدره » عبس : ١٩ ، وقوله : « إنا أنزلناه في ليلة القدر » إلى آخر السورة إلى غير ذلك من الآيات .

على أنه يرد عليه بعض ما أورد على الوجهين السابقين كتخصيص عموم « شيء » من غير مخصص وغير ذلك .

والذي يعطيه التدبر في الآية وما يناظرها من الآيات الكريمة أنها من غرر كلامه تعالى تبين ما هو أدق مسلكاً وأبعد غوراً مما فسروها به وهو ظهور الأشياء بالقدر والأصل الذي لها قبل إحاطته بها واشتماله عليها .

وذلك أن ظاهر قوله : « وإن من شيء » على ما به من العموم بسبب وقوعه في سياق النفي مع تأكيد بن ، كل ما يصدق عليه أنه شيء من دون أن يخرج منه إلا ما يخرج نفسه السياق وهو ما تدل عليه لفظة « نا » و « عند » و « خزائن » وما عدى ذلك مما يرى ولا يرى مشمول للعام .

فشخص زيد مثلاً وهو فرد إنساني من الشيء ونوع الإنسان أيضاً الموجود في الخارج بأفراده من الشيء والآية تثبت لذلك خزائن عند الله سبحانه فلتنظر ما معنى كون زيد مثلاً له خزائن عند الله ؟

والذي يسهل الأمر فيه أنه تعالى يعدّ هذا الشيء المذكور نازلاً من عنده والنزول يستدعي علواً وسفلاً ورفعة وخفضة وسماً وأرضاً مثلاً ولم ينزل زيد المخلوق مثلاً من مكان عال إلى آخر سافل بشهادة العيان فليس المراد بإنزاله إلا خلقه لكنه ذو صفة يصدق عليه النزول بسببها ، ونظير الآية قوله تعالى : « وأنزل لكم من الأنعام ثمانية أزواج » الزمر : ٦ ، وقوله : « وأنزلنا الحديد » الحديد : ٢٥ .

ثم قوله : « وما ننزله إلا بقدر معلوم » يقرن النزول وهو الخلقة بالقدر قرناً لازماً غير جائز الانفكاك لمكان الحصر ، والباء إما للسببية أو الآلة أو المصاحبة والمآل واحد فكينونة زيد وظهوره بالوجود إنما هو بماله من القدر المعلوم فوجوده محدود لا محالة ، كيف ؟ وهو تعالى يقول : « إنه بكل شيء محيط » حم السجدة : ٥٤ ، ولو لم يكن محدوداً لم يكن محاطاً له تعالى فمن المحال أن يحاط بما لا حد له ولا نهاية .

وهذا القدر هو الذي بسببه يتعين الشيء ويتميز من غيره ففي زيد مثلاً شيء به يتميز من عمرو وغيره من أفراد الانسان ويتميز من الفرس والبقر والأرض والسماء ويحوز لنا به أن نقول : ليس هو بعمرو ولا بالفرس والبقر والأرض والسماء ولولا هذا الحد لكان هو هي وارتفع التميز .

وكذلك ما عنده من القوى والآثار والأعمال محدودة مقدرة فليس إبصاره مثلاً إبصاراً مطلقاً في كل حال وفي كل زمان وفي كل مكان ولكل شيء وبكل عضو مثلاً بل إبصار في حال وزمان ومكان خاص ولشيء خاص وبعضو خاص وعلى شرائط خاصة ، ولو كانت إبصاراً مطلقاً لأحاط بكل إبصار خاص وكان الجميع له ونظيره الكلام في سائر ما يعود اليه من خصائص وجوده وتوابعه فافهم ذلك .

ومن هنا يظهر أن القدر خصوصية وجود الشيء وكيفية خلقته كما يستفاد أيضاً من قوله تعالى : « الذي خلق فسوَّى والذي قدر فهدى » الأعلى : ٣ ، وقوله : « الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى » طه : ٥٠ فإن الآية الأولى رتبت الهداية وهي الدلالة على مقاصد الوجود على خلق الشيء وتسويته وتقديره ، والآية الثانية رتبته على إعطائه ما يختص به من الخلق ، ولازم ذلك — على ما يعطيه سياق الآيتين — كون قدر الشيء خصوصية خلقه غير الخارجة عنه .

ثم إنه تعالى وصف قدر كل شيء بأنه معلوم إذ قال : « وما ننزله إلا بقدر معلوم » ويفيد بحسب سياق الكلام أن هذا القدر معلوم له حينما ينزل الشيء ولما يتم نزوله ويظهر وجوده فهو معلوم القدر معينه قبل إيجاد « وإليه يؤل معنى قوله : « وكل شيء عنده بمقدار » الرعد : ٨ ، فإن ظاهر الآية أن كل شيء بماله من المقدار حاضر عنده معلوم له فقوله هناك : « عنده بمقدار » في معنى قوله وهنا « بقدر معلوم » ونظير ذلك قوله في موضع آخر : « قد جعل الله لكل شيء قدراً » الطلاق : ٣ ، أي قدراً لا يتجاوزه معيناً غير مبهم معلوماً غير مجهول وبالجملة للقدر تقدم على الشيء بحسب العلم والمشية وإن كان مقارناً له غير منفك عنه في وجوده .

ثم إنه تعالى أثبت بقوله : « عندنا خزائنه وما ننزله » الخ ، للشيء عنده قبل نزوله إلى هذه النشأة واستقراره فيها خزائن ، وجعل القدر متأخراً عنها ملازماً

لنزوله فالشيء وهو في هذه الخزائن غير مقدر بقدر ولا محدود بحد وهو مع ذلك هو .
وقد جمع في تعريف هذه الخزائن بين كونها فوق القدر الذي يلحق الشيء وبين كونها خزائن فوق الواحدة والاثنين ، ومن المعلوم أن العدد لا يلحق إلا الشيء المحدود وأن هذه الخزائن لو لم تكن محدودة متميزة بعضها من بعض كانت واحدة البتة .

ومن هنا يتبين أن هذه الخزائن بعضها فوق بعض وكل ما هو عال منها غير محدود بحد ما هو دان غير مقدر بقدره ومجموعها غير محدود بالحد الذي يلحق الشيء وهو في هذه النشأة ، ولا يبعد أن يكون التعبير بالتنزيل الدال على نوع من التدرج في قوله : « وما ننزله » إشارة إلى كونه يطوي في نزوله مرحلة بعد مرحلة وكلما ورد مرحلة طراه من القدر أمر جديد لم يكن قبل حتى إذا وقع في الأخيرة أحاط به القدر من كل جانب قال تعالى : « هل أتى على الإنسان حين من الدهر لم يكن شيئاً مذكوراً » الدهر : ١ ، فقد كان الإنسان ولكنه لم يكن شيئاً مذكوراً .

وهذه الخزائن جميعاً فوق عالمنا المشهود لأنه تعالى وصفها بأنها عنده وقد أخبرنا بقوله : « ما عندهم ينفذ وما عند الله باق » أن ما عنده ثابت لا يزول ولا يتغير عما هو عليه فهذه الخزائن كائنة ما كانت أمور ثابتة غير زائلة ولا متغيرة ، والأشياء في هذه النشأة المادية المحسوسة متغيرة فانية لا ثابتة ولا باقية فهذه الخزائن الإلهية فوق عالمنا المشهود .

هذا ما يعطيه التدبر في الآية الكريمة وهو وإن كان لا يخلو من دقة وغموض يعضل على بادىء الفهم لكنك لو أمعنت في التدبر وبذلت في ذلك بعض جهدك استنار لك ووجدته من واضحات كلامه إن شاء الله تعالى وعلى من لم يتيسر له قبوله أن يعتمد الوجه الثالث المتقدم فهو أحسن الوجوه الثلاثة المتقدمة والله ولي الهداية وسنرجع إلى بحث القدر في كلام مستقل يختص به إن شاء الله في موضع يناسبه .

قوله تعالى : « وأرسلنا الرياح لواقح فأنزلنا من السماء ماء فأسقيناكموه وما أنتم له بخازنين » اللواقح جمع لاقحة من اللقح بالفتح فالسكون يقال : لقح النخل لقحاً أي وضع اللقاح - بفتح اللام - وهو طلع الذكور من النخل على الإناث لتحمل بالتمر ،

وقد ثبت بالأبحاث الحديثة في علم النبات أن حكم الزوجية جار في عامة النبات وأن فيه ذكورية وأنثوية وأن الرياح في مهبتها تحمل الذرات من نقطة الذكور فتلقح بها الإناث ، وهو قوله تعالى : « وأرسلنا الرياح لواقح » .

وقوله : « وأنزلنا من السماء ماء فأسقيناكموه » إشارة إلى المطر النازل من السحاب وقد تسلم الأبحاث العلمية الحديثة أن الماء الموجود في الكرة الأرضية من الأمطار النازلة عليها من السماء على خلاف ما كانت تعتقده القدماء أنه كرة ناقصة محبطة بكرة الأرض إحاطة ناقصة وهو عنصر من العناصر الأربعة .

وهذه الآية التي تثبت بشرها الأول : « وأرسلنا الرياح لواقح » مسألة الزوجية واللقاح في النبات ، وبشرها الثاني : « وأنزلنا من السماء ماء فأسقيناكموه » أن المياه الموجودة المتخزنة في الأرض تنتهي إلى الأمطار ، وقوله تعالى السابق : « وأنبتنا فيها من كل شيء موزون » الظاهر في أن للوزن دخلاً خاصاً في الإنبات والإغناء من نقود العلم التي سبق إليها القرآن الكريم الأبحاث العلمية وهي تنل المعجزة أو هي هي .

قوله تعالى : « وإنا لنحن نحيي ونميت ونحن الوارثون » الكلام مسوق للحصر يريد بيان رجوع كل التدبير إليه ، وقد كان ما عده من النعم كالسما ببروجها والأرض برواسيها ، وإنبات كل شيء موزون وجعل المعاش وإرسال اللواقح وإنزال الماء من السماء إنمّا يتم نظاماً مبنياً على الحكمة والعلم إذا انضم إليه الحياة والموت والحشر ، وكان مما ربما يظن أن بعض الحياة والموت ليس إليه تعالى ولذا أكد الكلام وأتى بالحصر دفماً لذلك .

ثم جاء بقوله : « ونحن الوارثون » أي الباقيون بعد إِماتتكم المتصرفون فيما خولناكموه من أمتعة الحياة كأنه تعالى يقول إلينا تدبير أمركم ونحن محيطون بكم نحْييكم بعد ما لم تكونوا فنحن قبلكم ، ونميتكم ونرثكم فنحن بعدكم .

قوله تعالى : « ولقد علمنا المستقدمين منكم ولقد علمنا المستأخرين » لما كانت الآيات السابقة التي تعدّ النعم الإلهية وتصف التدبير مسوقة لبيان وحدانيته تعالى في ربوبيته ، وكان لا ينفع الخلق والنظم من غير انضمام علمه تعالى وخاصة بمن يحييه ويميته

عقبها بهذه الآية الدالة على علمه بمن استقدم منهم بالوجود ومن استأخر أي المتقدمين من الناس والمتأخرين على ما يفيد السياق .

وقيل : المراد بالمستقدمين المستقدمون في الخير ، وقيل : المستقدمون في صفوف الحرب ، وقيل : المستقدمون إلى الصف الأول في صلاة الجماعة والمتأخرون خلفهم ، وهي أقوال ردية .

قوله تعالى : « وإن ربك هو يحشرهم إنه حكيم عليم » الكلام مسوق للحصر أي هو يحشرهم لا غير فهو الرب .

وأورد عليه أنه في مثل ذلك من الحصر يكون الفعل مسلّم الثبوت والنزاع إنما هو في الفاعل ، وههنا ليس كذلك فإن الخصم لا يسلم الحشر من أصله هذا .

وقد ذهب على هذا المعارض أن الآية حوت الخطاب السابق للناس عنهم إلى النبي ﷺ التفتاناً فقيل : « وإن ربك هو يحشرهم » ولم يقل : إن ربكم هو يحشركم ، والنبي ﷺ مسلّم للحشر .

وبذلك يظهر نكتة الالتفات في الآية في مورده تعالى من التكلم مع الغير إلى الغيبة ، وفي مورد النبي ﷺ من الغيبة إلى الخطاب ، وفي مورد الناس بالعكس .

وقد ختمت الآية بقوله : « إنه حكيم عليم » لأن الحشر يتوقف على الحكمة المقتضية لحساب الأعمال ومجازاة المحسن بإحسانه والمسيء بإساءته ، وعلى العلم حتى لا يغادر منهم أحد .

(بحث روائي)

في تفسير القمي في قوله تعالى : « ولقد جعلنا في السماء بروجا » قال : قال : منازل الشمس والقمر .

وفيه في قوله تعالى : « إلا من استرق السمع فأتبعه شهاب مبين » قال : قال : لم يزل الشياطين تصعد إلى السماء وتجس حتى ولد النبي ﷺ .

وفي المعاني عن البرقي عن أبيه عن جده عن البرزطي عن أبان عن أبي عبد الله

عليه السلام قال: كان إبليس يخترق السماوات السبع فلما ولد عيسى عليه السلام حجب عن ثلاث سماوات وكان يخترق أربع سماوات فلما ولد رسول الله ﷺ حجب عن السبع كلها ورميت الشياطين بالنجوم . الحديث .

وفي الدر المنثور أخرج ابن مردويه عن ابن مسعود قال : قال جرير بن عبد الله : حدثني يا رسول الله عن السماء الدنيا والأرض السفلى ، قال رسول الله ﷺ : أما السماء الدنيا فإن الله خلقها من دخان ثم رفعها وجعل فيها سراجاً وقمراً منيراً وزينها بمصابيح النجوم وجعلها رجوماً للشياطين وحفظها من كل شيطان رجيم .

أقول : وسأتي إن شاء الله ما يتبين به معنى هذه الأحاديث .

وفي تفسير القمي في قواه : « وجعلنا لكم فيها معاش » قال : لكل ضرب من الحيوان قدرنا شيئاً مقدراً .

وفيه في رواية أبي الجارود عن أبي جعفر عليه السلام في قوله : « وأنبتنا فيها من كل شيء موزون » فإن الله أنبت في الجبال الذهب والفضة والجوهر والصفير والنحاس والحديد والرصاص والكحل والزرنيخ وأشياء ذلك لاتباع إلا وزناً .

أقول : ينبغي أن يحمل على بيان بعض المصاديق على ما في متنه وسنده من الوهن . وفي روضة الواعظين لابن الفارسي روي عن جعفر بن محمد عن أبيه عن جده عليهم السلام أنه قال : في العرش تمثال جميع ما خلق الله في البر والبحر . قال : وهذا تأويل قوله : « وإن من شيء إلا عندنا خزائنه » الحديث .

وفي المعاني بإسناده عن مقاتل بن سليمان قال : قال أبو عبد الله الصادق عليه السلام لما صعد موسى عليه السلام الطور فنادى ربه عز وجل قال : رب أرني خزائنك . قال : يا موسى إنما خزائني إذا أردت شيئاً أن أقول له : كن فيكون .

وفي الدر المنثور أخرج البزار وابن مردويه في العظمة عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : خزائن الله الكلام فإذا أراد شيئاً قال له : كن فكان .

أقول : والروايات الثلاث الأخيرة تؤيد ما قدمناه في تقرير معنى الآية ، والمراد بقول كن كلمة الإيجاد الذي هو وجود الأشياء . وهو مما يؤيد عموم الشيء في الآية ، وكذا كان يفهمه الصحابة وأهل عصر النزول كما يؤيده ما رواه في الدر المنثور عن ابن أبي

حاتم عن معاوية أنه قال : أستم تعلمون أن كتاب الله حق ؟ قالوا : بلى . قال : فاقروا هذه الآية « وإن من شيء إلا عندنا خزائنه وما ننزله إلا بقدر معلوم » أستم تؤمنون بهذا وتعلمون أنه حق ؟ قالوا : بلى . قال : فكيف تلوموني بعد هذا ؟ فقام الأحنف وقال : يا معاوية والله ما نلومك على ما في خزائن الله ولكن إنما نلومك على ما أنزله الله من خزائنه فجعلته أنت في خزائنك وأغلقت عليه بابك ، فسكت معاوية . وفيه أخرج ابن مردويه والحاكم عن مروان بن الحكم قال : كان أناس يستأخرون في الصفوف من أجل النساء فأنزل الله : « ولقد علمنا المستقدمين منكم » الآية .

أقول : وروى فيه أيضاً عن عدة عن أبي الجوزاء عن ابن عباس قال : كانت امرأة تصلي خلف رسول الله ﷺ حسناء من أحسن الناس فكان بعض القوم يتقدم حتى يكون في الصف الأول لئلا يراها ويستأخر بعضهم حتى يكون في الصف المؤخر فإذا ركم نظر من تحت إبطيه فأنزل الله : « ولقد علمنا المستقدمين منكم ولقد علمنا المستأخرين » . والآية لا تنطبق على ما في هاتين الروایتين لا من جهة اللفظ ولا من جهة السياق الذي وقعت هي فيه . وهو ظاهر .

وفيه أخرج ابن أبي حاتم من طريق معتمر بن سليمان عن شعيب بن عبد الملك عن مقاتل بن سليمان في قوله : « ولقد علمنا المستقدمين منكم » الآية قال : بلغنا أنه في القتال . قال معتمر فحدثت أبي فقال : لقد نزلت هذه الآية قبل أن يفرض القتال . أقول : يعني أنها مكية .

وفي تفسير العياشي عن جابر عن أبي جعفر عليه السلام قال : « ولقد علمنا المستقدمين منكم ولقد علمنا المستأخرين » قال : هم المؤمنون من هذه الامة . وفي تفسير البرهان عن الشيباني في نهج البيان عن الصادق جعفر بن محمد أن المستقدمين أصحاب الحسنات ، والمستأخرين أصحاب السيئات .

* * *

وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ - ٢٦ .

وَالْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ مِنْ نَارِ السَّمُومِ — ٢٧ . وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ
لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ — ٢٨ . فَإِذَا
سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ — ٢٩ . فَسَجَدَ
الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ — ٣٠ . إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى أَنْ يَكُونَ مَعَ
السَّاجِدِينَ — ٣١ . قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا لَكَ أَنْ لَا تَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ — ٣٢ .
قَالَ لَمْ أَكُنْ لِأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ — ٣٣ .
قَالَ فَأَخْرِجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ — ٣٤ . وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ إِلَى يَوْمِ
الدِّينِ — ٣٥ . قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمٍ يُبْعَثُونَ — ٣٦ . قَالَ فَإِنَّكَ
مِنَ الْمُنْظَرِينَ — ٣٧ . إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ — ٣٨ . قَالَ رَبِّ بِمَا
أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ — ٣٩ . إِلَّا عِبَادَكَ
مِنْهُمْ الْمُخْلِصِينَ — ٤٠ . قَالَ هَذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ — ٤١ . إِنَّ
عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنْ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ — ٤٢ .
وَأَنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ — ٤٣ . لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِكُلِّ بَابٍ مِنْهُمْ
جُزْءٌ مَقْسُومٌ — ٤٤ . إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ — ٤٥ . أَذْخَلُوهَا
بِسَلَامٍ آمِنِينَ — ٤٦ . وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غَلٍّ إِخْوَانًا عَلَى
سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ — ٤٧ . لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُمْ مِنْهَا بِمُخْرَجِينَ — ٤٨ .

(بيان)

هذه هي الطائفة الثالثة من الآيات الموردة إثر ما ذكر في مفتتح السورة من استهزاء الكفار بالكتاب وبالنبي صلى الله عليه وآله واقتراحهم عليه آية أخرى غير القرآن، وقد ذكر الله سبحانه في هذه الطائفة بدء خلقه الإنسان والجان وأمره الملائكة وإبليس أن يسجدوا له وسجودهم وإباء إبليس وهو من الجن ورجه وإغواءه بني آدم، وما قضى الله سبحانه عند ذلك من سعادة المتقين وشقاء الغاوين .

قوله تعالى : « ولقد خلقنا الإنسان من صلصال من حماء مسنون » قال الراغب في المفردات : أصل الصلصال تردد الصوت من الشيء اليابس ومنه قيل : صل المسمار وسمي الطين الجاف صلصالاً ، قال تعالى : « من صلصال كالفخار » « من صلصال من حماء مسنون » والصلصلة بقية ماء سميت بذلك لحكاية صوت تحرّكه في المزايدة وقيل : الصلصال المنتن من الطين من قولهم : صل اللحم .

وقال : والحماة والحمأ طين أسود منتن ، وقال : وقوله : من حماء مسنون قيل : متغير وقوله : لم يتسنه معناه لم يتغير والهاء للاستراحة . انتهى

وقوله : « ولقد خلقنا الإنسان » الخ المراد به بدء خلقه الإنسان بدليل قوله : « وبدء خلق الإنسان من طين ثم جعل نسله من سلاله من ماء مهين » الم السجدة : ٨ ، فهو إخبار عن خلقه النوع وظهوره في الأرض فإن خلق أول من خلق منهم ومنه خلق الباقي خلق الجميع .

قال في جمع البيان : وأصل آدم كان من تراب وذلك قوله : « خلقه من تراب » ثم جعل التراب طيناً وذلك قوله : « وخلقته من طين » ثم ترك ذلك الطين حتى تغير واسترخى وذلك قوله : « من حماء مسنون » ثم ترك حتى جفّ وذلك قوله : « من صلصال » فهذه الأقوال لا تناقض فيها إذ هي أخبار عن حالاته المختلفة . انتهى .

قوله تعالى : « والجان » خلقناه من قبل من نار السموم » قال الراغب : السموم الريح الحسارة تؤثر تأثير السم . انتهى . وأصل الجن الستر وهو معنى سار في جميع ما اشتق منه كالجن والجنة والجنين والجنان بالفتح وجن عليه الليل وغير ذلك .

والجن طائفة من الموجودات مستورة بالطبع عن حواسنا ذات شعور وإرادة تكرر في القرآن الكريم ذكرهم ونسب إليهم أعمال عجيبة وحركات سريعة كما في قصص سليمان عليه السلام وهم مكلفون ويعيشون ويموتون ويحشرون تدل على ذلك كله آيات كثيرة متفرقة في كلامه تعالى .

وأما الجان فهل هو الجن بعينه أو هو أبو الجن كما أن آدم عليه السلام أبو البشر كما عن ابن عباس أو هو إبليس نفسه كما عن الحسن أو الجان نسل إبليس من الجن أو هو نوع من الجن كما ذكره الراغب ؟ أقوال مختلفة لا دليل على أكثرها .

والذي يهدي إليه التدبر في كلامه تعالى أنه قابل في هاتين الآيتين الإنسان بالجان فجعلها نوعين اثنين لا يخلوان عن نوع من الارتباط في خلقتهما ، ونظير ذلك قوله : « خلق الإنسان من صلصال كالفخار وخلق الجان من مارج من نار » الرحمن : ١٥ .

ولا يخلو سياق ما نحن فيه من الآيات من دلالة على أن إبليس كان جاناً وإلا لنفى قوله : « والجان خلقناه من قبل » الخ ، وقد قال تعالى في موضع آخر من كلامه في إبليس : « كان من الجن ففسق عن أمر ربه » الكهف : ٥٠ ، فأفاد أن هذا الجان المذكور هو الجن نفسه أو هو نوع من أنواع الجن ثم ترك سبحانه في سائر كلامه ذكر الجان من أصله ولم يذكر إلا الجن حتى في موارد يعم الكلام فيها إبليس وقبيله كقوله تعالى : « شياطين الإنس والجن » الأنعام : ١١٢ ، وقوله : « وحق عليهم القول في أمم قد خلت من قبلهم من الجن والإنس » حم السجدة ٢٥ ، وقوله : « سنفرغ لكم أيها الثقلان - إلى أن قال - يا معشر الجن والإنس إن استطعتم أن تنفذوا من أقطار السماوات والأرض فانفذوا » الرحمن : ٣٣ .

وظاهر هذه الآيات من جهة المقابلة الواقعة فيها بين الإنسان والجان تارة وبين الإنس والجن أخرى أن الجن والجان واحد وإن اختلف التعبير .

وظاهر المقابلة بين قوله : « ولقد خلقنا الإنسان » الخ ، وقوله : « وخلقنا الجان من قبل » الخ أن خلق الجان من نار السموم المراد به الخلق الابتدائي وبدء ظهور النوع كخلق الإنسان من صلصال ؛ وهل كان استمرار الحلقة في أفراد الجان المستتبع لبقاء النوع على سنة الخلق الأول من نار السموم بخلاف الإنسان حيث بدىء

خلقه من تراب ثم استمر بالنطفة ؟ كلامه سبحانه خال عن بيانه ظاهراً غير ما في بعض كلامه من نسبة الذرية إلى إبليس كما قال : « أفنتخذونه وذريته أولياء من دوني » الكهف : ٥٠ ، ونسبة الموت إليهم كما في قوله : « قد خلت من قبلهم من الجن والإنس » حم السجدة : ٢٥ ، والمألوف من نوع فيه ذرية وموت هو التناسل والكلام بعد في هذا التناسل هل هو بسفاد كسفاد نوع من الحيوان أو بغير ذلك ؟
وقوله : « خلقناه من قبل » مقطوع الإضافة أي من قبل خلق الإنسان والقرينة هي المقابلة بين الخلقين .

وعد مبدء خلق الجن في الآية هو نار السموم لا ينافي ما في سورة الرحمن من عده مارجاً من نار أي لهيباً مختلطاً بدخان فإن الآيتين تلخصان أن مبدء خلقه ريح سموم اشتعلت فكانت مارج نار .

فمعنى الآيتين : أقسم لقد بدأنا خلق النوع الانساني من طين قد جف بعد أن كان سائلاً متغيراً منتناً ، ونوع الجن بدأنا خلقه من ريح حارة حادة اشتعلت فصارت ناراً .

قوله تعالى : « وإذ قال ربك للملائكة إني خالق بشراً » إلى آخر الآية ، قال في المفردات : البشرة ظاهر الجلد والأدمة باطنه كذا قال عامة الأدباء - إلى أن قال - وعبر عن الإنسان بالبشر اعتباراً بظهور جلده من الشعر بخلاف الحيوانات التي عليها الصوف أو الشعر أو الوبر ، واستوى في لفظ البشر الواحد والجمع وثني فقال تعالى : « أنؤمن لبشرين » وخص في القرآن في كل موضع اعتبر من الإنسان جثته وظاهره بلفظ البشر نحو « وهو الذي خلق من الماء بشراً » انتهى موضع الحاجة .

وقوله : « وإذ قال ربك للملائكة إني خالق بشراً » بإضمار فعل والتقدير : واذكر إذ قال ربك ، وفي الكلام التفات من التكلم مع الغير إلى الغيبة وكأن العناية فيه مثل العناية التي مرت في قوله : « وإن ربك هو يحشرهم » فإن هذه الآيات أيضاً تكشف عن نبأ ينتهي إلى الحشر والسعادة والشقاوة الخالدتين .

على أن التكلم مع الغير في السابق « ولقد خلقنا » « خلقناه » من قبيل تكلم العظماء عنهم وعن خدمهم وأعوانهم تعظيماً أي بأخذه تعالى ملائكته الكرام معه في

الأمر وهذه العناية مما لا يستقيم في مثل المقام الذي يخاطب فيه الملائكة في إخبارهم بإرادته خلق آدم عليه السلام وأمرهم بالسجود له إذا سواه ونفخ فيه من روحه فافهم ذلك ومعنى الآية ظاهر .

قوله تعالى : « فإذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين » التسوية جعل الشيء مستويًا قيمًا على أمره بحيث يكون كل جزء منه على ما ينبغي أن يكون عليه فتسوية الإنسان أن يكون كل عضو من أعضائه في موضع الذي ينبغي أن يكون فيه وعلى الحال التي ينبغي أن يكون عليها .

ولا يبعد أن يستفاد من قوله : « إني خالق - فإذا سويته » أن خلق بدن الإنسان الأول كان على سبيل التدرج الزماني فكان أولاً الخلق وهو جمع الأجزاء ثم التسوية وهو تنظيم الأجزاء ووضع كل جزء في موضعه الذي يليق به وعلى الحال التي تليق به ثم النفخ ، ولا ينافيه ما في قوله تعالى : « خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون » آل عمران : ٥٩ ، فإن قوله : « ثم قال له » الخ ناظر إلى كينونة الروح وهو النفس الانسانية دون البدن كما عبّر عنه في موضع آخر بعد بيان خلق البدن بالتدرج بقوله : « ثم أنشأناه خلقاً آخر » المؤمنون : ١٤ .

وقوله : « ونفخت فيه من روحي » النفخ إدخال الهواء في داخل الأجسام بفم أو غيره ويكنى به عن إلقاء أثر أو أمر غير محسوس في شيء ، ويعني به في الآية إيجاد الروح الانساني بماله من الرابطة والتعلق بالبدن ، وليس بداخل فيه دخول الهواء في الجسم المنفوخ فيه كما يشير إليه قوله سبحانه : « ثم جعلناه نطفة في قرار مكين ثم خلقنا النطفة علقة فخلقنا العلقة مضغة فخلقنا المضغة عظاماً فكسونا العظام لحماً ثم أنشأناه خلقاً آخر » المؤمنون : ١٤ ، وقوله تعالى : « قل يتوفاكم ملك الموت الذي وكل بكم » الم السجدة : ١١ .

فالآية الأولى - كما ترى - تبين أن الروح الانساني هو البدن منشأ خلقاً آخر والبدن على حاله من غير أن يزداد فيه شيء ، والآية الثانية تبين أن الروح عند الموت مأخوذ من البدن والبدن على حاله من غير أن ينقص منه شيء .

فالروح أمر موجود في نفسه له نوع اتحاد بالبدن بتعلقه به وله استقلال عن البدن إذا انقطع تعلقه به وفارقه وقد تقدم بعض ما يتعلق من الكلام بهذا المقام في

تفسير قوله تعالى : « ولا تقولوا لمن يقتل في سبيل الله أموات » البقرة : ١٥٤ في الجزء الأول من الكتاب .

ونرجو أن نستوفي هذا البحث في ذيل قوله : « قل الروح من أمر ربي » الآية ٨٥ من سورة أسرى إن شاء الله .

وإضافة الروح اليه تعالى في قوله : « من روحي » للكرمة والتشريف من الإضافة اللامية المفيدة للملك ، وقوله : « فقموا له ساجدين » أي اسجدوا ، ولا يبعد أن يفهم منه أن خرّوا على الأرض ساجدين له فيفيد التأكيد في الخضوع من الملائكة لهذا المخلوق الجديد كما قيل .

ومعنى الآية فإذا عدلت تركيبه وأتممت صنع بدنه وأوجدت الروح الكريم المنسوب إليّ الذي أربط بينه وبين بدنه فقموا وخرّوا على الأرض ساجدين له .

قوله تعالى : « فسجد الملائكة كلهم أجمعون إلا إبليس أبى أن يكون مع الساجدين » لفظة أجمعون تأكيد بعد تأكيد لتشديده ، والمراد أن الملائكة سجدوا له بحيث لم يبق منهم أحد وقد استثنى من ذلك إبليس ولم يكن منهم لقوله تعالى : « كان من الجن ففسق عن أمر ربه » الكهف : ٥٠ ، وأما قول من قال : إن طائفة من الملائكة كانوا يسمون الجن وكان إبليس منهم أو أن الجن بمعنى الستر فيعم الملائكة وغيرهم فما لا يصغى إليه ، وقد تقدم في تفسير سورة الأعراف كلام في معنى شمول الأمر بالسجود لإبليس مع عدم كونه من الملائكة ، ومعنى الآيتين ظاهر .

قوله تعالى : « قال يا إبليس ما لك أن لا تكون مع الساجدين » « ما لك » مبتدأ وخبر أي ما الذي هو كائن لك ؟ وقوله : « أن لا تكون » من قبيل نزع الحافض والتقدير في أن لا تكون مع الساجدين وهم الملائكة ، ومحصل المعنى : ما بالك لم تسجد ؟

قوله تعالى : « قال لم أكن لأسجد لبشر خلقتة من صلصال من حماء مسنون » في التعبير بقوله : « لم أكن لأسجد » دون أن يقول : لا أسجد أو لست أسجد دلالة على أن الإباء عن السجدة مقتضى ذاته وكان هو المترقب منه لو اطلع على جوهره فتقيد الآية بالكناية ما يفيد قوله في موضع آخر : « أنا خير منه خلقتني من نار وخلقته

من طين ، ص : ٧٦ بالتصريح .

وقد تقدم كلام في معنى السجود لآدم وأمر الملائكة وإبليس بذلك واثارهم وتمرده عنه ، نافع في هذا الباب في تفسير سورتي البقرة والأعراف من هذا الكتاب .
قوله تعالى : « ^{قال} فأخرج منها فإنك رجيم وإن عليك اللعنة إلى يوم الدين » الرجيم فعيل بمعنى المفعول من الرجم وهو الطرد وشاع استعماله في الطرد بالحجارة والحصاة ، واللعن هو الطرد والإبعاد من الرحمة .

ومن هنا يظهر أن قوله : « وإن عليك اللعنة » الخ بمنزلة البيان لقوله : « فإنك رجيم » فإن الرجم كان سبباً لخروجه من بين الملائكة من السماء أو من المنزلة الإلهية وبالجملة من مقام القرب وهو مستوى الرحمة الخاصة الإلهية فينطبق على الإبعاد من الرحمة وهو اللعن .

وقد نسب سبحانه هذه اللعنة المفعولة على إبليس في موضع آخر إلى نفسه فقال : « وإن عليك لعنتي إلى يوم الدين » ص : ٥٨ ، وقبدها في الآيتين جميعاً بقوله : « إلى يوم الدين » .

أما جعل مطلق اللعنة عليه في قوله : « عليك اللعنة » فلأن اللعن يلحق المعصية وما من معصية إلا وإبليس فيه صنع بالإغواء والوسوسة فهو الأصل الذي يرجع إليه كل معصية وما يلحقها من لعن حتى في عين ما يعود إلى أشخاص العصاة من اللعن والوبال ، وتذكر في ذلك ما تقدم في ذيل قوله تعالى : « ليميز الله الخبيث من الطيب ويجعل الخبيث بعضه على بعض فيركمه فيجعلهم في جهنم » الأنفال : ٣٧ في الجزء التاسع من الكتاب .

على أنه لعنه الله أول فاتح فتح باب معصية الله وعصاه في أمره فإليه يعود وبال هذا الطريق بسالكه ما سلكوا فيه .

وأما جعل لعنته خاصة عليه في قوله : « عليك لعنتي » فلأن الإبعاد من الرحمة بالحقيقة إنما يؤثر أثره إذا كان منه تعالى إذ لا يملك أحد من رحمته إعطاء ومنعاً إلا بإذنه فإليه يعود حقيقة الإعطاء والمنع .

على أن اللعن من غيره تعالى بالحقيقة دعاء عليه بالإبعاد من الرحمة وأما نفس

الإبعاد الذي هو نتيجة الدعاء فهو من صنعه القائل به تعالى وحقيقته المبالغة في منع الرحمة .
 وقال في المجمع : وقال بعض المحققين : إنما قال سبحانه هنا : « وإن عليك اللعنة » بالالف واللام ، وقال في سورة ص : « لعنتي » بالإضافة لأن هناك يقول : « لما خلقت بيدي » مضافاً ، فقال : « وإن عليك لعنتي » على المطابقة ، وقال هنا : « مالك ألا تكون مع الساجدين » وساق الآية على اللام في قوله : « ولقد خلقنا الإنسان » وقوله : « والجنان » فأتى باللام أيضاً في قوله : « وإن عليك اللعنة » انتهى وقال أيضاً في الآية بيان أنه لا يؤمن قط .

وأما تقييد اللعنة بقوله : « إلى يوم الدين » فلأن اللعنة هي عنوان الإثم والوبال العائد إلى النفس من المعصية والمعصية محدودة بيوم القيامة فالיום عمل ولا جزاء وغداً جزاء ولا عمل ، وإن شئت فقل : هذه الدار دار كتابة الأعمال وحفظها ويوم القيامة دار الحساب والجزاء .

وأما قول القائل : إن تحديد اللعن بيوم الدين دليل على كونه مغنياً به مرفوعاً فيه وفيما بعده فما يدفعه ظاهر الآيات المبينة للعذاب يوم القيامة .

ويؤيد ذلك التعبير في الآية عن يوم القيامة بيوم الدين المشعر بأنه ملعون قبل يوم القيامة ويجزي به فيه ، ولو انقطع العذاب بقيام الساعة لكان اليوم يوم انقطاع الدين لا يوم الدين .

وربما قيل في دفع إشكال الغاية إن ذلك أبعد غاية يضرها الخلاق فهو كقوله : « خالدين فيها ما دامت السماوات والأرض » الآية ، وهو كما ترى وقد عرفت معنى الآية المقيس عليها في تفسير سورة هود .

وربما قيل : إن المراد باللعنة في الآية لعن الخلائق وذلك منقطع بمجيء يوم الدين دون لعنه تعالى وإبعاده له من رحمته فإنه متصل إلى الأبد .

وكان هذا القائل ذهب عليه قوله تعالى في سورة ص : « وإن عليك لعنتي إلى يوم الدين » الآية : ٧٨ .

قوله تعالى : « قال رب أنظرني إلى يوم يبعثون » الانظار هو الامهال وقد صدر كلامه بقوله : « رب » وهو يخصمه وقد عصاه واستكبر عليه تعالى لأنه في مقام

الدعاء لا مفر له من دعوته تعالى بما يثير به الرحمة الإلهية المطلقة وهو الالتجاء إليه بربوبيته له ليستجيب له وهو مغضوب عليه .

وقد صدر مسأله بفاء التفريع في قوله : « فأنظرنى » وذكر فيه بعثة عامة البشر من غير أن يخص بالذكر آدم أباهم الذي ابتلى بالرحم واللحن من أجل الإباء عن السجود له وذلك كله مبني على ما تقدم في تفسير آيات القصة في سورة الأعراف أن المأمور به كان هو السجود لعامة البشر وكان آدم عليه السلام كالقنبلة المنصوبة للسجود يمثل به النوع الانساني .

وتوضيحه أنه قد تقدم في قوله تعالى : « ولقد خلقناكم ثم صورناكم ثم قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس » الأعراف : ١١ أنهم إنما أمروا بالسجدة لنوع الانسان لا لشخص آدم عليه السلام ولم يكن هذه السجدة تشريفاً اجتماعياً من غير غاية حقيقية بل كانت خضوعاً بحسب الحلقة فهم بحسب ما أريد من خلقتهم خاضعون للإنسان بحسب ما أريد من كمال خلقته ، أي إنهم مسخرون لأجله عاملون في سبيل سعادة حياته أي إن للانسان منزلة من القرب ومرحلة من كمال السعادة تفوق ما للملائكة من ذلك .

فسجودهم جميعاً له دليل أنهم جميعاً مسخرون في سبيل كماله من السعادة عاملون . لأجل فوزه وفلاحه كملائكة الحياة وملائكة الموت وملائكة الأرزاق وملائكة الوحي والمعقبات والحفظة والكتبه وغيرهم ممن تذكرهم متفرقات الآيات القرآنية فالملائكة أسباب إلهية وأعوان للانسان في سبيل سعاده وكماله .

ومن هنا يظهر للمتدبر الفطن أن إباء إبليس عن السجدة استنكاف منه عن الخضوع لنوع الانسان والعمل في سبيل سعاده وإعانتة على كماله المطلوب على خلاف ما ظهر من الملائكة فهو بإبائه عن السجدة خرج من جمع الملائكة كما يفيد قوله تعالى : « ما لك أن لا تكون مع الساجدين » وأظهر الخصومة لنوع الانسان والبراءة منهم ما حيوا وعاشوا أو خالداً مؤبداً .

ويؤيده جعله تعالى اللعنة المطلقة عليه من يوم أبى إلى يوم الدين وهو مدة مكث النوع الانساني في هذه الدنيا فجعلها عليه كذلك ولما يدع إبليس أنه سيغويهم ولم يقل

بعد : « لاغوينهم أجمعين » مشعرٌ بأن إِبْءاءه عن السجدة نوع خصومة وعداوة منه لهذا النوع آخذاً من آدم إلى آخر من سيولد ويعيش من ذريته .

فكأنه عليه اللعنة فهم من قوله تعالى : « وإن عليك اللعنة إلى يوم الدين » أن له شأنًا مع النوع الانساني إلى يوم القيامة وأن لشقاؤهم وفساد أعمالهم ارتباطاً به من حيث امتنع عن السجود ولذلك سأل النظرة إلى يوم يبعثون مفرعاً ذلك على اللعنة المجعولة عليه فقال : « رب فأنظرني إلى يوم يبعثون » ولم يقل : رب أنظرني إلى يوم يبعثون ولم يقل : أنظرني إلى يوم يموت آدم أو أنظرني ما دام حياً يعيش بل ذكر آدم وبنيه جميعاً وطلب النظرة إلى يوم يبعثون مفرعاً ذلك على اللعنة إلى يوم الدين فلما أجيب إلى ما سأل أبدى ما في كمن ذاته وقال : لاغوينهم أجمعين .

قوله تعالى : « قال فإنك من المنظرين إلى يوم الوقت المعلوم » جواب منه سبحانه لإبليس وفيه إجابة وردة أما الإجابة فبالنسبة إلى أصل الإنظار الذي سأل وأما الردة فبالنسبة إلى القيد وهو أن يكون الإنظار إلى يوم يبعثون فإن من الواضح اللائح بالنظر إلى سياق الآيتين أن يوم الوقت المعلوم غير يوم يبعثون فلم يسمح له بإنظاره إلى يوم يبعثون بل إلى يوم هو غيره ولا محالة هو قبل يوم البعث .

وبذلك يظهر فساد قول من قال : إنه لعنه الله أجيب إلى ما سأل واليومان في الآيتين واحد ومن الدليل عليه قوله في سورة الأعراف في القصة : « قال إنك من المنظرين » الآية : ١٥ من غير أن يقيّد بشيء .

أما فساد دعواه اتحاد اليومين في الآيتين فقد ظهر مما تقدم وأما فساد الاستدلال بإطلاق آية الأعراف فلأنها تتقيد بما في هذه السورة وسورة ص من التقييد بقوله : « إلى يوم الوقت المعلوم » وهذا كثير شائع في كلامه تعالى والقرآن يشهد بعبءه على بعض وينطق بعبءه ببعض .

وظاهر يوم الوقت المعلوم أنه وقت تميّن في العلم الإلهي نظير قوله : « وما ننزله إلا بقدر معلوم » الحجر : ٢١ ، وقوله : « أولئك لهم رزق معلوم » الصافات : ٤١ فهو معلوم عند الله قطعاً وأما أنه معلوم لإبليس أو مجهول عنده فغير معلوم من اللفظ ، وقول بعضهم : أنه سبحانه أهبهم اليوم ولم يبيّن فهو معلوم لله غير معلوم لإبليس لأن في

بيانه إغراء بالمعصية كلام خال عن الدليل فإيهام اللفظ بالنسبة البنا غير إيهام ما ألقى إلى إبليس من القول بالنسبة اليه على أن إغراء إبليس بالمعصية وهو الأصل لكل معصية مفروضة لا يخلو عن إشكال فافهمه .

على أن قول إبليس ثانياً : « لا غوينهم أجمعين » شاهد على أنه سيقى إلى آخر ما يعيش الإنسان في الدنيا ممن يمكنه إغواؤه فقد كان فهم من قوله تعالى : « إلى يوم الوقت المعلوم » أنه آخر عمر البشر العائشين في الأرض الجائز له إغواؤهم .

ونسب إلى ابن عباس ومال اليه الجمهور أن اليوم هو آخر أيام التكليف وهو النفخة الاولى يوم يموت الخلائق وكأنه مبني على أن إبليس باقى ما بقي التكليف وأمكنت المخالفة والمعصية ، وهو مدة عمر الإنسان في الدنيا ، وينتهي ذلك إلى النفخة الاولى التي بها يموت الخلائق فهو يوم الوقت المعلوم الذي أنظره الله اليه ، وبينه وبين النفخة الثانية التي فيها يبعثون أربعمئة سنة أو أربعون سنة على اختلاف الروايات ، وهي ما به التفاوت بين ما سأله إبليس وبين ما أجاب اليه الله سبحانه .

وهذا وجه حسن لولا ما فيه من قولهم : إن إبليس باقى ما بقي التكليف وأمكنت المخالفة والمعصية فإنها مقيدة لا بيئة ولا ميئة وذلك أن تعويل القوم في ذلك على أن المستفاد من الآيات والأخبار كون كل كفر وفسوق موجود في النوع الإنساني مستنداً إلى إغواء إبليس ووسوسته كما يدل عليه أمثال قوله تعالى : « ألم أعهد اليكم يا بني آدم أن لا تعبدوا الشيطان إنه لكم عدو مبين » يس : ٦٠ وقوله : « وقال الشيطان لما قضي الأمر إن الله وعدكم وعد الحق ووعدتكم فأخلفتكم » الخ إلى غير ذلك من الآيات . ومقتضاها أن يدوم وجود إبليس ما دام التكليف باقياً ، والتكليف باقى ما بقي الإنسان وهو المطلوب .

وفيه أن كون المعصية الإنسانية مستندة بالجملة إلى إغواء إبليس مستفادة من الآيات والروايات لا غبار عليه لكنه إنما يقتضي بقاء إبليس ما دامت المعصية والغواية باقية لا بقاء ما دام التكليف باقياً ، ولا دليل على الملازمة بين المعصية والتكليف وجوداً .

بل الحجة قائمة من العقل والنقل على أن غواية الإنسان النوعية وهي السعادة ستم* النوع ويتخلص المجتمع الإنساني إلى الخير والصلاح ولا يعبد على الأرض يومئذ إلا

الله سبحانه ، وينطوي وقتئذ بساط الكفر والفسوق ، ويصفو العيش ويرتفع أمراض القلوب ووساوس الصدور ، وقد تقدم تفصيل ذلك في مباحث النبوة في الجزء الثاني وفي قصص نوح في الجزء العاشر من الكتاب . قال تعالى : « ظهر الفساد في البر والبحر بما كسبت أيدي الناس ليذيقهم بعض الذي عملوا لعلهم يرجعون » الروم : ٤١ ، وقال : « ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادي الصالحون » الأنبياء : ١٠٥ .

ومن ذلك يظهر أن الذي استندوا إليه من الحجة إنما يدل على كون يوم الوقت المعلوم الذي جعله الله غاية إنظار إبليس هو يوم يصلح الله سبحانه المجتمع الإنساني فينقطع دابر الفساد ولا يعبد يومئذ إلا الله لا يوم يموت الخلائق بالنفخة الأولى .

قوله تعالى : « قال ربّ بما أغويتني لأزينن لهم في الأرض ولاغوينهم أجمعين إلا عبادك منهم المخلصين » الباء في قوله : « بما أغويتني » للسببية و « ما » مصدرية أي أتسبب بإغوائك إني إلى التزيين لهم وألقي إليهم ما استقر فيّ من الغواية كما قالوا يوم القيامة على ما حكى الله : « أغويناهم كما غوينا » القصص : ٦٣ .

وقول بعضهم : إن الباء للقسم أي أقسم بإغوائك لأزينن ؛ من أردء القول فلم يعهد في كتاب ولا سنة أن يقسم بمثل الإغواء والإضلال وليس فيه شيء مفهوم من التعظيم اللازم في القسم .

وقد نسب لعنه الله في قوله : « بما أغويتني » إلى الله سبحانه أنه أغواه ولم يردّه الله سبحانه إليه ولا أجاب عنه وليس مراده به غوايته إذ عصى أمر السجدة ولم يسجد لأدم عليه السلام والدليل على ذلك أن لا رابطة بين معصيته في نفسه وبين معصية الإنسان لربه حتى يكون معصيته سبب معصيتهم ويتسبب هو بها إلى إغوائهم .

وإنما يريد به ما يفيدده قوله تعالى : « وإن عليك اللعنة إلى يوم الدين » من استقرار اللعنة المطلقة فيه وهي الإبعاد من الرحمة والإضلال عن طريق السعادة وهي إغواء له إثر الغواية التي أبداها من نفسه وأتى بها من عنده فيكون من إضلاله تعالى مجازاة لا إضلالاً ابتدائياً وهو جائز غير ممتنع عليه تعالى ، ولذلك لم يردّه كما قال تعالى : « يضل به كثيراً ويهدي به كثيراً وما يضل به إلا الفاسقين » البقرة : ٢٦ ، وقد بينا

ذلك في ذيل الآية ومواضع أخرى من هذا الكتاب .

وعند هذا يستقيم معنى السببية أعني إغواؤه الناس بسبب الإغواء الذي مسّه واستقر فيه فإن البعد من الرحمة والبون من السعادة لما كان لازماً لنفسه بلزوم اللعنة الإلهية له كان كلما اقترب من قلب إنسان بالوسوسة والتسويل أو استولى على نفس من النفوس وهو بعيد من الرحمة والسعادة أوجب ذلك بعد من اقترب منه أو تسلط عليه ، وهو إغواؤه بإلقاء أثر الغواية التي عنده إليه وهو ظاهر .

هذا ما يعطيه التدبر في الآية ومحصله أن المراد بالإغواء ليس هو الإضلال الابتدائي ، بل الإضلال على سبيل المجازاة الذي يدلّ عليه قوله : « وإنّ عليك لعنتي » الآية .

وأما القوم فكالمسلم عندهم أن قوله : « بما أغويتني » لو كان بمعناه الظاهر وهو الإضلال لكان هو الإضلال الابتدائي وكان ناظراً إلى إباطه وامتناعه عن السجدة ولذا استشكلوا الآية واختلفوا في تفسير الإغواء على اختلاف مذاهبهم في استناد الشر إليه تعالى وصدوره منه جوازاً وامتناعاً .

فقال بعضهم وهم أهل الخير : إن إسناد الإغواء إليه تعالى بلا إنكار منه لذلك يدل على أن الشرّ كالخير من الله تعالى ، والمعنى ربّ بما أضللتني بالامتناع عن السجدة - فهو منك - أقسم لأضلنهم أجمعين .

وقال آخرون وهم غيرهم : إنه لا يجوز إسناد الشرّ والمعصية وكل قبيح إليه تعالى ووجهوا الآية بوجه .

أحدها : أن الإغواء في الآية بمعنى التخييب والمعنى ربّ بما خيبتني من رحمتك لاخيبتهم بالدعوة إلى معصيتك .

الثاني : أن المراد بالإغواء الإضلال عن طريق الجنة والمعنى بما أضللتني عن طريق جنتك لما صدر مني من معصيتك لأضلنهم بالدعوة .

الثالث : أن المراد بقوله : « بما أغويتني » بما كلفتنني أمراً ضللت عنده بالمعصية وهو السجود فسمي ذلك إضلالاً منه له توسعاً وأنت بالتأمل فيما قدّمناه تعرف أن الآية في غنى عن هذا البحث وما أبدى فيه من الوجوه .

ونظير هذا البحث بحشهم عن الإنظار الواقع في قوله : « إنك من المنظرين » من جهة أنه مفضى إلى الإغواء القبيح وترجيح المرجوح على الراجح .

فقال المهوّزون : إن الآية تدل على أن الحسن والقبح اللذين يعلل بهما العقل أفعالنا لا تأثير لهما في أفعاله تعالى فله أن يثيب من يشاء ويعذب من يشاء من غير جهة مرجحة حتى مع رجحان الخلاف ، قالوا : ومن زعم أن حكيماً يحصر قوماً في دار ويرسل فيها النار العظيمة والأفاعي القاتلة الكثيرة ولم يرد أذى أحد من أولئك القوم بالإحراق واللسع فقد خرج عن الفطرة الإنسانية فإذن من حكم الفطرة أن الله تعالى أراد بإنظار إبليس إضلال بعض الناس .

والمائعون يوجهون الإنظار بأنه تعالى كان يعلم من إبليس وأتباعه أنهم يموتون على الكفر والفسوق ويصيرون إلى النار أنظر إبليس أو لم ينظر على أنه تعالى تدارك تأييده ذلك بمزيد ثواب المؤمنين المتقين . على أنه يقول : « ولاغوينهم » ولو كان الإغواء من الله لأنكره عليه إلى غير ذلك مما أوردوه من الوجوه .

وليت شعري ما الذي أغفلهم عن آيات الامتحان والابتلاء على كثرتها كقوله تعالى : « ليميز الله الخبيث من الطيب » الأنفال : ٣٧ ، وقوله : « وليبتلي الله ما في صدوركم وليمحص ما في قلوبكم » آل عمران : ١٥٤ ، وغيرهما من الآيات الدالة على أن نظام السعادة والشقاء والثواب والعقاب مبني على أساس الامتحان والابتلاء ، والإنسان واقع بين الخير والشر والسعادة والشقاء له ما يختاره من العمل بنتائجه .

فلولا أن يكون هناك داع إلى الخير وهم الملائكة الكرام وإن شئت فقل : هو الله ، وداع إلى الشر وهم إبليس وقبيله لم يكن للامتحان معنى ، قال تعالى : « الشيطان يعدمكم الفقر ويأمركم بالفحشاء والله يعدمكم مغفرة منه وفضلاً » البقرة : ٢٦٨ .

ولئن أئد الله إبليس على الإنسان بالإنظار إلى يوم الوقت المعلوم فقد أئده عليه بالملائكة الباقيين ببقائه الدنيا ولم يقل سبحانه له : إنك منظر بل قال : « إنك من المنظرين » فأثبت منظرين غيره وجعله بعضهم .

ولئن أئده بالتمكين بتزيين الباطل من الكفر والفسوق للإنسان أئد الإنسان بأن هـداه إلى الحق ، وزين الإيمان في قلبه وفطره على التوحيد ، وعرفه الفجور

والتقوى، وجعل له نوراً يمشي به في الناس إن آمن بربه إلى غير ذلك من الأيادي، قال: « قل الله يهدي للحق » يونس : ٣٥ ، وقال : « ولكن الله حبب اليكم الإيمان وزينه في قلوبكم » الحجرات : ٧ ، وقال : « فأقم وجهك للدين حنيفاً فطرة الله التي فطر الناس عليها » الروم : ٣٠ ، وقال : « ونفس وما سواها فألهمها فجورها وتقواها » الشمس : ٨ ، وقال : « أو من كان ميتاً فأحييناه وجعلنا له نوراً يمشي به في الناس » الأنعام : ١٢٢ ، وقال : « إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد » المؤمن : ٥١ ، والتكلم بالغير مشعر بوساطة الملائكة .

فالإنسان خلق هو في نفسه أعزل ليس معه شيء من السعادة والشقاء بحسب بدء خلقته واقف في ملتقى سبيلين : سبيل الخير والطاعة وهو سبيل الملائكة ليس لهم إلا الطاعة ، وسبيل الشر والمعصية وهو سبيل إبليس وجنوده وليس معهم إلا المخالفة والمعصية ، فإلى أي السبيلين مال في مسير حياته وقع فيه ورافقه أصحابه وزيتنوا له ما عندهم وهدوه إلى ما ينتهي إليه سبيلهم وهو الجنة أو النار والسعادة أو الشقاء .

فقد بان مما تقدم أن انتظار إبليس إلى يوم الوقت المعلوم ليس من تقديم المرجوح على الراجح ولا إبطالاً لقانون العلية بل ليتيسر به وبما يقابله من بقاء الملائكة ما هو الواجب من أمر الامتحان والابتلاء فلا محل للاستشكال .

وقوله : « لازين » لهم في الأرض أي لازين لهم الباطل أو لازين لهم المعاصي على ما قيل والمعنى الأول أجمع والمفعول محذوف على أي حال ، والظاهر أن المفعول معرض عنه والفعل مستعمل استعمال اللازم ، والغرض بيان أصل التزيين كناية عن الغرور يقال : زين له كذا وكذا أي حمله عليه غروراً ، وضمير « هم » لآدم وذريته على ما يدل عليه السياق ، والمراد بالتزيين لهم في الأرض غرورهم في هذه الحياة الأرضية وهي الحياة الدنيا وهو السبب القريب للإغواء فيكون عطف قوله : « ولاغوينهم أجمعين » عليه من عطف المسبب على السبب المترتب عليه .

والآية تشعر بل تدل على ما قدمناه في تفسير آيات جنة آدم في الجزء الأول من الكتاب أن معصية آدم بالأكل من الشجرة المنهية عن وسوسة إبليس لم تكن معصية لأمر مولوي بل مخالفة لأمر إرشادي لا يوجب نقضاً في عصمته فإنه يعرف الأرض في

الآية ظرفاً لتزيينه وإغوائه فما كان غروره لآدم وزوجته في الجنة إلا ليخرجها منها وينزلها إلى الأرض فيتناسلا فيها فيغويها وبنيتها عن الحق ويضلهم عن الصراط قال تعالى : « يا بني آدم لا يفتنكم الشيطان كما أخرج أبويكم من الجنة ينزع عنها لباسها ليربها سواتهما » الأعراف : ٢٧ .

وقوله : « إلا عبادك منهم المخلصين » استثنى من عموم الإغواء طائفة خاصة من البشر وهم المخلصون - بفتح اللام على القراءة المشهورة - والسياق يشهد أنهم الذين اخلصوا لله وما اخلصهم إلا الله سبحانه ، وقد قدمنا في الكلام على الإخلاص في تفسير سورة يوسف أن المخلصين هم الذين اخلصهم الله لنفسه بعدما اخلصوا أنفسهم لله فليس لغيره سبحانه فيهم شركة ولا في قلوبهم محلّ فلا يشتغلون بغيره تعالى فما ألقاه إليهم الشيطان من حباله وتزييناته عاد ذكر الله مقرباً إليه .

ومن هنا يترجح أن الاستثناء إنما هو من الإغواء فقط لا منه ومن التزيين بمعنى أنه لعنه الله يزين لكل لكن لا يغوي إلا غير المخلصين .

ويستفاد من استثناء العباد أولاً ثم تفسيره بالمخلصين أن حق العبودية إنما هو بأن يخلص الله العبد لنفسه أي أن لا يملكه إلا هو ويرجع إلى أن لا يرى الإنسان لنفسه ملكاً وأنه لا يملك نفسه ولا شيئاً من صفات نفسه وآثارها وأعمالها وأن الملك - بكسر الميم وضمها - لله وحده .

قوله تعالى : « قال هذا صراط عليّ مستقيم » ظاهر الكلام على ما يعطيه السياق أنه كناية على أن الأمر إليه تعالى لا غنى فيه عنه بوجه كما أن كون طريق السفينة على البحر يقضي على راكميها بأن لا مفرّ لهم مما يستدعيه العبور على الماء من العدة والوسيلة وكذا كون طريق القافلة على الجبل يحوجهم إلى ما يتهيأ به لعبور قلله الشاهقة ومساكنه الصعبة فكونه صراطاً عليه تعالى بالاستقامة هو أنه أمر متوقف من كل جهة إلى حكمه وقضائه تعالى فإنه الله الذي منه يبدأ كل شيء وإليه ينتهي فلا يتحقق أمر إلا وهو ربه القيّوم عليه .

وظاهر السياق أيضاً أن الإشارة بقوله : « هذا صراط » الخ إلى قول إبليس : « لاغوينهم أجمعين إلا عبادك منهم المخلصين » لما أظهر بقوله هذا أنه سينتقم منهم

ويبسط سلطته بالتزيين والإغواء عليهم جميعاً فلا يخلص منهم إلا القليل كأنه يشير إلى أنه سيستقل بما عزم عليه ويعلو بإرادته على الله سبحانه فيما أراد من خلقهم واستغلاظهم واستعبادهم كما حكاه الله تعالى من قوله في موضع آخر من قوله : « ولا تجد أكثرهم شاكرين » الأعراف : ١٧ .

فمعنى الآية أن ما ذكرت من أنك ستغويهم أجمعين واستثنيت منهم من امتنعت وأظهرت نسبته إلى قوتك ومشيتك زاعماً فيه أنك مستقل به ، أمر لا يملكه إلا أنا ولا يحكم فيه غيري ولا يصدر إلا عن قضائي فإن أغويت فبإذني أغويت وإن منعت فبمشيتي منعت فليس اليك من الأمر شيء ولا من الملك إلا ما ملكتك ولا من القدرة إلا ما أقدرتك ، والذي أقضيه لك من السلطان أن عبادي ليس لك عليهم سلطان إلا من اتبعك الخ .

قوله تعالى : « إن عبادي ليس لك عليهم سلطان إلا من اتبعك من الغاوين » هذا هو القضاء الذي أشار سبحانه إليه في الآية السابقة في أمر الإغواء وذكر أنه له وحده ليس لغيره فيه صنع ولا نصيب .

ومحصله أن آدم وبنيه كلهم عباد له كما قاله إبليس حيث قصر عبادته على المخلصين منهم إذ قال : « إلا عبادك منهم المخلصين » ولم يجعل سبحانه له عليهم - أي على العباد - سلطاناً حتى يستقل بأمرهم فيغويهم ، وإنما جعل له السلطان على طائفة منهم وهم الذين اتبعوه من الغاوين وولّوه أمرهم وألقوا إليه زمام تدبيرهم فهؤلاء هم الذين له عليهم سلطان .

فإذا أمعنت في الآية وجدتها تردّ على إبليس قوله : « لاغوينهم أجمعين إلا عبادك منهم المخلصين » من ثلاث جهات أصلية :

إحداها : أنه حصر عبادته في المخلصين منهم ونفى عنهم سلطان نفسه وعمّه سلطانه على الباقيين والله سبحانه عمّه عبادته على الجميع وقصر سلطان إبليس على طائفة منهم وهم الذين اتبعوه من الغاوين ونفى سلطانه على الباقيين .

والثانية : أنه لعنه الله ادّعى لنفسه الاستقلال في إغوائهم كما يظهر من قوله : « لاغوينهم » في سياق المحاصمة والتقريع بالانتقام والله سبحانه يردّ عليه بأنه منه مزعة

باطلة وإنما هو عن قضاء من الله وسلطان بتسليطه وإنما ملكه إغواء من اتبعه وكان غاوياً في نفسه وبسوء اختياره .

فلم يأت إبليس بشيء من نفسه ولم يفسد أمراً على ربه لا في إغوائه أهل الغواية فإنه بقضاء من الله سبحانه أن يستقر لأهل الغواية غيبتهم بسببه — وقد اعترف لعنه الله بذلك بعض الاعتراف بقوله : « رب بما أغويتني » — ولا في استثنائه المخلصين فإنه أيضاً بقضاء من الله نافذ فلا حكم إلا لله .

وهذا الذي تفيدته الآية الكريمة أعني تسليط إبليس على إغواء الغاوين الذين هم في أنفسهم غاوون وتخليص المخلصين وهم مخلصون في أنفسهم من كيده كل ذلك بقضاء من الله ، مبني على أصل عظيم يفيد التوحيد القرآني المفاد بأمثال قوله تعالى : « إن الحكم إلا لله » يوسف : ٦٧ ، وقوله : « وهو الله لا إله إلا هو له الحمد في الأولى والآخرة وله الحكم » القصص : ٧٠ ، وقوله : « الحق من ربك » آل عمران : ٦٠ ، وقوله : « ويحق الله الحق بكلماته » يونس : ٨٢ ، وغير ذلك من الآيات الدالة على أن كل حكم إيجابى أو سلبى فهو مملوك لله نافذ بقضائه .

ومن هنا يظهر ما في تفسيرهم قوله : « إلا من اتبعك من الغاوين » من المسامحة فإنهم قالوا : إنه إذا قبل من إبليس واتبعه صار له سلطان عليه بعدوله عن الهدى إلى ما يدعوه اليه من الغي ، وظاهره أنه سلطان قهري يحصل لإبليس عن سوء اختيارهم ليس من عند نفسه ولا يجعل من الله سبحانه .

وجه الفساد : أن فيه أخذ الاستقلال والحول الذاتي من إبليس وإعطائه ذوات الأشياء ولو كان إبليس لا يملك شيئاً من عند نفسه وبغير إذن ربه فالأشياء والأمور أيضاً لا تملك لنفسها شيئاً ولا حكماً حتى الضروريات ولوازم الذوات إلا بإذن من الله وتعليك ، فافهمه .

والثالثة : أن سلطانه على إغواء من يغويه وإن كان يعمل وتسليط من الله سبحانه إلا أنه ليس بتسليط على الإغواء والإضلال الابتدائي غير الجائز إسناده إلى ساحته سبحانه بل تسليط على الإغواء بنحو المجازاة المسبوق بغوايتهم من عندهم وفي أنفسهم . والدليل على ذلك قوله تعالى : « إلا من اتبعك من الغاوين » فإبليس إنما يغوي

من اتبعه بغوايته أي إن الإنسان يتبعه بغوايته أولاً فيغويه هو ثانياً فهناك غواية بعدها إغواء والغواية إجرام من الإنسان والإغواء بسبب إبليس مجازاة من الله سبحانه . ولو كان هذا الإغواء إغواء ابتدائياً من إبليس لمن لا يستحق ذلك لكان هو الأليق باللوم دون الإنسان كما يذكره يوم القيامة على ما يحكيه سبحانه بقوله : « وما كان لي عليكم من سلطان إلا أن دعوتكم فاستجبتم لي فلا تلوموني ولوموا أنفسكم » إبراهيم : ٢٢ . فاللوم على الإنسان المحرم وهو مسؤول عن معصيته دون إبليس .

نعم إبليس ملوم على ما يتلبس به من الفعل بسوء اختياره وهو الإغواء الذي سلطه الله عليه مجازاة لما امتنع من السجود لآدم لما أمر به فالإغواء هو الذي استقرت ولايته عليه كما يشير سبحانه إليه في موضع آخر من كلامه إذ يقول : « إنا جعلنا الشياطين أولياء للذين لا يؤمنون » الأعراف : ٢٧ ، وقال تعالى وهو أوضح ما يؤيد جميع ما قدمناه : « كتب عليه أنه من قولاة فإنه يضلك ويهديه إلى عذاب السعير » الحج : ٤ .

وقد تحصل مما تقدم : أن المراد بقوله : « عبادي » عامة الإنسان ، وأن الاستثناء في قوله : « من اتبعك » متصل لا منقطع ، وأن « من » في قوله : « من الغاوين » بيانية ، وأن الكلام مبني على رد قول إبليس ، وأن الآية مشتملة على قضاءين من الله سبحانه في عقدي المستثنى والمستثنى منه وغير ذلك .

ومن ذلك يظهر عدم استقامة قول بعضهم : إن المراد بعبادي هم الذين استثناهم إبليس وعبر عنهم بقوله : « عبادك منهم » فيكون الاستثناء منقطعاً والكلام مسوقاً لتقرير قول إبليس إن له سلطاناً على من يغويه وأن المخلصين لا سبيل له اليهم والمعنى أن المخلصين لا سلطان لك عليهم لكنك مسلط على من اتبعك من الغاوين .

وأنت تعلم بالتأمل فيما تقدم أن هذا هدم لأساس السياق وما يعطيه مقام الخصوصية وتحقق نسبته إلى ساحة العزة والكبرياء وتنزيل خطابه تعالى منزلة لا يفيد معها أكثر من تغيير صورة كلام إبليس مع حفظ معناه تقريراً أو اعترافاً فهو يقول : ساغوبهم إلا المخلصين ، والله سبحانه يقول : لا تغوي المخلصين لكن تغوي غيرهم !

وربما فسر بعضهم قوله : « عبادي » بجميع البشر وأخذ مع ذلك الاستثناء

منقطعا ولعل ذلك بالبناء على عدم جواز استثناء أكثر الأفراد فلا يقال : له عليّ مائة إلا تسعة وتسمعون مثلاً ومن المعلوم أن الغاوين من الناس أكثر من المخلصين بما لا يقاس . وفيه أن ذلك إنما هو فيما كان النظر في الاستثناء إلى صريح العدد وأما إذا كان المنظور إليه هو النوع أو الصنف بعنوانه فلا بأس بزيادة عدد الأفراد ، وللإنسان عدة أصناف : المخلصون ومن دونهم من المؤمنين والمستضعفون والذين اتبعوا إبليس من الغاوين ، وقد استثنى الصنف الأخير في الآية بعنوانه وبقي الباقيون وهم أصناف .

ومنهم من جعل الاستثناء منقطعا حذراً من ثبوت سلطان إبليس حتى على الغاوين زعماً منه أنه ينافي إطلاق السلطنة الإلهية أو عدله تعالى ومعنى الآية على هذا ، أن عبادي ليس لك عليهم سلطان لكن من اتبعك من الغاوين ألقى إليك زمام نفسه وجعل لك على نفسه سلطاناً وليس ذلك من نفسك حتى تعجز الله في خلقه ولا من الله حتى ينافي عدله تعالى .

وفيه : أن له سلطاناً على الغاوين لا من نفسه بل يجعل من الله ولا ينافي ذلك عدله في خلقه فإنه تسليط مجازاة لا تسليط ابتدائي ، ولا منافاة بين كون السلطان بقضاء منه تعالى وكونه باتباع الغاوين له باختيارهم فكل ذلك مما قد تبين فيما قدمناه .

على أن قوله تعالى فيه : « كتب عليه أنه من تولاه فإنه يضله » الحج : ٤ ، وقوله : « إنا جعلنا الشياطين أولياء للذين لا يؤمنون » الأعراف : ٢٧ ، يدلان صريحاً على ثبوت سلطانه وأنه يجعل من الله سبحانه وقضاء .

قوله تعالى : « وإن جهنم لموعدهم أجمعين » الظاهر أن « موعد » اسم مكان والمراد بكون جهنم موعدهم كونه محل إنجاز ما وعدهم الله من العذاب .

وهذا منه سبحانه تأكيد لثبوت قدرته ورجوع الأمر كله إليه كأنه تعالى يقول له : « ما ذكرت من السلطان على الغاوين ليس لك من نفسك ولم تعجزنا بل نحن سلطناك عليهم لاتباعهم لك على أننا سنجازيهم بعذاب جهنم » .

ولكون الكلام مسوقاً لبيان حالهم اقتصر على ذكر جزائهم ولم يذكر معهم إبليس ولا جزاءه بخلاف قوله : « لأملاّن جهنم منك ومن تبعك منهم أجمعين » ص : ٨٥ ، وقوله : « فإن جهنم جزاؤكم جزاء موفوراً » أسرى : ٦٣ ، لأن المقام غير المقام .

قوله تعالى : « لها سبعة أبواب لكل باب منهم جزء مقسوم » لم يبين سبحانه في شيء من صريح كلامه ما هو المراد بهذه الأبواب أهى كأبواب الحيطان مداخل تهدي الجميع إلى عرصة واحدة أم هى طبقات ودركات تختلف في نوع العذاب وشدة ؟ وكثيراً ما يسمى في الأمور المختلفة الأنواع كل نوع باباً كما يقال : أبواب الخير وأبواب الشر وأبواب الرحمة ، قال تعالى : « فتحنا عليهم أبواب كل شيء » الأنعام : ٤٤ ، وربما سمي أسباب الشيء وطرق الوصول إليه أبواباً كأبواب الرزق لأنواع المكاسب والمعاملات .

وليس من البعيد أن يستفاد المعنى الثاني من متفرقات آيات النار كقوله تعالى : « وسيق الذين كفروا إلى جهنم زمراً حتى إذا جاؤوها فتحت أبوابها - إلى أن قال : قيل ادخلوا أبواب جهنم خالدين فيها » الزمر : ٧٢ ، وقوله : « إن المنافقين في الدرك الأسفل من النار » النساء : ١٤٥ ، إلى غير ذلك من الآيات .

ويؤيده قوله : « لكل باب منهم جزء مقسوم » فإن ظاهره أن نفس الجزء مقسوم موزع على الباب ، وهذا إنما يلائم الباب بمعنى الطبقة دون الباب بمعنى المدخل وأما تفسير بعضهم الجزء المقسوم بالفريق المعين المفروز من غيره فوهنه ظاهر .

وعلى هذا فكون جهنم لها سبعة أبواب هو كون العذاب المعد فيها متنوعاً إلى سبعة أنواع ثم انقسام كل نوع أقساماً حسب انقسام الجزء الداخل الماكث فيه ، وذلك يستدعي انقسام المعاصي الموجبة للدخول فيها سبعة أقسام ، وكذا انقسام الطرق المؤدية والأسباب الداعية إلى تلك المعاصي ذاك الانقسام ، وبذلك يتأكد ما ورد من الروايات في هذه المعاني كما سيوافيك إن شاء الله .

قوله تعالى : « إن المتقين في جنات وعيون ادخلوها بسلام آمنين » أي إنهم مستقرون في جنات وعيون يقال لهم : ادخلوها بسلام لا يوصف ولا يكتنه نعتة في حال كونكم آمنين من كل شر وضرر .

لما ذكر سبحانه قضاءه فيمن اتبع إبليس من الغاوين ذكر ما قضى به في حق المتقين من الجنة ، وقد ورد تفسير التقوى في كلامه ﷺ بالورع عن محارم الله ، وقد تكرر في كلامه تعالى بشرام بالجنة فيكون المتقون أعم من المخلصين .

وما قيل : إنه لا شبهة في أن السياق يدل على أن المتقين هم المخلصون السابق ذكرهم ، وأن المطلق يحمل على الفرد الكامل .

فيه أن ذلك مبني على كون المراد بالعباد في قوله : « إن عبادي ليس لك عليهم سلطان » هم المخلصين حتى يختص السياق بالكلام فيهم ، وقد تقدم أن المراد بالعباد عامة أفراد الإنسان خرج منه الغاؤون بالاستثناء وبقي الباقيون ، وقد ذكر سبحانه قضاءه في الغاوين بالنار وهو ذا يذكر قضاءه في غيرهم ممن أوجب له الجنة والأمر في المستضعفين مرجأ وفي العصاة من أهل الكبائر الذين يموتون بغير توبة منوط بالشفاعة فيبقى أهل التقوى من المؤمنين وهم أعم من المخلصين ففرضي فيهم بالجنة .

وأما حديث حمل المطلق على الفرد الكامل فهو خطأ وإنما يحمل على الفرد المتعارف وتفصيل المسألة في فن الأصول .

وذكر الإمام الرازي في تفسيره أن المراد بالمتقين في الآية الذين اتقوا الشرك ونقله عن جمهور الصحابة والتابعين وأسنده إلى الخبر .

قال : وهذا هو الحق الصحيح والذي يدل عليه أن المتقي هو الآتي بالتقوى مرة واحدة كما أن الضارب هو الآتي بالضرب مرة فليس من شرط صدق الوصف بكونه متقياً كونه آتياً بجميع أنواع التقوى ، والذي يقرر ذلك أن الآتي بفرد واحد من أفراد التقوى يكون آتياً بالتقوى فإن الفرد مشتمل على الماهية بالضرورة وكل آت بالتقوى يجب أن يكون متقياً فالآتي بفرد يجب كونه متقياً ، ولهذا قالوا : ظاهر الأمر لا يفيد التكرار . فظاهر الآية يقتضي حصول الجنات والعيون لكل من اتقى عن ذنب واحد ، إلا أن الأمة مجمعة على أن التقوى عن الكفر شرط في حصول هذا الحكم .

وأيضاً هذه الآية وردت عقيب قول إبليس : « إلا عبادك منهم المخلصين » عقيب قوله تعالى : « إن عبادي ليس لك عليهم سلطان » فلذا اعتبر الإيمان في هذا الحكم فوجب أن لا يزداد فيه قيد آخر لأن تخصيص العام لما كان خلاف الظاهر فكما كان التخصيص أقل كان أوفق بمقتضى الأصل والظاهر .

فثبت أن الحكم المذكور يتناول جميع القائلين : لا إله إلا الله محمد رسول الله ولو

كلوا من أهل المعصية ، وهذا تقرير بيّن وكلام ظاهر ، انتهى .

ومقتضى كلامه شمول الآية لمن اتقى الشرك ولو اقترف جميع الكبائر الموبقة التي نص الكتاب العزيز باستحقاق النار بإتيانها وترك جميع الواجبات التي نص على تركها بمثلها ، والمستأنس بكلامه تعالى المتدبر في آياته لا يرتاب في أن القرآن لا يسمى مثل هذا متقياً ولا يعده من المتقين ، وقد أكثر القرآن ذكر المتقين وبشرهم بالجنة بشارة صريحة فيما يقرب من عشرين موضعاً وصفهم في كثير منها باجتذاب المحارم وبذلك فسر التقوى في الحديث كما تقدم .

ثم إن مجرد صحة إطلاق الوصف أمر والتسمية أمر آخر فلا يسمى بالمؤمنين والمحسنين والقانتين والمخلصين والصابرين وخاصة في الأوصاف التي تحمل البقاء والاستمرار إلا من استقر فيه الوصف ، ولو صح ما ذكره في المتقين لجري مثل ذلك في الظالمين والفاسقين والمفسدين والمجرمين والغاوين والضالين وقد أوعدهم الله النار ، وأدى ذلك إلى تدافع عجيب واختلال في كلامه تعالى ، ولو قيل : إن هناك ما يصرف هذه الآيات أن تشمل المرة والمرتين كآيات التوبة والشفاعة ونظائرها فهناك ما يصرف هذه الآية أن تشمل المتقي بالمرة والمرتين وهي نفس آيات الوعيد على الكبائر الموبقة كآيات الزنا والقتل ظلماً والربا وأكل مال اليتيم وأشباهاها .

ثم الذي ذكره في تقريب الدلالة وجوه واهية كقوله : إن هذه الآية وقعت عقيب قول إبليس النخ ، فإنك قد عرفت فيما تقدم أن ذلك لا ينفعه شيئاً ، وكقوله : إن زيادة قيد آخر بعد الإيمان خلاف الأصل النخ ، فإن الأصل إنما يركن إليه عند عدم الدليل اللفظي وقد عرفت أن هناك آيات جمة صالحة للتقييد .

وكقوله : إن ذلك خلاف الظاهر . وكأنه يريد به ظهور المطلق في الإطلاق ، وقد ذهب عليه أن ظهور المطلق إنما هو حجة فيما إذا لم يكن هناك ما يصلح للتقييد .

فالحق أن الآية إنما تشمل الذين استقرت فيهم ملكة التقوى وهو الورع عن محارم الله فاولئك هم المقضي عليهم بالسعادة والجنة قضاء لازماً ، نعم الاستفادة من الكتاب والسنة أن أهل التوحيد وهم من حضر الموقف بشهادة أن لا إله إلا الله لا يخلدون في النار ويدخلون الجنة لا محالة ، وهذا غير دلالة آية المتقين على ذلك .

قوله تعالى : « ونزعنا ما في صدورهم من غلٍّ إخواناً على سرر متقابلين » إلى آخر الآيتين . الغل الحقد ، وقيل هو ما في الصدر من حقد وحسد مما يبعث الإنسان إلى إضرار الغير ، والسرر جمع سرير والنصب هو التعب والعي والوارد من خارج .

يصف تعالى في الآيتين حال المتقين في سعادتهم بدخول الجنة ، اختص بالذكر هذه الأمور من بين نعم الجنة على كثرتها فإن العناية باقتضاء من المقام متعلقة ببيان أنهم في سلام وأمن مما ابتلي به الفاعلون من بطلان السعادة وذهاب السيادة والكرامة فذكر أنهم في أمن من قبل أنفسهم لأن الله نزع ما في صدورهم من غل فلا يهم الواحد منهم بصاحبه سوء بل هم إخوان على سرر متقابلين ولتقابلهم معنى سيأتي في البحث الروائي إن شاء الله تعالى ، وأنهم في أمن من ناحية الأسباب والعوامل الخارجة فلا يمسهم نصب أصلاً، وأنهم في أمن وسلام من ناحية ربهم فما هم من الجنة بمخرجين أبداً فلهم السعادة والكرامة من كل جهة ، ولا يغشاهم ولا يمسهم شقاء ووهن من جهة أصلاً لا من ناحية أنفسهم ولا من ناحية سائر ما خلق الله ولا من ناحية ربهم .

(كلام)

مركز تحقيق كتاب علوم إسلامي

الأقضية التي صدرت عن مصدر العزة في بدء خلق الإنسان على ما وقع في كلامه سبحانه عشرة :

الأول والثاني قوله لإبليس : « فاخرج منها فإنك رجيم وإن عليك اللعنة إلى يوم الدين » الحجر : ٣٥ ، ويمكن إرجاعها إلى واحد .

الثالث قوله سبحانه له : « فإنك من المنظرين إلى يوم الوقت المعلوم » الحجر : ٣٨ .

الرابع والخامس والسادس قوله له : « إن عبادي ليس لك عليهم سلطان إلا من اتبعك من الفاعلين وإن جهنم لموعدهم أجمعين » الحجر : ٤٣ .

السابع والثامن قوله سبحانه لآدم ومن معه : « اهبطوا بعضكم لبعض عدو ولكم في الأرض مستقر ومتاع إلى حين » البقرة : ٣٦ .

التاسع والعاشر قوله لهم : « اهبطوا منها جميعاً فإما يأتينكم مني هدى فمن تبع

هداي فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون « البقرة : ٣٩ .

وهناك أقضية فرعية مترتبة على هذه الأقضية الأصلية يعثر عليها المتدبر الباحث .

(بحث روائي)

في تفسير العياشي عن محمد بن مسلم عن أبي جعفر عليه السلام قال : سألت عن قول الله : « ونفخت فيه من روحي » الآية قال : روح خلقها الله فنفخ في آدم منها .

وفيه عن أبي بصير عن أبي عبد الله عليه السلام في قوله : « فإذا سويته ونفخت فيه من روحي » قال : خلق خلقاً وخلق روحاً ثم أمر الملك فنفخ فيه وليس بالقي نقصت من الله شيئاً هي من قدرته تبارك وتعالى .

وفيه وفي رواية سماعة عنه عليه السلام : خلق آدم ونفخ فيه . وسألت عن الروح قال : هي قدرته من الملكوت .

أقول : أي هي قدرته الفعلية منبعثة عن قدرته الذاتية صادرة منها كما يدل عليه الخبر السابق .

وفي المعاني بإسناده عن محمد بن مسلم قال : سألت أبا جعفر عليه السلام عن قول الله عز وجل : « ونفخت فيه من روحي » قال : روح اختاره واصطفاه وخلقاه وأضافه إلى نفسه وفضله على جميع الأرواح فأمر فنفخ منه في آدم .

وفي الكافي بإسناده عن محمد بن مسلم قال : سألت أبا جعفر عليه السلام عما يروون أن الله خلق آدم على صورته فقال : هي على صورة مخلوقة محدثة اصطفاه الله واختارها على سائر الصور المختلفة فأضافها إلى نفسه كما أضاف الكعبة إلى نفسه فقال : « بقي » « ونفخت فيه من روحي » .

أقول : وهذه الروايات من غرر الروايات في معنى الروح تتضمن معارف جمة ومنوضح معناها عند الكلام في حقيقة الروح إن شاء الله .

وفي تفسير البرهان عن ابن بابويه بإسناده عن أبي عبد الله عليه السلام في قوله تعالى : « إنك لمن المنظرين إلى يوم الوقت المعلوم » يوم ينفخ في الصور نفخة واحدة فيموت

إبليس ما بين النفخة الأولى والثانية .

وفي تفسير العياشي عن وهب بن جميع وفي تفسير البرهات عن شرف الدين النجفي بحذف الإسناد عن وهب - واللفظ للثاني - عن أبي عبد الله عليه السلام قال : سأله عن إبليس وقوله : « ربّ فأنظرني إلى يوم يبعثون قال فإنك من المنظرين إلى يوم الوقت المعلوم » أي يوم هو ؟ قال : يا وهب أتحسب أنه يوم يبعث الله فيه الناس ولكن الله عز وجل أنظره إلى يوم يبعث فيه قائلنا فيأخذ بناصيته ويضرب عنقه فذلك اليوم هو الوقت المعلوم .

وفي تفسير القمي بإسناده عن محمد بن يونس عن رجل عن أبي عبد الله عليه السلام في قول الله تبارك وتعالى : « فأنظرني - إلى قوله - إلى يوم الوقت المعلوم » قال : يوم الوقت المعلوم يذبحه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم على الصخرة التي في بيت المقدس .

أقول : وهو من أخبار الرجعة وفي معناه ومعنى الرواية السابقة عليه أخبار أخرى من طرق أهل البيت عليهم السلام .

ومن الممكن أن تكون الرواية الأولى من هذه الثلاث الأخيرة صادرة على وجه التقية ، ويمكن أن توجه الروايات الثلاث من غير تناف بينها بما تقدم في الكلام على الرجعة في الجزء الأول من الكتاب وغيره أن الروايات الواردة من طرق أهل البيت عليهم السلام في تفسير غالب آيات القيامة تفسرها بظهور المهدي عليه السلام تارة وبالرجعة تارة وبالقيامة أخرى لكون هذه الأيام الثلاثة مشتركة في ظهور الحقائق وإن كانت مختلفة من حيث الشدة والضعف فحكم أحدها جار في الآخرين فافهم ذلك .

وفي تفسير العياشي عن جابر عن أبي جعفر عليه السلام قال : قلت : أرأيت قول الله : « إن عبادي ليس لك عليهم سلطان » ؟ ما تفسير هذا ؟ قال : قال الله : إنك لا تملك أن تدخلهم جنة ولا ناراً .

وفي تفسير القمي في قوله تعالى : « لها سبعة أبواب » الآية ، قال : قال : يدخل في كل باب أهل مذهب ، واللجنة ثمانية أبواب .

وفي الدر المنثور أخرج أحمد في الزهد عن خطّاب بن عبد الله قال : قال علي : أتدرون كيف أبواب جهنم ؟ قلنا : كنحو هذه الأبواب . قال : لا ، ولكنها هكذا

ووضع يده فوق يده وبسط يده على يده .

وفيه أخرج ابن المبارك وهناد وابن أبي شيبة وعبد بن حميد وأحمد في الزهد وابن أبي الدنيا في صفة النار وابن جرير وابن أبي حاتم والبيهقي في البعث من طرق عن علي قال : أبواب جهنم سبعة بعضها فوق بعض فبعلاً الأول ثم الثاني ثم الثالث حتى يملأ كلها .

وفيه أخرج ابن مردويه والخطيب في تاريخه عن أنس قال : قال رسول الله ﷺ في قوله تعالى : « لكل باب منهم جزء مقسوم » قال : جزء أشركوا بالله ، وجزء شكوا في الله ، وجزء غفلوا عن الله .

أقول : هو تعداد أجزاء الأبواب دون نفسها ، والظاهر أن الكلام غير مسوق للحصر .

وفيه أخرج ابن مردويه عن أبي ذر قال : قال رسول الله ﷺ : لجهنم باب لا يدخل منه إلا من أخفني في أهل بيتي وأراق دماءهم من بعدي .

أقول : يقال : خف به وندب به ونقض عهده .

وفيه أخرج أحمد وابن حبان والطبري وابن مردويه والبيهقي في البعث عن عتبة ابن عبد الله عن النبي ﷺ قال : للجنة ثمانية أبواب وللنار سبعة أبواب وبعضها أفضل من بعض .

أقول : والروايات - كما ترى - تؤيد ما قدمناه .

وفي تفسير القمي في قوله تعالى : « ونزعنا ما في صدورهم من غل » الآية ، قال : قال : العداوة .

وفي تفسير البرهان عن الحافظ أبي نعيم عن رجاله عن أبي هريرة قال : قال علي ابن أبي طالب : يا رسول الله أيما أنا أحب إليك أم فاطمة ؟ قال : فاطمة أحب إليّ منك وأنت أعز عليّ منها ، وكأني بك وأنت على حوضي تذود عنه الناس ، وإن عليه أباريق عدد نجوم السماء ، وأنت والحسن والحسين وحمة وجعفر في الجنة إخواناً على سرر متقابلين ، وأنت معي وشيعتك . ثم قرأ رسول الله ﷺ : « إخواناً على سرر متقابلين » لا ينظر أحدهم في قفاه صاحبه .

وفيه عن ابن المغازلي في المناقب يرفعه إلى زيد بن أرقم قال : دخلت على رسول الله ﷺ قال : إني مواخ بينكم كما آخى الله بين الملائكة ، ثم قال لعلي : أنت أخي ثم تلا هذه الآية : «إخواناً على سرر متقابلين» الأخلاء في الله ينظر بعضهم إلى بعض . أقول : ورواه أيضاً عن أحمد في مسنده مرفوعاً إلى زيد بن أوفى عن النبي ﷺ والرواية مبسطة .

وفي الروایتين تفسير قوله تعالى : «على سرر متقابلين» بقوله : لا ينظر أحدهم في قفاه صاحبه ، وقوله : الأخلاء في الله ينظر بعضهم إلى بعض وفيه إشارة إلى أن التقابل في الآية كناية عن عدم تتبع أحدهم عورات إخوانه وزلاتهم كما يفعل ذلك من في صدره غل ، وهو معنى لطيف .

وما قرأه النبي ﷺ من الآية إنما هو من باب الجري والانطباق لا أن الآية نازلة في أهل البيت عليهم السلام فسياق الآيات لا يلائمه البتة .

ونظيرها ما روي عن علي عليه السلام أن الآية نزلت فينا أهل بدر ، وفي رواية أخرى عنه عليه السلام أنها نزلت في أبي بكر وعمر ، وفي رواية أخرى عن علي بن الحسين عليه السلام أنها نزلت في أبي بكر وعمر وعلي ، وفي رواية أخرى أنها نزلت في علي والزبير وطلحة ، وفي رواية أخرى أنها نزلت في علي وعثمان وطلحة والزبير ، وفي رواية أخرى عن ابن عباس أنها نزلت في عشرة : أبي بكر وعمر وعثمان وعلي وطلحة والزبير وسعد وسعيد وعبد الرحمن بن عوف وعبد الله بن مسعود .

والروايات - على ما بها من الاختلاف - تطبيقات من الرواة ، والآية تأتي بسياقها عن أن تكون نازلة في بعض المذكورين كيف ؟ وهي في جملة آيات تقص ما قضاه الله وحكم به يوم خلق آدم وأمر الملائكة وإبليس بالسجود له فأبى إبليس فرجه ثم قضى ما قضى ، ولا تعلق لذلك بأشخاص بخصوصيتهم هذا .

* * *

نَبِيِّ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ - ٤٩ . وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ

الْأَلِيمُ — ٥٠. وَنَبَّيْنَاهُمْ عَنْ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ — ٥١. إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا
 سَلَامًا قَالَ إِنَّا مِنْكُمْ وَجِلُونَ — ٥٢. قَالُوا لَا تَوَجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ
 بِغُلَامٍ عَلِيمٍ — ٥٣. قَالَ أَبَشِّرْهُمُونِي عَلَىٰ أَنْ مَسْنِيَ الْكِبَرُ فِيمِ
 تَبَشِّرُونَ — ٥٤. قَالُوا بَشِّرْنَاكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُنْ مِنَ الْقَانِطِينَ — ٥٥.
 قَالَ وَمَنْ يَقْنَطُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ — ٥٦. قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ
 أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ — ٥٧. قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمٍ مُجْرِمِينَ — ٥٨.
 إِلَّا آلَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ — ٥٩. إِلَّا أَمْرًا تَهُ قَدَرْنَا إِنَّهَا لَمِنْ
 الْغَابِرِينَ — ٦٠. فَلَمَّا جَاءَ آلَ لُوطَ الْمُرْسَلُونَ — ٦١. قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ
 مُنْكَرُونَ — ٦٢. قَالُوا بَلْ جِئْنَاكَ بِمَا كَانُوا فِيهِ يَمْتَرُونَ — ٦٣.
 وَأَتَيْنَاكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ — ٦٤. فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ
 وَاتَّبِعْ أَذْيَارَهُمْ وَلَا يَلْتِفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ وَامْضُوا حَيْثُ تُؤْمَرُونَ — ٦٥.
 وَقَضَيْنَا إِلَيْهِ ذَلِكَ الْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَوْلَاءِ مَقْطُوعٌ مُصْبِحِينَ — ٦٦.
 وَجَاءَ أَهْلُ الْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ — ٦٧. قَالَ إِنَّ هَوْلَاءِ ضَيْفِي فَلَا
 تَفْضَحُون — ٦٨. وَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُون — ٦٩. قَالُوا أَوَلَمْ نُنْهَكَ
 عَنِ الْعَالَمِينَ — ٧٠. قَالَ هَوْلَاءِ بَنَاتِي إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ — ٧١. لَعَمْرُكَ
 إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ — ٧٢. فَأَخَذْتَهُمُ الصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ — ٧٣.
 فَجَعَلْنَا غَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ — ٧٤. إِنَّ

فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ - ٧٥ . وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ - ٧٦ . إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ - ٧٧ . وَإِنْ كَانَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ لظَالِمِينَ - ٧٨ . فَاتَّقَمْنَا مِنْهُمْ وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ - ٧٩ . وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ الْحِجْرِ الْمُرْسِلِينَ - ٨٠ . وَآتَيْنَاهُمْ آيَاتِنَا فَكَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ - ٨١ . وَكَانُوا يَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا آمِنِينَ - ٨٢ . فَأَخَذْتَهُمُ الصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ - ٨٣ . فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ - ٨٤ .

(بيان)

بعد ما تكلم سبحانه حول استهزائهم بالنبي ﷺ وما أنزل اليه من الكتاب واقتراحهم عليه أن يأتيهم بالملائكة وهم ليسوا بمؤمنين وإن سمح لهم بأوضح الآيات أتى سبحانه في هذه الآيات ببيان جامع في التنبيه والإنذار وهو ما في قوله : « نبي عبادي » إلى آخر الآيتين ثم أوضحه وأيده بقصة جامعة للجهتين متضمنة للأمرين معاً وهي قصة ضيف إبراهيم وفيها بشرى إبراهيم بما لا مطمع فيه عادة وعذاب قوم لوط بأشد أنواع العذاب .

ثم أيده تعالى بإشارة إجمالية إلى تعذيب أصحاب الأيكة وهم قوم شعيب وأصحاب الحجر وهم ثمود قوم صالح عليها السلام .

قوله تعالى : « نبي عبادي أني أنا الغفور الرحيم وأن عذابي هو العذاب الأليم » المراد بقوله : « عبادي » على ما يفيد سياق الآيات مطلق العباد ولا يعبو بما ذكره بعضهم : أن المراد بهم المتقون السابق ذكرهم أو المخلصون .

وتأكيد الجملتين بالإسمية وإن ضمير الفصل واللام في الخبر يدل على أن الصفات المذكورة فيها أعني المغفرة والرحمة وألم العذاب بالغة في معناها النهاية بحيث لا تقدر بقدر ولا يقاس بها غيرها ، فما من مغفرة أو رحمة إلا ويمكن أن يفرض لها مانع يمنع

من إرسالها أو مقدر يقدرها ويحدثها ، لكنه سبحانه يحكم لا معقّب لحكمه ولا مانع يقاومه فلا يمنع عن إنجاز مغفرته ورحمته شيء ولا يحدثها أمر إلا أن يشاء ذلك هو جلّ وعز ، فليس لأحد أن يأس من مغفرته أو يقنط من روحه ورحمته استناداً إلى مانع يمنع أو رادع يردع إلا أن يخافه تعالى نفسه كما قال : « لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعاً إنه هو الغفور الرحيم وأنيبوا إلى ربكم » الزمر : ٥٤ .

وليس لأحد أن يحقر عذابه أو يؤمل عجزه أو يأمن مكره والله غالب على أمره ولا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون .

قوله تعالى : « ونبتئهم عن ضيف إبراهيم » الضيف معروف ويطلق على المفرد والجمع وربما يجمع على أضياف وضيوف وضيغان لكن الأفصح - كما قيل - أن لا يشتى ولا يجمع لكونه مصدراً في الأصل .

والمراد بالضيف الملائكة المكرمون الذين أرسلوا لبشارة إبراهيم بالولد وهلاك قوم لوط سمّاهم ضيفاً لأنهم دخلوا عليه في صورة الضيف .

قوله تعالى : « إذ دخلوا عليه فقالوا سلاماً قال إنا منكم وجلون قالوا لا توجل إنا نبشرك بغلام عليم » ضمير الجمع في « دخلوا وقالوا » في الموضعين للملائكة فقولهم : « سلاماً » تحية وتقديره نسلم عليك سلاماً وقول إبراهيم عليه السلام : « إنا منكم وجلون » أي خائفون والوجل : الخوف .

وإنما قال لهم إبراهيم ذلك بعدما استقر بهم المجلس وقدم اليهم عجلًا حنيذاً فلم يأكلوا منه فلما رأى أيديهم لا تصل إليه نكرهم وأوجس منهم خيفة كما في سورة هود فالقصة المذكورة على نحو التلخيص .

وقولهم : « لا توجل » تسكين لوجهه وتأمين له وتطيبب لنفسه بأنهم رسل ربه وقد دخلوا عليه لبشروه بغلام عليم أي بولد يكون غلاماً وعليماً ، ولعل المراد كونه عليمًا بتعليم الله ووحيه فيقرب من قوله في موضع آخر : « فبشّرناه بإسحاق نبياً » الصافات : ١١٢ .

قوله تعالى : « قال أبشّروني على أن مسني الكبر فم تبشّرون » تلقى إبراهيم عليه السلام وهو شيخ كبير هرم لا عقب له من زوجه وقد أياسته العادة الجارية

عن الولد وإن كان يحلّ أن يقنط من رحمة الله ونفوذ قدرته ، ولذا تعجب من قولهم واستفهمهم كيف يبشرونه بالولد وحاله هذه الحال ؟ وزوجه عجوز عقيم كما وقع في موضع آخر من كلامه تعالى .

فقوله : « أبشروني على أن مستني الكبير » الكبير كناية عن الشيخوخة ومسته هو نيله منه ما نال بإفناء شبابه وإذهاب قواه ، والمعنى إني لأتعجب من بشارتكم إياي والحال أني شيخ هرم فنى شبابي وفقدت قوى بدني ، والعادة تستدعي أن لا يولد لمن هذا شأنه ولد .

وقوله : « فم تبشرون » تفريع على قوله : « مستني الكبير » وهو استفهام عما بشروه به كأنه يشك في كون بشارتهم بشرى بالولد مع تصريحهم بذلك لا استبعاد ذلك فيسأل ما هو الذي تبشرون به ؟ فإن الذي يدل عليه ظاهر كلامكم أمر عجيب ، وهذا شائع في الكلام يقول الرجل إذا أخبر بما يستبعده أو لا يصدقه : ما تقول ؟ وما تريد ؟ وماذا تصنع ؟ .

قوله تعالى : « قالوا بشرناك بالحق » - إلى قوله - « إلا الضالّون » البساء في « بالحق » للمصاحبة أي إن بشارتنا ملازمة للحق غير منفكة منه فلا تدفعها بالاستبعاد فتكون من القانطين من رحمة الله ، وهذا جواب للملائكة وقد قابلهم إبراهيم عليه السلام على نحو التكنية فقال : « ومن يقنط من رحمة ربه إلا الضالّون » والاستفهام إنكاري أي إن القنوط من رحمة الله مما يختص بالضالين ولست أنا بضالّ فليس سؤالي سؤال قانط مستبعد .

قوله تعالى : « قال فما خطبكم أيها المرسلون » الخطب الأمر الجليل والشأن العظيم ، وفي خطابهم بالمرسلين دلالة على أنهم ذكروا له ذلك قبلاً ، ومعنى الآية ظاهر .

قوله تعالى : « قالوا إنا أرسلنا إلى قوم مجرمين » - إلى قوله - « لمن الغابرين » قال في المفردات : الغابر الماكث بعد مضي من هو معه قال تعالى : « إلا عجوزاً في الغابرين » يعني فيمن طال أعمارهم ، وقيل : فيمن بقي ولم يسر مع لوط ، وقيل : فيمن بقي بعد في العذاب ، وفي آخر : « إلا امرأتك كانت من الغابرين » وفي آخر : « قدرنا إنها لمن الغابرين » - إلى أن قال - والغبار ما يبقى من التراب المثار وجعل على بناء

الدخان والعتار ونحوهما من البقايا . انتهى ولعله من هنا ما ربما يسمى الماضي والمستقبل معاً غابراً أما الماضي فبمعناية أنه بقي فيما مضى ولم يتعد إلى الزمان الحاضر وأما المستقبل فبمعناية أنه باق لم يفن بعد كالماضي .

والآيات جواب الملائكة لسؤال إبراهيم « قالوا إنا أرسلنا » من عند الله سبحانه « إلى قوم مجرمين » نكروهم ولم يسموهم صوناً للسان عن التصريح باسمهم تنقراً منه ومستقبل الكلام يعينهم ثم استثنوا وقالوا : « إلا آل لوط » وهم لوط وخاصته وظهر به أن القوم قومه « إنا لمنجوتهم » أي مخلصوهم من العذاب « أجمعين » وظاهر السياق كون الاستثناء منقطعاً .

ثم استثنوا امرأة لوط من آله للدلالة على أن النجاة لا تشملها وأن العذاب سيأخذها ويهلكها فقالوا : « إلا امرأته قدرنا إنها لمن الغابرين » أي الباقين من القوم بعد خروج آل لوط من قريتهم .

وقد تقدم تفصيل القول في ضيف إبراهيم عليه السلام في سورة هود في الجزء العاشر من الكتاب وعقدنا هناك بحثاً مستقلاً فيه .

قوله تعالى : « فلما جاء آل لوط المرسلون قال إنكم قوم منكرون » إنما قال لهم لوط عليه السلام ذلك لكونهم ظاهرين بصور غلمان مرد حسان وكان يشقه ما يراه منهم وشأن قومه شأنهم من الفحشاء كما تقدم في سورة هود ، والمعنى ظاهر .

قوله تعالى : « قالوا بل جئناك بما كانوا فيه يمترون وأتيناك بالحق وإنا لصادقون » الامتراء من المرية وهو الشك ، والمراد بما كانوا فيه يمترون العذاب الذي كان ينذرهم به لوط وهم يشكون فيه ، والمراد بإتيانهم بالحق إتيانهم بقضاء حق في أمر القوم لا معدل عنه كما وقع في موضع آخر من قولهم : « وإني آتيهم عذاب غير مردود » هود : ٧٦ ، وقيل : المراد « وأتيناك بالعذاب الذي لا شك فيه » وما ذكرناه هو الوجه .

وفي آيات القصة تقديم وتأخير لا بمعنى اختلال ترتيبها بحسب النزول عند التأليف بوضع ما هو مؤخر في موضع المقدم وبالعكس بل بمعنى ذكره تعالى بعض أجزاء القصة في غير محله الذي يقتضيه الترتيب الطبيعي وتعيينه له سنة الاقتصاص لنكتة توجب ذلك .

وترتيب القصة بحسب أجزائها على ما ذكرها الله سبحانه في سورة هود وغيرها والاعتبار يساعد ذلك مقتضاه أن يكون قوله : « فلما جاء آل لوط » إلى تمام آيتين قبل سائر الآيات . ثم قوله : « وجاء أهل المدينة » إلى تمام ست آيات . ثم قوله : « قالوا بل جئناك » إلى تمام أربع آيات . ثم قوله : « فأخذتهم الصيحة مشرقين » إلى آخر الآيات .

وحقيقة هذا التقديم والتأخير أن للقصة فصلاً أربعة وقد أخذ الفصل الثالث منها فوضع بين الأول والثاني أعني أن قوله : « وجاء أهل المدينة » إلى آخره أخر في الذكر ليتصل آخره وهو قوله : « لعمرك إنهم لفي سكرتهم يعمهون » بأول الفصل الأخير : « فأخذتهم الصيحة مشرقين » وذلك ليمثل به الغرض في الاستشهاد بالقصة وينجلي أوضح الانجلاء وهو نزول عذاب هائل كعذابهم في حال سكرة منهم وأمن منه لا يخطر ببالهم شيء من ذلك وذلك أبلغ في الدهشة وأوقع في الحسرة يزيد في العذاب ألماً على ألم .

ونظير هذا في التلويع بهذه النكتة ما في آخر قصة أصحاب الحجر الآتية من اتصال قوله : « وكانوا ينحتون من الجبال بيوتاً آمنين » بقوله : « فأخذتهم الصيحة مصبحين » كل ذلك ليجلتي معنى قوله تعالى في صدر المقال : « وأن عذابي هو العذاب الأليم » فافهم ذلك .

قوله تعالى : « فأسر بأهلك بقطع من الليل » إلى آخر الآية ، الإسراء هو السير بالليل ، فقوله : « بقطع من الليل » يؤكد وقطع الليل شطر مقطوع منه ، والمراد باتباعه أدبارهم هو أن يسير وراءهم فلا يترك أحداً يتخلف عن السير ويحملهم على السير الحثيث كما يشعر به قوله : « ولا يلتفت منكم أحد » .

والمعنى : وإذ جئناك بعذاب غير مردود وأمر من الله ماض يجب عليك أن تسير بأهلك ليلاً وتأخذ أنت وراءهم لئلا يتخلفوا عن السير ولا يساهلوا فيه ولا يلتفت أحد منكم إلى ورائه وامضوا حيث تؤمرون ، وفيه دلالة على أنه كانت أمامهم هداية إلهية تهديهم وقائد يقودهم .

قوله تعالى : « وقضينا إليه ذلك الأمر أن دابر هؤلاء مقطوع مصبحين » القضاء

مضمّن معنى الوحي ولذا عدّي بإلى - كما قيل - والمراد بالأمر أمر العذاب كما يفسره قوله: « أن دابر هؤلاء مقطوع مصبحين » والإشارة إليه بلفظة « ذلك » للدلالة على عظم خطره وهول أمره .

والمعنى: وقضينا أمرنا العظيم في عذابهم موحياً ذلك إلى لوط وهو أن دابر هؤلاء وأثرهم الذي من شأنه أن يبقى بعدهم من نسل وبنساء وعمل مقطوع حال كونهم مصبحين أو التقدير أوحينا إليه قاضياً ، الخ .

قوله تعالى: « وجاء أهل المدينة يستبشرون » - إلى قوله - إن كنتم فاعلين « يدلّ نسبة المجيء إلى أهل المدينة على كونهم جماعة عظيمة يصحّ عدّهم أهل المدينة لكثرتهم . فالمعنى « وجاء » إلى لوط « أهل المدينة » جمع كثير منهم يريدون أضيافه وهم « يستبشرون » لولعهم بالفحشاء وخاصة بالداخلين في بلادهم من خارج فاستقبلهم لوط مدافعاً عن أضيافه « قال إن هؤلاء ضيفي فلا تقضحون » بالعمل الشنيع بهم « واتقوا الله ولا تخزون قالوا » المهاجمون من أهل المدينة : ألم نقطع عذرك في إيوائهم « أولم ننهك عن العالمين » أن تؤويهم وتشفع فيهم وتدافع عنهم فلما يئس لوط عليه السلام منهم عرض عليهم بناته أن ينصرفوا عن أضيافه بنكاحهن - كما تقدم بيانه في سورة هود - « قال إن هؤلاء بناتي إن كنتم فاعلين » .

قوله تعالى : « لعمرك إنهم لفي سكرتهم يعمهون » - إلى قوله - من سجّيل « قال في المفردات : العمارة ضدّ الخراب . قال : والعمر اسم لمدة عمارة البدن بالحياة فهو دون البقاء فإذا قيل : طال عمره فمعناه عمارة بدنه بروحه ، وإذا قيل : بقاؤه فليس يقتضي ذلك فإن البقاء ضدّ الفناء ، ولفضل البقاء على العمر وصف الله به وقلّما وصف بالعمر قال : والعمر - بالضم - والعمر - بالفتح - واحد لكن خصّ القسم بالعمر - بالفتح - دون العمر - بالضم - نحو « لعمرك إنهم لفي سكرتهم » ، انتهى . والخطاب في « لعمرك » للنبي صلى الله عليه وآله فهو قسم ببقائه وقول بعضهم : إنه خطاب من الملائكة للوط عليه السلام وقسم بعمره لا دليل عليه من سياق الآيات .

والعمه هو التردد على حيرة والسجّيل حجارة العذاب وقد تقدم تفصيل القول في معناه في تفسير سورة هود .

والمعنى أقسم بحياتك وبقائك يا محمد إنهم لفي سكرتهم وهي غفلتهم بانغمارهم في الفحشاء والمنكر يترددون متعيرين « فأخذتهم الصيحة » وهي الصوت الهائل « مشرقين » أي حال كونهم داخلين في إشراق الصبح فجعلنا عالي بلادهم سافلها وفوقها تحتها وأمطرنا وأنزلنا من السماء عليهم حجارة من سجيل .

قوله تعالى : « إن في ذلك لآيات للمتوسمين - إلى قوله - للمؤمنين » الآية العلامة والمراد بالآيات أولاً العلامات الدالة على وقوع الحادثة من بقايا الآثار وبالأية ثانياً العلامة الدالة للمؤمنين على حقيقة الإنذار والدعوة الإلهية ، والتوسم التفرس والانتقال من سيئ الأشياء على حقيقة حالها .

والمعنى : أن في ذلك أي فيما جرى من الأمر على قوم لوط وفي بلادهم لعلامات من بقايا الآثار للمتفرسين وإن تلك العلامات لبسبيل للعابرين مقيم لم تعف ولم تتمح بالكلية بعد ، إن في ذلك لآية للمؤمنين تدل على حقيقة الإنذار والدعوة وقد تبين بذلك وجه إيراد الآيات جمعاً ومفرداً في الموضعين .

قوله تعالى : « وإن كان أصحاب الأيكة لظالمين - إلى - فانتقمنا منهم وإنها لبإمام مبين » الأيكة واحدة الأيك وهو الشجر الملتف بعضه ببعض فقد كانوا - كما قيل - في غيضة أي بقعة كثيفة الأشجار .

وهؤلاء - كما ذكروا - هم قوم شعيب عليه السلام أو طائفة من قومه كانوا يسكنون النغضة ، ويؤيده قوله تعالى ذيلًا : « وإنها لبإمام مبين » أي مكانا قوم لوط وأصحاب الأيكة لفي طريق واضح فإن الذي على طريق المدينة إلى الشام هي بلاد قوم لوط وقوم شعيب الخربة أهلكهم الله بكفرهم وتكذيبهم لدعوة شعيب عليه السلام وقد تقدمت قصتهم في سورة هود . وقوله : « فانتقمنا منهم » الضمير لأصحاب الأيكة وقيل : لهم ولقوم لوط . ومعنى الآيتين ظاهر .

قوله تعالى : « ولقد كذب أصحاب الحجر المرسلين - إلى قوله - ما كانوا يكسبون » أصحاب الحجر هم ثمود قوم صالح ، والحجر اسم بلدة كانوا يسكنونها وعدتهم مكذبين لجميع المرسلين وهم إنما كذبوا صالحاً المرسل اليهم إنما هو لكون دعوة الرسل دعوة واحدة ، والمكذب لواحد منهم مكذب للجميع .

وقوله: «وآتيناهم آياتنا فكانوا عنها معرضين» إن كان المراد بالآيات المعجزات والخوارق - كما هو الظاهر - فالمراد بها الناقة وشرها وما ظهر لهم بعد عقرها إلى أن أهلكوا، وقد تقدمت القصة في سورة هود، وإن كان المراد بها المعارف الإلهية التي بلغتها صالح عليه السلام ونشرها فيهم أو المجموع من المعارف الحقّة والآية المعجزة فالأمر واضح.

وقوله: «وكانوا ينحتون من الجبال بيوتاً آمنين» أي كانوا يسكنون الغيران والكهوف المنحوتة من الحجارة آمنين من الحوادث الأرضية والسموية بزعمهم.

وقوله: «فأخذتهم الصبغة مصبغين» أي صبغة العذاب التي كان فيها هلاكهم، وقد تقدمت الإشارة إلى مناسبة اجتماع الأمن مع الصبغة في الآيتين لقوله في صدر الآيات: «وإن عذابي هو العذاب الأليم».

وقوله: «فما أغنى عنهم ما كانوا يكسبون» أي من الأعمال لتأمين سعادتهم في الحياة.

(بحث روائي)

مركز تحقيق كتاب ترمذي علوم

في الدر المنثور أخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم عن مصعب بن ثابت قال: مرّ النبي ﷺ على ناس من أصحابه يضحكون قال: اذكروا الجنة واذكروا النار فنزلت: «نبيء عبادي أني أنا الغفور الرحيم».

أقول: وفي معناه روايات أخر لكن في انطباق معنى الآية على ما ذكر فيها من السبب خفاء.

وفيه أخرج أبو نعيم في الحلية عن جعفر بن محمد في قوله: «إن في ذلك لآيات للمتوسمين» قال: هم المتفرسون.

وفيه أخرج البخاري في تاريخه والترمذي وابن جرير وابن أبي حاتم وابن السني وأبو نعيم معاً في الطب وابن مردويه والخطيب عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله ثم قرأ: «إن في ذلك لآيات للمتوسمين» قال: المتفرسين.

وفي اختصاص المفيد بإسناده عن أبي بكر بن محمد الحضرمي عن أبي جعفر عليه السلام قال: قال: ما من مخلوق إلا وبين عينيه مكتوب مؤمن أو كافر وذلك بحجوب عنكم وليس بحجوب عن الأنمة من آل محمد ثم ليس يدخل عليهم أحد إلا عرفوه مؤمناً أو كافراً ثم تلا هذه الآية: « إن في ذلك لآيات للمتوسمين » فهم المتوسمون .

أقول: والروايات في هذا المعنى متظافرة متكاثرة ، وليس معناها نزول الآية فيهم عليهم السلام .

وفي الدر المنثور أخرج ابن مردويه وابن عساكر عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: إن مدين وأصحاب الأيكة أمتان بعث الله اليها شعباً .

أقول: وقد أوردنا ما يجب إirاده من الروايات في قصة بشرى إبراهيم وقصص لوط وشعيب وصالح عليه السلام في تفسير سورة هود في الجزء العاشر من الكتاب واكتفينا بذلك عن إirادها هنا فليرجع إلى هناك .



* * *

وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَإِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ - ٨٥ . إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ - ٨٦ . وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ - ٨٧ . لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَانخَفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ - ٨٨ . وَقُلْ إِنِّي أَنَا النَّذِيرُ الْمُبِينُ - ٨٩ . كَمَا أَنزَلْنَا عَلَى الْمُقْتَسِمِينَ - ٩٠ . الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ - ٩١ . فَوَدَّ بِكَ لَنَسَأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ - ٩٢ . عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ - ٩٣ . فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ - ٩٤ . إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ - ٩٥ .

الَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ — ٩٦ . وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ — ٩٧ . فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ — ٩٨ . وَأَعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ — ٩٩ .

(بيان)

في الآيات تخلص إلى غرض البيان السابق وهو أمر النبي ﷺ أن يصدع بما يؤمر ويأخذ بالصفح والإعراض عن المشركين ولا يحزن عليهم ولا يضيق صدره بما يقولون فإن من القضاء الحق أن يجازى الناس بأعمالهم في الدنيا والآخرة وخاصة يوم القيامة الذي لا ريب فيه وهو اليوم الذي لا يفادر أحداً ولا يدع مثقال ذرة من الخير والشر إلا ألحقه بعامله فلا ينبغي أن يؤسف لكفر كافر فإن الله عليم به سيجازيه ، ولا يحزن عليه فإن الاشتغال بالله سبحانه أهم وأوجب .

ولقد كرر سبحانه أمره بالصفح والإعراض عن أولئك المستهزئين به — وهم الذين مر ذكرهم في مفتتح السورة — والاشتغال بتسبيحه وتحميده وعبادته ، وأخبره أنه كفاه شرهم فليشتغل بما أمره الله به ، وبذلك تحتتم السورة .

قوله تعالى : « وما خلقنا السماوات والأرض وما بينهما إلا بالحق ، وإن الساعة لآتية » الباء في قوله : « بالحق » للمصاحبة أي إن خلقها جميعاً لا ينفك عن الحق ويلازمه فللخلق غاية سيرجع إليها قال تعالى : « إن إلى ربك الرجعى » العلق : ٨ ، ولولا ذلك لكان لعباً باطلاً قال تعالى : « وما خلقنا السماوات والأرض وما بينهما لاعبين ما خلقناهما إلا بالحق » الدخان : ٣٩ ، وقال : « وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما باطلاً » ص : ٢٧ ، ومن الدليل على كون المراد بالحق ما يقابل اللعب الباطل تذييل الكلام بقوله : « وإن الساعة لآتية » وهو ظاهر .

وبذلك يظهر فساد ما ذكره بعضهم أن المراد بالحق العدل والإنصاف والبراء السببية والمعنى ما خلقنا ذلك إلا بسبب العدل والإنصاف يوم الجزاء بالأعمال .

وذلك أن كون الحق في الآية بمعنى العدل والإنصاف لا شاهد عليه من اللفظ على أن الذي ذكره من المعنى إنما يلائم كون الباء بمعنى لام الغرض أو للمصاحبة دون السببية .

وكذا ما ذكره بعضهم أن الحق بمعنى الحكمة وأن الجملة الأولى « وما خلقنا » الخ ، ناظرة إلى العذاب الدنيوي والثانية « وإن الساعة لآتية » إلى العذاب الآخروي والمعنى وما خلقنا السماوات والأرض وما بينهما إلا متلبساً بالحق والحكمة بحيث لا يلائم استمرار الفساد واستقرار الشرور ، وقد اقتضت الحكمة إهلاك أمثال هؤلاء دفعاً لفسادهم وإرشاداً لمن بقي إلى الصلاح ، وإن الساعة لآتية فينتقم أيضاً فيها من أمثال هؤلاء .

وفي الآية مشاجرة بين أصحاب الجبر والتفويض كل من الفريقين يجرّ ثارها إلى قرصته فاستدل بها أصحاب الجبر على أن أفعال العباد مخلوقة لله لأن أعمالهم من جملة ما بينها فهي مخلوقة له .

واستدل بها أصحاب التفويض على أن أفعال العباد ليست مخلوقة له بل لأنفسهم فإن المعاصي وقبائح الأعمال من الباطل فلو كانت مخلوقة له لكانت مخلوقة بالحق والباطل لا يكون مخلوقاً بالحق .

والحق أن الحجتين جميعاً من الباطل فإن جهات القبح والمعصية في الأفعال حيثيات عدمية إذ الطاعة والمعصية كالشكاح والزنا وأكل المال من حله وبالباطل وأمثال ذلك مشتركة في أصل الفعل وإنما تختلف طاعة ومعصية بموافقة الأمر ومخالفته والمخالفة جهة عدمية ، وإذا كان كذلك فاستناد الفعل إلى الخلق من جهة الوجود لا يستلزم استناد القبيح أو المعصية إليها فإن ذلك من جهاته عدمية فليس الفعل بجهته عدمية مما بين السماوات والأرض حتى تشمله الآية ، ولا بجهته الوجودية من الباطل حتى يكون خلقه خلقاً للباطل بالحق .

على أن الضرورة قائمة على حكومة نظام العلل والمعلولات في الوجود وأن قيام وجود شيء بشيء بحيث لا يستقل دونه هو ملاك الاتصاف ، فالمتصف بالطاعة والمعصية وحسن الفعل وقبيحه هو الإنسان دون الذي خلقه ويسرّ له أن يفعل كذا وكذا كما

أن المتصف بالسواد والبياض الجسم الذي يقوم به هذان اللونان دون الذي أوجده .
وقد استوفينا الكلام في هذا البحث في تفسير قوله : « وما يضل به إلا
الفاسين » البقرة : ٢٦ ، الجزء الأول من الكتاب .

قوله تعالى : « فاصفح الصفيح الجميل إن ربك هو الخلاق العليم » قال في المفردات :
صفح الشيء عرضه وجانبه كصفحة الوجه وصفحة السيف وصفحة الحجر والصفح
ترك التثريب وهو أبلغ من العفو ولذلك قال : « فاعفوا واصفحوا حتى يأتي الله
بأمره » وقد يعفو الإنسان ولا يصفح قال تعالى : « فاصفح عنهم وقل سلام » « فاصفح
الصفح الجميل » « أفنضرب عنكم الذكر صفحا » .

وصفحت عنه أوليته صفحة جميلة معرضاً عن ذنبه ، أو لقيت صفحته متجافياً
عنه أو تجاوزت الصفحة التي أثبت فيها ذنبه من الكتاب إلى غيرها من قولك تصفحت
الكتاب ، وقوله : « إن الساعة لآتية فاصفح الصفيح الجميل » فأمر له ﷺ أن يخفف
كفر من كفر كما قال : « ولا تحزن عليهم ولا تك في ضيق مما يمكرون » والمصافحة
الإفضاء بصفحة اليد . انتهى .

وسأتي ما في الرواية من تفسير علي عليه السلام الصفيح بالعفو من غير عتاب .

وقوله : « فاصفح الصفيح الجميل » تفريع على سابقه أي إذا كانت الحلقة بالحق
وهناك يوم فيه يحاسبون ويمجازون لا ريب فيه فلا تشغل نفسك بما ترى منهم من
التكذيب والاستهزاء واعف عنهم من غير أن تقع فيهم بعتاب أو مناقشة وجدال فإن
ربك الذي خلقك وخلقهم هو عليم بحالك وحالهم ووراءهم يوم لا يفوتونه .

ومن هنا يظهر أن قوله : « إن ربك هو الخلاق العليم » تعليل لقوله : « فاصفح
الصفح الجميل » .

وهذه الآيات الحافّة لقوله : « فاصدع بما تؤمر » تسلية للنبي ﷺ وتطبيب
لنفسه ليأخذ قوله : « فاصدع بما تؤمر » موقعه فقد عرفت في أول السورة أن الغرض
الأصيل منها هو الأمر بإعلان الدعوة وعرفت أيضاً بالتدبر في الآيات السابقة أنها
مسرودة ليتخلص بها إلى تسليته ﷺ عما لقي من قومه من الإيذاء والإهانة
والاستهزاء ويتخلص من ذلك إلى الأمر المطلوب .

قوله تعالى : « ولقد آتيناك سبعا من المثاني والقرآن العظيم » السبع المثاني هي سورة الحمد على ما فسّر في عدّة من الروايات المأثورة عن النبي ﷺ وأئمة أهل البيت عليهم السلام فلا يصغى إلى ما ذكره بعضهم : أنها السبع الطوال ، وما ذكره بعض آخر أنها الحواميم السبع ، وما قيل : إنها سبع صحف من الصحف النازلة على الأنبياء ، فلا دليل على شيء منها من لفظ الكتاب ولا من جهة السنة .

وقد كثر اختلافهم في قوله : « من المثاني » من جهة كون « من » للتبويض أو للتبيين وفي كيفية اشتقاق لفظة المثاني ووجه تسميتها بالمثاني .

والذي ينبغي أن يقال - والله أعلم - إن « من » للتبويض فإنه سبحانه سمّى جميع آيات كتابه مثاني إذ قال : « كتاباً متشابهاً مثاني تقشعرّ منه قلوب الذين يخشون ربهم » الزمر : ٢٣ وآيات سورة الحمد من جملتها فهي بعض المثاني لا كلها .

والظاهر أن المثاني جمع مثنية اسم مفعول من الثني بمعنى اللوي والعطف والإعادة قال تعالى : « يثنون صدورهم » هود : ٥ ، وسميت الآيات القرآنية مثاني لأن بعضها يوضح حال البعض ويلوى وينعطف عليه كما يشعر به قوله : « كتاباً متشابهاً مثاني » حيث جمع بين كون الكتاب متشابهاً بشبه بعض آياته بعضاً وبين كون آياته مثاني ، وفي كلام النبي ﷺ في صفة القرآن : « يصدق بعضه بعضاً » وعن علي عليه السلام فيه : « ينطق بعضه ببعض ويشهد بعضه على بعض » أو هي جمع مثني بمعنى التكرير والإعادة كناية عن بيان بعض الآيات ببعض .

ولعل في ذلك كفاية وغنى عما ذكره من مختلف المعاني كما في الكشف وحواشيه والمجمع وروح المعاني وغيرها كقولهم : إنها من التثنية أو الثني بمعنى التكرير والإعادة سميت آيات القرآن مثاني لتكرّر المعاني فيها ، وكقولهم : سميت الفاتحة مثاني لوجوب قراءتها في كل صلاة مرتين أو لأنها تنشئ في كل ركعة بما يقرأ بعدها من القرآن ، أو لأن كثيراً من كلماتها مكرّرة كالرحمان والرحيم وإياك والصراط وعليهم ، أو لأنها نزلت مرتين مرة بمكة ومرة بالمدينة أو لما فيها من الثناء على الله ، أو لأن الله استثنىها وأدّخرها لهذه الأمة ولم ينزلها على الأمم الماضين كما في الرواية ، إلى غير ذلك من الوجوه المذكورة في التفاسير .

وفي قوله : « سبعا من المثاني والقرآن العظيم » من تعظيم أمر الفاتحة والقرآن ما لا يخفى أما القرآن فلتوصيفه من ساحة العظمة والكبرياء بالعظيم ، وأما الفاتحة فلمكان للتعبير عنه بالنكرة غير الموصوفة « سبعا » وفيه من الدلالة على عظمة قدرها وجلالة شأنها ما لا يخفى وقد قوبل بها القرآن العظيم وهي بعضه .

والآية - كما تبين - في مقام الامتنان وهي مع ذلك لوقوعها في سياق الدعوة إلى الصبح والإعراض تفيد أن في هذه الموهبة العظمى المتضمنة لحقائق المعارف الإلهية الهادية إلى كل كمال وسعادة بإذن الله عدة أن تحملك على الصبح الجميل والاشتغال بربك والتوغل في طاعته .

قوله تعالى : « لا تمدن عينيك إلى ما متعنا به أزواجاً منهم - إلى قوله - المبين » الآيتان في مقام بيان الصبح الجميل الذي تقدم الأمر به ، ولذلك جيء بالكلام في صورة الاستئناف .

والمذكور فيها أربعة دساتير : منفیان ومثبتان فقوله : « لا تمدن عينيك إلى ما متعنا به أزواجاً منهم » مد العينين إلى ما متعوا به من زهرة الحياة الدنيا كناية عن التعمدي عن قصر النظر على ما آتاه الله من نعمة ، والمراد بالأزواج الأزواج من الرجال والنساء أو الأصناف من الناس كالوثنيين واليهود والنصارى والمجوس ، والمعنى لا تتجاوز عن النظر عما أنعمناك به من النعم الظاهرة والباطنة إلى ما متعنا به أزواجاً قليلة أو أصنافاً من الكفار .

وربما أخذ بعضهم قوله : « لا تمدن عينيك » كناية عن إطالة النظر وإدامته ، وأنت تعلم أن الغرض على أي حال النهي عن الرغبة والميل والتعلق القلبى بما في أيديهم من أمتعة الحياة كالمال والشوكة والصيت والذي يكنى به عن ذلك هو النهي عن أصل النظر إليه لا عن إطالته وإدامته ، ويشهد به ما سنقله من آية الكهف .

وقوله : « ولا تحزن عليهم » أي من جهة تماديهم في التكذيب والاستهزاء وإصرارهم على أن لا يؤمنوا بك .

وقوله : « واخفض جناحك للمؤمنين » قالوا : هو كناية عن التواضع ولين الجانب ، والأصل فيه أن الطائر إذا أراد أن يضم إليه أفراده بسط جناحه عليها ثم

خفضه لها ، هذا .

والذي ذكروه وإن أمكن أن يتأيد بآيات أخر كقوله : « فبما رحمة من الله لنت لهم » آل عمران : ١٥٩ ، وقوله في صفة النبي ﷺ : « بالمؤمنين رؤوف رحيم » التوبة : ١٢٨ ، لكن الذي وقع في نظير الآية مما يمكن أن يفسر به خفض الجناح هو صبر النفس مع المؤمنين وهو يناسب أن يكون كناية عن ضم المؤمنين إليه وقصر الهم على معاشرتهم وتربيتهم وتأديبهم بأدب الله أو كناية عن ملازمتهم والاحتباس فيهم من غير مفارقة ، كما أن الطائر إذا خفض الجناح لم يطير ولم يفارق ، قال تعالى : « واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه ولا تعد عيناك عنهم تريد زينة الحياة الدنيا » الآية الكهف : ٢٨ .

وقوله : « وقل إني أنا النذير المبين » أي لا دعوى لي إلا أنني نذير أنذركم بعذاب الله سبحانه مبين أبين لكم ما تحتاجون إلى بيانه ، وليس لي وراء ذلك من الأمر شيء .
فهذه الامور الأربعة أعني ترك الرغبة بما في أيديهم من متاع الحياة الدنيا وترك الحزن عليهم إذا كفروا واستهزؤا ، وخفض الجناح للمؤمنين وإظهار أنه نذير مبين هو الصفح الجميل الذي يليق بالنبي ﷺ ، ولو أسقط منها واحد لاختل الأمر .

ومن ذلك يظهر أن قول بعضهم : إن قوله : « فاصفح الصفح الجميل » منسوخ بآية السيف غير وجيه فإن هذا الصفح الذي تأمر به الآية ويفسره قوله : « لا تمدن عينيك » باق على إحكامه واعتباره حتى بعد نزول آية السيف فلا وجه لنسبة النسخ إليه .

قوله تعالى : « كما أنزلنا على المقتسمين الذين جعلوا القرآن عضين » قال في المجمع : عضين جمع عضة وأصله عضوة فنقصت الواو ولذلك جمعت عضين بالنون كما قيل : عزوة وعزون والأصل عزوة ، والتعضية : التفريق مأخوذ من الأعضاء يقال : عضيت الشيء أي فرقته وبعضته قال رؤبة : وليس دين الله بالمعضي ، انتهى موضع الحاجة .

وقوله : « كما أنزلنا على المقتسمين » لا يخلو السياق من دلالة على أنه متعلق بمقدّر يلوح إليه قوله : « وقل إني أنا النذير المبين » أي بعذاب منزل ينزل عليكم كما أنزلنا على المقتسمين ، والمراد بالمقتسمين هم الذين يصفهم قوله بعد : « الذين

جعلوا القرآن عظيمين « وهم على ما وردت به الرواية قوم من كفار قريش جزؤا القرآن أجزاءً فقالوا : سحر ، وقالوا : أساطير الأولين ، وقالوا : مفترى ، وتفرقوا في مداخل طرق مكة أيام الموسم يصدون الناس الواردين عن رسول الله ﷺ كما سيأتي في البحث الروائي إن شاء الله .

وقيل : قوله : « كما أنزلنا » متعلق بما تقدم من قوله : « ولقد آتيناك سبعاً من المثاني » أي أنزلنا عليك القرآن كما أنزلنا على المقتسمين ، والمراد بالمقتسمين اليهود والنصارى الذين فرقوا القرآن أجزاءً وأبعاضاً وقالوا نؤمن ببعض ونكفر ببعض .

وفيه أن السورة مكية نازلة في أوائل البعثة ولم يبتل الاسلام يومئذ باليهود والنصارى ذاك الابتلاء وقولهم : « آمنوا بالذي أنزل على الذين آمنوا وجه النهار واكفروا آخره » آل عمران : ٧٢ ، مما قالته اليهود بعد الهجرة وكذا ما أشبه ذلك ، والدليل على ما ذكرنا سياق الآيات .

وربما قيل : سموا مقتسمين لأنهم اقتسموا أنبياء الله وكتبه المنزلة اليهم فأمنوا ببعض وكفروا ببعض ، ويدفعه أن الآية التالية تفسر المقتسمين بالذين جعلوا القرآن عضين لا بالذين فرقوا بين أنبياء الله أو بين كتبه .

فالظاهر أن الآيتين تذكران قوماً نهضوا في أوائل البعثة على إطفاء نور القرآن وبعثوه أبعاضاً ليصدوا عن سبيل الله فأنزل الله عليهم العذاب وأهلكهم ، وهم الذين ذكروا في الآيتين ثم يذكر الله مآل أمرهم بقوله : « فوركك لأسألنهم أجمعين عما كانوا يعملون » .

قوله تعالى : « فاصدع بما تؤمر وأعرض عن المشركين » قال في الجمع : الصدع والفرق والفصل نظائر ، وصدع بالحق إذا تكلم به جهاراً ، انتهى .

والآية تفريع على ما تقدم ، ومن حقها أن تتفرع لأنها الغرض في الحقيقة من السورة أي إذا كان الأمر على ما ذكر وأمرت بالصفح الجميل وكنت نذيراً بعدابنا كما أنزلنا على المقتسمين فأظهر كلمة الحق وأعلن الدعوة .

وبذلك يظهر أن قوله : « إنا كفييناك المستهزئين » في مقام التعليل لقوله : « فاصدع » الخ ، كما يشعر الكلام أو يدل على أن هؤلاء المستهزئين هم المقتسمون

المذكورون قبل ، ومعنى الآية إذا كان الأمر كما ذكرناه و كنت فذيراً بعذابنا كما أنزلناه على المقتسمين « فاصدع بما تؤمر » وأعلن الدعوة وأظهر الحق « وأعرض عن المشركين إنا » أي لأننا « كفييناك المستهزئين » بأنزال العذاب عليهم وهم « الذين يعملون مع الله إلهاً آخر فسوف يعلمون » .

قوله تعالى : « ولقد نعلم أنك يضيق صدرك بما يقولون » رجع ثانياً إلى حزنه ^{عنه} وضيق صدره من استهزائهم لمزيد العناية بتسليته وتطيب نفسه وتقوية روحه ، وقد أكثر سبحانه في كلامه وخاصة في السور المكية من ذلك لشدة الأمر عليه ^{عليه} .

قوله تعالى : « فسبح بحمد ربك وكن من الساجدين واعبد ربك حتى يأتيك اليقين » وصاه سبحانه بالتسبيح والتحميد والسجدة والعبادة أو إدامة العبودية مفرغاً ذلك على ضيق صدره بما يقولون ففي ذلك استعانة على الغم والمصيبة ، وقد أمره في الآيات السابقة بالصفح والصبر ، ويستفاد الأمر بالصبر أيضاً من قوله : « واعبد ربك حتى يأتيك اليقين » فإن ظاهره الأمر بالصبر على العبودية حتى حين ، وبذلك يصير الكلام قريب المضمون من قوله تعالى لدفع الشدائد والمقاومة على مرّ الحوادث : « استعينوا بالصبر والصلاة » البقرة : ١٥٣ .

وبذلك يتأيد أن المراد بالساجدين المصلون وأنه أمر بالصلاة وقد سميت سجوداً تسمية لها باسم أفضل أجزائها ويكون المراد بالتسبيح والتحميد اللفظي منها كقول سبحانه الله والحمد لله أو ما في معناها نعم لو كان المراد بالصلاة في آية البقرة التوجه إلى الله سبحانه أمكن أن يكون المراد بالتسبيح والتحميد - أو بهما وبالسجود - المعنى اللغوي وهو تنزيهه تعالى عما يقولون والثناء عليه بما أنعم به عليه من النعم والتدلل له تدلل العبودية .

وأما قوله : « واعبد ربك حتى يأتيك اليقين » فإن كان المراد به الأمر بالعبادة كان كالمفسر للآية السابقة وإن كان المراد الأخذ بالعبودية - كما هو ظاهر السياق ، وخاصة سياق الآيات السابقة الآمرة بالصفح والإعراض ولازمها الصبر كان بقرينة تقييده بقوله : « حتى يأتيك اليقين » أمراً بانتهاج منهج التسليم والطاعة والقيام بلوازم العبودية .

وعلى هذا فالمراد بإتيان اليقين حلول الأجل ونزول الموت الذي يتبدّل به الغيب من الشهادة ويعود به الخبر عياناً ، ويؤيد ذلك تفريع ما تقدم من قوله : « فاصفح الصفح الجميل » على قوله : « وما خلقنا السماوات والأرض وما بينهما إلا بالحق وإن الساعة لآتية » فإنه بالحقيقة أمر بالعفو والصبر على ما يقولون لأن لهم يوماً ينتقم الله منهم ويحازيهم بأعمالهم فيكون معنى الآية دُم على العبوديّة واصبر على الطاعة وعن المعصية وعلى مرّة ما يقولون حتى يدركك الموت وينزل عليك عالم اليقين فتشاهد ما يفعل الله بهم ربك .

وفي التعبير بمثل قوله : « حتى يأتيك اليقين » إشعار أيضاً بذلك فإن العناية فيه بأن اليقين طالب له وسيدر كه فليعبد ربه حتى يدركه ويصل إليه ، وهذا هو عالم الآخرة الذي هو عالم اليقين العام بما وراء الحجاب دون الاعتقاد اليقيني الذي ربما يحصل بالنظر أو بالعبادة .

وبذلك يظهر فساد ما ربما قيل : إن الآية تدل على ارتفاع التكليف بحصول اليقين ، وذلك لأن المخاطب به النبي ﷺ وقد دلّت آيات كثيرة من كتاب الله أنه من الموقنين وأنه على بصيرة وأنه على بينة من ربه وأنه معصوم وأنه مهدي بهداية الله سبحانه إلى غير ذلك . مضافاً إلى ما قدّمناه من دلالة الآية على كون المراد باليقين هو الموت .

وسنفرد لدوام التكليف بحثاً عقلياً بعد الفراغ عن البحث الروائي إن شاء الله تعالى .

(بحث روائي)

في الدر المنثور أخرج ابن مردويه وابن النجار عن علي بن أبي طالب في قوله : « فاصفح الصفح الجميل » قال : الرضا بغير عتاب .

وفي الجمع حكى عن علي بن أبي طالب عليه السلام أن الصفح الجميل هو العفو من غير عتاب .

وفي العميون بإسناده عن علي بن الحسن بن فضال عن أبيه عن الرضا عليه السلام في

الآية قال : العفو من غير عتاب .

وفي التهذيب بإسناده عن محمد بن مسلم قال : سألت أبا عبد الله عليه السلام عن السبع المثاني والقرآن العظيم هي فاتحة الكتاب ؟ قال : نعم . قلت : بسم الله الرحمن الرحيم من السبع ؟ قال : نعم هي أفضلهن .

أقول : وهو مروي من طرق الشيعة عن أمير المؤمنين عليه السلام وغير واحد من أئمة أهل البيت عليهم السلام ، ومن طرق أهل السنة عن علي وعدة من الصحابة كعمر ابن الخطاب وعبد الله بن مسعود وابن عباس وأبي بن كعب وأبي هريرة وغيرهم .

وفي الدر المنثور أخرج الطبراني في الأوسط عن ابن عباس قال : سأل رجل رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال : رأيت قول الله : « كما أنزلنا على المقتسمين » ؟ قال : اليهود والنصارى . قال : « الذين جعلوا القرآن عضين » ؟ قال : آمنوا ببعض وكفروا ببعض .

أقول : وقد عرفت فيما مرّ أن مضمون الرواية لا يلائم كون السورة مكية . وفي تفسير العياشي عن زرارة وحران ومحمد بن مسلم عن أبي جعفر وأبي عبد الله عليهم السلام عن قوله : « الذين جعلوا القرآن عضين » قالوا : هم قريش .

وفي المعاني بإسناده عن عبد الله بن علي الحلبي قال : سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول : مكث رسول الله صلى الله عليه وسلم بمكة بعد ما جاء الوحي عن الله تبارك وتعالى ثلاث عشرة سنة مستخفياً منها ثلاث سنين خائفاً لا يظهر حتى أمر الله عز وجل أن يصدع بما أمر فأظهر حينئذ الدعوة .

وفي الدر المنثور أخرج ابن جرير عن أبي عبيدة أن عبد الله بن مسعود قال : ما زال النبي صلى الله عليه وسلم مستخفياً حتى نزل : « فاصدع بما تؤمر » فخرج هو وأصحابه .

وفي تفسير العياشي عن محمد بن علي الحلبي عن أبي عبد الله عليه السلام قال : اكتم رسول الله صلى الله عليه وسلم بمكة سنين ليس يظهر وعليّ معه وخديجة ثم أمره الله أن يصدع بما يؤمر فظهر رسول الله صلى الله عليه وسلم فجعل يعرض نفسه على قبائل العرب فإذا أقام قالوا : كذاب امض عنا .

وفي تفسير العياشي عن أبان بن عثمان الأحمر رفعه قال : كان المستهزؤون خمسة

من قريش : الوليد بن المغيرة المخزومي والعاص بن وائل السهمي والحارث بن حنظلة (١) والأسود بن عبد يغوث بن وهب الزهري والأسود بن المطلب بن أسد ، فلما قال الله : «إنا كفييناك المستهزئين» علم رسول الله ﷺ أنه قد أخزاهم فأماهم الله بشراً ميتات .

أقول : ورواه الصدوق في المعاني بإسناده عن أبان وروى فيه أيضاً والطبرسي في الاحتجاج عن موسى بن جعفر عن آبائه عن علي عليهم السلام ما في هذا المعنى وهو حديث طويل فيه تفصيل هلاك كل من هؤلاء الخمسة لعنهم الله ، وروى كون المستهزئين خمسة من قريش عن علي وعن ابن عباس مع سبب هلاكهم .

والروايات مع ذلك مختلفة من طرق أهل السنة من جهة عددهم وأسمائهم وأسباب هلاكهم ، والذي اتفق فيه حديث الفريقين هو ما قدّمناه .

وفي الدر المنثور أخرج ابن مردويه والديلمي عن أبي الدرداء سمعت رسول الله ﷺ يقول : ما أوحى إليّ أن أكون تاجراً ولا أجمع المال متكاثراً ولكن أوحى إليّ : أن سبّح بحمد ربك وكن من الساجدين واعبد ربك حتى يأتيك اليقين .

أقول : وروى ما في معناه أيضاً عن ابن مردويه عن ابن مسعود عنه ﷺ . وفيه أخرج البخاري وابن جرير عن أم العلاء أن رسول الله ﷺ دخل على عثمان ابن مظعون وقد مات فقلت : رحمة الله عليك أبا السائب فشهادتي عليك لقد أكرمك الله فقال : وما يدريك أن الله أكرمه ؟ أما هو فقد جاءه اليقين إني لأرجو له الخير .

وفي الكافي بإسناده عن حفص بن غياث قال : قال أبو عبد الله عليه السلام : إن من صبر قليلاً ومن جزع جزع قليلاً .

ثم قال : عليك بالصبر في جميع أمورك فإن الله عز وجل بعث محمداً وأمره بالصبر والرفق فقال : « واصبر على ما يقولون واهجرهم هجراً جميلاً وذرني والمكذابين أولي النعمة » وقال تبارك وتعالى : « ادفع بالتي هي أحسن السيئة فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم » وما يلقاها إلا الذين صبروا وما يلقاها إلا ذو حظ عظيم .

فصبر رسول الله ﷺ حتى نالوه بالعظام ورموه بها وضاق صدره وقال الله :
« ولقد نعلم أنك يضيق صدرك بما يقولون فسبح بحمد ربك وكن من الساجدين » .

(بحث فلسفي في كيفية وجود التكليف ودوامه)

قد تقدم في خلال أبحاث النبوة وكيفية انتشاء الشرائع السماوية في هذا الكتاب أن كل نوع من أنواع الموجودات له غاية كمالية هو متوجه إليها ساعٍ نحوها طالب لها بحركة وجودية تناسب وجوده لا يسكن عنها دون أن ينالها إلا أن يمنعه عن ذلك مانع مزاحم فيبطل دون الوصول إلى غايته كالشجرة تقف عن الرشد والنمو قبل أن تبلغ غايتها لآفات تعرضها ، وتقدم أيضاً أن الحرمان من بلوغ الغايات إنما هو في أفراد خاصة من الأنواع وأما النوع بنوعيته فلا يتصور فيه ذلك .

وأن الإنسان وهو نوع وجودي له غاية وجودية لا ينالها إلا بالاجتماع المدني كما يشهد به تجهيز وجوده بما لا يستغني به عن سائر أمثاله كالذكورة والانوثة والمواطف والاحساسات وكثرة الحوائج وتراكبها .

وأن تحقق هذا الاجتماع وانعقاد المجتمع الإنساني يحوج أفراد المجتمع إلى أحكام وقوانين ينتظم باحترامها والعمل بها شتات أمورهم ويرتفع بها اختلافاتهم الضرورية ويقف بها كل منهم في موقفه الذي ينبغي له ويحوز بها سعادته وكمال الوجودي ، وهذه الأحكام والقوانين العملية في الحقيقة منبعثة عن الحوائج التي تهتف بها خصوصية وجود الإنسان وخلقته الخاصة بها لها من التجهيزات البدنية والروحية ، كما أن خصوصية وجوده وخلقته مرتبطة بخصوصيات العلل والأسباب التي تكون وجود الإنسان من الكون العام .

وهذا معنى كون الدين فطرياً أي أنه مجموع أحكام وقوانين يرشد إليها وجود الإنسان بحسب التكوين وإن شئت فقل : سنن يستدعيها الكون العام فلو أقيمت أصلحت المجتمع وبلغت بالأفراد غايتها في الوجود وكمالها المطلوب ولو تركت وأبطلت أفسدت العالم الإنساني وزاحمت الكون العام في نظامه .

وأن هذه الأحكام والقوانين سواء كانت معاملية اجتماعية تصلح بها حال المجتمع

ويجمع بها شمله أو عبادية تبلغ بالإنسان غاية كماله من المعرفة والصلاح في مجتمع صالح فإنها جميعاً يجب أن يتلقاها الإنسان من طريق نبوة إلهية ووحى سماوي لا غير .

وبهذه الأصول الماضية يتبين أن التكليف الإلهي يلزم الإنسان ما عاش في هذه النشأة الدنيوية سواء كان في نفسه ناقصاً لم يكمل وجوداً بعد أو كاملاً علماً وعملاً : أما لو كان ناقصاً فظاهر ، وأما لو كان كاملاً فلأن معنى كماله أن يحصل له في جانبي العلم والعمل ملكات فاضلة يصدر عنها من الأعمال المعاملية ما يلزم المجتمع ويصلحه ويتمكن من كمال المعرفة وصدور الأعمال العبادية الملائمة للمعرفة كما تقتضيه العناية الإلهية الهادية للإنسان إلى سعاده .

ومن المعلوم أن تجويز ارتفاع التكليف عن الإنسان الكامل ملازم لتجويز تخلفه عن الأحكام والقوانين وهو فيما يرجع إلى المعاملات يوجب فساد المجتمع والعناية الإلهية تأباه . وفيما يرجع إلى العبادات يوجب تخلف الملكات عن آثارها فإن الأفعال مقدمات معدة لحصول الملكات ما لم تحصل ، وإذا حصلت عادت تلك الأفعال آثاراً لها تصدر عنها صدوراً لا تخلف فيه .

ومن هنا يظهر فساد ما رتبنا يتوهم أن الغرض من التكليف تكميل الإنسان وإيصاله غاية وجوده فإذا كمل لم يكن لبقاء التكليف معنى .

وجه الفساد : أن تخلف الإنسان عن التكليف الإلهي وإن كان كاملاً ، في المعاملات يفسد المجتمع وفيه إبطال العناية الإلهية بالنوع ، وفي العبادات يستلزم تخلف الملكات عن آثارها ، وهو غير جائز ، ولو جاز لكان فيه إبطال الملكة وفيه أيضاً إبطال العناية . نعم بين الإنسان الكامل وغيره فرق في صدور الأفعال وهو أن الكامل مصون عن المخالفة لمكان الملكة الراسخة بخلاف غير الكامل والله المستعان .

(سورة النحل مكية ، وهي مائة وثمان وعشرون آية)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

أَتَى أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ - ١ .
يُنْزِلُ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ أَنْذِرُوا
أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ - ٢ . خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ
تَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ - ٣ . خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ
مُبِينٌ - ٤ . وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ - ٥ .
وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ - ٦ . وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ
إِلَى بَلَدٍ لَمْ تَكُونُوا بِالْغِيَةِ إِلَّا لِيُبْشِقَ الْإِنْسَانُ إِنَّ رَبَّكُمْ لَوُفٌ رَحِيمٌ - ٧ .
وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ - ٨ .
وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ وَمِنْهَا جَايزٌ وَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ - ٩ .
هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ
تَسِيمُونَ - ١٠ . يُنْبِتُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ
وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ - ١١ . وَسَخَّرَ
لَكُمْ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ إِنَّ فِي
ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ - ١٢ . وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُخْتَلِفًا

أَلْوَانُهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ - ١٣ . وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ
 الْبَحْرَ لِنَآكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى
 الْفُلْكَ مَوَاحِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ - ١٤ .
 وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَارًا وَسُبُلًا لَعَلَّكُمْ
 تَهْتَدُونَ - ١٥ . وَعَلَامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ - ١٦ . أَفَمَنْ يَخْلُقُ
 كَمَنْ لَا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ - ١٧ . وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا
 إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ - ١٨ . وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ - ١٩ .
 وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ - ٢٠ .
 أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ - ٢١ .

(بيان)

الغالب على الظن - إذا تدبرنا السورة - أن صدر السورة مما نزلت في أواخر
 عهد النبي ﷺ بمكة قبيل الهجرة ، وهي أربعون آية يذكر الله سبحانه في شطر
 منها أنواع نعمه السماوية والأرضية مما تقوم به حياة الإنسان وينتفع به في معاشه نظاماً
 متقناً وتديراً متصلاً يدل على وحدانيته تعالى في ربوبيته .

ويحتج في شطر آخر على بطلان مزاعم المشركين وخيبة مساعيهم وأنه سيجازيهم
 كما جازى أمثالهم من الأمم الماضية وسيفصل القضاء بينهم يوم القيامة .

وقد افتتح سبحانه هذه الآيات بقوله : « أتى أمر الله فلا تستعجلوه سبحانه
 وتعالى عما يشركون » مفرعاً آيات الاحتجاج على ما فيه من التنزيه والتسبيح ومن ذلك
 يعلم أن عمدة الغرض في صدر السورة الإنباء بإشراف الأمر الإلهي ودنوه منهم وقرب

نزوله عليهم ، وفيه إبعاد للمشركين فقد كانوا يستعجلون النبي ﷺ - استهزاء به - لما كانوا يسمعون كلام الله سبحانه يذكر كثيراً نزول أمره تعالى وينذروهم به وفيه مثل قوله للمؤمنين : « فاعفوا واصفحوا حتى يأتي الله بأمره » وليس إلا أمره تعالى بظهور الحق على الباطل والتوحيد على الشرك والإيمان على الكفر ، هذا ما يعطيه التدبر في صدر السورة .

وأما ذيلها وهي ثمان وثمانون آية من قوله : « والذين هاجروا في الله من بعد ما ظلموا » إلى آخر السورة على ما بينها من الاتصال والارتباط فسياق الآيات فيه يشبه أن تكون مما نزلت في أوائل عهد النبي ﷺ بالمدينة بعيد الهجرة - فصدر السورة وذيلها متقاربا النزول - وذلك لما فيها من آيات لا تنطبق مضامينها إلا على بعض الحوادث الواقعة بعيد الهجرة كقوله تعالى : « والذين هاجروا في الله » الآية ، وقوله : « ولقد نعلم أنهم يقولون إنما يعلمه بشر » الآية النازلة على قول في سلمان الفارسي وقد آمن بالمدينة ، وقوله : « من كفر بالله من بعد إيمانه إلا من أكره » الآية النازلة في عمار - كما سيأتي - وكذا الآيات النازلة في اليهود والآيات النازلة في الأحكام كل ذلك يفيد الظن بكون الآيات مدنية .

ومع ذلك فاختلاف النزول لائح من بعضها كقوله : « والذين هاجروا » الخ الآية ٤١ ، وقوله : « وإذا بدلنا آية مكان آية » الآية ١٠١ إلى تمام آيتين أو خمس آيات ، وقوله : « من كفر بالله من بعد إيمانه » الآية ١٠٦ وعدة آيات تتلوها .

والإنصاف - بعد ذلك كله - أن قوله تعالى : « والذين هاجروا » الآية ٤١ إلى تمام آيتين ، وقوله : « من كفر بالله من بعد إيمانه » الآية ١٠٦ وبضع آيات بعدها ، وقوله : « وإن عاقبتم فعاقبوا » الآية ١٣٦ وآيتان بعدها مدنية لشهادة سياقها بذلك ، والباقي أشبه بالمدنية منها بالمدينة . وهذا وإن لم يوافق شيئاً من المأثور لكن السياق يشهد به وهو أولى بالاتباع . وقد مرّ في تفسير آية ١١٨ من سورة الأنعام احتمال أن تكون نازلة بعد سورة النحل وهي مكية . والغرض الذي هو كالجامع لآيات ذيل السورة أن فيها أمراً بالصبر ووعداً حسناً على الصبر في ذات الله .

وغرض السورة الإخبار بإشراف أمر الله وهو ظهور الدين الحق عليهم ، ويوضح

تعالى ذلك ببيان أن الله هو الإله المعبود لا غير لقيام تدبير العالم به ، كما أن الحلقة قائمة به ولا انتهاء جميع النعم اليه ، وانتفاء ذلك عن غيره ، فالواجب أن يعبد الله ولا يعبد غيره ، وبيان أن الدين الحق لله فيجب أن يؤخذ به ولا يشرع دونه دين ورد ما أبداه المشركون من الشبهة على النبوة والتشريع وبيان أمور من الدين الإلهي .

هذا هو الذي يرومه معظم آيات السورة وتتعطف إلى بيانه مرة بعد مرة وفي ضمنها آيات تتعرض لأمر الهجرة وما يناسب ذلك مما يحوم حولها .

قوله تعالى : « أتى أمر الله فلا تستعجلوه سبحانه وتعالى عما يشركون » ظاهر السياق أن الخطاب للمشركين لأن الآيات التالية مسوقة احتجاجاً عليهم ، إلى قوله في الآية الثانية والعشرين : « إلهكم إله واحد » ووجه الكلام فيها إلى المشركين ، وهي جميعاً كالمترعة على قوله في ذيل هذه الآية : « سبحانه وتعالى عما يشركون » ومقتضاه أن يكون الأمر الذي أخبر بإتيانه أمراً يطهر ساحة الربوبية من شركهم بحسم مادته ، ولم تقع في كلامه حكاية استعجال من المؤمنين في أمر ، بل المذكور استعجال المشركين بما كان يذكر في كلامه تعالى من أمر الساعة وأمر الفتح وأمر نزول العذاب ، كما يشير إليه قوله : « قل أرأيتم إن أتاكم عذابه بياتاً أو نهاراً ماذا يستعجل منه المجرمون - إلى قوله - يستنبئونك أحق هو قل إني وربي إنه لحق وما أنتم بمعجزين » يونس : ٥٣ إلى غير ذلك من الآيات .

وعلى هذا فالمراد بالأمر ما وعد الله النبي ﷺ والذين آمنوا وأوعد المشركين مرة بعد مرة في كلامه أنه سينصر المؤمنين ويخزي الكافرين ويعذبهم ويظهر دينه بأمر من عنده كما قال : « فاعفوا واصفحوا حتى يأتي الله بأمره » البقرة : ١٠٩ . واليه يعود أيضاً ضمير « فلا تستعجلوه » على ما يفيد السياق أو يكون المراد بإتيان الأمر إشرافه على التحقق وقربه من الظهور ، وهذا شائع في الكلام يقال لمن ينتظر ورود الأمير : هذا الأمير جاء وقد دنا بحبسه ولم يجيء بعد .

وعلى هذا أيضاً يكون قوله : « سبحانه وتعالى عما يشركون » من قبيل الالتفات من الخطاب إلى الغيبة إشارة إلى أنهم ينبغي أن يعرض عن مخاطبتهم ومشافهتهم لانحطاط أفهامهم لشركهم ولم يستعجلوا نزول الأمر إلا لشركهم استهزاء وسخرية .

وبما مر يندفع ما ذكره بعضهم أن الخطاب في الآية للمؤمنين أو للمؤمنين والمشركون جميعاً فإن السياق لا يلائمه .

على أنه تعالى يخص في كلامه الاستعجال بغير المؤمنين وينفيه عنهم قال : « يستعجل بها الذين لا يؤمنون بها والذين آمنوا مشفقون منها ويعلمون أنها الحق » الشورى : ١٨ .

وكذا ما ذكره أن المراد بالأمر هو يوم القيامة وذلك أن المشركون وإن كانوا يستعجلونه أيضاً كما يدل عليه قولهم على ما حكاه الله تعالى : « متى هذا الوعد إن كنتم صادقين » يس : ٤٨ لكن سياق الآيات لا يساعد عليه كما عرفت .

ومن العجيب ما استدل به جمع منهم على أن المراد بالأمر يوم القيامة أنه تعالى لما قال في آخر سورة الحجر : « فوريك لنسألهم أجمعين » وكان فيه تنبيه على حشر هؤلاء وسؤالهم قال في مفتتح هذه السورة : « أتى أمر الله » فأخبر بقرب يوم القيامة وكذا قوله في آخر الحجر : « واعبد ربك حتى يأتيك اليقين » وهو مفسر بالموت شديد المناسبة بأن يكون المراد بالأمر في هذه السورة يوم القيامة وبما يؤكد المناسبة قوله هناك : « يأتيك » وههنا : « أتى » . وأمثال هذه الأقاويل الملفقة بما لا ينبغي أن يلتفت إليه .

ونظيره قول بعضهم : إن المراد بالأمر واحدة الأوامر ومعناه الحكم كأنه يشير به إلى ما في السورة من أحكام العهد واليمين ومحرمات الأكل وغيرها ، والخطاب على هذا للمؤمنين خاصة وهو كما ترى .

قوله تعالى : « ينزل الملائكة بالروح من أمره على من يشاء من عباده » إلى آخر الآية . الناس على اختلافهم الشديد قديماً وحديثاً في حقيقة الروح لا يختلفون في أنهم يفهمون منه معنى واحداً وهو ما به الحياة التي هي ملاك الشعور والارادة فهذا المعنى هو المراد في الآية الكريمة .

وأما حقيقته إجمالاً فالذي يفيد مثل قوله تعالى : « يوم يقوم الروح والملائكة صفاً » النبأ : ٣٨ ، وقوله : « تعرج الملائكة والروح إليه » المعارج : ٤ وغيرهما أنه موجود مستقل ذو حياة وعلم وقدرة وليس من قبيل الصفات والأحوال القائمة بالأشياء

كما ربما يتوهم ، وقد أفاد بقوله : « قل الروح من أمر ربي » أنه من سنخ أمره ، وعرف أيضاً أمره بمثل قوله : « إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون فسبحان الذي بيده ملكوت كل شيء » ، يس : ٨٣ ، فدل على أنه كلمة الإيجاد التي يوجد سبحانه بها الأشياء أي الوجود الذي يفيض عليها لكن لا من كل جهة بل من جهة استناده إليه تعالى بلا مادة ولا زمان ولا مكان كما يفيد قوله : « وما أمرنا إلا واحدة كلمح بالبصر » القمر : ٥٠ فإن هذا التعبير إنما يورد فيما لا تدريج فيه أي لا مادة ولا حركة له ، وليكن هذا الإجمال عندك حتى يرد عليك تفصيله فيما سيأتي إن شاء الله في تفسير سورة الإسراء .

فتحصل أن الروح كلمة الحياة التي يلقيها الله سبحانه إلى الأشياء فيحييها بمشيئته ، ولذلك سمّاه وحياً وعدّ إلقاءه وإنزاله على نبيّه إحياء في قوله : « وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا » الشورى : ٥٢ ، فإن الوحي هو الكلام الحقي والتفهم بطريق الإشارة والإيماء فيكون إلقاء كلمته تعالى - كلمة الحياة - إلى قلب النبي ﷺ وحياً للروح اليه ، فافهم ذلك .

فقوله تعالى : « ينزل الملائكة بالروح من أمره » الباء للمصاحبة أو للسببية ولا كثير تفاوت بينها في المآل كما هو ظاهر عند المأمل فإن تنزيل الملائكة بمصاحبة الروح إنما هو لإلقائه في روع النبي ﷺ ليفيض عليه المعارف الإلهية وكذا تنزيلهم بسبب الروح لأن كلمته تعالى أعني كلمة الحياة تحكم في الملائكة وتحبيهم كما تحكم في الإنسان وتحبيهم ، وضمير « ينزل » له تعالى والجملة استئناف تفيد تعليل قوله في الآية السابقة : « سبحانه وتعالى عما يشركون » .

والمعنى : أن الله منزّه ومتعالٍ عن شركهم أو عن الشريك الذي يدعون له ولتنزّهه وتعاليه عن الشريك ينزل سبحانه الملائكة بمصاحبة الروح الذي هو من سنخ أمره وكلمته في الإيجاد - أو بسببه - على من يشاء من عباده أن أنذروا أنه لا إله إلا أنا فاتقون .

وذكر بعضهم أن المراد بالروح الوحي أو القرآن وسمي روحاً لأن به حياة القلوب ، كما أن الروح الحقيقي به حياة الأبدان . قال : وقوله : « من أمره » أي

بأمره ، ونظيره قوله : « يحفظونه من أمر الله » أي بأمر الله لأن أحداً لا يحفظه عن أمره ، انتهى .

أما قوله : « إن من » في قوله « من أمره » بمعنى البساء امتداداً إلى قوله : « يحفظونه من أمر الله » أي بأمر الله الخ ، فقد مرّ في تفسير سورة الرعد أن « من » على ظاهر معناه وأن بعض أمره تعالى يحفظ الأشياء من بعض أمره فلا وجه لأخذ « من أمره » بمعنى « بأمره » بل قوله « بالروح من أمره » معناه بالروح الكائن من أمره - على أن الظرف مستقر لا لغو - كما في قوله : « قل الروح من أمر ربي » ومعناه ما تقدم .

وأما قوله : إن الروح بمعنى الوحي أو القرآن وكذا قول بعضهم : إنه بمعنى النبوة فلا يخلو عن وجه بحسب النتيجة بمعنى أن نتيجة نزول الملائكة بالروح من أمره هو الوحي أو النبوة ، وأما في نفسه وهو أن يسمى الوحي أو النبوة روحاً باشتراك لفظي أو مجازاً من حيث إنه يحيي القلوب ويعمرها ، كما أن الروح به حياة الأبدان وعمارتها فهو فاسد لما بيّناه مراراً أن الطريق إلى تشخيص مصاديق الكلمات في كلامه تعالى هو الرجوع إلى سائر ما يصلح من كلامه لتفسيره دون الرجوع إلى العرف وما يراه في مصاديق الألفاظ .

والمتحصل من كلامه سبحانه أن الروح خلق من خلق الله وهو حقيقة واحدة ذات مراتب ودرجات مختلفة منها ما في الحيوان وغير المؤمنين من الإنسان ومنها ما في المؤمنين من الإنسان ، قال تعالى : « وأيدهم بروح منه » المجادلة : ٢٢ ، ومنها ما يتأيد به الأنبياء والرسل كما قال « وأيدناه بروح القدس » البقرة : ٨٧ ، وقال : « وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا » الشورى : ٥٢ على ما سيأتي تفصيله إن شاء الله .

هذا ما تفيده الآيات الكريمة وأما أن إطلاق اللفظ على هذا المعنى هل هي حقيقة أو مجاز وما أمعنوا في البحث أنه من الاستعارة المصروفة أو استعارة بالكناية أو أن قوله : « بالروح من أمره » من قبيل التشبيه لذكر المشبه صريحاً بناء على كون « من » في قوله : « من أمره » بيانية كما صرحوا في قوله : « حتى يتبين لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر » البقرة : ١٨٧ أنه من التشبيه للتصريح بالمشبه

في متن الكلام فكل ذلك من الأبحاث الأدبية الفنية التي ليس لها كثير تأثير في الحصول على الحقائق .

وذكر بعضهم أن « من أمره » بيان للروح ، و « من » للتبيين ، والمراد بالروح الوحي ، كما تقدم .

وفيه أنه مدفوع بقوله تعالى : « قل الروح من أمر ربي » فإن من الواضح أن الآيتين تسلكان مسلكاً واحداً ، وظاهر آية الإسراء أن « من » فيها للابتداء أو للنشوء ، والمراد بيان أن الروح من سنخ الأمر وشأن من شأنه ويقرب منها قوله تعالى : « تنزل الملائكة والروح فيها بإذن ربهم من كل أمر » القدر : ٤ .

وذكر بعضهم أن المراد بالروح هو جبريل وأيده بقوله : « نزل به الروح الأمين على قلبك » الشعراء : ١٩٤ ، فإن من المسلم أن المراد به في الآية ، هو جبريل والباء للمصاحبة والمراد بالملائكة ملائكة الوحي وهم أعوان جبريل ، والمراد بالأمر واحد الأوامر ، والمعنى ينزل تعالى ملائكة الوحي بمصاحبة جبريل بأمره وإرادته .

وفيه أن هذه الآية نظيرة قوله تعالى : « يلقي الروح من أمره على من يشاء من عباده لينذر يوم التلاق » المؤمن : ١٥ ، وظاهره لا يلائم كون المراد بالروح هو جبريل . وأردء الوجوه ما ذكره بعضهم أن المراد بالروح أرواح الناس لا ينزل ملك إلا ومعه واحد من الأرواح ، وهو منقول عن مجاهد ، وفساده ظاهر

وقوله : « على من يشاء من عباده » أي إن بعث الرسل وتنزيل الملائكة بالروح من أمره عليهم متوقف على مجرد المشية الإلهية من غير أن يقهره تعالى في ذلك قاهر غيره فيجبره على الفعل أو يمنعه من الفعل كما في سائر أفعاله تعالى فإنه تعالى يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد .

فلا ينافي ذلك كون فعله ملازماً لحكم ومصالح ومختلفاً باختلاف الاستعدادات لا يقع إلا عن استعداد في الحل وصلاحية للقبول فإن استعداد المستعد ليس إلا كسؤال السائل ، فكما أن سؤال السائل إنما يقربه من جود المسؤل وعطائه من غير أن يجبره على الإعطاء ويقهره ، كذلك الاستعداد في تقريبه المستعد لإفاضته تعالى وحرمان غير المستعد من ذلك فهو تعالى يفعل ما يشاء من غير أن يوجب عليه شيء أو يمنعه عنه شيء

لكنه لا يفعل شيئاً ولا يفيض رحمة إلا عن استعداد فيما يفيض عليه وصلاحيته منه .
وقد أفاد ذلك في خصوص الرسالة حيث قال : « وإذا جاءتهم آية قالوا لن
نؤمن حتى نؤتى مثل ما أوتي رسل الله » ، الله أعلم حيث يجعل رسالته سيصيب الذين
أجروا صغار عند الله وعذاب شديد بما كانوا يمكرون » الأنعام : ١٢٤ ، فإن الآية
ظاهرة في أن الموارد مختلفة في قبول كرامة الرسالة وأن الله سبحانه أعلم بالموارد الذي
يصلح لها ويستأهل لتلك الكرامة وهو غير هؤلاء المجرمين الماكرين وأما هم فليس لهم
عند الله إلا الصغار والعذاب لإجرامهم ومكرهم . هذا .

ومن هنا يظهر فساد استدلال بعضهم بالآية على نفى المرجح في مورد الرسالة
ومحصل ما ذكره أن الآية تعلق الرسالة على مجرد المشية الإلهية من غير أن تقيد بها
بشيء ، فالرسول إنما ينال الرسالة بمشية من الله لا لاختصاصه بصفات تؤهله لذلك
ويرجح على غيره ووجه الفساد ظاهر مما تقدم .

ونظيره في الفساد الاستدلال بالآية على كون الرسالة عطائية غير كسبية ، وذلك
أنه تعالى غير محكوم عليه في ما ينسب إليه من الفعل لا يفعل إلا ما يشاء ، والأمور
العطائية والكسبية في ذلك سواء ، ولا شيء يقع في الوجود إلا بإذنه .

وقوله : « أن أنذروا أنه لا إله إلا أنا فاتقون » بيان لقوله : « ينزل الملائكة
بالروح » لكونه في معنى الوحي أو بيان للروح بناء على كونه بمعنى الوحي ، والإنذار
هو إخبار فيه تحذير ، كما أن التبشير هو إخبار فيه سرور على ما ذكره الراغب
أو إعلام بالمحذور كما ذكره غيره ، والتقدير على الأول أخبروهم بخوفين بوجداني في
الالوهية ووجوب تقواي ، وعلى الثاني أعلموهم ذلك ، على أن يكون « أنه » مفعولاً
ثانياً لا منصوباً بنزع الخافض .

وقد علم بذلك أن قوله : « فاتقون » متفرع على قوله : « لا إله إلا أنا »
والجملتان جميعاً مفعول ثان أو في موضعه لقوله : « أنذروا » ويوضح ذلك أن لا إله
وهو الذي يبتدىء منه وينتهي إليه كل شيء أو المعبود بالحق من لوازم صفة ألوهيته أن
يتقبه الإنسان لتوقف كل خير وسعادة إليه ، فلو فرض أنه واحد لا شريك له في

ألوهيته كان لازمه أن يتقى وحده لأن التقوى وهو إصلاح مقام العمل فرع لما في مقام الاعتقاد والنظر ، فعبادة الآلهة الكثيرين والخضوع لهم لا يجامع الاعتقاد بإله واحد لا شريك له الذي هو القيوم على كل شيء وبيده زمام كل أمر ، ولذا لم يؤمر نبي أن يدعو إلى توحيد من غير عمل أو إلى عمل من غير توحيد ، قال تعالى : « وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون » الأنبياء : ٢٥ .

فالذي أمر الرسل بالإنذار به في الآية هو مجموع قوله : « أنه لا إله إلا أنا فائقون » وهو تمام الدين لاندراج الاعتقادات الحققة في التوحيد والأحكام العملية جميعاً في التقوى ، ولا يعبر بها ذكره بعضهم أن قوله : « فائقون » للمستعجلين من الكفار المذكورين في الآية الأولى أو لخصوص كفار قريش من غير أن يكون داخلاً فيما أمر به الرسل من الإنذار .

قوله تعالى : « خلق السماوات والأرض بالحق تعالى عما يشركون » تقدم معنى خلق السماوات والأرض بالحق ، ولازم خلقها بالحق أن لا يكون للباطل فيها أثر ، ولذلك عقبه بتنزيهه عن الشركاء الذين يدعونهم ليشفعوا لهم عند الله ويهدوهم إلى الخير ويقوهم الشر فإنهم من الباطل الذي لا أثر له .

وفي الآية والآيات التالية لها احتجاج على وحدانيته تعالى في الألوهية والربوبية من جهتي الخلق والتدبير جميعاً فإن الخلق والإيجاد آية الألوهية وكون الخلق بعضها نعمة بالنسبة إلى بعض آية الربوبية لأن الشيء لا يكون نعمة بالنسبة إلى آخر إلا عن ارتباط بينهما واتصال من أحدهما بالآخر يؤدي إلى نظام جامع بينهما وتدبير واحد يجمعها ، ووحدة التدبير آية وحدة المدبر فكأن ما في السماوات والأرض من مخلوق نعماً للإنسان يدل على أن الله سبحانه وحده ربه ورب كل شيء .

قوله تعالى : « خلق الإنسان من نطفة فإذا هو خصيم مبين » المراد به الخلق الجاري في النوع الإنساني وهو جعل نسله من النطفة فلا يشمل آدم وعيسى عليها السلام .

والخصيم صفة مشبهة من الخصومة وهي الجدال ، والآية وإن أمكن أن تحمل على الامتنان حيث إن من عظيم المن أن يبدل الله سبحانه بقدرته الثامة قطرة من ماء مهين إنساناً كاملاً الخلق منطقاً متكلاً ينبيء عن كل ما جلّ ودقّ ببيانه البليغ لكن كثرة

الآيات التي توبّخ الإنسان وتقرّعه على وقاحته في خصامه في ربه كقوله تعالى : « أولم يرَ الإنسان أننا خلقناه من نطفة فإذا هو خصيم مبين » وضرب لنا مثلاً ونسي خلقه قال من يحيي العظام وهي رميم » يس : ٧٨ ترجّح أن يكون المراد بذيل الآية بيان وقاحة الإنسان .

ويؤيد ذلك أيضاً بعض التأييد ما في ذيل الآية السابقة من تنزيه تعالى من شركهم .

قوله تعالى : « والأنعام خلقها لكم فيها دَفءٌ ومنافع ومنها تأكلون » الأنعام جمع نعم وهي الإبل والبقر والغنم سُميت بذلك لنعمة مسّها بخلاف الحافر الذي يصلب كذا في الجمع ، وفي المفردات : الدَفء خلاف البرد . انتهى . وكأن المراد بالدَفء ما يحصل من جلودها وأصوافها وأوبارها من الحرارة للإتقاء من البرد، أو المراد بالدَفء ما يدفؤ به .

والمراد بالمنافع سائر ما يستفاد منها لغير الدَفء من أصوافها وأوبارها وجلودها وألبانها وشحومها وغير ذلك ، وقوله : « لكم » يمكن أن يكون متعلقاً بقوله : « خلقها » ويكون قوله : « فيها دَفءٌ ومنافع » حالاً من ضمير « خلقها » ويمكن أن يكون « لكم » ظرفاً مستقراً متعلقاً بالجملة الثانية أي في الأنعام دَفءٌ كائناً لكم .

قوله تعالى : « ولكم فيها جمال حين تريحون وحين تسرحون » الجمال الزينة وحسن المنظر ، قال في الجمع : الإراحة ردّ الماشية بالعشي من مراعيها إلى منازلها والمكان الذي تراح فيه مراح ، والسروح خروج الماشية إلى المرعى بالغداة ، يقال : سرحت الماشية سرحاً وسروحاً وسرحها أهلها . انتهى .

يقول تعالى : « ولكم في الأنعام منظر حسن حين تردّونها بالعشي » إلى منازلها وحين تخرجونها بالغداة إلى مراعيها .

قوله تعالى : « وتحمل أثقالكم إلى بلد لم تكونوا بالغيه إلا بشقّ الأنفس إن ربكم لرؤوف رحيم » الأثقال جمع ثقل وهو المتاع الذي يثقل حمله ، والمراد بقوله : « بشقّ الأنفس » مشقة تحمّلها الأنفس في قطع المسافات البعيدة والمسالك الصعبة .

والمراد أن الأنعام كالإبل وبعض البقر تحمل أمتعتكم الثقيلة إلى بلد ليس يتيسر

لكم بلوغها إلا بمشقة تتحملها أنفسكم فرفع عنكم المشاق بخلقها وتسخيرها لكم إن ربكم رؤوف رحيم .

قوله تعالى : « والخيول والبغال والحمر لتركبوها وزينة » ويخلق ما لا تعلمون ، معطوف على الأنعام فيما مرّ أي والخيول والبغال والحمر خلقها لكم لتركبوها ، وزينة أي إن في خلقها ارتباطاً بمنافعكم وذلك أنكم تركبوها وتتخذونها زينة وجمالاً ، وقوله : « ويخلق ما لا تعلمون » أي يخلق ما لا علم لكم به من الحيوان وغيره ، وسخرها لكم لتنتفعوا بها ، والدليل على ما قدرناه هو السياق .

قوله تعالى : « وعلى الله قصد السبيل ومنها جائر ولو شاء لهداكم أجمعين » القصد - على ما ذكره الراغب وغيره - استقامة الطريق وهو كونه قِيَمًا على سالكه يوصلهم إلى الغاية ، والظاهر أن المصدر بمعنى الفاعل والإضافة من إضافة الصفة إلى موصوفها والمراد السبيل القاصد بدليل مقابله بقوله : « ومنها جائر » أي ومن السبيل ما هو جائر أي مائل عن الغاية يورد سالكه غيرها ويضلهم عنها .

والمراد بكون قصد السبيل على الله وجوب جعل سبيل قاصد عليه تعالى يسلكه عباده فيوردهم مورد السعادة والفلاح وإذ لا حاكم غيره يحكم عليه فهو الذي أوجب على نفسه أن يجعل لهم طريقاً هذا نعمته ثم يهديهم إليه أما الجعل فهو ما جهز الله كل موجود ومنها الإنسان من القوى والأدوات بما لو استعملها كما نظمت أدته إلى سعاده وكماله المطلوب قال تعالى : « الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى » طه : ٥٠ ، وقال في الإنسان خاصة : « فأقم وجهك للدين حنيفاً فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله » الروم : ٣٠ .

وأما الهداية فهي التي فعلها من ناحية الفطرة وتناها بما من طريق بعث الرسل وإنزال الكتب وتشريع الشرائع ، قال تعالى : « ونفس وما سواها فألهمها فجورها وتقواها » الشمس : ٨ ، وقال : « إنا هديناه السبيل إما شاكراً وإما كفوراً » الدهر : ٣ .

وإنما أدرج سبحانه هذه الآية بين هذه الآيات التي سياقها عد النعم العلوية والسفلية من السماء والأرض والأنعام والخيول والبغال والحمر والماء النازل من السماء والزرع ونظائرها لما أن الكلام المنجر في آيتي الأنعام والخيول إلى معنى قطع الطرق

وركوب المراكب فناسب أن يذكر ما أنعم به من الطريق المعنوي الموصل للإنسان إلى غايته الحقيقية يبتغيها في مسير الحياة كما أنعم بمثله في عالم المادة ونشأة الصورة .

فذكر سبحانه أن من نعمه التي من بها على عباده أن أوجب على نفسه لهم سبيلاً قاصداً يوصلهم إلى سعادة حياتهم فجعله لهم وهداهم إليه .

وقد نسب سبحانه قصد السبيل إلى نفسه دون السبيل الجائر لأن سبيل الضلال ليس سبيلاً مجعولاً له وفي عرض سبيل الهدى وإنما هو الخروج عن السبيل وعدم التلبس بسلكه فليس بسبيل حقيقة وإنما هو عدم السبيل .

وكيف كان فالآية ظاهرة في نسبة قصد السبيل إليه تعالى وترك نسبة السبيل الجائر المؤدي بسبب المقابلة إلى نقي نسبه إليه تعالى .

وإذ كان من الممكن أن يتوهم أن لازم جمعه قصد السبيل أن يكون مكفوراً في نعمته مغلوباً في تدبيره وربوبيته حيث جعل السبيل ولم يسلكه الأكثرون وهدى إليه ولم يهتد به المدعوون دفعه بقوله تعالى : « ولو شاء لهداكم أجمعين » أي إن عدم اعتدائه الجميع ليس لعجز منه سبحانه عن ذلك أو غلبة من هؤلاء المتخلفين وظهورهم عليه بل لأنه تعالى لم يشأ ذلك ولو شاء لم يسعهم إلا أن يهتدوا جميعاً فهو القاهر الغالب على كل حال .

وبعبارة أخرى السبيل القاصد الذي جعله الله تعالى هو السبيل المبني على اختيار الإنسان يقطعه بإتيان الأعمال الصالحة واجتناب المعاصي عن اختيار منه ، وما هذا شأنه لم يكن مما يجبر عليه ولا عاماً للجميع فإن الطبائع متنوعة والتراكيب مختلفة ولا محالة تتنوع آثارها ، ويختلف الأفراد بالإيمان والكفر والتقوى والفجور والطاعة والمعصية .

والآية بما تشاجرت فيها الأشاعرة والمعتزلة من فرق المسلمين فاستدلت المعتزلة بأن تغيير الأسلوب يجعل قصد السبيل على الله دون السبيل الجائر للدلالة على ما يجوز إضافته إليه تعالى وما لا يجوز كما ذكره في الكشف .

وتكلفت الأشاعرة في الجواب عنه فمن مجيب بأن السبيلين جميعاً منه تعالى وإنما لم ينسب السبيل الجائر إليه تأديباً ، ومن مجيب بأن المراد بقوله : « وعلى الله قصد

السبيل ، أن عليه تعالى بيان السبيل الحق فضلاً وكرماً منه دون بيان السبيل الجائر وأما أصل الجعل فيها جميعاً بمجمولان له تعالى ، ومن منكر أن يكون تغيير الأسلوب في الآية لأمر مطلوب .

والحق أن دلالة الآية على كون قصد السبيل مضافاً إليه تعالى دون السبيل الجائر مما لا ريب فيه لكن ذلك لا يستلزم كون السبيل الجائر مخلوقاً لغيره تعالى لما تقدم أن سبيل الضلال ليس بسبيل حقيقة بل حقيقته عدم سلوك سبيل الهدى كما أن الضلال عدم الهدى فليس بأمر موجود حتى ينسب خلقه وإيجاده إليه تعالى وإنما ينسب الضلال إليه تعالى فيما ينسب بمعنى عدم هدايته للضال أي عدم إيجاده الهدى في نفسه .

ومع ذلك فالذي ينسب إليه من الضلال كما في قوله : « يضلّ من يشاء ويهدي من يشاء » فاطر : ٨ ، وقوله : « يضلّ به كثيراً ويهدي به كثيراً » البقرة : ٢٦ ، هو الضلال بطريق المجازاة دون الضلال الابتدائي ، كما يفسره قوله : « وما يضلّ به إلا الفاسقين » البقرة : ٢٦ ، فإذا فسق الإنسان وخرج بسوء اختياره عن زِي العبودية بأن عصى ولم يرجع وهو ضلاله الابتدائي من قبل نفسه جازاه الله بالضلال بأن أثبتته على حاله ولم يقض عليه الهدى .

وأما الضلال الابتدائي من الإنسان فإنما هو انكفاف وقصور عن الطاعة وقد هداه الله من طريق الفطرة ودعوة النبوة .

قوله تعالى : « هو الذي أنزل من السماء ماء لكم منه شراب ومنه شجر فيه تسمون » شروع في نوع آخر من النعم وهي النعم النباتية التي يقتات بها الإنسان وغيره وما سخّر له لتدبير أمرها كالليل والنهار والشمس والقمر وما يحذو حذوها ، ولذلك غيّر السياق فقال : « هو الذي » الخ ، ولم يقل : وأنزل من السماء .

وقوله : « تسمون » من الإسماء وهي رعي المواشي ومنه السائمة للماشية الراعية و « من » الأولى تبعية والثانية نشئية والشجر من النبات ما له ساق وورق وربما توسع فاطلق على ذي الساق وغيره جميعاً ، ومنه الشجر المذكور في الآية لمكان قوله : « فيه تسمون » والباقي واضح .

قوله تعالى : « ينبت لكم به الزرع والزيتون والنخيل والأعناب ومن كل الثمرات » الخ ، الزيتون شجر معروف ويطلق على ثمره أيضاً يقال : إنه اسم جنس جمعي واحده زيتونة ، وكذا النخيل ، ويطلق على الواحد والجمع ، والأعناب جمع عنبه وهي ثمرة شجرة الكرم ويطلق على نفس الشجرة كما في الآية ، والسياق يفيد أن قوله : « ومن كل الثمرات » تقديره ومن كل الثمرات أنبت أشجارها. ولعل التصريح بأسماء هذه الثمرات الثلاث بخصوصها وعطف الباقي عليها لكونها مما يقتات بها غالباً .

ولما كان في هذا التدبير العام الواسع الذي يجمع شمل الإنسان والحيوان في الارتزاق به حجة على وحدانيته تعالى في الربوبية ختم الآية بقوله : « إن في ذلك لآية لقوم يتفكرون » .

قوله تعالى : « وسخر لكم الليل والنهار والشمس والقمر » إلى آخر الآية قد تكرر الكلام في معنى تسخير الليل والنهار والشمس والقمر والنجوم ، ولكون كل من المذكورات وكذا مجموع الليل والنهار ومجموع الشمس والقمر والنجوم ذا خواص وآثار في نفسه من شأنه أن يستقل بإثبات وحدانيته في ربوبيته تعالى ختم الآية بقوله : « إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون » فجمع الآيات في هذه الآية بخلاف الآيتين السابقتين واللاحقة .

قوله تعالى : « وما ذرأ لكم في الأرض مختلفاً ألوانه إن في ذلك لآية لقوم يذكرون » الذرة الخلق ، واختلاف ألوان ما ذرأه في الأرض غير ما مرّ كما يختلف ألوان المعادن وسائر المركبات العنصرية التي يفتق بها الإنسان في معاشه ولا يبعد أن يكون اختلاف الألوان كناية عن الاختلاف النوعي بينها فتقرب الآية مضموناً من قوله تعالى : « وفي الأرض قطع متجاورات وجنات من أعناب وزرع ونخيل صنوان وغير صنوان يسقى بماء واحد ونفضل بعضها على بعض في الاكل » الرعد : ٤ ، وقد تقدم تقريب الاستدلال به .

واختلاف الألوان فيما ذرأ في الأرض كإنبات الشجر والثمر أمر واحد يستدل به على وحدانيته في الربوبية ولذا قال : « إن في ذلك لآية » ولم يقل : لآيات .

وهذه حجج ثلاث نسب الاولى إلى الذين يتفكرون ، والثانية إلى الذين

يعقلون ، والثالثة إلى الذين يتذكرون ، وذلك أن الحجة الأولى مؤلفة من مقدمات ساذجة يكفي في إنتاجها مطلق التفكير ، والثانية مؤلفة من مقدمات علمية لا يتيسر فهمها إلا لمن غار في أوضاع الأجرام العلوية والسفلية وعقل آثار حركاتها وانتقالاتها ، والثالثة مؤلفة من مقدمات كلية فلسفية إنما ينالها الإنسان بتذكر ما للوجود من الأحكام العامة الكلية كاحتياج هذه النشأة المتغيرة إلى المادة وكون المادة العامة واحدة متشابهة الأمر ، ووجوب انتهاء هذه الاختلافات الحقيقية إلى أمر آخر وراء المادة الواحدة المتشابهة .

قوله تعالى : « وهو الذي سخر البحر لناكلوا منه لحماً طرياً وتستخرجوا منه حلية تلبسونها » الخ وهذا فصل آخر من النعم الإلهية وهو نعم البحر والجبال والأنهار والسبل والعلامات وكان ما تقدمه من الفصل مشتملاً على نعم البرّ والسهل من الأشجار والأثمار ونحوها ، ولذلك قال : « وهو الذي سخر » ولم يقل : وسخر الخ .

والطري فمبيل من الطراوة وهو الغضّ الجديد من الشيء على ما ذكره في المفردات ، والخمر شقّ الماء عن يمين وشمال ، يقال : نخرت السفينة تمخر نحرأ فهي ماخرة ونخر الأرض أيضاً شقها للزراعة . على ما في الجمع والمراد بأكل اللحم الطري من البحر هو أكل لحوم الحيتان المصطادة منه ، وباستخراج حلية تلبسونها ما يستخرج منه بالفوص من أمثال اللؤلؤ والمرجان التي تتحلى وتزّين بها النساء .

وقوله : « وترى الفلك مواخر فيه » أي تشاهد السفائن تشق مائه عن اليمين والشمال ، ولعل قوله : « وترى » من الخطابات العامة التي لا يقصد بها مخاطب خاص وكثيراً ما يستعمل كذلك ومعناه يراه كل راء ويشاهده كل من له أن يشاهد فليس من قبيل الالتفات من خطاب الجمع السابق إلى خطاب الواحد .

وقوله : « ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون » أي ولتطلبوا بعض رزقه في ركوب البحر وإرسال السفائن فيه ، والجملة معطوفة على محذوف والتقدير وترى الفلك مواخر فيه لتناولوا بذلك كذا وكذا ولتبتغوا من فضله ، وهو كثير النظر في كلامه تعالى .

وقوله : « ولعلكم تشكرون » أي ومن الغايات في تسخير البحر وإجراء الفلك

فيه شكركم له المرجو منكم إذ هو من زيادته تعالى في النعمة فقد أغناكم بما أنعم عليكم في البر عن أن تتصرفوا في البحر بالغوص وإجراء السفن وغير ذلك لكنه تعالى زادكم بتسخير البحر لكم نعمة لعلكم تشكرونه على هذا الزائد فإن الإنسان قليلاً ما يتنبه في الضروريات أنها نعمة موهوبة من لدنه سبحانه ولو شاء لفطعها وأما الزوائد النافعة فهي أقرب من هذا التنبيه والانتقال .

قوله تعالى : « وألقى في الأرض رواسي أن تمتد بكم وأنهاراً وسبلاً لعلكم تهتدون » قال في الجمع : الميد الميل يميناً وشمالاً وهو الاضطراب ماد يمد ميدياً . انتهى . وقوله : « أن تمتد بكم » أي كراهة أن تمتد بكم أو أن لا تمتد بكم والمراد أنه طرح على الأرض جبلاً ثوابت لئلا تضطرب وتميل يميناً وشمالاً فيختل بذلك نظام معاشكم .

وقوله : « وأنهاراً » أي وجعل فيها أنهاراً تجري بمائها وتسوقه إلى مزارعكم وبساتينكم وتسقيكم وما عندكم من الحيوان الأهلي .

وقوله : « وسبلاً لعلكم تهتدون » معطوف على قوله : « وأنهاراً » أي وجعل سبلاً لغاية الاهتداء المرجو منكم ، والسبل منها ما هي طبيعية وهي المسافات الواقعة بين بقعتين من الأرض الواصلة إحداها بالآخرى من غير أن يقطع ما بينها بحاجب أو مانع كالسهل بين الجبلين ، ومنها ما هي صناعية وهي التي تتكون بعبور المارة وآثار الأقدام أو يعملها الإنسان .

والظاهر من السياق عموم السبل لكلا القسمين ، ولا ضير في نسبة ما جعله الإنسان إلى جعله تعالى كما نسب الأنهار والعلامات إلى جعله تعالى وأكثرها من صنع الإنسان وكما نسب ما عمله الإنسان من الأصنام وغيرها إلى خلقه تعالى في قوله : « والله خلقكم وما تعملون » الصافات : ٩٦ .

وذلك أنها كائنة ما كانت من آثار بمجولاته تعالى وجعل الشيء ذي الأثر جعل لأثره بوجه وإن لم يكن جعلاً مستقيماً من غير واسطة .

قوله تعالى : « وعلامات وبالنجم هم يهتدون » العلامات جمع علامة وهي ما يعلم به الشيء ، وهو معطوف على قوله : « وأنهاراً » أي وجعل علامات تستدلون بها على

الأشياء الغائبة عن الحس وهي كل آية وأمانة طبيعية أو وضعية تدل على مدلولها ومنها الشواخص والنصب واللغات والإشارات والخطوط وغيرها .

ثم ذكر سبحانه الاهتداء بالنجوم فقال : « وبالنجم هم يهتدون » ولعل الالتفات فيه من الخطاب إلى الغيبة للتحريز عن تكرار « تهتدون » بصيغة الخطاب في آخر الآيتين .

والآية السابقة : « وعلى الله قصد السبيل ومنها جائر ولو شاء لهداكم أجمعين » المتضمنة لمسألة الهداية المعنوية التي هي كالمعتضة بين الآيات العادة للنعم الصورية وإن كان الأنسب ظاهراً أن يوضع بعد هذه الآية أعني قوله : « وبالنجم هم يهتدون » المتعرضة هي وما قبلها للهداية الصورية غير أن ذلك لم يكن خالياً من اللبس وإيهام التناقض بخلاف موقعها الذي هي واقعة فيه وإن كانت كالمعتضة كما هو ظاهر .

قوله تعالى : « أفمن يخلق كمن لا يخلق - إلى قوله - إلهكم إله واحد » الآيات تقرير إجمالي للحجة المذكورة تفصيلاً في ضمن الآيات الست عشرة الماضية واستنتاج للتوحيد وهي حجة واحدة أقيمت لتوحيد الربوبية ، وملخصها أن الله سبحانه خالق كل شيء فهو الذي أنعم بهذه النعم التي لا يحيط بها الإحصاء التي ينتظم بها نظام الكون ، وهو تعالى عالم بسرهما وعليها فهو الذي يملك الكل ويدبر الأمر فهو ربها ، وليس شيء مما يدعونه على شيء من هذه الصفات فليست أرباباً فالإله واحد لا غير وهو الله عز اسمه .

ومن هنا يظهر فساد ما ذكره بعضهم أن الآيات تثبت التوحيد من طريقين طريق الخلق وطريق النعمة ، بيان الفساد أن طريق الخلق وحدها إنما تثبت الصانع ووحدانيته في الخلق والإيجاد ، والوثنيون - وإليهم وجه الكلام في الآيات - لا ينكرون وجود الصانع ولا أن الله سبحانه خالق الكل حتى أوثانهم وأن أوثانهم ليسوا بخالقين لشيء وإنما يدعون لأوثانهم تدبير أمر العالم بتفويض من الله لذلك إليهم والشفاعة عند الله فلا يفيد إثبات الصانع تجاه هؤلاء شيئاً .

وإنما سقت آيات الخلق لتثبيت أمر النعمة إذ من البين أنه إذا كان الله سبحانه خالقاً لكل شيء موجوداً له كانت آثار وجودات الأشياء وهي النعم التي يتنعم بها

له سبحانه كما أن وجوداتها له ملكاً طلقاً لا يقبل بطلاناً ولا نقلاً ولا تبديلاً فهو سبحانه المنعم بها حقيقة لا غيره من شيء حتى الذي نفس النعمة من آثار وجوده فإنه وما له من أثر هو الله وحده .

ولذلك ضمّ إلى حديث الخلق والإنعام قوله تعالى : « والله يعلم ما تسرون وما تعلنون » لأن مجرد استناد الخلق والإنعام إلى شيء لا يستلزم ربوبية ولا يستوجب عبادته لولا انضمام العلم إليها ليم بذلك أنه مدبر يهدي كل شيء إلى كماله المطلوب له وسعاده المكتوبة في صحيفة عمله ، ومن المعلوم أن العبادة إنما تستقيم عبادة إذا كان المعبود موسوماً بسمه العلم عالماً بعبادة من يعبده شاهداً لخضوعه .

فمجموع ما تتضمنه الآيات من حديث الخلق والنعمة والعلم مقدمات لحجة واحدة أقيمت على توحيد الربوبية الذي ينكره الوثنية كما عرفت .

فقوله : « أفمن يخلق كمن لا يخلق أفلا تذكرون » قياس ما له سبحانه من النعم إلى ما لغيره منه ونفي المساواة ، والاستفهام للإنكار ، والمراد بمن لا يخلق آلهتهم الذين يدعونهم من دون الله .

وبيانه - كما ظهر مما تقدم - أن الله سبحانه يخلق الأشياء ويستمر في خلقها فلا يستوي هو ومن لا يخلق شيئاً فإنه تعالى خلقه الأشياء بملك وجوداتها وآثار وجوداتها التي هي الأنظمة الخاصة بها والنظام العام الجاري عليها .

وقوله : « وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها » الخ ، إشارة إلى كثرة النعم الإلهية كثرة خارجة عن حيلة الإحصاء ، وبالحقيقة ما من شيء إلا وهو نعمة إذا قيس إلى النظام الكلي وإن كان ربما وجد بينها ما ليس بنعمة إذا قيس إلى بعض آخر .

وقد علل سبحانه ذلك بقوله : « إن الله لغفور رحيم » وهو من أطف التعليل وأدقه فأفاد سبحانه أن خروج النعمة عن حد الإحصاء إنما هو من بركات اتصافه تعالى بصفتي المغفرة والرحمة فإنه بمغفرته - والمغفرة هي الستر - يستر ما في الأشياء من وبال النقص وشوهة القصور ، وبرحمته - والرحمة إتمام النقص ورفع الحاجة - يظهر فيها الخير والكمال ويحلتها بالجمال فبسط المغفرة والرحمة على الأشياء يكون كل شيء نافعا في غيره خيراً مطلوباً عنده فيصير نعمة بالنسبة إليه فالأشياء بعضها نعمة

لبعض فللنعمة الإلهية من السعة والعرض ما لمفقرته ورحمته من ذلك : فإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها ، فافهم ذلك .

والآية من الموارد التي استعملت فيها المغفرة في غير الذنب والمعصية للأمر المولوي كما هو المعروف عند المشرعة .

وقوله : « والله يعلم ما تسرون وما تعلنون » إشارة إلى الركن الثالث من أركان الربوبية وهو العلم فإن الإله لو كان غير متصف بالعلم استوت العبادة واللاعبداء بالنسبة إليه فكانت عبادته لغواً لا أثر لها .

فمن الواجب في الرب المعبود أن يكون له علم ، ولا كل علم كيفما كان بل العلم بظاهر من يعبد وباطنه فإن العبادة متقومة بالنية فهي إنما تقع عبادة حقيقة إذا أتت بها عن نية صالحة وهو مما يرجع إلى الضمير فلا يتم العلم بكون صورة العبادة واجدة لحقيقة معناها إلا بعد إحاطة المعبود بظاهر من يعبد وباطنه لكن الله سبحانه عليم بما يسره الإنسان وما يعلنه كما أنه خالق منعم ويستحق بذلك أن يعبد .

ومن هنا يظهر وجه اختيار ما في الآية من التعبير لبيان علمه فلم يعبر بمثل قوله : « عالم الغيب والشهادة » وقوله : « والله بكل شيء عليم » بل قال : « والله يعلم ما تسرون وما تعلنون » فذكر العلم بالإسراز والإعلان ، وأضافه إلى الإنسان لأن الكلام في عبادة الإنسان لربه ، والواجب في العلم بالعبادة المرتبطة بعمل الجوارح والقلب جميعاً أن يكون عالماً بما يسره الإنسان وما يعلنه من النية القلبية والأحوال والحركات البدنية .

وقوله : « والذين يدعون من دون الله لا يخلقون شيئاً وهم يُخلقون » إشارة إلى فقدان الركن الأول من أركان الربوبية في آلهتهم الذين يدعون من دون الله ويتفرع عليه الركن الثاني وهو إيتاء النعمة ، فليس الذين يدعونهم آلهة وأرباباً والله الرب .

وقوله : « أموات غير أحياء ولا يشعرون أيتان يُبعثون » إشارة إلى فقدان الركن الثالث من أركان الربوبية في أصنامهم وهو العلم بما يسرون وما يعلنون وقد بالغ في نفي ذلك فنفي أصل الحياة المستلزم لنفي مطلق العلم فضلاً عن نوعه الكامل الذي هو العلم بما يسرون وما يعلنون فقال : « أموات غير أحياء » فأثبت الموت أولاً

وهو لا يجمع الشعور ثم أكد بنفي الحياة ثانياً .

وخص من وجوه جهلهم عديم شعورهم متى يبعث عبّادهم من الناس فقال :
« وما يشعرون أيتان يبعثون » أي ما يدري الأصنام أيتان يبعث عبّادهم فإن العبادة
هي التي يحزى بها الإنسان يوم البعث فمن الواجب في الإله المعبود أن يعلم متى يوم البعث
حتى يحزى عبّاده فيه عن عبادتهم ، وهؤلاء لا يدرون شيئاً من ذلك .

ومن هنا يظهر أن أول ضميري الجمع - يشعرون - للأصنام والثاني - يبعثون -
للمشركين ، وأما إرجاعها كليهما إلى الأصنام فقير مرضي لأن العلم بالبعث يختص به
سبحانه محجوب عن غيره ولا يختص الجاهل به بالأصنام ، وأردأ منه قول بعضهم :
إن ضميري الجمع معاً في الآية عائدان إلى المشركين . هذا .

والآيات وإن كانت مسوقة بظواهرها لنفي ربوبية الأصنام لكن البيان بعينه
بأدنى دقة جار في أرباب الأصنام كالملائكة المقربين والجن والكتلين من البشر
والكواكب من كل ما يعبد الوثنون فإن صفات الخلق والإنعام والعلم لا تقوم بالأصالة
والاستقلال إلا بالله سبحانه ، ولا ربوبية حقيقة إلا بالأصالة والاستقلال ، فافهم .

وفي الآيتين أعني قوله : « والذين يدعون من دون الله - إلى قوله - يبعثون »
التفات من الخطاب إلى الغيبة ، ولعل النكتة فيه ذكر يوم البعث فيها والمشركون لا
يقولون به فحول الخطاب منهم إلى النبي ﷺ للتوسل بذلك إليه من غير اعتراض .

وقوله : « إلهكم إله واحد » بيان لنتيجة الحجة التي أقيمت في الآيات السابقة أي
إذا كان الله سبحانه هو الواحد لما تتوقف عليه الألوهية وهي المعبودية بالحق ، وغيره
تعالى ممن يدعون من دونه غير واحد شيء مما تتوقف عليه وهو الخلق والإنعام والعلم
فإلهكم الذي يحق له أن يعبد واحد ولازم معناه أنه الله عز اسمه .

(بحث روائي)

في الجمع أربعون آية من أولها مكية والباقي من قوله : « والذين هاجروا في الله
من بعد ما ظلموا لنبوئتهم » إلى آخر السورة مدنية ، عن الحسن وقتادة ، وقيل : مكية
كلها غير ثلاث آيات نزلت في انصراف النبي ﷺ من أحد : « وإن عاقبتم فعاقبوا »

إلى آخر السورة نزلت فيما بين مكة والمدينة عن ابن عباس وعطاء والشعبي ، وفي إحدى الروايات عن ابن عباس : بعضها مكي وبعضها مدني فالمكي من أولها إلى قوله : « ولكم عذاب عظيم » ، والمدني قوله : « ولا تشتروا بعهد الله ثناً قليلاً - إلى قوله - : بأحسن ما كانوا يعملون » .

أقول : وقد قدمنا أن الذي يعطيه السياق خلاف ذلك كله فراجع .

وفي تفسير العياشي عن هشام بن سالم عن بعض أصحابنا عن أبي عبد الله عليه السلام قال : سألته عن قول الله : « أتى أمر الله فلا تستعجلوه » قال : إذا أخبر الله النبي صلى الله عليه وآله بشيء إلى وقت فهو قوله : « أتى أمر الله فلا تستعجلوه » حتى يأتي ذلك الوقت وقال : إن الله إذا أخبر أن شيئاً كائن فكأنه قد كان .

أقول : كأنه إشارة إلى أن التعبير في الآية بلفظ الماضي لتحقيق الوقوع .

وفي الدر المنثور أخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال : لما نزلت : « أتى أمر الله » دعر أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله حتى نزل « فلا تستعجلوه » فسكنوا .

وفيه أخرج ابن جرير وابن المنذر عن ابن جريج قال : لما نزلت هذه الآية : « أتى أمر الله فلا تستعجلوه » قال رجال من المنافقين بعضهم لبعض : إن هذا يزعم أن أمر الله قد أتى فأمسكوا عن بعض ما كنتم تعملون حتى تنظروا ما هو كائن فلما رأوا أنه لا ينزل شيء قالوا : ما نراه نزل .

فنزلت : « اقترب للناس حسابهم » الآية فقالوا : إن هذا يزعم مثلها أيضاً فلما رأوا أنه لا ينزل شيء قالوا : ما نراه نزل شيء فنزل : « ولئن أخرنا عنهم العذاب إلى أمة معدودة » الآية .

أقول : والرواية تدل على أن المسلمين كان بينهم قبل الهجرة منافقون كما يشهد به بعض آخر من الروايات .

وفيه أخرج ابن أبي حاتم والطبراني وابن مردويه والحاكم وصححه عن عقبة بن عامر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله : تطلع عليكم قبل الساعة سحابة سوداء من قبل المغرب مثل الترس فلا تزال ترتفع في السماء حتى تملأ السماء ثم ينادي مناد : يا أيها الناس ! فيقبل الناس بعضهم على بعض : هل سمعتم ؟ فمعهم من يقول : نعم ومنهم من

يشك ثم ينادي الثانية : يا أيها الناس فيقول الناس : هل سمعتم ؟ فيقولون : نعم ثم ينادي : أيها الناس أتى أمر الله فلا تستعجلوه .

قال رسول الله ﷺ : فوالذي نفسي بيده إن الرجلين لينشران الثوب فيما يطويانه وإن الرجل ليملؤ حوضه فما يسقي فيه شيئاً ، وإن الرجل ليحلب ناقته فما يشربه ويشغل الناس .

أقول : وقد رام بعضهم أن يستفيد من هذه الروايات الثلاث - وفي معناها بعض روايات أخر - أن المراد بالأمر هو يوم القيامة ولا دلالة فيها على ذلك .

أما الرواية الأولى فلا يدل دعرهم أنهم فهموا منها ذلك فإن أمر الله أياً ما كان مما يهيب عباده على أنه لا حجة في فهمهم وليس الشبهة مفهومية حتى يرجع إليهم بما هم أهل اللسان .

على أن الرواية لا تخلو عن شيء فإن الله سبحانه بعد الاستعجال بالقيامة من صفات الكفار ويذمهم عليه ويبرئ المؤمنين منه قال : « والذين آمنوا مشفقون منها » الشورى : ١٨ وقد مرت الإشارة إليه في البيان المتقدم هذا إذا كان الخطاب في قوله : « فلا تستعجلوه » للمؤمنين ، وأما إذا كان المخاطب به المشركين وهم كانوا يستعجلونه ، فعنى النهي عن استعجالهم هو حلول الأجل وقرب الوقوع لا الإمهال والإنظار ، ولا معنى حينئذ لسكونهم لما سمعوا قوله : « فلا تستعجلوه » .

وأما الرواية الثانية فظاهرها أنهم فهموا منها العذاب الدنيوي دون الساعة فهي تؤيد ما قدمناه في البيان لا ما ذكروه .

وأما الرواية الثالثة فأقصى ما تدل عليه أن قيام الساعة من مصاديق إتيان أمر الله ولا ريب في ذلك وهو غير كون المراد بالأمر في الآية هو الساعة .

وفي كتاب الغيبة للنعمانى بإسناده عن عبد الرحمان بن كثير عن أبي عبد الله عليه السلام في قوله عز وجل : « أتى أمر الله فلا تستعجلوه » قال : هو أمرنا أمر الله عز وجل فلا يستعجل به يؤيده بثلاثة أجناد : الملائكة والمؤمنون والركب ، وخروجه كخروج رسول الله ﷺ ، وذلك قوله : « كما أخرجك ربك من بيتك بالحق » .

أقول : ورواه المفيد في كتاب الغيبة عن عبد الرحمان عنه عليه السلام ، ومراده

ظهور المهدي عليه السلام كما صرح به في روايات أخر وهو من جري القرآن او بطنه .
وفي الكافي بإسناده عن سعد الإسكاف قال : أتى رجل أمير المؤمنين عليه السلام يسأله عن الروح أليس هو جبرئيل ؟ فقال له أمير المؤمنين عليه السلام : جبرئيل من الملائكة والروح غير جبرئيل ، فكبر ذلك على الرجل فقال له : لقد قلت عظيماً من القول ما أحد يزعم أن الروح غير جبرئيل . فقال له أمير المؤمنين عليه السلام : إنك ضالّ تروي عن أهل الضلال ، يقول الله لنبيه : « أتى أمر الله فلا تستعجلوه سبحانه وتعالى عما يشركون ينزل الملائكة بالروح » والروح غير الملائكة .

أقول : وهو يؤيد ما قدمناه ، وفي روايات أخر : أنه خلق أعظم من جبرئيل . وفي تفسير القمي في قوله تعالى : « فإذا هو خصم مبين » قال عليه السلام : خلقه من قطرة من ماء مهين فيكون خصيماً متكلماً بليفاً .

وفيه في قوله تعالى : « حين تريحون وحين تسرحون » قال عليه السلام : حين ترجع من المرعى وحين تخرج إلى المرعى .

وفي تفسير العياشي عن زرارة عن أحدهما عليهما السلام قال : سألته عن أبوال خيل والبغال والحمير قال : فكرهها ، قلت : أليس لحما حلالاً ؟ قال : فقال : أليس قد بين الله لكم : « والأنعام خلقها لكم فيها دفء ومنافع ومنها تأكلون » وقال في الخيل والبغال والحمير : « لتركبوها وزينة » فجعل الأكل من الأنعام التي قص الله في الكتاب ، وجعل للركوب الخيل والبغال والحمير وليس لحومها بحرام ولكن الناس عافوها .

أقول : والروايات في الخيل والبغال والحمير مختلفة ومذهب أهل البيت عليهم السلام حلية أكل لحومها على كراهية .

وفي تفسير القمي في قوله تعالى : « ويخلق ما لا تعلمون » قال : قال عليه السلام : العجائب التي خلقها الله في البر والبحر .

وفي الدر المنثور في قوله تعالى : « وعلى الله قصد السبيل ومنها جائر » أخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن الأنباري في المصاحف عن علي أنه كان يقرأ هذه الآية : « فمنكم جائر » .

وفي تفسير العياشي عن اسماعيل بن أبي زياد عن جعفر بن محمد عن أبيه عن آبائه

عن علي عليه السلام قال : قال رسول الله ﷺ : « وبالنجم هم يهتدون » قال : هو الجدي لأنه نجم لا يدور عليه بناء القبلة ، وبه يهتدي أهل البر والبحر .
أقول : وهو مروي عن الصادق عليه السلام أيضاً .

وفي الكافي بإسناده عن داود الجصاص قال : سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول : « وعلامات وبالنجم هم يهتدون » قال : النجم رسول الله ﷺ والعلامات الأئمة عليهم السلام .

أقول : ورواه أيضاً بطريقين آخرين عنه وعن الرضا عليه السلام ورواه العياشي والقمي في تفسيريهما والشيخ في أماليه عن الصادق عليه السلام .

وليس بتفسير وإنما هو من البطن ومن الدليل عليه ما رواه الطبرسي في المجمع قال : قال أبو عبد الله عليه السلام : نحن العلامات والنجم رسول الله ﷺ ولقد قال : إن الله جعل النجوم أماناً لأهل السماء وجعل أهل بيتي أماناً لأهل الأرض .

إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ قُلُوبُهُمْ مُنْكَرَةٌ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ - ٢٢ . لَا جَرَمَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ - ٢٣ . وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا أَأَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ - ٢٤ . لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلا سَاءَ مَا يَزِرُونَ - ٢٥ . قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَآتَى اللَّهُ بُنْيَانَهُمْ مِنَ الْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ - ٢٦ .

ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يُخْزِيهِمْ وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تُشَاقُّونَ فِيهِمْ
 قَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ إِنَّ الْخِزْيَ الْيَوْمَ وَالسُّوءَ عَلَى الْكَافِرِينَ — ٢٧.
 الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ فَأَلْقَوْا أَلْسَلَمَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ
 مِنْ سُوءٍ بَلَى إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ — ٢٨. فَأَدْخَلُوا أَبْوَابَ
 جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَلَئْسَ مَشْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ — ٢٩. وَقِيلَ لِلَّذِينَ
 اتَّقَوْا مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا خَيْرًا لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا
 حَسَنَةٌ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ — ٣٠. جَنَّاتُ عَدْنٍ
 يَدْخُلُونَهَا يُجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاؤْنَ كَذَلِكَ يُجْزِي
 اللَّهُ الْمُتَّقِينَ — ٣١. الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَامٌ
 عَلَيْكُمْ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ — ٣٢. هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ
 تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ أَمْرُ رَبِّكَ كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ
 وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ — ٣٣. فَأَصَابَهُمْ
 سَيِّئَاتٌ مَا عَمِلُوا وَخَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ — ٣٤. وَقَالَ
 الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ نَحْنُ وَلَا
 آبَاؤُنَا وَلَا حَرَمْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ
 فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ — ٣٥. وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ
 رَسُولًا أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ

مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ - ٣٦ . إِنْ تَحَرَّصَ عَلَى هُدَاهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ يُضِلُّ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ - ٣٧ . وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَنْ يَمُوتُ بَلَىٰ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ - ٣٨ . لِيُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي يُخْتَلِفُونَ فِيهِ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ كَانُوا كَاذِبِينَ - ٣٩ . إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ - ٤٠ .



هذا هو الشطر الثاني من آيات صدر السورة ، وقد كانت الشطر الأول يتضمن توحيد الربوبية وإقامة الحججة على المشركين في ذلك بعد ما أنذرهم بإتيان الأمر ونزوه الله سبحانه عن شركهم .

وهذا الشطر الثاني يتضمن ما يناسب المقام ذكره من مساوي صفات المشركين المتفرعة على إنكارهم التوحيد وأباطيل أقوالهم كاستكبارهم على الله واستهزائهم بآياته وإنكارهم الحشر ، وبيان بطلانها وإظهار فسادها ، وتهديدهم بإتيان الأمر وحلول العذاب الدنيوي ، والإيعاد بعذاب يوم الموت ويوم القيامة وحقائق آخر ستتكشف بالبحث .

قوله تعالى : « إلهكم إله واحد فالذين لا يؤمنون بالآخرة قلوبهم منكرة وهم مستكبرون » قد تقدم الكلام في قوله : « إلهكم إله واحد » وأنه نتيجة الحججة التي أقيمت في الآيات السابقة .

وقوله : « فالذين لا يؤمنون بالآخرة » الخ ، تفريع عليه ، وافتتاح لفصل

جديد من الكلام حول أعمال الكفار من أقوالهم وأعمالهم الناشئة عن عدم إيمانهم بالله سبحانه وإثبات ذكر عدم إيمانهم بالآخرة ولم يذكر عدم إيمانهم بالله وحده لأن الذي أقيمت عليه الحجة هو التوحيد الكامل وهو وجوب الاعتقاد بإله عليم قدير خلق كل شيء وأتم النعمة لا لغوا باطلا بل بالحق ليرجعوا إليه فيحاسبهم على ما عملوا ويجازيهم بما اكتسبوا مما عهده إليهم من الأمر والنهي بواسطة الرسل .

فالتوحيد المندوب إليه في الآيات الماضية هو القول بوحدانيته تعالى والإيمان بما أتى به رسل الله والإيمان بيوم الحساب والجزاء ، ولذلك وصف الكفار بعدم الإيمان بالآخرة لأن الإيمان بها يستلزم الإيمان بالوحدانية والرسالة .

ولك أن تراجع في استيضاح ما ذكرناه قوله في أول الآيات : « ينزل الملائكة بالروح من أمره على من يشاء من عباده أن أنذروا أنه لا إله إلا أنا فاتقون خلق السماوات والأرض بالحق سبحانه عما يشركون » فإنه كلام جامع للاصول الثلاثة . وقوله : « قلوبهم منكورة » أي للحق وقوله : « وهم مستكبرون » أي عن الحق ، والاستكبار - على ما ذكرناه - طلب الترفع بترك الإذعان للحق .

والمعنى : إلهكم واحد على ما تدل عليه الآيات الواضحة في دلالتها ، وإذا كان الأمر على هذا الوضوح والجلالة لا يستتر بستر ولا يرقاب فيه فهم فالذين لا يؤمنون بالآخرة قلوبهم منكورة للحق جاحدة له عناداً وهم مستكبرون عن الانقياد للحق من غير حجة ولا برهان .

قوله تعالى : « لا جرم أن الله يعلم ما يسرون وما يعلنون إنه لا يحب المستكبرين » « لا جرم » كلمة مركبة باقية على حالة واحدة يفيد معنى التحقيق على ما ذكره الخليل وسيبويه وإليه يرجع ما ذكره غيرهما وإن اختلفوا في أصل تركيبه قال الخليل : وهو كلمة تحقيق ولا يكون إلا جواباً يقال : فعلوا كذا فيقول السامع : لا جرم يندمون .

والمعنى من المحقق - أو حق - أن الله يعلم ما يسرون وما يعلنون ، وهو كناية وتهديد بالجزاء السيئ أي إنه يعلم ما يخفونه من أعمالهم وما يظهرونه فسيجزئهم بما عملوا ويؤاخذهم على ما أنكروا واستكبروا إنه لا يحب المستكبرين .

قوله تعالى : « وإذا قيل لهم ماذا أنزل ربكم قالوا أساطير الأولين » قال الراغب في المفردات : السطر والسطر - بفتح فسكون أو بفتحتين - السطر من الكتابة ومن الشجر المغروس ومن القوم الوقوف - إلى أن قال - وجمع السطر أسطر وسطور وأسطار .

قال : وأما قوله : « أساطير الأولين » فقد قال المبرد : هي جمع اسطورة نحو أرجوحة وأراجيح وأثفية وأثافي وأحدثة وأحاديث ، وقوله تعالى : « وإذا قيل لهم ماذا أنزل ربكم قالوا أساطير الأولين » أي شيء كتبوه كذباً وميناً فيما زعموا نحو قوله تعالى : « أساطير الأولين اكتبها فهي تملي عليه بكرة وأصيلاً » انتهى وقال غيره : أساطير جمع أسطار وأسطار جمع سطر فهو جمع الجمع .

وقوله : « وإذا قيل لهم ماذا أنزل ربكم » يمكن أن يكون القائل بعض المؤمنين وإنما قاله اختباراً لحالهم واستفهاماً لما يرونه في الدعوة النبوية ، ويمكن أن يكون من المشركين وإنما قاله لهم ليقادهم فيما يرونه ، وعبر عن القرآن بمثل قوله : « ماذا أنزل ربكم » لنوع من التهم والاستهزاء ، ويمكن أن يكون شاكاً متحيراً باحثاً ، والآية التالية وكذا قوله فيما سيأتي : « وقيل للذين اتقوا ماذا أنزل ربكم » يؤيد أحد الوجهين الأخيرين .

وقوله : « قالوا أساطير الأولين » أي الذي يسأل عنه أكاذيب خرافية كتبها الأولون وأثبتوها وتركوها لمن خلفهم ، ولأزم هذا القول دعوى أنه ليس نازلاً من عند الله سبحانه .

قوله تعالى : « ليحملوا أوزارهم كاملة يوم القيامة » إلى آخر الآية . قال في المفردات : الوزر - بفتحتين - الملجأ الذي يلتجأ إليه من الجبل ، قال تعالى : « كلا لا وزر إلى ربك يومئذ المستقر » والوزر - بالكسر - فالسكون - الثقل تشبيهاً بوزر الجبل ، ويعبر بذلك عن الإثم كما يعبر عنه بالثقل ، قال تعالى : « ليحملوا أوزارهم كاملة » الآية كقوله : « وليحملن أثقالهم وأثقالاً مع أثقالهم » .

قال : وحمل وزر الغير بالحقيقة هو على نحو ما أشار إليه ﷺ بقوله : « من سنّ سنة حسنة كان له أجرها وأجر من عمل بها من غير أن ينقص من أجره شيء » ومن

سنّ سنة سيئة كان له وزرها ووزر من عمل بها « أي مثل وزر من عمل بها ، وقوله : « ولا تزر وازرة وزر اخرى » أي لا تحمل وزره من حيث يتعمّى الحمل عنه ، انتهى .
والذي ذكره من الحديث النبوي مروي من طرق الخاصة والعامة جميعاً ويصدق
من الكتاب العزيز مثل قوله تعالى : « والذين آمنوا واتبعتهم ذريتهم بإيمان ألحقنا بهم
ذريتهم وما ألتناهم من عملهم من شيء كل امرء بما كسب رهين » الطور : ٢١ ، وقوله :
« ونكتب ما قدّموا وآثارهم » يس : ١٢ والآيات في هذا المعنى كثيرة .

وأما قوله في تفسير قوله ﷺ : « كان له وزرها ووزر من عمل بها » : أي
مثل وزر من عمل بها فكلام ظاهري لا بأس بأن يوجه به الآية والرواية لرفع التناقض
بينها وبين مثل قوله تعالى : « لا تزر وازرة وزر اخرى » الأنعام : ١٦٤ ، وقوله :
« ليوفّينهم ربك أعمالهم » هود : ١١١ ، إذ لو حمل الأمر وزر السيئة وعذب بعذابها
دون الفاعل ناقض ذلك الآية الأولى ، ولو قسم بينها وحمل كل منها بعض الوزر وعذب
ببعض العذاب ناقض الآية الثانية ، وأما لو حمل السان والأمر مثل ما للعامل الفاعل
لم يناقض شيئاً .

وأما بحسب الحقيقة فكما أن العمل عمل واحد حسنة أو سيئة كذلك وزره
وعذابه مثلاً واحد لا تعدد فيه ، غير أن نفس العمل لما كان قائماً بأكثر من واحد
— قيامه بالأمر والفاعل قياماً طويلاً لا عرضياً يوجب المحذور — كانت تبعته من الوزر
والعذاب قائمة بأكثر من واحد ، فهناك وزر واحد يزرها اثنان ، وعذاب واحد يعذب
به الأمر والفاعل جميعاً .

ويسهل تصور ذلك بالتأمل في مضمون الآيات المبينة على تجسم الأعمال فإن العمل
كالسيئة مثلاً على تقدير التجسم واحد شخصي يتمثل لاثنتين ويعذب بتمثله إنسانين
الأمر والفاعل أو السان والمستن فهو بوجه بعيد كالشخص الواحد يتصوره اثنان
فيلتدان أو يتألمان معاً به وليس إلا واحداً .

وقد تقدم بعض الكلام في هذا المعنى في ذيل قوله تعالى : « ليميز الله الخبيث
من الطيب » الآية في الجزء التاسع من الكتاب ، وسيأتي إن شاء الله تفصيل القول فيه
فيما يناسبه من المورد .

وكيف كان فقوله : « ليحملوا أوزارهم كاملة يوم القيامة ومن أوزار الذين يضلونهم بغير علم » اللام للغاية وهي متعلقة بقوله : « قالوا أساطير الأولين » وفي قوله : « يضلونهم » دلالة على أن حملهم لأوزار غيرهم إنما هو من جهة إضلالهم فيعود الإضلال غاية والحمل غاية الغاية ، والتقدير قالوا أساطير الأولين ليضلوهم وهم أنفسهم ضالون فيحملوا أوزار أنفسهم كاملة ومن أوزار أولئك الذين يضلونهم بغير علم .

وفي تقييد قوله : « ليحملوا أوزارهم » بقوله : « كاملة » دفع لتوهم التقسيم والتبعض بأن يحملوا بعضاً من أوزار أنفسهم وبعضاً من أوزار الذين يضلونهم فيعود الجميع أوزاراً كاملة بل يحملون أوزار أنفسهم كاملة ثم من أوزار الذين يضلونهم .

وقوله : « ومن أوزار الذين يضلونهم » من تبعية لأنهم لا يحملون جميع أوزارهم بل أوزارهم التي ترتبت على إضلالهم خاصة بشهادة السياق فالتبعض إنما هو لتمييز الأوزار المترتبة على الإضلال من غيرها لا للدلالة على تبعض كل وزر من أوزار الإضلال وحمل بعضه على هذا وبعضه على ذاك ولا تقسيم مجموع أوزار الإضلال وحمل قسم منه على هذا وقسم منه على ذاك مع تعريته عن القسم الآخر فإن أمثال قوله تعالى : « ومن يعمل مثقال ذرة شراً يرَهُ » الزلزال : « تنافي ذلك فافهم » .

ومما تقدم يظهر وهن ما استفاده بعضهم من قوله : « ليحملوا أوزارهم كاملة يوم القيامة » أن مقتضاه أنه لم ينقص منها شيء ولم تكفر بنحو بلية تصيبهم في الدنيا أو طاعة مقبولة فيها كما تكفر بذلك أوزار المؤمنين .

وكذا ما استفاده بعض آخر أن في الآية دلالة على أنه تعالى قد يسقط بعض العقاب عن المؤمنين إذ لو كان هذا المعنى حاصلًا للكل لم يكن لتخصيص هؤلاء الكفار به فائدة .

وجه الوهن أن ما ذكره من خزي الكافرين وإكرام المؤمنين وإن كان حقاً في نفسه كما تدل عليه الآيات الدالة على خزي الكفار بما يصيبهم في الدنيا وحبط أعمالهم وشمول المغفرة والشفاعة لطائفة من المؤمنين ، لكن هذه الآية ليست ناظرة إلى شيء من ذلك بل العناية فيها إنما هي بالفرق بين أوزار أنفسهم وأوزار غيرهم الذين أضلوهم وأن الطائفة الثانية يلحقهم بعضها وهي التي ترتبت من الأوزار على الإضلال بخلاف

الطائفة الاولى فهي لهم أنفسهم .

وأوهن منها ما ذكره بعضهم أن «من» في قوله «ومن أوزار الذين» الخ زائدة أو بيانية ، وهو كما ترى .

وتقييده سبحانه قوله : «يضلونهم» بقوله : «بغير علم» للدلالة على أن الذين أضلهم هؤلاء المشركون الذين قالوا : أساطير الأولين إنما ضلوا باتباعهم لهم تقليداً وبغير علم فالقائلون أئمة الضلال وهؤلاء الضلال أتباعهم ومقلدوهم ثم ختم سبحانه الآية بدمهم وتقبيح أمرهم جميعاً فقال : «ألا ساء ما يزرعون» .

قوله تعالى : «قد مكر الذين من قبلهم فأتى الله بنيانهم من القواعد» الخ ، إتيانه تعالى بنيانهم من القواعد هو حضور أمره تعالى عنده بعد ما لم يكن حاضراً ، وهذا شائع في الكلام وخرور السقف سقوطه على الأرض وانهدامه .

والظاهر - كما يشعر به السياق - أن قوله : «فأتى الله بنيانهم من القواعد فخر» عليهم السقف من فوقهم ، كناية عن إبطال كيدهم وإفساد مكرهم من حيث لا يتوقعون كمن يتقي أمامه ويراقبه فيأتيه العدو من خلفه فالله سبحانه يأتي بنيان مكرهم من ناحية قواعدهم وهم مراقبون سقفه بما يأتيه من فوق فينهدم عليهم السقف لا بهادم يهدمه من فوقه بل بأنهدام القواعد .

وعلى هذا فقوله : «وأنا هم العذاب من حيث لا يشعرون» عطف تفسيري يفسر قوله : «فأتى الله بنيانهم» الخ والمراد بالعذاب العذاب الدنيوي .

وفي الآية تهديد للمشركين الذين كانوا يمكرون بالله ورسوله بتذكيرهم ما فعل الله بالماكرين من قبلهم من مستكبري الأمم الماضية حيث ردّ مكرهم إلى أنفسهم فكانوا هم المكورين .

قوله تعالى : «ثم يوم القيامة يخزيهم ويقول أين شركائي الذين كنتم تشاققون فيهم» الإخزاء من الخزي وهو على ما ذكره الراغب الذل الذي يستحي منه ، والمشاقة من الشق وهو قطع بعض الشيء وفصله منه فهي الخاصمة والمعادة والاختلاف بمن من شأنه أن ياتلف ويتفق فمشاقة المشركين في شركائهم هو اختلافهم مع أهل التوحيد وهم أمة واحدة فطرهم الله جميعاً على التوحيد ودين الحق وخاصتهم

لهم وانفصالحهم عنهم .

والمعنى : أن الله سبحانه سيخزيهم يوم القيامة ويضرب عليهم الذلة والهوان بقوله : أين شركائي الذين كنتم تشاقون أهل الحق فيهم وتخاصمونهم وتوجدون الاختلاف في دين الله .

قوله تعالى : « قال الذين أوتوا العلم إن الحزبي اليوم والسوء على الكافرين » الحزبي ذلة الموقف والسوء العذاب على ما يفيد السياق .

وهؤلاء الذين وصفهم الله بأنهم أوتوا العلم وأخبر أنهم يتكلمون بكذا هم الذين رزقوا العلم بالله وانكشفت لهم حقيقة التوحيد فإن ذلك هو الذي يعطيه السياق من جهة المقابلة بينهم مع وصفهم بالعلم وبين المشركين الذين ينكشف لهم يومئذ أنهم ما كانوا يعبدون إلا أسماء سموها وسراباً توهموه .

على أن الله سبحانه يخبر عنهم أنهم يتكلمون يومئذ ويقولون كذا وقد قال في وصف اليوم : « لا يتكلمون إلا من أذن له الرحمن وقال صواباً » النبأ : ٣٨ والقول لا يكون صواباً بحق المعنى إلا مع كون قائله مصوناً من خطأه ولغوّه وباطله ، ولا يكون مصوناً في قوله إلا إذا كان مصوناً في فعله وفي علمه فهؤلاء قوم لا يرون إلا الحق ولا يفعلون إلا الحق ولا ينطقون إلا بالحق .

فإن قلت : فالذين أوتوا العلم بناء على ما فسر ، هم أهل العصمة لكن تدفعه كثرة ورود هذه اللفظة في كلامه تعالى وإرادة غيرهم كقوله : « وقال الذين أوتوا العلم ويلكم ثواب الله خير » القصص : ٨٠ ، وقوله : « وليعلم الذين أوتوا العلم أنه الحق من ربك فيؤمنوا به » الحج : ٥٤ إلى غير ذلك من الموارد الظاهر فيها عدم إرادة العصمة من إيتاء العلم .

قلت : ما ذكرناه إنما هو استفادة بمؤنة المقام لا أنه مدلول اللفظ كما أطلق في كلامه تعالى .

وأما قولهم : إن المراد بالذين أوتوا العلم هم الأنبياء فقط أو الأنبياء والمؤمنون الذين علموا في الدنيا بدلائل التوحيد أو المؤمنون فحسب أو الملائكة فلا دليل في كلامه تعالى على واحد منها بخصوصه .

قوله تعالى : « الذين تتوفاهم الملائكة ظالمي أنفسهم فألقوا السلم » إلى آخر الآية الظاهر أنه تفسير للكافرين الواقع في آخر الآية السابقة كما أن قوله الآتي : « الذين تتوفاهم الملائكة طيبين » الخ ، تفسير للمتقين الواقع في آخر الآية التي قبله ، ولا يستلزم كونه بياناً للكافرين كونه من تمام قول الذين أوتوا العلم حتى يختل نظم الكلام بقولهم : « إن الحزني اليوم » الخ ، ثم بيانهم بقولهم : « الذين تتوفاهم الملائكة » الخ دون أن يقولوا : الذين توفاهم الملائكة كما لا يخفى .

وقوله : « فألقوا السلم » أي الاستسلام وهو الخضوع والانقياد ، وضمير الجمع للكافرين والمعنى الكافرون هم الذين تتوفاهم الملائكة ويقبضون أرواحهم والحال أنهم ظالمون لأنفسهم بكفرهم بالله فألقوا السلم وقدموا الخضوع والانقياد مظهرين بذلك أنهم ما كانوا يعملون من سوء ، فيرد عليهم قولهم ويكذبون ويقال لهم : بلى قد فعلتم وعلمتم إن الله عليم بما كنتم تعملون قبل ورودكم هذا المورد وهو الموت .

قوله تعالى : « فادخلوا أبواب جهنم خالدين فيها فلبئس مثوى المتكبرين » الخطاب للمجموع كما كان قوله : « إن الحزني اليوم والسوء على الكافرين » وكذا قوله : « الذين تتوفاهم الملائكة » الخ ، ناظراً إلى جماعة الكافرين دون كل واحد واحد منهم .

وعلى هذا يعود معناه إلى مثل قولنا : ليدخل كل واحد منكم باباً من جهنم يناسب عمله وموقفه من الكفر لا أن يدخل كل واحد منهم جميع الأبواب أو أكثر من واحد منها ، وقد تقدم الكلام في معنى أبواب جهنم في تفسير قوله تعالى : « لها سبعة أبواب لكل باب منهم جزء مقسوم » الحجر : ٤٤ .

والمتكبرون هم المستكبرون بحسب المصداق وإن كانت العناية اللفظية مختلفة فيها كالمسلم والمستسلم فالمستكبر هو الذي يطلب الكبر لنفسه بإخراجه من القوة إلى الفعل وإظهاره لغيره ، والمتكبر هو الذي يقبله لنفسه ويأخذه صفة .

قوله تعالى : « وقيل للذين اتقوا ماذا أنزل ربكم قالوا خيراً » إلى آخر الآية . أخذ المسؤول عنهم هم الذين اتقوا أي الذين شأنهم في الدنيا أنهم تلبسوا بالتقوى وهم المتصفون به المستمرون بدليل إعادة ذكرهم بعد بلفظ المتقين مرتين فيكون المسؤول

عنهم من هذه الطائفة خيارهم الكاملين في الإيمان كما كان المسؤول عنهم في الطائفة الأخرى شرارهم الكاملين في الكفر وهم المستكبرون .

فقول بعضهم : إن المراد بالذين اتقوا مطلق المؤمنين الذين اتقوا الشرك أو الشرك والمعاصي في الجملة . ليس في محله .

وقوله : « قالوا خيراً » أي أنزل خيراً لأنه أنزل قرآناً يتضمن معارف وشرائع في أخذها والعمل بها خير الدنيا والآخرة وفي قولهم : « خيراً » اعتراف بكون القرآن نازلاً من عنده تعالى مضافاً إلى وصفهم له بالخيرية وفي ذلك إظهار منهم المخالفة للمستكبرين حيث أجابوا بقولهم : أساطير الأولين أي هو أساطير ولو قال المتقون : خير بالرفع لم يكن فيه اعتراف بالنزول كما أنه لو قال المستكبرون : أساطير الأولين بالنصب كان فيه اعتراف بالنزول . كذا قيل .

وقوله : « للذين أحسنوا في هذه الدنيا حسنة ولدار الآخرة خير » ظاهر السياق أنه بيان لقولهم : « خيراً » وهل هو تنمة قولهم أو بيان منه تعالى ؟ ظاهر قوله : « ولنعم دار المتقين جنات عدن » إلى آخر الآية أنه كلام منه تعالى يبين به وجه الخيرية فيما أنزله إليهم فإنه أشبه بكلام الرب تعالى منه بكلام المربوب وخاصة المتقين الذين لا يجترئون على أمثال هذه الاقتراحات .

والمراد بالحسنة المثوبة الحسنة وذلك لأنهم بالإحسان الذي هو العمل بما يتضمنه الكتاب يرزقون مجتمعاً صالحاً يحكم فيه العدل والإحسان وعيشة طيبة مبنية على الرشد والسعادة ينالون ذلك جزاء دنيوياً لإحسانهم لقوله : « لهم في الدنيا » ودار الحياة الآخرة خير جزاءً لأن فيها بقاء بلا فناء ونعمة من غير نقمة وسعادة ليس معها شقاء .

ومعنى الآية : وقيل للمتقين من المؤمنين ماذا أنزل ربكم من الكتاب وما شأنه ؟ قالوا أنزل خيراً، وكونه خيراً هو أن للذين أحسنوا - أي عملوا بما فيه فوضع الإحسان موضع الأخذ والعمل بما في الكتاب إيماء إلى أن الذي يأمر به الكتاب أعمال حسنة - في هذه الدنيا مثوبة حسنة ودار الآخرة خير لهم جزاء .

ثم مدح دارهم ليكون تأكيداً للقول فقال : « ولنعم دار المتقين » ثم بين دار المتقين بقوله : « جنات عدن يدخلونها تجري من تحتها الأنهار لهم فيها ما يشاؤون

كذلك يحزي الله المتقين ، والمعنى ظاهر .

قوله تعالى : « الذين تتوفاهم الملائكة طيبين يقولون سلام عليكم ادخلوا الجنة بما كنتم تعملون » بيان للمتقين كما كان قوله : « الذين تتوفاهم الملائكة ظالمي أنفسهم » الخ بياناً للمستكبرين .

والطيب تعري الشيء مما يختلط به فيكدره ويذهب بخلوصه ومحوضته يقال : طاب لي العيش أي خلص وتعري مما يكدره وينغصه والقول الطيب ما كان عارياً من اللغو والشم والحشونة وسائر ما يوجب فيه غضاظة ، والفرق بين الطيب والطهارة أن الطهارة كون الشيء على طبعه الأصلي بحيث يخلو عما يوجب التنفر عنه والطيب كونه على أصله من غير أن يختلط به ما يكدره ويفسد أمره سواء تنفّر عنه أم لا ولذلك قوبل الطيب بالخبث المشتعل على الخبث الزائد ، قال تعالى : « الخبيثات للخبيثين والخبيثون للخبيثات والطيبات للطيبين والطيبون للطيبات » النور : ٢٦ ، وقال : « والبلد الطيب يخرج نباته بإذن ربه والذي خبث لا يخرج إلا نكداً » الأعراف : ٥٨ .

وعلى هذا فالمراد بكون المتقين طيبين في حال توفيقهم خلوصهم من خبث الظلم في مقابل المستكبرين الذين وصفهم بالظلم حال التوفي في قوله السابق : « الذين تتوفاهم الملائكة ظالمي أنفسهم » ويكون معنى الآية أن المتقين هم الذين تتوفاهم الملائكة متعريين عن خبث الظلم - الشرك والمعاصي - يقولون لهم سلام عليكم - وهو تأمين قولي لهم - ادخلوا الجنة بما كنتم تعملون - وهو هداية لهم إليها - .

فالآية - كما ترى - تصف المتقين بالتخلص عن التلبس بالظلم وتمسدهم الأمن والاهتداء إلى الجنة فيعود مضمونها إلى معنى قوله : « الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم أولئك لهم الأمن وهم مهتدون » الأنعام : ٨٢ .

وذكر بعض المفسرين أن المراد بالطيب في الآية الطهارة عن دنس الشرك وفسره بعضهم بكون أقوالهم وأفعالهم زاكية ، والأكثر على تفسيره بالطهارة عن قذارة الذنوب وأنت بالتأمل فيما تقدم تعرف أن شيئاً مما ذكره لا يخلو عن تسامح . قوله تعالى : « هل ينظرون إلا أن تأتيهم الملائكة أو يأتي أمر ربك كذلك فعل

الذين من قبلهم « الخ ، رجوع إلى حديث المستكبرين من المشركين وذكر بعض أحوالهم وأقوالهم وقياسهم ممن سبقهم من طغاة الأمم الماضين وما آل إليه أمرهم .

وقوله : « هل ينظرون إلا أن تأتيهم الملائكة أو يأتي أمر ربك » سياق الآية وخاصة ما في الآية التالية من حديث العذاب ظاهر في أنها مسوقة للتهديد فالمراد بإتيان الملائكة نزولهم لعذاب الاستئصال وينطبق على مثل قوله : « ما ننزل الملائكة إلا بالحق وما كانوا إذا منظرين » الحجر : ٨ ، والمراد بإتيان أمر الرب تعالى قيام الساعة وفصل القضاء والانتقام الإلهي منهم .

وأما كون المراد بإتيان الأمر ما تقدم في أول السورة من قوله : « أتى أمر الله » وقد قربنا هناك أن المراد به مجيء النصر وظهور الإسلام على الشرك فلا يلزم اللحن الشديد الذي في الآية تلك الملائكة ، وأيضاً سيأتي في ذيل الآيات ذكر إنكارهم للبعث وإصرارهم على نفيه والرد عليهم ، وهو يؤيد كون المراد بإتيان الأمر قيام الساعة .

وقد أضاف الرب إلى النبي ﷺ فقال : « أمر ربك » ولم يقل : أمر الله أو أمر ربهم ليدل به على أن فيه انتصاراً له ﷺ وقضاء له عليهم .

وقوله : « كذلك فعل الذين من قبلهم » تأكيد للتهديد وتأييد بالنظير أي فعل الذين من قبلهم مثل فعلهم من الجحود والاستهزاء مما فيه بحسب الطبع انتظار عذاب الله « فأصابهم سيئات ما عملوا » الخ .

وقوله : « وما ظلمهم الله ولكن كانوا أنفسهم يظلمون » معترضة يبين بها أن الذي نزل بهم من العذاب لم يستوجبه إلا الظلم ، غير أن هذا الظلم كان هو ظلمهم أنفسهم لا ظلماً منه تعالى وتقدس ، ولم يعذبهم الله سبحانه عن ظلم وقع منهم مرة أو مرتين بل أمهلهم إذ ظلموا حتى استمروا في ظلمهم وأصروا عليه - كما يدل عليه قوله : كانوا أنفسهم يظلمون - فعند ذلك أنزل عليهم العذاب ، ففي قوله : « وما ظلمهم الله » الخ ، إثبات الاستمرار على الظلم عليهم ونفي أصل الظلم عن الله سبحانه .

قوله تعالى : « فأصابهم سيئات ما عملوا وحاق بهم ما كانوا به يستهزؤن » حاق بهم أي حل بهم ، وقيل : معناه نزل بهم وأصابهم ، والذي كانوا به يستهزؤن هو العذاب الذي كانت رسلكم ينذرونهم به ومعنى الآية ظاهر .

قوله تعالى : « وقال الذين أشركوا لو شاء الله ما عبدنا من دونه من شيء نحن ولا آباؤنا ولا حرمنا من دونه من شيء » الخ ، الذي تورده الآية شبهة على النبوة من الوثنيين المنكرين لها ، ولذلك عرفتهم بنعتهم الصريح حيث قال : « وقال الذين أشركوا » ولم يكتف بالضمير ولم يقل : وقالوا كما في الآيات السابقة ليعلم أن الشبهة لهم بعينهم .

وقوله : « لو شاء الله ما عبدنا » جملة شرطية حذف فيها مفعول « شاء » لدلالة الجزاء عليه ، والتقدير لو شاء الله أن لا نعبد من دونه شيئاً ما عبدنا الخ .

وقول بعضهم : إن الإرادة والمشيئة لا تتعلق بالعدم وإنما تتعلق بالوجود ، فلا معنى لمشيئة عدم العبادة فالأولى أن يقدر متعلق المشيئة أمراً وجودياً ملازماً لعدم العبادة كالتوحيد مثلاً ويكون التقدير لو شاء الله أن نوحده أو أن نعبد وحده ما عبدنا من دونه من شيء ، واستدل بقوله ﷺ : « ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن » حيث علق عدم الكون على عدم المشيئة لا على مشيئة العدم .

وفيه أن ما ذكره حق بالنظر إلى حقيقة الأمر ، إلا أن العنايات اللفظية والتوسعات الكلامية لا تدور دائماً مدار الحقائق الكونية والأنظار الفلسفية وإن الأفهام البسيطة — ولم تكن أفهام أولئك الوثنيين بأرقى منها — كما تجيز ترتب الفعل الوجودي على المشيئة تجيز تعلق عدمه بها ، وفي كلامه ﷺ جرياً على هذه العناية الظاهرية : « اللهم إن شئت أن لا تعبداً لم تعبداً » .

على أنهم يشيرون بقولهم : « لو شاء الله ما عبدنا » الخ ، إلى قول الرسل لهم : لا تشرکوا بالله ولا تعبدوا غير الله ولا تحرموا ما أحل الله وهي فواه ومدلول النهي طلب الترك .

على أن الوثنيين لا ينكرون توحيدته تعالى في الألوهية بمعنى الصنع والإيجاد ، وإنما يشركون في العبادة بمعنى أنهم يخصونه تعالى بالصنع والإيجاد ويخصون آلهتهم بالعبادة فلم آلهة كثيرون أحدهم إله موجد غير معبود وهو الله سبحانه ، والباقيون شفعاء معبودون غير موجدين فهم لا يعبدون الله أصلاً لا أنهم يعبدونه تعالى وآلهتهم جميعاً ، وحينئذ لو كان التقدير « لو شاء الله أن نوحده في العبادة أو أن نعبد وحده »

لكان الأهم أن يقع في الجزاء توحيدهم له في العبادة أو عبادتهم له وحده لا نفي عبادتهم لغيره أو كان نفي عبادة الغير كناية عن توحيد عبادته أو عبادته وحده ، فافهم ذلك . وإن كان ولا بد من تقدير متعلق المشية أمراً وجودياً فليكن التقدير : لو شاء الله أن نكف عن عبادة غيره ما عبدنا « الخ » حتى يتحدد الشرط والجزاء بحسب الحقيقة في عين أنهما يختلفان في النفي والإثبات .

وقوله : « ما عبدنا من دونه من شيء » لفظة من الأولى بيانية والثانية زائدة لتأكيد الاستغراق في النفي ، والمعنى ما عبدنا شيئاً دونه ، ونظير ذلك قوله : « ولا حرّمنا من دونه من شيء » .

وقوله : « نحن ولا آباؤنا » بيان لضمير التكلم في « عبدنا » للدلالة على أنهم يتكلمون عنهم وعن آبائهم جميعاً لأنهم كانوا يقتدون في عبادة الأصنام بآبائهم ، وقد تكرر في القرآن حكاية مثل قولهم : « إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون » الزخرف : ٢٣ .

وقوله : « ولا حرّمنا من دونه من شيء » عطف على قوله : « عبدنا » الخ أي ولو شاء الله أن لا نحرّم من دونه من شيء أو يحلّ ما حرّمناه ما حرّمنا الخ ، والمراد البحيرة والسائبة وغيرهما مما حرّموه .

ثم إن قولهم : « لو شاء الله ما عبدنا من دونه من شيء » الخ ، ظاهر من جهة تعليق نفي العبادة على نفس مشيئته تعالى في أنهم أرادوا بالمشية إرادته التكوينية التي لا تتخلف عن المراد البتة ولو أرادوا غيرها لفسالوا : لو شاء الله كذا لأطعناه واستجبنا دعوته أو ما يفيد هذا المعنى .

فكأنهم يقولون : لو كانت الرسالة حقة وكان ما جاء به الرسل من النهي عن عبادة الأصنام والأوثان والنهي عن تحريم البحيرة والسائبة والوصيلة وغيرها نواهي الله سبحانه كان الله سبحانه شاء أن لا نعبد شيئاً غيره وأن لا نحرّم من دونه شيئاً ، ولو شاء الله سبحانه أن لا نعبد غيره ولا نحرّم شيئاً لم نعبد ولم نحرّم لاستعالة تخلف مراده عن إرادته لكننا نعبد غيره ونحرّم أشياء فليس يشاء شيئاً من ذلك فلا نهى ولا أمر منه تعالى ولا شريعة ولا رسالة من قبله .

هذا تقرير حججهم على ما يعطيه السياق ، ومغزى مرادهم أن عبادتهم لغير الله وتحريمهم لما حرّموه وبالجملّة عامة أفعالهم لم تتعلق بها مشيئة من الله بنهي ولو تعلقت لم يعملوها ضرورة .

وليسوا يعنون بها أن مشيئة الله تعلقت بعبادتهم وتحريمهم فصارت ضرورية الوجود وهم ملجؤون في فعلها مجبرون في الإتيان بها فلا معنى لنهي الرسل عنها بعد الإلجاء وذلك أن « لو » تفيد امتناع الجزاء لامتناع الشرط فيكون مفهوم الشرطية « لو شاء الله ما عبدنا من دونه من شيء » أنه لم يشأ ذلك فعبدنا غيره ، وإن شئت قلت : لكننا عبدنا غيره فأنكشف أنه لم يشأ ذلك ، وأما مثل قولنا : لكنه شاء أن نعبد غيره فعبدنا غيره أو قولنا : لكنه شاء أن لا نوحده فعبدنا غيره فهو أجني عن مفهوم الشرطية ومنطوقها جميعاً .

على أنهم لو عنوا ذلك وكان غرضهم ردّ النبوة بإثبات الإلجاء في أفعالهم بما أقاموه من الحجة كانوا بذلك معترفين على الضلال مسلمين له غير أنهم معتذرون عن اتباع الهدى الذي أتاهم به الرسل بالإلجاء والإجبار وأن الله شاء منهم ما هم عليه من الضلال والشقاء بعبادة غير الله وتحريم ما أحلّ الله وأجبرهم على ذلك فليسوا يقدرّون على تركه ولا يستطيعون التخلف عنه .

لكنهم مدّعون للاهتداء مصرّون على هذه المزعمة مصرّحون بها كما حكى الله سبحانه ذلك عنهم بعد ذكر عبادتهم للملائكة إذ قال : « وقالوا لو شاء الرحمن ما عبدناهم ما لهم بذلك من علم إن هم إلا يخرصون - إلى أن قال - بل قالوا إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مهتدون » الزخرف : ٢٢ ، وقد تكرر في كلامه حكاية تعليلهم عبادة الأصنام بأنها سنة قومية قدّسها سلفهم قبل خلفهم فمن الواجب أن يقدّسها ويجري عليها خلفهم بعد سلفهم وأين هذا من الاعتراف بالضلال والشقاء ؟

وكذا ليسوا يعنون بهذه الحجة أن أفعالهم مخلوقة لأنفسهم غير مرتبطة بالمشيئة الإلهية ولا أنه خالقها إذ الأعمال والأفعال على هذا التقدير بمعزل من أن تتعلق بها الإرادة الإلهية ، وإنما يتسبب تعالى لعدم فعل من الأفعال بإيجاد المانع عنه فكان الأنسب حينئذ أن يقولوا : لو شاء الله لصرفنا عن عبادة غيره وتحريم ما حرّمناه وهو

مدفوع بظاهر الكلام أو يقولوا : لو شاء الله شيئاً من أعمالنا لبطل وخرج عن كونه عملاً لنا ونحن مستقلون به .

على أنه لو كان معنى قولهم : لو شاء الله ما عبدنا هو أنه لو شاء لصرفنا كان حقاً فلم يكن معنى لقوله تعالى في آية الزخرف السابقة : « وقالوا لو شاء الرحمن ما عبدناهم ما لهم بذلك من علم إن هم إلا يخرصون » الزخرف : ٢٠ .

فالحق أنهم أرادوا بقولهم : « لو شاء الله ما عبدنا من دونه من شيء » أن يستدلوا بعبادتهم لها على أن المشية الإلهية لم تتعلق بتركها من غير تعرض لتعلق المشية بفعل العبادة أو لكون المشية مستحيلة التعلق بعبادتهم إلا بالصرف .

قوله تعالى : « كذلك فعل الذين من قبلهم فهل على الرسل إلا البلاغ المبين » ، خطاب للنبي ﷺ بأمره أن يبلغ رسالته بلاغاً مبيناً ولا يعتني بما لفقوه من الحجة فإنها داحضة والحجة قائمة عليهم بالبلاغ وفيه إشارة إجمالية إلى دحض حجبتهم .

فقوله : « كذلك فعل الذين من قبلهم » أي على هذا الطريق الذي سلكه هؤلاء سلك الذين من قبلهم فعبدوا غير الله وحرّموا ما لم يحرمه الله ثم إذا جاءتهم رسلهم ينهاهم عن ذلك قالوا : لو شاء الله ما عبدنا من دونه من شيء نحن ولا آباؤنا ولا حرّمنا من دونه من شيء فالجملة كقوله تعالى : « كذاب آل فرعون والذين من قبلهم كفروا بآيات الله فأخذهم الله بذنوبهم » الأنفال : ٥٢ .

وقوله : « فهل على الرسل إلا البلاغ المبين » أي بلغتهم الرسالة بلاغاً مبيناً تتم به الحجة عليهم فإنما وظيفة الرسل البلاغ المبين وليس من وظيفتهم أن يلجؤا الناس إلى ما يدعونهم إليه وينهونهم عنه ولا أن يحملوا معهم إرادة الله الموجبة التي لا تتخلف عن المراد ولا أمره الذي إذا أراد شيئاً قال له كن فيكون حتى يحوّلوا بذلك الكفر إلى الإيمان ويضطروّوا العاصي على الإطاعة .

فإنما الرسول بشر مثلهم والرسالة التي بعث بها إنذار وتبشير وهي مجموعة قوانين اجتماعية أوحاها إليه الله فيها صلاح الناس في دنياهم وآخرتهم صورتها صورة الأوامر والنواهي المولوية وحقيقتها الإنذار والتبشير ، قال تعالى : « قل لا أقول لكم عندي

خزائن الله ولا أعلم الغيب ولا أقول لكم إني ملك . الانعام : ٥٠ ، فهذا ما أمر به نبيه ﷺ أن يبلغهم وقد أمر به نوحاً ومن بعده من الرسل عليهم السلام أن يبلغوه أمهم كما في سورة هود وغيرها .

وقال أيضاً مخاطباً نبيه ﷺ : « قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إليّ أنما إلهم إله واحد فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملاً صالحاً ولا يشرك بعبادة ربه أحداً ، الكهف : ١١٠ .

فهذا هو الذي يشير إليه على سبيل الإجمال بقوله : « كذلك فعل الذين من قبلهم فهل على الرسل إلا البلاغ المبين » فإن ظاهره كما أشرنا إليه سابقاً أن هذه حجة دائمة بينهم قديماً وحديثاً ، وعلى هذا ليس من شأن الرسول إجبار الناس وإلجاؤهم على الإيمان والطاعة بل البلاغ المبين بالإنذار والتبشير وحجتهم لا تدفع ذلك قبلت ما أرسلت به بلاغاً مبيناً ولا تطمع في هداية من ضل منهم ، وستفصل الآيتان التاليتان ما أجملته هذه الآية وتوضحانها .

قوله تعالى : « ولقد بعثنا في كل أمة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت فمنهم من هدى الله ومنهم من حقت عليه الضلالة » الخ ، الطاغوت في الأصل مصدر كالطغيان وهو تجاوز الحد بغير حق ، واسم المصدر منه الطغوى ، قال الراغب : الطاغوت عبارة عن كل متعد وكل معبود من دون الله ، ويستعمل في الواحد والجمع ، قال تعالى : « فمن يكفر بالطاغوت » والذين اجتنبوا الطاغوت « أولياؤهم الطاغوت » . انتهى .

وقوله : « ولقد بعثنا في كل أمة رسولا » إشارة إلى أن بعث الرسول أمر لا يختص به أمة دون أمة بل هو سنة إلهية جارية في جميع الناس بما أنهم في حاجة إليه وهو يدركهم أينما كانوا كما أشار إلى عمومه في الآية السابقة إجمالاً بقوله : « كذلك فعل الذين من قبلهم » .

وقوله : « أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت » بيان لبعث الرسول على ما يعطيه السياق أي ما كانت حقيقة بعث الرسول إلا أن يدعوهم إلى عبادة الله واجتناب الطاغوت لأن الأمر وكذا النهي من البشر وخاصة إذا كان رسولا ليس إلا دعوة عادية

لا إله إلا الله واضطراباً تكوينا ، ولا أن للرسول أن يدعي ذلك حتى يرد عليه أنه لو شاء الله ما عبدنا من دونه من شيء وإذ لم يشأ فلا معنى للرسالة .

ومن هنا يظهر أن قول بعضهم إن التقدير ليقول لهم : اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت . ليس في محله .

وقوله : « فمنهم من هدى الله ومنهم من حقت عليه الضلالة » أي كانت كل من هذه الأمم مثل هذه الأمة منقسمة إلى طائفتين فبعضهم هو من هداه الله إلى ما دعاه اليه الرسول من عبادة الله واجتناب الطاغوت .

وذلك أن الهداية من الله سبحانه لا يشاركه فيها غيره ولا تنسب إلى أحد دونه إلا بالتبع كما قال : « إنك لا تهدي من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء » القصص : ٥٦ وسنشير إليه في الآية التالية : « إن تحرص على هدام فإن الله لا يهدي من يضل » والآيات في حصر الهداية فيه تعالى كثيرة ، ولا يستلزم ذلك كونها أمراً اضطرارياً لا صنع فيه للعبد أصلاً فإنها اختيارية بالمقدمة كما يشير إليه قوله : « والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا وإن الله لمع المحسنين » العنكبوت : ٦٩ يفيد أن للهداية الإلهية طريقاً ميسراً للإنسان وهو الإحسان في العمل وأن الله لمع المحسنين لا يدعهم يضلون .

وبعض هذه الأمم - الطائفة الثانية منهم - هو من حقت عليه الضلالة أي ثبتت ولزمت ، وهذه الضلالة هي التي من قبل العبد بسوء اختياره وليست بالتبعية مجازاة من الله فإن الله يصفها بقوله : حقت ثم يضيفها في الآية التالية إلى نفسه إذ يقول : « فإن الله لا يهدي من يضل » فقد كانت هناك ضلالة ثم حقت وثبتت بإثبات الله مجازاة فصارت هي التي من قبل الله سبحانه مجازاة ، فتبصر .

ولم ينسب الله سبحانه في كلامه إلى نفسه إضلالاً إلا ما كان مسبوقاً بظلم من العبد أو فسق أو كفر وتكذيب أو نظائرها كقوله : « والله لا يهدي القوم الظالمين » الجمعة : ٥ وعدم الهداية هو الإضلال ، وقوله : « ويضل الله الظالمين ويفعل الله ما يشاء » إبراهيم : ٢٧ وقوله : « وما يضل به إلا الفاسقين » البقرة : ٢٦ ، وقوله : « إن الذين كفروا وظلموا لم يكن الله ليغفر لهم ولا ليهديهم طريقاً إلا طريق جهنم » النساء : ١٦٨ ، وقوله : « فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم » الصف : ٥ ، إلى غير ذلك من الآيات .

ولم يقل سبحانه : فمنهم من هدى الله ومنهم من أضلَّ مع كون ضلالهم ضلال مجازاة لا مانع من إضافته إليه تعالى دفعاً لإيهام نسبة أصل الضلال إليه بل ذكر أولاً من هداه ثم قابله بمن كان من حقه أن يضل - وهو الذي اختار الضلالة على الهدى أي اختار أن لا يهتدي - فلم يهده الله وحق له ذلك .

وتوضيحه ببيان آخر : أن خلاصة الفرق بين الضلال الابتدائي ونسبته إلى العبد والضلال مجازاة ونسبته إليه تعالى ونسبة الهداية ابتداءً ومجازاة إلى الله سبحانه هي أن الله أودع في الإنسان إمكان الرشد واستعداد الاهتداء فإن جرى على سلامة الفطرة ولم يبطل الاستعداد باتباع الهوى والمعصية أو أصلحه بالندامة والتوبة بعد المعصية هداه الله ، وهذه هداية مجازاة من الله سبحانه بعد الهداية الأولى الفطرية .

وإن اتَّبَعَ هواه وعصى ربه بطل استعداداه للاهتداء فلم يفض عليه الهدى وهو ضلاله بسوء اختياره فإن لم يندم ولم يرجع أثبتته الله على حاله وحقت عليه الضلالة وهو الضلال مجازاة .

وربما توهم متوهم أن الإمكان والاستعداد لا يكون إلا إذا طرفين فالذي يمكنه الهدى يمكنه الضلال ، والإنسان لا يزال متردداً بين آثار وجودية وأفعال مثبتة والجميع منه تعالى حق الاستعداد والإمكان الأول .

وهو من أوهن التوهم فإن عدم إمكان الضلال وما يترتب عليه الضلال أمراً وجودياً وعطاء ربانياً يفسد معنى الضلال ويبطله فإن الضلال إنما هو ضلال لكونه عدم الهداية فلو عاد أمراً ثبوتياً لم يكن ضلالاً بل صار الهدى والضلال كلاهما أمرين وجوديين وعطاءين إلهيين نظير ما يترتب على الجماد مثلاً من الآثار الوجودية الخارجة عن الهدى والضلال .

وبعبارة أخرى : الضلال إنما يكون ضلالاً إذا كان مقيساً إلى الهدى ومن الواجب حينئذ أن يكون عدم الهدى وإذا أخذ أمراً وجودياً لم يكن ضلالاً فلم ينقسم الموضوع إلى مهتد وضال ولا حاله إلى هدى وضلال فلا مفر من أخذ الضلال أمراً عديمياً ، ونسبة الضلال الأول إلى نفس العبد . فأحسن التأمل فيه فلا تزل قدم بعد ثبوتها .

وقوله : « فسيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذابين » ظاهر السياق

أن الخطاب للذين أشركوا القائلين: «لو شاء الله ما عبدنا من دونه من شيء» والالتفات إلى خطايهم لكونه أشد تأثيراً في تثبيت القول وإتمام الحجة .

والكلام متفرع على ما بيّن جواباً لحجتهم إجمالاً وتفصيلاً ومحصل المعنى أن الرسالة والدعوة النبوية ليست من الإرادة التكوينية الملجئة إلى ترك عبادة الأصنام وتحريم ما لم يحرمه الله حتى يستدلوا بعدم وجود الإلجاء على عدم وجود الرسالة وكذب مدّعيها بل هي دعوة عادية بعث الله سبحانه بها رسلاً يدعونكم إلى عبادة الله واجتناب الطاغوت وحقيقته الإنذار والتبشير ، ومن الدليل على ذلك آثار الأمم الماضية الظالمة التي تحكي عن نزول العذاب عليهم فسيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين حتى يتبين لكم أن الدعوة النبوية التي هي إنذار حق وأن الرسالة ليست كما تزعمون .

قوله تعالى : « إن تحرص على هداهم فإن الله لا يهدي من يضلّ وما لهم من ناصرين » لما بيّن أن الأمم الماضية انقسموا طائفتين وكانت إحدى الطائفتين هم الذين حقّت عليهم الضلالة وكانت هؤلاء الذين أشركوا وقالوا ما قالوا كالذين من قبلهم منهم بيّن في هذه الآية أن ثبوت الضلالة في حقهم إنما هو ثبوت لا زوال معه وتحتم لا يقبل التغيير فإنه لا هادي بالحقيقة إلا الله فإن جاز هداهم كان الله هو هاديهم لكنه لا يهديهم فإنه يضلهم ولا يجتمع الهدى والضلال معاً ، وليس هناك ناصر ينصرهم على الله فيقهره على هداهم فليؤيس منهم .

ففي الآية تعزية للنبي ﷺ وإرشاد له أن لا يحرص في هداهم ، وإعلام له أن القضاء قد مضى في حقهم وما يبدّل القول لديه وما هو بظلام للعبيد .

فقوله : « إن تحرص على هداهم » الخ ، في تقدير إن تحرص على هداهم لم ينفعهم حرصك شيئاً فليسوا ممن يمكن له الاهتداء فإن الله هو الذي يهدي من اهتدى ، وهو لا يهديهم فإنه يضلهم ولا يناقض تعالى فعل نفسه ، وليس لهم ناصرون ينصرونهم عليه .

وفي هذه الآيات الثلاث مشاجرات طويلة بين المجرّة والمفوضة وكل يفسرها بما يقتضيه مذهبه حتى قال الامام الرازي : إن المشركين أرادوا بقولهم : لو شاء الله ما عبدنا من دونه من شيء الخ ، أنه لما كان الكل من التوحيد والشرك والهدى والضلال

من الله كانت بعثة الأنبياء عبثاً فنقول : هذا اعتراض على الله وجار مجرى طلب العلة في أحكامه وأفعاله تعالى وذلك باطل فلا يقال له : لم فعلت هذا ولم لم تفعل ذلك ؟ قال : فثبت أن الله تعالى إنما ذم هؤلاء القائلين لأنهم اعتقدوا أن كون الأمر كذلك يمنع عن جواز بعثة الرسل لا لأنهم كذبوا في قولهم ذلك . انتهى ملخصاً .

وقال الزمخشري : إن المشركين فعلوا ما فعلوا من القبيح ثم نسبوه إلى ربهم وقالوا لو شاء الله إلى آخره وهذا مذهب المجبرة بعينه كذلك فعل أسلافهم فهل على الرسل إلا أن يبلتغوا الحق وأن الله لا يشاء الشرك والمعاصي بالبيان والبرهان ، ويطلعوا على بطلان الشرك وقبحه ، وبراءة الله من أفعال العباد ، وأنهم فاعلوها بقصدهم وإرادتهم واختيارهم ، وأن الله باعثهم على جميلها وموفقهم له وزاجرهم عن قبيحها وموعدهم عليه ، انتهى موضع الحاجة وقد أطالوا البحث عن ذلك من الجانبين .

وقد عرفت أن الآيات تروم غرضاً وراء ذلك ، وأن مرادهم بقولهم : « لو شاء الله ما عبدنا من دونه من شيء » الخ ، إبطال الرسالة بأن ما أتى به الرسل من النهي عن عبادة غير الله وتحريم ما لم يحرمه الله لو كان حقاً لكان الله مريداً لتركهم عبادة غيره وتحريم ما لم يحرمه الله ولو كان مريداً ذلك لم يتحقق منهم وليس كذلك ، وأما أن الإرادة الإلهية تعلقت بفعلهم فوجب أو أنها لم تتعلق ومن المحال أن تتعلق ، وليست أفعالهم إلا مخلوقة لأنفسهم من غير أن يكون لله سبحانه فيها صنع فإنما ذلك أمر خارج عن مدلول كلامهم أجنبي عن الحجة التي أقاموها على ما يستفاد من السياق كما تقدم .

وفي قوله : « وما لهم من ناصرين » دلالة على أن لغيرهم ناصرين كثيرين وذلك أن السياق يدل على أنه ليس لهم ناصر أصلاً لا واحد ولا كثير فنفي الناصرين بصيغة الجمع يكشف عن عناية زائدة بذلك أي أن هناك ناصرين لكنهم ليسوا لهم بل لغيرهم وليس إلا من يهتدي بهدى الله ، ونظير الآية ما حكاه الله سبحانه عن المجرمين يوم القيامة : « فما لنا من شافعين » الشعراء : ١٠٠ .

وهؤلاء الناصرون هم الملائكة الكرام وسائر أسباب التوفيق والهداية والله سبحانه من وراءهم محيط ، قال تعالى : « إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد » المؤمن : ٥١ .

قوله تعالى : « وأقسموا بالله جهد أيمانهم لا يبعث الله من يموت بلى » إلى آخر الآية ، قال في المفردات : الجهد والجهد - بفتح الجيم وضمها - الطاقة ، والمشقة أبلغ من الجهد بالفتح ، قال : وقال تعالى : « وأقسموا بالله جهد أيمانهم » أي حلفوا واجتهدوا في الحلف أن يأتوا به على أبلغ ما في وسعهم . انتهى .

وقال في المجمع في معنى قوله : « وأقسموا بالله جهد أيمانهم » أي بلغوا في القسم كل مبلغ . انتهى .

وقولهم : « لا يبعث الله من يموت » إنكار للحشر ، والجملة كناية عن أن الموت فناء فلا يتعلق به بعده خلق جديد ، وهذا لا ينافي قول كلهم أو جلهم بالتناسخ فإنه قول بتعلق النفس بعسد مفارقتها البدن ببدن آخر إنساني أو غير إنساني وعيشها في الدنيا ، وهو قولهم بالتولد بعد التولد .

وقوله : « بلى وعداً عليه حقاً » أي ليس الأمر كما يقولون بل يبعث الله من يموت وعده وعداً ثابتاً عليه حقاً أي إن الله سبحانه أوجب على نفسه بالوعد الذي وعد عباده ، وأثبتته إثباتاً فلا يتخلف ولا يتغير .

وقوله : « ولكن أكثر الناس لا يعلمون » أي لا يعلمون أنه من الوعد الذي لا يخلف والقضاء الذي لا يتغير لإعراضهم عن الآيات الدالة عليه الكاشفة عن وعده وهي خلق السماوات والأرض واختلاف الناس بالظلم والطغيان والعدل والإحسان والتكليف النازل في الشرائع الإلهية .

قوله تعالى : « لبيّن لهم الذي يختلفون فيه وليعلم الذين كفروا أنهم كانوا كاذبين » اللام للفساية والغرض أي يبعث الله من يموت لبيّن لهم الخ ، والغايتان في الحقيقة غاية واحدة فإن الثانية من متفرعات الأولى ولوازماً فإن الكافرين إنما يعلمون أنهم كانوا كاذبين في نفي المعاد من جهة تبين الاختلاف الذي ظهر بينهم وبين الرسل بسبب إثبات المعاد ونفيه وظهور المعاد لهم عياناً .

وتبين ما اختلف فيه الناس من شؤون يوم القيامة ، وقد تكرر في كلامه هذا التعبير وما في معناه تكراراً صحّ معه جعل تبين الاختلاف معرفاً لهذا اليوم الذي ثقل في السماوات والأرض ، وعلى ذلك يتفرع ما قصه الله سبحانه في كلامه من تفاصيل

ما يجري فيه من المرور على الصراط وتطايير الكتب ووزن الأعمال والسؤال والحساب وفصل القضاء .

ومن المعلوم - وخاصة من سياق آيات القيامة - أن المراد بالاختلاف ليس ما يوجد بينهم بحسب الخلقة بنحو ذكورة وانوثة وطول وقصر وبياض وسواد بل ما يوجد في دين الحق من الاختلاف في اعتقاد أو عمل . وقد بيّن الله ذلك لهم في هذه النشأة الدنيوية في كتبه المنزلة وبلسان أنبيائه بكل طريق ممكن كما يقول بمعد عدة آيات : « وما أنزلنا عليك الكتاب إلا لتبين لهم الذي اختلفوا فيه » الآية ٦٤ من السورة .

ومن هنا يظهر للمتدبر أن البيان الذي يخبر تعالى عنه ويخصه بيوم القيامة نوع آخر من الظهور والوضوح غير ما يتشكى من الكتاب والنبوة في هذه الدنيا من البيان بالحكمة والموعظة والجدال والتي هي أحسن ، وليس إلا العيان الذي لا يتطرق إليه شك وارتياب ولا يهجنس معه خطور نفساني بالخلاف كما يشير إليه قوله تعالى : « لقد كنت في غفلة من هذا فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد » ق : ٢٢ ، وقوله : « يومئذ يوفيه الله دينهم الحق ويعلمون أن الله هو الحق المبين » النور : ٢٥ .

فيومئذ يشاهدون حقائق ما اختلفوا فيه من المعارف الدينية الحققة والأعمال الصالحة وما أخلدوا إليه من الباطل ويفصل بينهم بظهور الحق وانجلائه .

قوله تعالى : « إنما قولنا لشيء إذا أردناه أن نقول له كن فيكون » هو نظير قوله في موضع آخر : « إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون » يس : ٨٢ ، ومنه يعلم أنه تعالى يسمي أمره قولاً كما يسمي أمره وقوله من حيث قوته وإحكامه وخروجه عن الإيهام وكونه مراداً حكماً وقضاً ، قال تعالى : « وما أغني عنكم من الله من شيء إن الحكم إلا لله » يوسف : ٦٧ ، وقال : « وقضينا إليه ذلك الأمر أن دابر هؤلاء مقطوع مصبحين » الحجر : ٦٦ ، وقال : « وإذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون » البقرة : ١١٧ ، وكما يسمي قوله الخاص كلمة ، قال تعالى : « ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين إنهم لهم المنصورون » الصافات : ١٧٢ ، وقال : « إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون » آل عمران :

٥٩ ، ثم قال في عيسى عليه السلام : « وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه » النساء : ١٧١ .
فتحصل من ذلك كله أن إيجاده تعالى أعني ما يفيضه على الأشياء من الوجود من عنده - وهو بوجه نفس وجود الشيء الكائن - هو أمره وقوله حسب ما يسميه القرآن وكلمته لكن الظاهر أن الكلمة هي القول باعتبار خصوصيته وتعيينه .

ويتبين بذلك أن إرادته وقضاه واحد ، وأنه بحسب الاعتبار متقدم على القول والأمر فهو سبحانه يريد شيئاً ويقضيه ثم يأمره ويقول له كن فيكون ، وقد علل عدم تخلف الأشياء عن أمره بالطف التعليل إذ قال : « وهو الذي خلق السماوات والأرض بالحق ويوم يقول كن فيكون قوله الحق » الأنعام : ٧٣ ، فأفاد أن قوله هو الحق الثابت بحقيقة معنى الثبوت أي نفس العين الخارجية التي هي فعله فلا معنى لفرض التخلف فيه وعروض الكذب أو البطلان عليه فمن الضروري أن الواقع لا يتغير عما هو عليه فلا يخطئ ولا يغلط في فعله ، ولا يرد أمره ، ولا يكذب قوله ولا يخلف في وعده .

وقد تبين أيضاً من هذه الآية ومن قوله : « وقال الذين أشركوا لو شاء الله ما عبدنا من دونه من شيء » النخ ، أن الله سبحانه وإرادته : إرادة تكوين لا يتخلف عنها المراد ، وإرادة تشريع يمكن أن تعصى وتطاع ، وسنستوفي هذا البحث بعض الاستيفاء إن شاء الله .

(بحث رواني)

في تفسير القمّي بإسناده عن أبي جعفر عليه السلام في قوله : « قد مكر الذين من قبلهم فأتى الله بنيانهم من القواعد فخرّ عليهم السقف من فوقهم وأتاهم العذاب من حيث لا يشعرون » قال : بيت مكرهم أي ماتوا وأبقاهم الله في النار وهو مثل لأعداء آل محمد .

أقول : وظاهره أن قوله : « فأتى الله بنيانهم » النخ كناية عن بطلان مكرهم .
وفي تفسير العياشي عن محمد بن مسلم عن أبي جعفر عليه السلام قال : « فأتى الله

بنيانهم من القواعد ، قال : كان بيت غدر يجتمعون فيه إذا أرادوا الشر .

وفي تفسير القمي في قوله تعالى : « قال الذين أوتوا العلم » الآية قال : قال عليه السلام : الذين أوتوا العلم الأئمة يقولون لأعدائهم : أين شركاؤكم ومن أطعمتموهم في الدنيا ؟ ثم قال : قال : فهم أيضاً الذين تتوفاهم الملائكة ظالمي أنفسهم « فألقوا السلم » سلموا لما أصابهم من البلاء ثم يقولون : « ما كنا نعمل من سوء » فردّ الله عليهم فقال : « بلى » ، الخ .

وفي أمالي الشيخ بإسناده عن أبي إسحاق الهمداني عن أمير المؤمنين عليه السلام فيما كتبه إلى أهل مصر قال : يا عباد الله إن أقرب ما يكون العبد من المغفرة والرحمة حين يعمل بطاعته وينصح في توبته . عليكم بتقوى الله فإنها يجمع الخير ولا خير غيرها ويدرك بها من خير الدنيا وخير الآخرة ، قال عز وجل : « وقيل للذين اتقوا ماذا أنزل ربكم قالوا خير للذين أحسنوا في هذه الدنيا حسنة ولدار الآخرة خير ولنعم دار المتقين » . وفي تفسير العياشي عن ابن مسكان عن أبي جعفر عليه السلام في قوله : « ولنعم دار المتقين » قال : الدنيا .

وفي تفسير القمي في قوله : « الذين تتوفاهم الملائكة طيبين » قال : قال عليه السلام : هم المؤمنون الذين طابت مواليدهم في الدنيا .

أقول : وهو بالنظر إلى ما يقابله من قوله : « الذين تتوفاهم الملائكة ظالمي أنفسهم » الآية لا يخلو عن خفاء والرواية ضعيفة .

وفي الدر المنثور أخرج ابن أبي حاتم عن السدي قال : اجتمعت قريش فقالوا : إن محمداً رجل حلوا اللسان إذا كلمه الرجل ذهب بعقله فانظروا أناساً من أشرافكم المعدودين المعروفة أنسابهم فابعثوهم في كل طريق من طرق مكة على رأس كل ليلة أو ليلتين فمن جاء يريده فردوه عنه .

فخرج ناس منهم في كل طريق فكان إذا أقبل الرجل وافداً لقومه ينظر ما يقول محمد ؟ فينزل بهم قالوا له : أنا فلان بن فلان فيعرفه بنسبه ويقول : أنا أخبرك بمحمد فلا يريد أن يعنى إليه هو رجل كذاب لم يتبعه على أمره إلا السفهاء والعبيد ومن لا خير فيه وأما شيوخ قومه وخيارهم فمفارقون له فيرجع أحدهم فذلك قوله :

« وإذا قيل لهم ماذا أنزل ربكم قالوا أساطير الأولين » .

فإذا كان الوافد ممن عزم الله له على الرشاد فقالوا له مثل ذلك في محمد قال: بشى الوافد أنا لقومي إن كنت جئت حتى بلغت إلا مسيرة يوم رجعت قبل أن ألقى هذا الرجل وأنظر ما يقول وآتي قومي ببيان أمره فيدخل مكة فيلقى المؤمنين فيسألهم: ماذا يقول محمد؟ فيقولون: خيراً للذين أحسنوا في هذه الدنيا حسنة يقول مال ولددار الآخرة خير وهي الجنة .

أقول: والاعتبار يساعد على القصة وما في آخرها من تفسير الحسنة بالمسال غير مرخي .

وفي الكافي بإسناده عن صفوان بن يحيى قال: قلت لأبي الحسن عليه السلام: أخبرني عن الإرادة من الله ومن الخلق . قال: فقال: الإرادة من الخلق الضمير وما يبدو لهم بعد ذلك من الفعل ، وأما من الله تعالى فأرادته إحداثه لا غير ذلك لأنه لا يروى ولا يهم ولا يتفكر ، وهذه الصفات منفية عنه وهي صفات الخلق فأرادة الله الفعل لا غير ذلك يقول له: كن فيكون بلا لفظ ولا نطق بلسان ولا همة ولا تفكر ولا كيف لذلك كما أنه لا كيف له .

وفي الدر المنثور أخرج أحمد والترمذي وحسنه وابن أبي حاتم وابن مردويه والبيهقي في شعب الإيمان واللفظ له عن أبي ذر عن رسول الله ﷺ قال: يقول الله: يا ابن آدم كلّمك مذنب إلا من عافيت فاستغفروني أغفر لكم وكلّمك فقراء إلا من أغنيت فسلوني أعطكم ، وكلّمك ضال إلا من هديت فسلوني الهدى أهدكم ومن استغفرتني وهو يعلم أنني ذو قدرة على أن أغفر له غفرت له ولا أبالي .

ولو أن أولكم وآخركم وحيثكم وميتكم ورطبكم ويابسكم اجتمعوا على قلب أشقى واحد منكم ما نقص ذلك من سلطاني مثل جناح بعوضة ، ولو أن أولكم وآخركم وحيثكم وميتكم ورطبكم ويابسكم اجتمعوا على قلب أتقى واحد منكم ما زادوا في سلطاني مثل جناح بعوضة ، ولو أن أولكم وآخركم وحيثكم وميتكم ورطبكم ويابسكم سألوني حق تفتي مسألة كل واحد منهم فأعطيتهم ما سألوني ما نقص ذلك مما عندي كغرز إبرة لو غمسها أحدكم في البحر .

وذلك أني جواد ماجد واحد عطائي كلام وعذابي كلام إنما أمري لشيء إذا أردت أن أقول له كن فيكون .

* * *

وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا لَنَبُوْنَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا
حَسَنَةً وَلَا نُجْرُ الْآخِرَةَ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ — ٤١ . الَّذِينَ صَبَرُوا
وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ — ٤٢ . وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِي
إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ — ٤٣ . بِالْبَيِّنَاتِ
وَالزُّبُرِ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ
يَتَفَكَّرُونَ — ٤٤ . أَفَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَرُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ يَخْسِفَ اللَّهُ بِهِمُ
الْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ — ٤٥ . أَوْ يَأْخُذَهُمْ
فِي تَقْلِبِهِمْ فَمَّا هُمْ بِمُعْجِزِينَ — ٤٦ . أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَىٰ تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمْ
لَوْفٌ رَحِيمٌ — ٤٧ . أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ يَتَفَيَّوْا
ظِلَالُهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالْشَّمَائِلِ سُجَّدًا لِلَّهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ — ٤٨ . وَلِلَّهِ
يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ دَابَّةٍ وَالْمَلَائِكَةُ وَهُمْ لَا
يَسْتَكْبِرُونَ — ٤٩ . يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ — ٥٠ .
وَقَالَ اللَّهُ لَا تَتَّخِذُوا إِلَهَيْنِ اثْنَيْنِ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌُ وَاحِدٌ فَإِيَّايَ
فَارْهَبُونِ — ٥١ . وَلَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَهُ الدِّينُ وَاصِبًا

أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَتَّقُونَ - ٥٢ . وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ
 الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْتَرُونَ - ٥٣ . ثُمَّ إِذَا كُشِفَ الضُّرُّ عَنْكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِنْكُمْ
 بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ - ٥٤ . لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ
 تَعْلَمُونَ - ٥٥ . وَيَجْعَلُونَ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ نَصِيبًا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ تَأَلُّهُ
 لِّلنَّاسِ عَمَّا كُنْتُمْ تَفْتَرُونَ - ٥٦ . وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَانَهُ وَلَهُمْ
 مَا يَشْتَهُونَ - ٥٧ . وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالْأُنْثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ
 كَظِيمٌ - ٥٨ . يَتَوَارَىٰ مِنَ الْقَوْمِ مِنْ سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَىٰ
 هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ - ٥٩ . لِلَّذِينَ لَا
 يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ مَثَلُ السَّوْءِ وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ - ٦٠ .
 وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِمْ مَا تَرَكَ عَلَيْهِمْ مِنْ ذَاتِهِ وَلَكِنْ
 يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا
 يَسْتَقْدِمُونَ - ٦١ . وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ
 الْكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ الْحُسْنَىٰ لَا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ النَّارَ وَأَنَّهُمْ مُّفْرَطُونَ - ٦٢ .
 تَاللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَهُوَ
 وَلِيُّهُمُ الْيَوْمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ - ٦٣ . وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ
 إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ - ٦٤ .

(بيان)

الآيتان الاوليان تذكران الهجرة وتعدان المهاجرين في الله وعداً حسناً في الدنيا والآخرة ، وباقي الآيات تعقب حديث شركهم بالله وتشريعهم بغير إذن الله ، وهي بحسب المعنى تفصيل القول في الجواب عن عدّ المشركين الدعوة النبوية إلى ترك عبادة الآلهة وتحريم ما لم يحرمه الله أمراً محالاً كما أشير إليه في قوله : « وقال الذين أشركوا ، الخ .

قوله تعالى : « والذين هاجروا في الله من بعد ما ظلموا لنبوّئنهم في الدنيا حسنة ولأجر الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون » وعد جميل للمهاجرين ، وقد كانت من المؤمنين هجرة عن مكة : إحداها إلى حبشة هاجرتها عدّة من المؤمنين بالنبي صلى الله عليه وآله بإذن من الله ورسوله إليها ولبثوا فيها حيناً في أمن وراحة من أذى مشركي مكة وعذابهم وقتلتهم .

والثانية هجرتهم من مكة إلى المدينة بعد مهاجرة النبي ﷺ ، والظاهر أن المراد بالهجرة في الآية هي الهجرة الثانية فسياق الآيتين أكثر ملاءمة لها من الأولى وهو ظاهر .

وقوله : « في الله » متعلق بهاجروا ، والمراد بكون المهاجرة في الله أن يكون طلب مرضاته محيطاً بهم في مهاجرتهم لا يخرجون منه إلى غرض آخر كما يقال : سافر في طلب العلم وخرج في طلب المعيشة أي لا غاية له إلا طلب العلم ولا بغية له إلا طلب المعيشة ، والسياق يعطي أن قوله : « من بعد ما ظلموا » أيضاً مقيد بذلك معنى ، والتقدير : والذين هاجروا في الله من بعد ما ظلموا فيه ، وإنما حذف اختصاراً وإنما اكتفي به قيداً للمهاجرة لأنها محل الابتلاء فتخصيصه بإيضاح الحال أولى .

وقوله : « لنبوّئنهم في الدنيا حسنة » قيل : أي بلدة حسنة بدلاً مما تركوه من وطنهم كمكة وحواليها بدليل قوله : « لنبوّئنهم » فإنه من بوأت له مكاناً أي سوّيت وأقررت فيه .

وقيل : أي حالة حسنة من الفتح والظفر ونحو ذلك فيكون قوله : « لنبوّئنهم »

الخ ، من الاستعارة بالكناية .

والوجهان متحدان مآلاً فإنهم إنما كانوا يهاجرون ليعقدوا مجتمعاً إسلامياً طيباً لا يُعبد فيه إلا الله ، ولا يحكم فيه إلا العدل والإحسان أو ليدخلوا في مجتمع هذا شأنه فلو رجوا في مهاجرهم غاية حسنة أو وعدوا بغاية حسنة كان ذلك هذا المجتمع الصالح ، ولو حصدوا البلدة التي يهاجرون إليها لكان حصدهم للمجتمع الإسلامي المستقر فيها لا لماؤها أو هوائها فالغاية الحسنة التي يعدم الله في الدنيا هي هذا المجتمع سواء أريد بالحسنة البلدة أو الغاية .

وقوله : « ولأجر الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون » تتميم للوعد وإشارة إلى أن أجر الآخرة أفضل من هذا الأجر الدنيوي لو كانوا يعلمون ما أعد الله لهم فيها من النعم فإن فيها سعادة من غير شقاء وخلوداً من غير فناء ولذة غير مشوبة بآلم وجوار رب العالمين .

قوله تعالى : « الذين صبروا وعلى ربهم يتوكلون » لا يبعد أن يستفاد من سياق الآيتين أن جملة العناية فيها إلى وعد المهاجرين في الله وعداً حسناً في الدنيا والآخرة من غير نظر إلى الإخبار بتحقيق الهجرة قبل حال الخطاب فيكون الكلام في معنى الاشتراط : من هاجر في الله فله كذا وكذا ، وتكون العناية في قوله : « الذين صبروا » الخ بتوصيف المهاجرين بالصبر والتوكل من غير نظر إلى ما تحقق منهم من ذلك أيام توقفهم في أوطانهم بين المشركين قبالة أذاهم وفتنتهم .

والعناية بالتوصيف إنما هي لكون كلتا الصفتين دخيلتين في الغاية الحسنة التي وعدوا بها إذ لو لم يصبروا على مرّ الجهاد وأظهروا الجزع عند هجوم العظام ولم يتأيدوا بالتوكل على الله واعتمدوا على أنفسهم الضعيفة أحيط بهم ولم ينهيا لهم المستقر وفرّقهم العدو المصر على عداوته بدداً وتلاشى المجتمع الصالح الذي أقاموه في مهاجرهم هذا في الدنيا ، وأما أمر الآخرة ففساده بفساد المجتمع أو تلاشي أوضاعه .

ولو كان المراد وعد المهاجرين الذين تحقق منهم الهجرة قبل نزول الآية تطيباً لنفوسهم وتسلياً لهم عما أخرجوا من ديارهم وأموالهم وقاسوا الفتن والمحن كان قوله : « الذين صبروا وعلى ربهم يتوكلون » مدحاً لهم بما ظهر منهم أيام إقامتهم بمكة

وغيرها من الصبر في الله على أذى المشركين والتوكل على الله فيما عزموا عليه من الاسلام لله .

قوله تعالى : « وما أرسلنا من قبلك إلا رجالاً نوحي اليهم فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون » رجوع ثالث إلى بيان كيفية إرسال الرسل وإزالة الكتب حتى يتضح للمشركين أنه لم تكن الدعوة الدينية إلا دعوة عادية من رجال يوحى اليهم من البشر يندبون إلى ما فيه صلاح الناس في دنياهم وعقباهم .

وأنه لم يدع أحد من الرسل ولا ادعى في كتاب من كتب الشرائع أن الدعوة الدينية ظهور للقدرة الغيبية القاهرة لكل شيء والارادة التكوينية لهدم النظام الجاري ونقض سنة الاختيار وإبطالها حتى يقول القائل منهم : « لو شاء الله ما عبدنا من دونه من شيء » الخ .

وعلى هذا فقول سبجانه : « وما أرسلنا من قبلك إلا رجالاً نوحي اليهم » مسوق لحصر الرسالة على البشر العادي من رجال يوحى اليهم قبال ما ادعاه المشركون أنها لو كانت لكانت نقضاً لنظام الطبيعة وإبطالا للاختيار والإستطاعة .

وبه يظهر عدم استقامة ما ذكره غير واحد منهم أن الآية مسوقة لرد المشركين من قريش حيث كانوا يزعمون أن البشر لا يصلح للرسالة وأنها لو كانت فهي من شأن الملائكة فالآية تخبر أن السنة الإلهية جرت حسب ما اقتضته الحكمة على أن لا يبعث للدعوة الدينية إلا رجالاً من البشر يوحى اليهم المعارف والأوامر والنواهي .

وذلك أن سياق الآيات لا يساعد على ذلك ، ولم يتقدم في الكلام ذكر اقوالهم ذلك أو لاقتراحهم بعثة الملائكة للرسالة حتى يوجه الكلام إلى ذلك .

وإنما الذي تقدم هو قول المشركين : « لو شاء الله ما عبدنا من دونه من شيء » الخ وكان مسوقاً لإثبات استحالة النبوة لا لكونها من شأن الملائكة .

واستدل بعضهم بالآية على أن الله سبحانه لم يرسل صبياً ولا امرأة ، واستشكل بنبوة عيسى عليه السلام في المهد واجيب بأن النبوة أعم من الرسالة والذي أثبتته عيسى لنفسه بقوله : « إني عبد الله آتاني الكتاب وجعلني نبياً » مريم : ٣٠ ، هي النبوة دون الرسالة .

وفيه أن الاستدلال المذكور بالآية إنما هو بقوله : « وما أرسلنا » وهذا الفعل كما يتعلق في القرآن بالرسول كذلك يتعلق بالنبى غير الرسول قال تعالى : « وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبى » الآية فلو تم الاستدلال المذكور لدلّ على حرمان الأطفال والنساء عن الرسالة والنبوة جميعاً ، وقد حكى الله عن عيسى عليه السلام قوله : « إني عبد الله آتاني الكتاب وجعلني نبياً » مريم : ٣٠ ، وقال في يحيى عليه السلام : « وآتيناه الحكم صبياً » مريم : ١٢ .

والحق أن الآية : « وما أرسلنا من قبلك إلا رجالاً » إنما هي في مقام بيان أن الرسل كانوا رجالاً من البشر العادي من غير عناية بكونهم أول ما بعثوا للرسالة أفراداً بالغين مبلغ الرجال فالغرض أن نوحاً وإبراهيم وموسى وعيسى ويحيى عليهم السلام - وهم رسل - كانوا رجالاً يوحى إليهم ولم يكونوا أشخاصاً مجهزين بقدره القاهرة غيبية وإرادة إلهية تكوينية .

ويقرب من الآية قوله تعالى : في موضع آخر : « وما أرسلنا قبلك إلا رجالاً نوحى إليهم فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون وما جعلناهم جسداً لا يأكلون الطعام وما كانوا خالدين » الأنبياء : ٨ .

وقوله : « فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون » الظاهر أنه خطاب للنبي ﷺ ولقومه ، وقد كان الخطاب في سابق الكلام للنبي ﷺ خاصة والمعنى موجه إلى الجميع فهو تعميم الخطاب للجميع ليتخذ كل من المخاطبين سبيله فمن كان لا يعلم ذلك كبعض المشركين راجع أهل الذكر واسألهم ومن كان يعلم ذلك كالنبي ﷺ والمؤمنين به كان في غنى عن الرجوع والسؤال .

وقيل : إن الخطاب في الآية للمشركين فإنهم هم المنكرون فليرجعوا وليسألوا وفيه أن لازم ذلك كون الجملة التفاتاً من خطاب الفرد إلى خطاب الجميع ولا نكتة ظاهرة تصحح ذلك والله أعلم .

والذكر حفظ معنى الشيء أو استحضاره ، ويقال لما به يحفظ أو يستحضر قال الراغب في المفردات : الذكر تارة يقال ويراد به هيئة للنفس بها يمكن للإنسان أن يحفظ

ما يقتنيه من المعرفة وهو كالحفظ إلا أن الحفظ يقال اعتباراً بإحرازه والذكر يقال اعتباراً باستحضاره ، وقارة يقسال لحضور الشيء في القلب أو القول ولذلك قيل : الذكر ذكران : ذكر بالقلب ، وذكر باللسان ، وكل واحد منها ضربان : ذكر عن نسيان وذكر لا عن نسيان بل عن إداعة الحفظ ، انتهى موضع الحاجة .

والظاهر أن الأصل فيه ما هو للقلب وإنما يسمى اللفظ ذكراً اعتباراً بإفادته المعنى وإلقائه إياه في الذهن ، وعلى هذا المعنى جرى استعماله في القرآن غير أن مورده فيه ذكر الله تعالى فالذكر إذا أطلق فيه ولم يتقيد بشيء هو ذكره .

وبهذه العناية أيضاً سمي القرآن وحي النبوة والكتب المنزلة على الأنبياء ذكراً ، والآيات في ذلك كثيرة لا حاجة إلى إيرادها في هذا الموضع . وقد سمي الله سبحانه في الآية التالية القرآن ذكراً .

فالقرآن الكريم ذكر كما أن كتاب نوح وصحف إبراهيم وتوراة موسى وزبور داود وإنجيل عيسى عليهم السلام - وهي الكتب السماوية المذكورة في القرآن - كلها ذكر ، وأهلها المتعاطون لها المؤمنون بها أهل الذكر .

ولما كان أهل الشيء وخاصة أعرف بحاله وأبصر بأخباره كان على من يريد التبصر في أمره أن يرجع إلى أهله ، وأهل الكتب السماوية القائلون على دراستها وتعلمها والعمل بشرائعها هم أهل الخبرة بها والعالمون بأخبار الأنبياء الجائين بها فعلى من أراد الاطلاع على شيء من أمرهم أن يراجعهم ويسألهم .

لكن المشركين المخاطبين بمثل قوله : « فاسألوا أهل الذكر » لما كانوا لا يسمعون للنبي ﷺ النبوة ولا يصدقونه في دعواه ويستنهضون بالقرآن ذي الذكر كما يذكره تعالى في قوله : « وقالوا يا أيها الذي نزل عليه الذكر إنك لمجنون » الحجر : ٦ ، لم ينطبق قوله : « فاسألوا أهل الذكر » بحسب المورد إلا على أهل التوراة ، وخاصة من حيث كونهم أعداء للنبي ﷺ رادين لنبوته وكانت نفوس المشركين طيبة بهم لذلك ، وقد قالوا في المشركين : « هؤلاء أهدى من الذين آمنوا سبيلاً » النساء : ٥١ .

وقال بعضهم : المراد بأهل الذكر أهل العلم بأخبار من مضى من الأمم سواء أكانوا مؤمنين أم كفاراً ؟ وسمي العلم ذكراً لأن العلم بالمدلول يحصل غالباً من

تذكر الدليل فهو من قبيل تسمية المسبب باسم السبب .

وفيه أنه من المجاز من غير قرينة موجبة للحمل عليه على أن المعهود من الموارد التي ورد فيها الذكر في القرآن الكريم غير هذا المعنى .

وقال بعضهم : المراد بأهل الذكر أهل القرآن لأن الله سمّاه ذكراً ، وأهله النبي ﷺ وأصحابه وخاصة المؤمنين . وفيه أن كون القرآن ذكراً وأهله أهل لا ريب فيه لكن إرادة ذلك من الآية خاصة لا تلائم تمام الحجة فإن أولئك لم يكونوا مسلمين لنبوّة النبي ﷺ فكيف يقبلون من أتباعه من المؤمنين ؟

وكيف كان فالآية إرشاد إلى أصل عام عقلاني وهو وجوب رجوع الجاهل إلى أهل الخبرة ، وليس ما تتضمنه من الحكم حكماً تعبدياً ، ولا أمر الجاهل بالسؤال عن العالم ولا بالسؤال عن خصوص أهل الذكر أمراً مولوياً تشريعياً وهو ظاهر .

قوله تعالى : « بالبينات والزبر » متعلق بمقدّر يدل عليه ما في الآية السابقة من قوله : « وما أرسلنا » أي أرسلناهم بالبينات والزبر وهي الآيات الواضحة الدالة على رسالتهم والكتب المنزلة عليهم .

وذلك أن العناية في الآية السابقة إنما هي ببيان كون الرسل بشراً على العادة فحسب فكأنه لما ذكر ذلك اختلج في ذهن السامع أنهم بماذا أرسلوا ؟ فاجيب عنه فقيل : بالبينات والزبر أما البينات فلا ثبات رسالتهم وأما الزبر فلحفظ تعليماتهم .

وقيل : هو متعلق بقوله : « وما أرسلنا » أي وما أرسلنا بالبينات والزبر إلا رجالاً نوحى إليهم . وفيه أنه لا بأس به في نفسه لكنه مفوّت لما تقدّم من النكتة .

قوله تعالى : « وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم ولعلهم يتفكرون » لا شك أن تنزيل الكتاب على الناس وإنزاله إليهم ليأخذوا به ويوردوه مورد العمل كما قال تعالى : « يا أيها الناس قد جاءكم برهان من ربكم وأنزلنا إليكم نوراً مبيناً » النساء : ١٧٤ ، وقال : « لقد أنزلنا إليكم كتاباً فيه ذكركم أفلا تعقلون » الأنبياء : ١٠ .

فيكون محصل المعنى أن القصد بنزول هذا الذكر إلى عامة البشر وأنتك والناس في ذلك سواء ، وإنما اخترناك لتوجيه الخطاب وإلقاء القول لا لنحكملك قدرة غيبية

وإرادة تكوينية إلهية فنجعلك مسيطراً عليهم وعلى كل شيء بل لأمرين :

أحدهما : أن تبين للناس ما نزل تدريجاً إليهم لأن المعارف الإلهية لا ينالها الناس بلا واسطة فلا بد من بعث واحد منهم للتبيين والتعليم ، وهذا هو غرض الرسالة ينزل إليه الوحي فيحمله ثم يؤمر بتبليغه وتعليمه وتبيينه .

والثاني : رجاء أن يتفكروا فيك فيتبصروا أن ما جئت به حق من عند الله فإن الأوضاع المحيطة بك والحوادث والأحوال الواردة عليك في مدى حياتك من اليم وخمود الذكر والحرمان من التعلم والكتابة وفقدان مرب صالح والفقر والاحتباس بين قوم جهلة أخستاء صفر الأيدي من مزايا المدنية وفضائل الإنسانية كانت جميعاً أسباباً قاطعة أن لا تذوق من عين الكمال قطرة ، ولا تقبض من عرى السعادة على مسكة ، لكن لله سبحانه أنزل إليك ذكراً تتعدى به على الجن والإنس مهيمناً على سائر الكتب السماوية تبياناً لكل شيء وهدى ورحمة وبرهاناً ونوراً مبيناً .

فالتفكر فيك نعم الدليل الهادي إلى أن ليس لك فيما جئت به صنع ولا لك من الأمر شيء وأن الله أنزله بعلمه وأيدك لذلك بقدرته من غير أن يداخله من الأسباب العادية شيء .

مركز تحقيق كتاب توير علوم إسلامي

هذا ما تفيد به الآية الكريمة نظراً إلى سياقها وسياق ما قبلها ومحصله أن قوله : « لتبين » الخ ، غاية للإنزال لا لنفسه بل من حيث تعلّقه بشخص النبي ﷺ ، وأن متعلق « يتفكرون » المحذوف هو نحو قولنا : فيك لا قولنا : في الذكر .

لكن القوم ذكروا أن قوله : « لتبين » غاية للإنزال وأن المراد بالتفكر التفكير في الذكر ليعلم بذلك أنه حق ومعنى الآية على هذا : وأنزلنا إليك الذكر أي القرآن لتبين للناس كافة ما نزل إليهم في ذلك الذكر من أصول المعارف والأحكام والشرائع وأحوال الأمم الماضية وما جرى فيهم من سنة الله تعالى ، ولرجاء أن يتفكروا في الذكر فيهدوا إلى أنه حق من عند الله أو يتفكروا فيما تبينه لهم .

وأنت خبير بأن لازم ذلك أولاً شبه تحصيل الحاصل في إنزاله إليه ليسين لهم ما نزل إليهم ، والإنزال واحد ، ولا مدفع له إلا أن يغير النظم إلى مثل قولنا : وأنزلنا إليك الذكر لتبينه لهم .

وثانياً: كون قوله : « إليك » مستدر كاً مستغنى عنه وخاصة بالنظر إلى قوله : « ولعلمهم يتفكرون » وذلك أن الإنزال غاية التبیین ولا أثر في ذلك لكونه بشيء هو المنزل إليه دون غيره ، وكذلك التفكير في الذكر غاية مرجوة للعلم بأنه حق من عند الله من غير نظر إلى من أنزل إليه ، ولازم ذلك كون قوله : « إليك » زائداً في الكلام لا حاجة إليه .

وثالثاً : انقطاع الآية بسياقها عن سياق الآية السابقة عليها : « وما أرسلنا من قبلك إلا رجالاً نوحى إليهم » والآيات المتقدمة عليها .

وهنا وجه آخر يمكن أن يندفع به بعض الإشكالات السابقة وهو كون المراد بالذكر المنزل لفظ القرآن الكريم وبما نزل إليهم معاني الأحكام والشرائع وغيرها ، ويكون قوله : « لتبين » غاية للإنزال ، وقوله : « ولعلمهم يتفكرون » معطوفاً على مقدر وغاية للتبيين لا للإنزال ، وهو خلاف ظاهر الآية ، وعليك بإعادة التدبر فيها .

ومن لطيف التعبير في الآية قوله : « وأنزلنا إليك » و « ما نزل إليهم » بتفريق الفعلين بالإفعال الدال على اعتبار الجملة والدفع والتفصيل الدال على اعتبار التدرج ، ولعل الوجه في ذلك أن العناية في قوله : « وأنزلنا إليك » بتعلق الإنزال بالنبي ﷺ فقط من غير نظر إلى خصوصية نفس الإنزال ، ولذلك أخذ الذكر جملة واحدة نعبّر عن نزوله من عنده تعالى بالإنزال .

وأما الناس فإن الذي لهم من ذلك هو الأخذ والتعلم والعمل ، وقد كان تدريجياً ولذلك عني به وعبر عن نزوله إليهم بالتنزيل .

وفي الآية دلالة على حجية قول النبي ﷺ في بيان الآيات القرآنية ، وأما ما ذكره بعضهم أن ذلك في غير النص والظاهر من المتشابهات أو فيما يرجع إلى أسرار كلام الله وما فيه من التأويل فما لا ينبغي أن يصفى إليه .

هذا في نفس بيانه ﷺ ويلحق به بيان أهل بيته لحديث الثقلين المتواتر وغيره وأما سائر الأمة من الصحابة أو التابعين أو العلماء فلا حجية لبيانهم لعدم شمول الآية وعدم نص معتمد عليه يعطي حجية بيانهم على الإطلاق .

وأما قوله تعالى : « فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون » فقد تقدم أنه إرشاد إلى حكم العقلاء بوجوب رجوع الجاهل إلى العالم من غير اختصاص الحكم بطائفة دون طائفة .

هذا كله في نفس بيانهم المتلقى بالمشافهة ، وأما الخبر الحاكي له فما كان منه بياناً متواتراً أو محفوفاً بقرينة قطعية وما يلحق به فهو حجة لكونه بيانهم ، وأما ما كان مخالفاً للكتاب أو غير مخالف لكنه ليس بمتواتر ولا محفوفاً بالقرينة فلا حجة فيه لعدم كونه بياناً في الأول وعدم إحراز البيانية في الثاني وللتفصيل محل آخر .

قوله تعالى : « أفأمن الذين مكروا السيئات أن يخسف الله بهم الأرض أو يأتيهم العذاب من حيث لا يشعرون » هذه الآية والآيتان بعدها إنذار وتهديد للمشركين وهم الذين يعبدون غير الله سبحانه ويشرعون لأنفسهم سفناً يستنون بها في الحياة فما يعملون من الأعمال مستقلين فيها بأنفسهم معرضين عن شرائع الله النازلة من طريق النبوة استناداً إلى حجج داحضة اخلقوها لأنفسهم كلها سيئات وما يتقلبون فيها مدى حياتهم من حركة أو سكون وأخذ أو رد وفعل أو ترك وهم على ما هم عليه من استكبار وغرور ، كلها ذنوب يقتربون بها مكرراً بالله ربهم وبمرسله الداعين إلى الأخذ بدين الله ولزوم سبيله .

فقوله : « السيئات » مفعول « مكروا » بتضمينه بمعنى عملوا أي عملوا السيئات ماكرين ؛ وما احتمله بعضهم من كون السيئات وصفاً ساداً مسدداً للمفعول المطلق والتقدير : يمكرون المكرات السيئات بعيد من السياق .

وبالجملة الكلام لتهديد المشركين وإنذارهم بالعذاب الإلهي ويدخل فيهم مشركوا مكة ، والكلام متفرع على ما تقدم كما يدل عليه قوله : « أفأمن » بفاء التفريع .

والمعنى — والله أعلم — فإذا دللت الآيات البينات على أن الله هو ربهم لا شريك له في ربوبيته وأن الرسالة ليست بأمر محال بل هي دعوة إلى ما فيه صلاح معاشهم ومعادهم وخير دنياهم وآخرهم من رجال هم أمثالهم يبعثهم الله ويوحى إليهم بما تشتمل عليه الدعوة ، فهؤلاء الذين يعرضون عن ذلك ويمكرون بالله ورسله بالتشبث بهذه الحجج الواهية لتسوية الطريق إلى ترك دين الله وتشريع ما يوافق أهواءهم ويعملون

السيئات هل أمنوا أن يخسف الله بهم الأرض أو يأتيهم العذاب من غير أن يفتقدوا ، أي يفاجئهم من غير أن يتنبهوا بتوجهه اليهم قبل نزوله .

قوله تعالى : « أو يأخذهم في تقلبهم فما هم بمعجزين » الفاعل هو الله سبحانه وقد كثرت في القرآن نسبة الأخذ اليه ، وقيل : الضمير للعذاب ، والتقلب هو التحول من حال إلى حال والمراد به تحول المشركين في مقاصدهم وأعمالهم السيئة وانتقالهم من نعمة إلى نعمة أخرى من نعم الحياة الدنيا ، قال تعالى : « لا يفرّتك تقلب الذين كفروا في البلاد متاع قليل ثم مأواهم جهنم وبئس المهاد » آل عمران : ١٩٧ .

فالمراد بأخذهم في تقلبهم أن يأخذهم في عين ما يتقلبون فيه من السيئات مكرراً بالله ورسوله بالعذاب أو المعنى يعذبهم بنفس ما يتقلبون فيه فيعود النعمة نقمة ، وهذا أنسب بالنظر إلى قوله : فما هم بمعجزين .

وقوله : « فما هم بمعجزين » في مقام التعليل لأخذهم في تقلبهم ومكرهم السيئات أي لأنهم ليسوا بمعجزين لله فيما أراد بالتقلب عليه أو بالفرار من حكمه ، والمعنى ظاهر .

قوله تعالى : « أو يأخذهم على تخوف فإن ربكم لرؤوف رحيم » التخوف تمكن الخوف من النفس واستقراره فيها فالأخذ على تخوف هو العذاب مبنياً على المخافة بأن يشعروا بالعذاب فيتقوه ويحذروه بما استطاعوا من توبة وندامة ونحوهما فيكون الأخذ على تخوف مقابلاً لإتيان العذاب من حيث لا يشعرون .

وربما قيل : إن الأخذ على تخوف هو العذاب بما يخاف منه من غير هلاك كالزلزلة والطوفان وغيرهما .

وربما قيل : إن معنى التخوف التنقص بأن يأخذهم الله بنقص النعم واحدة بعد واحدة تدريجياً كأخذ الأمن ثم الأمطار ثم الرخص ثم الصحة وهكذا .

وقوله : « إن ربكم لرؤوف رحيم » في مقام التعليل أي يأخذهم على تخوف ويتنزل في عذابهم إلى هذا النوع من العذاب الذي هو أهون الأنواع المعدودة لأنه رؤوف رحيم ، وفي التعبير بقوله : « ربكم » إشارة إلى ذلك ، وكونه في مقام التعليل بالنسبة إلى الوجهين الأولين ظاهر ، وأما بالنسبة إلى الثالث فلأن الأخذ بالنقص لا يخلو من

مهلة وفرصة يتنبه فيها من تنبه فيأخذ بالحذر بتوبة أو غيرها .
والكلام في تعداد أنواع العذاب المذكورة ليس مسوقاً للحصر كما نبّه به بعضهم
بل إحصاء لأنواع منه .

قوله تعالى : « أولم يروا إلى ما خلق الله من شيء يتفيؤ ظلاله عن اليمين
والشمال سجداً لله وهم داخرون » المراد بالرؤية الرؤية البصرية والنظر الحسي إلى
الأشياء الجسمانية لأن المطلوب إلفات النظر إلى الأجسام ذوات الأظلال .

والتفيؤ من الفيء وهو الظل راجعاً ، ولذا قيل : إن الظل هو ما في أول النهار
إلى زوال الشمس والفيء هو ما يكون بعد زوال الشمس إلى آخر النهار ، والظاهر أن
الظل أعم من الفيء كما تقدم وتؤيده الآية . فالتفيؤ رجوع الظل بعد زواله .

والشمال جمع شمال وهو خلاف اليمين ، وجمعه باعتبار أخذ كل سمت مفروض
خلف الشيء وعن يساره جهة شمال على حدة فهي شمائل تقابل اليمين كما أن عدّة كل
شيء ذا أظلال بهذه العناية أخذاً للظل بالنسبة إلى كل جهة من اليمين والشمال ظلاً غيره
بالنسبة إلى جهة أخرى لا لأن الشيء المذكور جمع بحسب المعنى وإن كان مفرداً بحسب
اللفظ . والدخور هو الخضوع والصغار

وكون المراد بالرؤية الرؤية البصرية قرينة على أن المراد بما خلق الله من شيء —
ومن شيء بيان لما خلق الله — هو الأشياء المرئية ، وما تعقبه من حديث تفيؤ الظلال
يحصرها في الأجسام الكثيفة التي لها ظلال كالجبال والأشجار والأبنية والأجسام القائمة
على الأرض فلا يرد أن ما خلق الله وخاصة بعد بيانه بالشيء لا يلزمه الظل كالأجرام
العلوية المضيئة والأجسام الشفافة وأعراض الأجسام .

ولدفع هذا الإشكال جعل بعضهم قوله : « يتفيؤ ظلاله » الخ ، وصفاً لشيء حق
يخص البيان بالأشياء المخلوقة التي لها أفياء وأظلال ولا يخلو من وجه .

والآية تهدي المشركين وهم منكرون للتوحيد والنبوة إلى النظر في حال الأجسام
التي لها أظلال تدور عن يمينها وعن شمائلها فإنها تمثل سجودها لله وخضوعها له وصغارها
قبال عظمتها وكبريائه ، وكذا سجود ما في السماوات والأرض من دابة والملائكة .
فهي جميعاً ساجدة لله وحده لانقيادها الذاتي لأمره ممثلة للخضوع والصغار بهذا

النسك الوجودي والعبادة التكوينية .

وهذا من أوضح الدليل على أن في العالم إلهاً معبوداً واحداً هو الله سبحانه وأن من حقه أن يسجد له ويخضع لأمره ، وهذا هو التوحيد والنبوة اللذان ينكرونها فهل التوحيد إلا الإذعان بكونه سبحانه هو الإله الذي يجب الخضوع له والتوجه بالذلة والصغار إليه ؟ وهل الدين الذي تتضمنه دعوة الأنبياء والرسل إلا الخضوع لله سبحانه والانقياد لأمره فيما أراد ؟ فما بالهم ينكرون ذلك ؟ وهم يرون ويعلمون أن ما على الأرض من أظلال الأجسام الكثيفة يسجد له ، وما في السماوات والأرض من الملائكة والذوات ساجدة له منقادة لأمره حتى أرباب أصنامهم الذين يتخذونهم آلهة دون الله فإنهم إما من الملائكة وإما من الجن وإما من كملّي البشر ، وهم جميعاً داخرون له منقادون لأمره .

فمعنى الآية - والله أعلم - « أولم يروا » هؤلاء المشركون المنكرون لتوحيد الربوبية ولدعوة النبوة أولم ينظروا « إلى ما خلق الله من شيء » من هذه الأجسام القائمة على بساط الأرض من جبل أو بناء أو شجر أو أي جسم منتصب « يتقيؤ » ويرجع ويدور « ظلاله عن اليمين والشمائل سجداً لله » واقعة على الأرض تذلاً وتعبداً له سبحانه « وهم داخرون » خاضعون صاغرون .

وقد تقدم الكلام في معنى سجدة الظلال ذيل قوله تعالى : « وظلالهم بالغدو والآصال » الرعد : ١٥ ، في الجزء الحادي عشر من الكتاب .

قوله تعالى : « والله يسجد ما في السماوات وما في الأرض من دابة والملائكة » إلى آخر الآيتين . ذكرت الآية السابقة سجود الظلال وهو معنى مشهود فيها يمثل معنى السجود لله ، وتذكر هذه الآية سجود ما في السماوات والأرض من دابة - والدابة ما يدب ويتحرك بالانتقال من مكان إلى مكان - بحقيقة السجود التي هي نهاية التذلل والتواضع قبال العظمة والكبرياء فإن صورة السجدة التي هي خروار الإنسان ووقوعه على وجهه على الأرض إنما تعدّ عبادة إذا أريد بها تمثيل هذا المعنى فحقيقة السجدة هي التذلل المذكور .

ويدخل في عموم الدابة الإنسان وكذا الجن لأنه سبحانه يصفهم في كلامه بما يفيد

أن لهم ديبياً كما لسائر الدواب من الإنسان والحيوان ، ولم يدخل سبحانه الملائكة في عموم الدابة وأفردهم بالذكر ، وفي ذلك من التلويح إلى أن ما نسب إليهم في كلامه تعالى من النزول والصعود والذهاب والهباء مما ظاهره النقلة والحركة المكانية ليس من نوع ما للدواب من الدبيب والانتقال المكاني ما لا يخفى .

فقوله : « والله يسجد ما في السماوات وما في الأرض من دابة » أي له يخضع وينقاد خضوعاً وانقياداً ذاتياً هي حقيقة السجود فمن حقه تعالى أن يُعبد ويُسجد له .

وفي الآية دلالة على أن في غير الأرض من السماوات شيئاً من الدواب يسكنها ويعيش فيها .

وقوله : « والملائكة وهم لا يستكبرون » الاستكبار والتكبر من الإنسان أن يعدّ نفسه كبيراً ويضعه موضع الكبر وليس به ولذلك يعدّ في الرذائل لكن التكبر ربما يطلق على ما لله سبحانه من الكبرياء بالحق وهو الكبير المتعال فهو تعالى كبير متكبر وليس يقال : مستكبر ولعل ذلك كذلك اعتباراً باللفظ فإن الاستكبار بحسب أصل هيئته طلب الكبر ولازمه أن لا يكون ذلك حاصلًا للطالب من نفسه وإنما يطلب الكبر والعلو على غيره دعوى فكان مذموماً ، وأما التكبر فهو الظهور بالكبرياء سواء كانت له في نفسه كما لله سبحانه وهو التكبر الحق أو لم يكن له إلا دعوى وغروراً كما في غيره .

فتبين بذلك أن الاستكبار مذموم دائماً أما استكبار المخلوق على مخلوق آخر فلأن الفقر والحاجة قد استوعبها جميعاً وشيء منها لا يملك لنفسه نفعا ولا ضراً ولا لغيره فاستكبار أحدهما على الآخر خروج منه عن حده وتجاوز عن طوره وظلم وطفيان .

وأما استكبار المخلوق على الخالق فلا يتم إلا مع دعوى المخلوق الاستقلال والغنى لنفسه وذهوله عن مقام ربه فإن النسبة بين العبد وربّه نسبة الذلة والعزة والفقر والغنى فما لم يغفل العبد عن هذه النسبة ولم يذهل عن مشاهدة مقام ربه لم يُعقل استكباره على ربه فإن الصغير الوضيع القائم أمام الكبير المتعالي وهو يشاهد صفات نفسه وذاته وكبرياء من هو أمامه وعزته لا يتيسر له أن يرى لنفسه كبرياء وعزة إلا أن

يأخذه غفلة وذهول .

وإذ كان الكبرياء والعلو لله جميعاً فدعواه الكبرياء والعلو تغلب منه على ربه وغضب منه لمقامه واستكبار واستعلاء عليه دعوى ، وهذا هو الاستكبار بحسب الذات ويتبعه الاستكبار بحسب الفعل وهو أن لا يأتمر بأمره ولا ينتهي عن نهيه فإنه ما لم يرَ لنفسه إرادة مستقلة قبال الإرادة الإلهية مغايرة لها لم يرَ لنفسه أن يخالفه في أمره ونهيه .

وعلى هذا فقوله : « وهم لا يستكبرون » في تعريف الملائكة والكلام في سياق العبودية دليل على أنهم لا يستكبرون على ربهم فلا يغفلون عنه تعالى ولا يذهلون عن الشعور بمقامه ومشاهدته .

وقد أطلق نفي الاستكبار من غير أن يقيده بما بحسب الذات أو بحسب الفعل فأفاد أنهم لا يستكبرون عليه في ذات ولا فعل أي لا يغفلون عنه سبحانه ولا يستنكفون عن عبادته ولا يخالفون عن أمره ، ولييان هذا الإطلاق والشمول عقبه بياناً له بقوله : « يخافون ربهم من فوقهم ويفعلون ما يؤمرون » وأشار بذلك إلى نفي الاستكبار عنهم ذاتاً وفعلًا .

توضيح ذلك أن قوله : « يخافون ربهم من فوقهم » يثبت لهم الخوف من ربهم والله سبحانه ليس عنده إلا الخير ولا شر عنده ولا سبب شر يخاف منه إلا أن يكون الشر وسببه عند العبد وقد أخذ متعلق الخوف هو ربهم لا عذابه تعالى أو عصيان أمره كما في قوله : « ويرجون رحمته ويخافون عذابه » أسرى : ٥٧ .

فهذه المخافة هي المخافة منه تعالى وهو وإن لم يكن عنده إلا الخير ، والخوف إنما يكون من شر مترقب إلا أن حقيقته التأثر والإنكسار والصغار وتأثر الضعيف قبال القوي الظاهر بقوته ، وانكسار الصغير الوضيع أمام الكبير المتعال القاهر بكبريائه وتعاليه ضروري فمخافتهم هي تأثرهم الذاتي عما يشاهدونه من مقام ربهم ولا يغفلون عنه قط .

ويؤيد ما ذكرناه تقييد قوله : « يخافون ربهم » بقوله : « من فوقهم » فإن فيه إشارة إلى أن كونه تعالى فوقهم قاهراً لهم متعالياً بالنسبة إليهم هو السبب في

مخافتهم ، وليس هذا إلا الخوف من مقامه تعالى لا من عذابه فهو خوف ذاتي ويرجع إلى نفي الاستكبار عن ذواتهم .

وأما قوله : « ويفعلون ما يؤمرون » فإشارة إلى عدم استكبارهم في مقام الفعل وقد تقدم أنه إذا لم يستكبر عليه تعالى في ذات لم يستكبر عليه في فعل فهم لا يعصون الله سبحانه في أمر بل يفعلون ما يؤمرون ، وفي إثبات قوله : « يؤمرون » مبنياً للمجهول من التعظيم والتفخيم لمقامه سبحانه ما لا يخفى .

فتبين أن الملائكة نوع من خلق الله تعالى لا تأخذهم غفلة عن مقام ربهم ولا يطرأ عليهم ذهول ولا سهو ولا نسيان عن ذلك ولا يشغلهم عنه شاغل ، وهم لا يريدون إلا ما يريد الله سبحانه .

وإنما خص سبحانه الملائكة من بين الساجدين المذكورين في الآية بذكر شأنهم وتعريف أوصافهم وتفصيل عبوديتهم لأن أكثر آلهة الوثنيين من الملائكة كإله السماء وإله الأرض وإله الرزق وإله الجمال وغيرهم ، وللدلالة على أنهم - بالرغم من زعم الوثنيين - آمن خلق الله تعالى في عبوديته وعبادته .

ومن عجيب الاستدلال استدل به بعضهم بالآية على أن الملائكة مكلفون مدارون بين الخوف والرجاء كمثلنا أما دلالتها على التكليف فلمكان الأمر ، وأما إدارتهم بين الخوف والرجاء فلأن الآية ذكرت خوفهم والخوف يستلزم الرجاء .

وهو ظاهر الفساد أما الأمر فقد ورد في كلامه تعالى في موارد لا تكليف فيها قطعاً كالسما والأرض وغيرهما قال تعالى : « فقال لها وللأرض ائتيا طوعاً أو كرهاً قالتا اتينا طائعين » حم السجدة : ١١ ، وقال : « ويوم يقول كن فيكون » .

وأما استلزام الخوف للرجاء فإنما الملازمة ما بين الخوف من نزول العذاب وإصابة المكروه وبين الرجاء ، وقد تقدم أن الذي في الآية إنما هو خوف مهابة وإجلال بمعنى تأثير الضعيف من القوي وانكسار الصغير الحقير قبال العظيم الكبير الظاهر عليه بعظمته وكبريائه ولا مقابلة بين الخوف بهذا المعنى وبين الرجاء .

وقد استدل بالآية أيضاً على أن الملائكة أفضل من البشر ، وفيه أن من الممكن استظهار أفضليتهم من عصاة البشر وكفارهم ممن يفقد الصفات المذكورة لكونها

مسوقة في مقام المدح وأما غيرهم فلا تعرض للآية لهم إثباتاً ونقياً ، وسيأتي تفصيل القول في الملائكة في موضع يليق به إن شاء الله .

قوله تعالى : « وقال الله لا تتخذوا إلهين اثنين إنما هو إله واحد فإياي فارهبون » الرهبة الخوف وتقابل الرغبة كما ان الخوف يقابل به الرجاء .

والكلام معطوف على قوله : « والله يسجد » وقيل : معطوف على قوله : « وانزلنا إليك الذكر » وقيل : على قوله : « ما خلق الله » على طريقة قوله : (علفتها تبناً وماء بارداً) أي وسقيتها ماء بارداً ، والتقدير في الآية أولم يروا إلى ما خلق الله من شيء وألم يسمعوا إلى ما قال الله « لا تتخذوا » الخ ؟ والأول هو الوجه .

وقوله : « لا تتخذوا إلهين اثنين » أريد به - والله اعلم - النهي عن التعدي عن الإله الواحد باتخاذ غيره معه فيشمل الاثنين وما فوقه من العدد ، ويؤيده تأكيد بقوله : « إنما هو إله واحد » و « اثنين » صفة « إلهين » كما أن « واحد » صفة « إله » جيء بها للإيضاح والتبيين .

وبعبارة أخرى العناية متعلقة بالنهي عن اتخاذ غيره معه سواء كان واحداً أو أكثر من واحد لكن لما كان كل عدد اختاروه في الإله فوق الإثنين يجب أن يسلكوا إليه من الاثنين إذ لا يتحقق عدد هو فوق الإثنين إلا بعد تحقق الإثنين نهى عن اتخاذ الإثنين واكتفى به عن النهي عن كل عدد فوق الواحد .

ويمكن ان يكون اعتبار الإثنين نظراً إلى ما عليه دأبهم وسنتهم فإنهم يعتقدون من الإله بإله الصنع والإيجاد وهو الذي له الخلق فحسب وهو إله الآلهة وموجد الكل ، وبإله العبادة وهو الذي له الربوبية والتدبير ، وهذا المعنى انسب بما يتلوه من الجمل .

وعلى هذا فالمعنى لا تتخذوا إلهين اثنين : إله الخلق وإله التدبير الذي له العبادة إنما هو أي الإله إله واحد له الخلق والتدبير جميعاً لأن كل تدبير ينتهي إلى الإيجاد ، وإذ كنت أنا الخالق الموجد فأنا المدبر الذي تجب عبادته فإياي فارهبون وإياي فاعبدون .

ومن هنا يظهر وجه تفرع قوله : « فإياي فارهبون » على ما تقدمه وأنه من لطيف الاستدلال ، والجملة تفيد الحصر بتقديم المفعول على سبيل الاشتغال ، والقصر

قصر قلب لا قصر أفراد كما يفيد كلامهم فإن الوثنيين لا يعبدون الله وآلهتهم غير الله، وإنما يعبدون آلهتهم فحسب معتذرين بأن الله سبحانه لا يحيط به علم ولا يناله فهم فلا يمكن التوجه إليه بالعبادة فمن الواجب أن يعبد الكرام أو الأقوياء من خلقه كالملائكة والكاملين من البشر والجن فهم المدبرون لأمر العالم ينال بالعبادة خيرهم ويتقى بها شرهم وهذا معنى التقرب إلى الله بشفاعتهم .

والظاهر أن الأمر بالرهبة كناية عن الأمر بالعبادة وإنما اختصت الرهبة بالذكر ليوافق ما تقدم في حديث سجدة الكل التي هي الأصل في تشريع العبادة من خوف الملائكة ، وعلى هذا فالظاهر أن المراد بالرهبة ما هي رهبة إجلال ومهابة لا ما هي رهبة مؤاخذه وعذاب ، فافهم ذلك .

قوله تعالى : « وله ما في السموات والأرض وله الدين واصباً أفغير الله تتقون » قال في المفردات : الوصب السقم اللازم وقد وصب فلان فهو وصب وأوصبه كذا فهو يتوصب نحو يتوجع ، قال تعالى : « ولهم عذاب واصب » « وله الدين واصباً » فتوعد لمن اتخذ إلهين وتنبه أن جزاء من فعل ذلك عذاب لازم شديد .

ويكون الدين هنا الطاعة ، ومعنى الواصب الدائم أي حق الإنسان أن يطيعه دائماً في جميع أحواله كما وصف به الملائكة حيث قال : « لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون » ويقال : وصب وصوباً دام ، ووصب الدين وجب ، ومفازة واصبة بعيدة لا غاية لها . انتهى .

والآية وما بعدها تحتج على وحدانيته تعالى في الألوهية بمعنى المعبودية بالحق وأن الدين له وحده ليس لأحد أن يشرع من ذلك شيئاً ولا أن يطاع فيما شرع فالآية وما بعدها في مقام التعليل لقوله : « وقال الله لا تتخذوا إلهين اثنين » إلى آخر الآية ، واحتجاج على مضمونها وعود بعد عود إلى ما تقدم بيانه من التوحيد والنبوة اللذين ينكرهما المشركون .

فقوله : « وله ما في السموات والأرض » احتجاج على توحيده تعالى في الربوبية فإن ما في السموات والأرض من شيء فهو مملوك له بحقيقة معنى الملك إذ ما في العالم المشهود من شيء فهو بما له من الصفات والأفعال ، قسائم به تعالى موجود بإيجاده

وظاهر بإظهاره لا يسهه أن ينقطع منه ولا لحظة فالأشياء قسامة به قيام الملك بملكه مملوكة له ملكاً حقيقياً لا يقبل تغييراً ولا انتقالاً كما هو خاصة الملك الحقيقي كملك الإنسان لسمعه وبصره مثلاً .

وإذا كان كذلك كان هو تعالى المدبر لأمر العالم إذ لا معنى لكون العالم مملوكاً له بهذا الملك ثم يستقل غيره بتدبير أمره والتصرف فيه وينعزل هو تعالى عما خلقه وملكه ، وإذا كان هو المدبر لأمره كان هو الرب له إذ الرب هو المالك المدبر ، وإذا كان هو الرب كان هو الذي يجب أن يتقى ويخضع له بالعبادة .

وقوله : « وله الدين واصباً » أي دائماً لازماً ، وذلك أنه لما كان تعالى هو الرب الذي يملك الأشياء ويدبر أمرها ومن واجب التدبير أن يستن العالم الإنساني بسنة يبلغ به الجري عليها غاية ويهديه إلى سعادته - وهذه السنة والطريقة هي التي يسميها القرآن ديناً - كان من الواجب أن يكون تعالى هو القائم على وضع هذه السنة وتشريع هذه الطريقة فهو تعالى المالك للدين كما قال : « وله الدين واصباً » وعليه أن يشرع ما يصلح به التدبير كما قال فيما مر : « وعلى الله قصد السبيل » الآية .

وقيل : المراد بالدين الطاعة ، وقيل : الملك ، وقيل : الجزاء ، ولكل منها وجه غير خفي على المتأمل ، والأوجه هو ما قدمناه لأنه أوفق وأنسب بسياق ما يحفظها من الآيات السابقة واللاحقة الباحثة عن توحيد الربوبية وتشريع الدين من طريق الوحي والرسالة .

وقوله : « أفغير الله تتقون » استفهام إنكاري - متفرع على الجملتين جميعاً - على الظاهر ، والمعنى : وإذا كان كذلك فهل غيره تعالى تتقون وتعبدون ؟ وليس يملك شيئاً ولا يدبر أمراً حتى يعبد ، وليس من حقه أن يشرع ديناً فيطاع فيما وضعه وشرعه .

قوله تعالى : « وما بكم من نعمه فمن الله ثم إذا مسكم الضر فإليه تجأرون » بيان آخر لوحده أن الله تعالى في الربوبية يفرع سبحانه عليه ذمتهم وتوبيخهم على شركهم بالله وعلى تشريعهم أموراً من عند أنفسهم من غير إذن منه ورضى ويجري الكلام في هذا المجرى إلى تمام بضع آيات .

والمراد بالضر سوء الحال من جهة فقدان النعمة التي تصلح بها الحال ، والجوار

بضم الجيم صوت الوحوش استعير لرفع الصوت بالدعاء والتضرع والاستغاثة تشبيهاً له به .

وقوله : « وما بكم من نعمة فمن الله » الكلام مسوق للعموم وليس مجرد دعوى غير مستدل فقد بين ذلك في الآيات السابقة . على أن السامعين يسلّمون ذلك ويقولون به ويدلّ عليه جوارهم واستغاثتهم اليه عند مسيس الضر بفقدان نعمة من النعم .

فالمعنى : أن جميع النعم التي عندكم من إنعامه تعالى عليكم وأنتم تعلمون ذلك ثم إذا حلّ بكم شيء من الضر وسوء حال يسير رفعت أصواتكم بالتضرع وجأرتم اليه لا إلى غيره ولو كان لغيره صنعة عندكم لتوجهتم اليه فهو سبحانه منعم النعمة وكاشف الضر فما بالكم لا تخلصونه بالعبادة ولا تطيعونه .

والاستغاثة به تعالى والتضرع اليه عند حلول المصائب وهجوم الشدائد التي ينقطع عندها الرجاء عن الأسباب الظاهرية ضرورية لا يرتاب فيها فإن الإنسان ولو لم ينتحل إلى دين ولم يؤمن بالله سبحانه فإنه لا ينقطع رجاءه عند الشدائد إذا رجع إلى ما يحده من نفسه ، ولا رجاء إلا وهناك مرجو منه فمن الضروري أن تحقق ما لا يخلو من معنى التعلق كالحب والبغض والإرادة والكراهة والجذب ونظائرها في الخارج لا يمكن إلا مع تحقق طرف تعلقها في الخارج قلو لم يكن في الخارج مراد لم تتحقق إرادة من مريد ، ولو لم يكن هناك مطلوب لم يكن طلب ولو لم يكن جاذب يجذب لم يتصور مجذوب ينجذب ، وهذا حال جميع المعاني الموجودة التي لا تخلو كينونتها عن نسبة .

فتعلق الرجاء من الإنسان بالتخلص من البلية عند انقطاع الأسباب دليل على أنه يرى أن هناك سبباً فوق هذه الأسباب المنقطع عنها لا تعجزه عظام الحوادث ودامات الرزايا ، ولا ينقطع عنه الإنسان ، ولا يزول ولا يفنى ولا يسو ولا ينسقط .

هذا شيء يحده الإنسان من نفسه وتقضي به فطرته وإن ألهاه عنه الاشتغال بالأسباب الظاهرة وجذبت به إلى نفسها أمتعة الحياة وزخارف المادة المحسوسة لكنه إذا أحاطت به البلية وأعمته الحيلة وسدّت عليه طرق النجاة وانهمزت الأسباب الظاهرة عن آخرها وطارت الموانع عن نظره ولم يبقَ هناك ملجأ يلهيه ولا شاغل يشغله ظهر له ما أخفته الأسباب وعان ما كان على غفلة منه فتعلقت نفسه به ، وهو السبب الذي فوق كل سبب وهو الله عزّ اسمه .

قوله تعالى : « ثم إذا كشف الضر عنكم إذا فريق منكم بربهم يشركون » شروع في ذمتهم وتوبيخهم وينتهي إلى إيعادهم وحق لهم ذلك لأن الذي يستدعيه كشف الضر عن استغاثتهم ورجوعهم الفطري إلى ربهم أن يوحده بالربوبية بعد ما انكشفت لهم الحقيقة باندفاع البلية ونزول الرحمة لكن فريقاً منهم تفاجشهم الشقوة فيعودون إلى التعلق بالأسباب فينتبه عندئذ الراقد من رذائل ملكاتهم فيشير لهم الأهواء ويشركون بربهم غيره ، ومنه الأسباب التي يتعلقون بها ، ومعنى الآية ظاهر .

قوله تعالى : « ليكفروا بما آتيناهم فتمتعوا فسوف تعلمون » اللام للغاية أي إنهم إنما يشركون بربهم ليكفروا بما أعطيناهم من النعمة بكشف الضر عنهم ولا يشكروه . وجعل الكفر بالنعمة غاية للشرك إنما هو بدعوى أنهم لا غاية لهم في مسير حياتهم إلا الكفر بنعمة الله وعدم شكره على ما أولى فإن اشتغالهم بالحس والمادة أورثهم في قلوبهم ملكة التعلق بالأسباب الظاهرة وإسناد النعم الإلهية إليها وضرهم إياها حجاباً ثخيناً على عرفان الفطرة فأنسام ذلك توحيد ربهم في ربوبيته فصاروا يذكرون عند كل نعمة أسبابها الظاهرة دون الله ، ويتعلقون بها ويخشون انقطاعها ويخضعون لها دون الله فكأنهم بل إنهم لا غاية لهم إلا كفر نعمة الله وعدم شكرها . فالكفر بالله سبحانه هو غايتهم العامة في كل شأن أبدوه وكل عمل أتوا به فإذا أشركوا بربهم بعد كشف الضر بالخضوع لسائر الأسباب فإنما أشركوا ليكفروا بما آتاهم من النعمة .

ولما كان كفرانهم هذا - وهو كفر دائم يصرون عليه واستكبار على الله ، وقد قال تعالى : « لئن شكرتم لأزيدنكم ولئن كفرتم إن عذابي لشديد » إبراهيم : ٧ - أثار ذكر ذلك الغضب الإلهي فعدل عن خطاب النبي ﷺ وهم على نعت الغيبة إلى خطابهم وإيعادهم من غير توسط فقال : « فتمتعوا فسوف تعلمون » .

ولم يذكر ما يتمتعون به ليفيد بالإطلاق أن كل ما تمتعوا به سيؤخذون عليه ولا ينفعهم شيء منه ، ولم يذكر ما يعلمونه - وهو لا محالة أمر يسوؤهم - ليكونوا على جهل منه حتى يحل بهم مفاجأة ويبدو لهم من الله ما لم يكونوا يحتسبون وفيه

تشديد للإيعاد .

وذكر بعضهم : أن اللام في قوله : « ليكفروا بما آتيناهم » لام الأمر والمراد به الإيعاد على نحو التعجيز وهو تكلف .

قوله تعالى : « ويجعلون لما لا يعلمون نصيباً مما رزقناهم فآله لتسألن عما كنتم تفترون » ذكروا أنه معطوف على سائر جناباتهم التي دلت عليها الآيات السابقة والتقدير أنهم يفعلون ما قصصناه من جناباتهم ويجعلون لما لا يعلمون نصيباً ، والظاهر أن « ما » في « لما لا يعلمون » موصولة والمراد به آلهتهم وضمير الجمع يعود إلى المشركين ومفعول « لا يعلمون » محذوف والمعنى ويجعل المشركون لآلهتهم التي لا يعلمون من حالها أنها تضر وتنفع نصيباً مما رزقناهم .

والمراد من هذا الجعل ما ذكره سبحانه في سورة الأنعام بقوله : « وجعلوا لله مما ذرأ من الحرث والأنعام نصيباً فقالوا هذا لله بزعمهم وهذا لشركائنا فما كان لشركائهم فلا يصل إلى الله وما كان لله فهو يصل إلى شركائهم ساء ما يحكمون » الأنعام : ١٣٦ ، هذا ما ذكره ولا يخلو عن تكلف .

ويمكن أن يكون معطوفاً على ما مر من قوله : « يشركون » والتقدير إذا فريق منكم برههم يشركون ويجعلون لما لا يعلمون نصيباً مما رزقناهم ، والمراد بما لا يعلمون الأسباب الظاهرة التي ينسبون إليها الآثار على سبيل الاستقلال وهم جاهلون بحقيقة حالها ولا علم لهم جازماً أنها تضر وتنفع مع ما يرون من تخلفها عن التأثير أحياناً .

وإنما نسب إليهم أنهم يجعلون لها نصيباً من رزقهم مع أنهم يسندون الرزق إليها بالاستقلال من غير أن يذكروا الله معها ومقتضاه نفي التأثير عنه تعالى رأساً لا إشراكه معها لأن لهم علماً فطرياً بأن الله سبحانه له تأثير في الأمر وقد ذكر عنهم آنفاً أنهم يجأرون إليه عند مس الضر وإذا اعتبر اعترافهم هذا مع إسنادهم التأثير إلى الأسباب أنتج ذلك أن الأسباب عندهم شركاء لله في الرزق ولها نصيب فيه ثم أوعدهم بقوله : « فآله لتسألن عما كنتم تفترون » .

قوله تعالى : « ويجعلون لله البنات سبحانه ولهم ما يشتهون » عتاب آخر لهم في حكم حكوا به جهلاً من غير علم فاحترموا لأنفسهم وأساؤا الأدب مجترئين على الله

سبحانه حيث اختاروا لأنفسهم البنين وكرهوا البنات لكنهم نسبوها إلى الله سبحانه .
 فقلوه : « ويجعلون لله البنات سبحانه » هو أخذهم الآلهة دون الله أو بعض
 الآلهة إناثاً ، وقولهم : إنهن بنات الله ، وقد قيل : إن خزاعة وكنانة كانوا يقولون :
 إن الملائكة بنات الله .

وكانت الوثنية البرهمية والبوذية والصابئة يثبتون آلهة كثيرة من الملائكة والجن
 إناثاً وهن بنات الله ، وفي القرآن الكريم : « وجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن
 إناثاً » الزخرف : ١٩ ، وقال تعالى : « وجعلوا بينه وبين الجنة نسباً » الصافات : ١٥٨ .
 وقال الإمام في تفسيره في وجه ذلك : أظن أنهم سموها بنات لاستتارها عن
 العيون كالنساء كما أنهم أخذوا الشمس مؤنثاً لاستتار قرصها بنورها الباهر وضوئها
 عن العيون كالمخدرات من النساء ولا يلزم الأطراد في التسمية حتى يلزم مثل ذلك في
 الجن لاستتارهم عن العيون مع عدم التأنيث . انتهى ملخصاً .

وذكر بعضهم : أن الوجه في التأنيث كونها مستترة عن العيون مع كونها في محل
 لا يصل إليه الأغيار فهي كالبنات التي يغار عليهن الرجل فيسكنهن في محل أمين
 ومكان مكن ، والجن وإن كانوا مستترين عن العيون لكنه على غير هذه الصورة انتهى .
 وهذان الوجهان لا يتعديان طور الاستحسان ، وأنت لو راجعت آراء الوثنية على
 اختلافهم - وقد تقدم شطر منها في الجزء العاشر من هذا الكتاب - عرفت أن العرب
 لم تكن مبتكرة في هذه العقيدة بل لها أصل قديم في آراء قدماء الوثنية في الهند
 ومصر وبابل واليونان والروم .

والإمعان في أصول آرائهم يعطي أنهم كانوا يتخذون الملائكة الذين ينتهي إليهم
 وجوه الخير في العالم والجن الذين يرجع إليهم الشرور آلهة يعبدونهم رغباً ورهباً ،
 وهذه المبادئ العالية والقوى الكلية التي هم يحملونها ، وبعبارة أخرى هم مظاهر لها
 تنقسم إلى فاعلة ومنفعلة وهم يعتبرون اجتماع الفاعل والمنفعل منها نكاحاً وازدواجاً
 والفاعل منها أباً والمنفعل منها أمّاً ، والمتحصل من اجتماعها ولداً وينقسم الأولاد إلى
 بنين وبنات فمن الآلهة ما من أمهات وبنات ومنها ما هم آباء وبنون .

فلئن كان بعض وثنية العرب قالت : إن الملائكة جميعاً بنات الله فقول أرادوا

أن يقلدوا فيه من قبلهم جهلاً ومن غير تثبت .

وقوله : « ولهم ما يشتهون » ظاهر السياق أنه معطوف على « لله البنات » والتقدير ويجعلون لهم ما يشتهون ، أي يثبتون لله سبحانه البنات باعتقاد أن الملائكة بناته ويثبتون لأنفسهم ما يشتهون وهم البنون بقتل البنات ووأدها والمحصل أنهم يرضون لله بما لا يرضون به لأنفسهم .

وقيل : إن « ما يشتهون » مبتدأ مؤخر و « لهم » خبر مقدم والجملة معطوفة على « يجعلون » وعلى هذا فالجملة مسوقة للتقريع أو الاستهزاء .

وقد وجهوا ذلك بأن عطف الجملة على « لله البنات » غير جائز لمخالفته القاعدة وهي أن الفعل المتعدي إلى المفعول بنفسه أو بحرف جر إذا كان فاعله ضميراً متصلاً مرفوعاً فإنه لا يتعدى إلى نفس هذا الضمير بنفسه أو بحرف جر إلا بفصل مثلاً إذا ضرب زيد نفسه لم يقل : زيد ضربه وأنت ضربتك وإذا غضب على نفسه لم يقل : زيد غضب عليه ، وإنما يقال : زيد ضرب نفسه أو ما ضرب إلا إياه ، وزيد غضب على نفسه أو ما غضب إلا عليه إلا في باب ظن وما الحق به من فقد وعدم فيجوز أن يقال : زيد ظنه قوياً أي نفسه .

وعلى هذا فلو كان قوله : « ولهم ما يشتهون » معطوفاً على قوله : « لله البنات » كان من الواجب أن يقال : « ولأنفسهم ما يشتهون » انتهى محصلاً .

والحق أن التزام هذه القاعدة إنما هو لدفع اللبس ، وأن تخلل حرف الجر بين الضميرين من الفصل ، وفي القرآن الكريم : « وهزي إليك يخذع النخلة » مريم : ٢٥ « وأضمم إليك جناحك » القصص : ٣٢ ، ومنهم من رد القاعدة من رأس لانتقاضها بالآيتين ، وأجابوا أيضاً بوجوه آخر لا حاجة بنا إلى ذكرها من أرادها فليراجع التفاسير .

قوله تعالى : « وإذا بشر أحدهم بالأنثى ظل وجهه مسوداً وهو كظيم » اسوداد الوجه كناية عن الغضب ، والكظيم هو الذي يتجرع الغيظ ، والجملة حالية أي ينسبون إلى ربهم البنات والحال أنهم إذا بشر أحدهم بالأنثى فليل : ولدت لك بنت اسود وجهه من الغيظ وهو يتجرع غيظه .

قوله تعالى : « يتواري من القوم من سوء ما بشر به » إلى آخر الآية ، التواري

الاستخفاء والتخفي وهو مأخوذ من الورا ، والهون الذلة والخزي ، والدس الإخفاء .
والمعنى : يستخفي هذا المبشر بالبنت من القوم من سوء ما بشر به على عقيدته
ويتفكر في أمره : أيسك ما بشر به وهي البنت على ذلة من إمساكه وحفظه أم
يخفيه في التراب كما كان ذلك عادتهم في المواليسد من البنات كما قيل : إن أحدهم كان
يحفر حفرة صغيرة فإذا كان المولود أنثى جعلها في الحفرة وحشا عليها التراب حتى تموت
تحت ، وكانوا يفعلون ذلك مخافة الفقر عليهن فيطمع غير الأكفاء فيهن .

وأول ما بدا لهم ذلك أن بني تميم غزوا كسرى فهزمهم وسبى نساءهم وذرايرهم
فأدخلهم دار الملك واتخذ البنات جواري وسرايا ثم اصطلحوا بعد برهة وامتردوا
السبايا فخيرن في الرجوع إلى أهلن فامتنعت عدة من البنات فأغضب ذلك رجال
بني تميم فعزموا لا تولد لهم أنثى إلا وأدوها ودفنوها حية ثم تبعهم في ذلك بعض من
دونهم فشاع بينهم وأد البنات .

وقوله : « ألا ساء ما يحكمون » هو حكمهم أن له البنات ولهم البنون لا لهوان
البنات وكرامة البنين في نفس الأمر بل معنى هذا الحكم عندهم أن يكون لله ما
يكرهون ولهم ما يحبون ، وقيل : المراد بالحكم حكمهم بوجوب وأد البنات وكون
إمساكن هونا ، وأول الوجهين أوفق وأنسب للآية التالية .

قوله تعالى : « للذين لا يؤمنون بالآخرة مثل السوء والله المثل الأعلى وهو العزيز
الحكيم » المثل هو الصفة ومنه سمي المثل السائر مثلاً لأنه صفة تسير في الألسن وتجري
في كل موضع تناسبه وتشابهه .

والسوء — بالفتح والسكون — مصدر ساء يسوء كما أن السوء بالضم اسمه
وإضافة المثل إلى السوء تفيد التنويع فإن الأشياء إنما توصف إما من جهة حسنها وإما
من جهة سوءها وقبحها فالمثل مثلان : مثل الحسن ومثل السوء .

والحسن والقبح ربما كانا من جهة الخلقة لا صنع للإنسان ولا مدخل لاختياره
فيها كحسن الوجه ودمامة الخلقة ، وربما لحقا من جهة الأعمال الاختيارية كحسن
العدل وقبح الظلم ، وإنما يحمد ويذم العقل ما كان من القسم الثاني دون القسم الأول
فيدور الحمد والذم بحسب الحقيقة مدار العمل بما تستحسنه وتأمربه الفطرة الإنسانية

من الأعمال التي توصله إلى ما فيه سعادة حياته وترك العمل بها وهو الذي يتضمنه الدين الحق من أحكام الفطرة .

ومن المعلوم أن الطبع الإنساني لا رادع له عن اقتراف العمل السيئ إلا ألم المؤاخذه وشديد العقاب وإذعانه بإيقاعه وإنجازه ، وأما الذم فإنه يتبدل مدحاً إذا شاع الفعل وخرج بذلك عن كونه منكراً غير معروف .

ومن هنا يظهر أن الإيمان بالآخرة والإذعان بالحساب والجزاء هو الأصل الوحيد الذي يضمن حفظ الإنسان عن اقتراف الأعمال السيئة ويحيره من لحوق أي ذم وخزي وهو المنشأ الذي يقوم أعمال الإنسان تقوياً يحمله على ملازمة طريق السعادة ، ولا يؤثر أثره أي شيء آخر من المعارف الأصلية حتى التوحيد الذي اليه ينتهي كل أصل .

وإلى ذلك يشير قوله تعالى : « ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله إن الذين يضلون عن سبيل الله لهم عذاب شديد بما نسوا يوم الحساب » ص : ٢٦ .

فعدم الإيمان بالآخرة واستخفاف أمر الحساب والجزاء هو مصدر كل عمل سيئ ومورده ، وبالمقابلة الإيمان بالآخرة هو منشأ كل حسنة ومنبع كل خير وبركة .

فكل مثل سوء وصفة قبح يلزم الإنسان ويلحقه فإنما يأتيه من قبل نسيان الآخرة كما أن كل مثل حسن وصفة حمد بالعكس من ذلك .

وبما تقدم يظهر النكتة في قوله : « للذين لا يؤمنون بالآخرة مثل السوء » فقد كان يصفهم في الآيات السابقة بالشرك فلما أراد بيان أن لهم مثل السوء بدّل ذلك من وصفهم بعدم إيمانهم بالآخرة .

فالذين لا يؤمنون بالآخرة هم الأصل في عروض كل مثل سوء وصفة قبح فإن ملاكه وهو إنكار الآخرة نعمتهم اللازم لهم . ولو لحق بعض المؤمنين بالآخرة شيء من مثل السوء فإنما يلحقه لنسيان ما ليوم الحساب والمنكرون هم الأصل في ذلك .

هذا في صفات السوء التي يستقبحها العقل ويذمها ، وهناك صفات سوء لا يستقبحها العقل وإنما يكرهها الطبع كالأنوثة عند قوم وإيلاد البنات عند آخرين والفقير المالي والمرض وكالموت والفناء والعجز والجهل تشترك بين المؤمن والكافر وصفات أخرى تحليلية كالفقير والحاجة والنقص والعدم والإمكان لا تختص بالإنسان بل هي مشتركة

بين جميع الممكنات سارية في عامة الخلق ، والكافر يتصف بها كما يتصف بها غيره ،
فالكافر في معرض الاتصاف بكل مثل سوء منها ما يختص به ومنها ما يشترك بينه
وبين غيره كما بيّن تفصيلاً .

والله سبحانه منزّه من أن يتصف بشيء من هذه الصفات التي هي أمثال السوء
أما أمثال السوء التي تتحصل من ناحية سيئات الأعمال مما يستقبّحه العقل ويذمّه ويجمعها
الظلم فلأنه لا يظلم شيئاً ، قال تعالى : « ولا يظلم ربك أحداً » الكهف : ٤٩ ، وقال :
« وهو الحكيم العليم » الزخرف : ٨٤ ، فما قضاه من حكم أو فعله من شيء فهو المتعين
في الحكمة لا يصلح بالنظر إلى النظام الجاري في الوجود إلا ذاك .

وأما أمثال السوء مما يستكرهه الطبع أو يحلله العقل فسبيل لها إليه تعالى
فإنه عزيز مطلق يتنعم جانبه من أن تسرب إليه ذلة فإن له كل القدرة لا يعرضه عجز ،
وله العلم كله فلا يطرأ عليه جهل ، وله محض الحياة لا يهدده موت ولا فناء منزّه عن
كل نقص وعدم فلا يتصف بصفات الأجسام مما فيه نقص أو فقد أو قصور أو فتور ،
والآيات في هذه المعاني كثيرة ظاهرة لا حاجة إلى إيرادها .

فهو سبحانه ذو علو ونزاهة من أن يتصف بشيء من أمثال السوء التي يتصف بها
غيره ، ولا هذا المقدار من التنزّه والتقدّس فحسب بل منزّه من أن يتصف بشيء من
الأمثال الحسنة والصفات الجميلة الكريمة بمعانيها التي يتصف بها غيره كالحياسة والعلم
والقدرة والعزة والعظمة والكبرياء وغيرها ، فإن الذي يوجد من هذه الصفات الحسنة
الكمالية في الممكنات محدودة متناه مشوب بالفقر والحاجة مخلوط بالفقدان والنقيصة
لكن الذي له سبحانه من الصفات محض الكمال وحقيقته غير محدودة ولا متناه ولا
مشوب بنقص وعدم ، فله حياة لا يهددها موت ، وقدرة لا يعثرها عي وعجز ، وعلم
لا يقارنه جهل ، وعزة ليس معها ذلة .

فله المثل الأعلى والصفة الحسنى ، قال تعالى : « وله المثل الأعلى في السماوات
والأرض » الروم : ٢٧ ، وقال : « له الأسماء الحسنى » طه : ٨ ، فالأمثال منها دانية
ومنها عالية والعالية منها أعلى ومنها غيره ، والأعلى مثله تعالى والأسماء سيئة وحسنة
والحسنة منها أحسن وغيره والله منها ما هو أحسن فافهم ذلك .

فقد تبين بما تقدم معنى كون مثله أعلى ، وأن قوله : « والله المثل الأعلى » مسوق للحصر أي لله المثل الذي هو أعلى دون المثل الذي هو سيء دان ودون المثل الذي هو حسن عال من صفات الكمال الذي تتصف به الممكنات وليس بأعلى .

وتبين أيضاً أن المثل الأعلى الذي يظهر له تعالى من البيان السابق هو انتفاء جميع الصفات السيئة عنه كما قال : « ليس كمثله شيء » الشورى : ١١ ، ومن الصفات الثبوتية كل صفة حسنة منفيًا عنه الحدود والنواقص .

وقوله : « وهو العزيز الحكيم » مسوق لإفادة الحصر وتعليل ما تقدمه أي وهو الذي له كل العزة فلا تعثره ذلة أصلاً لأن كل ذلة فهو فقد عزة ما وليس يفقد عزة ما ، وله كل الحكمة فلا يعرضه جهالة لأنها فقد حكمة ما وليس يفقد شيئاً من الحكمة .

وإذا لا سبيل لذلة ولا جهالة إليه فلا يتصف بشيء من صفات النقص ، ولا ينعت بشيء من نعوت الذمِّ وأمثال السوء ، لكن الكافر ذليل في ذاته جهول في نفسه فتلحقه وتلازمه صفات النقص ويتصف بصفات الذمِّ وأمثال السوء فللذين لا يؤمنون بالآخرة مثل السوء .

والمؤمن وإن كان ذليلاً في ذاته جهولاً في نفسه كالكافر إلا أنه لدخوله في ولاية الله أعزه ربه بعزته وأظهره على الجهالة بتأييده بروح منه ، قال تعالى : « والله ولي المؤمنين » آل عمران : ٦٨ ، وقال : « والله العزة ولسوله وللمؤمنين » المنافقون : ٨ ، وقال : « أولئك كتب في قلوبهم الإيمان وأيدهم بروح منه » المجادلة : ٢٢ .

قوله تعالى : « ولو يؤاخذ الله الناس بظلمهم ما ترك عليها من دابة » إلى آخر الآية . ضمير « عليها » عائد إلى الأرض لدلالة « الناس » عليها .

ولا يبعد أن يدعى أن السياق يدل على كون المراد بالدابة الإنسان فقط من جهة كونه يدب ويتحرك ، والمعنى ولو أخذ الله الناس بظلمهم مستمراً على المؤاخذة ما ترك على الأرض من إنسان يدب ويتحرك ، أما جل الناس فإنهم يهلكون بظلمهم وأما الأشد الأندر وهم الأنبياء والأئمة المعصومون من الظلم فهم لا يوجدون لهلاك آبائهم وامهاتهم من قبل .

والقوم أخذوا الدابة في الآية بإطلاق معناها وهو كل ما يدب على الأرض من

إنسان وحيوان فعاد معنى الآية إلى أنه لو يؤاخذهم بظلمهم لأهلك البشر وكل حيوان على الأرض فتوجه إليه : أن هذا هو الإنسان يهلك بظلمه فما بال سائر الحيوان يهلك ولا ظلم له أو يهلك بظلم من الإنسان ؟

وأوجه ما أجيب به عنه قول بعضهم بإصلاح منا : إن الله تعالى لو أخذهم بظلمهم بكفر أو معصية لهلك عامة الناس بظلمهم إلا المعصومين منهم وأما المعصومون على شذوذهم وقلة عددهم فإنهم لا يوجدون لهلاك آبائهم وامهاتهم من قبل ، وإذا هلك الناس وبطل النسل هلكت الدواب من سائر الحيوان لأنها مخلوقة لمنافع العباد ومصالحهم كما يشعر به قوله تعالى : « خلق لكم ما في الأرض جميعاً » البقرة : ٢٩ .

ولهم وجوه أخر في الذب عن الآية على تقدير عموم الدابة فيها لا جدوى في نقلها من أرادها فليراجع مطولات التفاسير .

واحتج بعضهم بالآية على عدم عصمة الأنبياء عليهم السلام ، وفيه أن الآية لا تدل على أزيد من أنه تعالى لو أخذ بالظلم لهلك جميع الناس وانقرض النوع ، وأما أن كل من يهلك فإنما هلك عن ظلمه فلا دلالة لها عليه فمن الجائز أن يهلك الأكثرون بظلمهم ويفني الأقلون بغناء آبائهم وامهاتهم كما تقدم فلا دلالة في الآية على استغراق الظلم الأفراد حتى الأنبياء والمعصومين وإفادتها تدل على استغراق الفناء .

وربما قيل في الجواب أن المراد بالناس الظالمون منهم بقرينة قوله : « على ظلمهم » فلا يشمل المعصومين من رأس .

وربما أجيب : أن المراد بالظلم أعم من المعصية التي هي مخالفة الأمر المولوي وترك الأولى الذي هو مخالفة الأمر الإرشادي وربما صدر عن الأنبياء عليهم السلام كما حكى عن آدم وزوجه : « قال ربنا ظلمنا أنفسنا الأعراف : ٢٣ ، وغيره من الأنبياء فحسنت الأبرار سيئات المقربين وحينئذ فلا يدل عموم الظلم في الآية للأنبياء على عدم عصمة الأنبياء عن المعصية بمعنى مخالفة الأمر المولوي .

وربما أجيب بأن إهلاك جميع الناس إنما هو بأن الله يمسك عن إزال المطر على الأرض لظلم الظالمين من الناس فيهلك به الظالمون والأولياء والدواب فإن العذاب إذا نزل لم يفرق بين الشقي والسعيد فيكون على العدو نقمة ونكالا وعلى غيره محنة ومزيد أجر .

والأجوبة الثلاثة غير قامة جميعاً :

أما الأول : فإن اختصاص الناس بالظالمين يوجب اختصاص الهلاك بهم كما ادعي فلا يعم الهلاك المعصومين ، ولا موجب حينئذ هلاك سائر الدواب المخلوقة للإنسان فلا يستقيم قوله : « ما ترك عليها من دابة » كما لا يخفى .

وأما الثاني : فلأن الآيات بما لها من السياق تبحث عن الظلم بمعنى الشرك وسائر المعاصي المولوية فتعميم الظلم في الآية لترك الأولى وخاصة بالنظر إلى ذيل الآية « ولكن يؤخرهم إلى أجل مسمى » الظاهر في الإبعاد لا يلائم السياق .

وأما الثالث : فلعدم دليل من جهة اللفظ على ما ذكر فيه .

وقوله : « ولكن يؤخرهم إلى أجل مسمى فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون » استدراك عن مقدر يدل عليه الجملة الشرطية في صدر الآية والتقدير : فلا يعاجل في مؤاخذتهم ولكن يؤخرهم إلى أجل مسمى والأجل المسمى بالنسبة إلى الفرد من الإنسان موته المحتوم ، وبالنسبة إلى الأمة يوم انقراضها وبالنسبة إلى عامة البشر نفخ الصور وقيام الساعة ، ولكل منها ذكر في كلامه تعالى قال : « ومنكم من يتوفى من قبل وتبلغوا أجلاً مسمى » المؤمن : ٦٧ ، وقال : « ولكل أمة أجل فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون » الأعراف : ٣٤ ، وقال : « ولولا كلمة سبقت من ربك إلى أجل مسمى لقضي بينهم » الشورى : ١٤ .

قوله تعالى : « ويعملون » ما يكرهون وتصف ألسنتهم الكذب أن لهم الحسنى « إلى آخر الآية » عود إلى نسبة المشركين إليه تعالى البنات واختيارهم لأنفسهم البنين وهم يكرهون البنات ويحبون البنين ويستحسنونهم .

فقوله : « ويعملون » ما يكرهون « يعني البنات وقوله : « وتصف ألسنتهم الكذب » أي تخبر ألسنتهم الخبر الكاذب وهو « أن لهم الحسنى » أي العاقبة الحسنى من الحياة وهي أن يخلفهم البنون ، وقيل : المراد بالحسنى الجنة على تقدير صحة البعث وصدق الأنبياء فيما يخبرون به كما حكاه عنهم في قوله : « ولئن أذقناه رحمة منا من بعد ضراء مسته ليقولن هذا لي وما أظن الساعة قائمة ولئن رجعت إلى ربي إن لي عنده للحسنى » حم السجدة : ٥٠ ، وهذا الوجه لا بأس به لولا ذيل الآية بما سيجيء

من معناه .

وقوله : « لا جرم أن لهم النار وأنهم مفرطون » أي المقدمون إلى عذاب النار يقال فرط وأفرط أي تقدم والإفراط الإسراف في التقدم كما أن التفريط التقصير فيه ، والفرط بفتحين هو الذي يسبق السيارة لتهيئة المسكن والماء ، ويقال : أفرطه أي قدمه .

ولما كان قولهم كذباً وافتراءً إن الله ما يكرهون ولهم الحسنی في معنى دعوى أنهم سبقوا ربهم إلى الحسنی وتركوا له ما يكرهون أو عدمهم بحقيقة هذا الزعم جزاء لكذبهم وهو أن لهم النار وأنهم مقدمون إليها حقاً وذلك قوله : « لا جرم أن لهم النار » الخ .

قوله تعالى : « تالله لقد أرسلنا إلى أمم من قبلك فزين لهم الشيطان أعمالهم فهو وليهم اليوم ولهم عذاب أليم » ظاهر السياق أن المراد باليوم يوم نزول الآية والمراد بكون الشيطان ولياً لهم يومئذ اتفاقهم على الضلال في زمان الوحي والمراد بالعذاب الموعود عذاب يوم القيامة كما هو ظاهر غالب الآيات التي توعد بالعذاب .

والمعنى : تالله لقد أرسلنا رسلاً إلى أمم من قبلك كاليهود والنصارى والمجوس ممن لم ينقضوا كعاد وثمود فزين لهم الشيطان أعمالهم فاتبعوه وأعرضوا عن رسلنا فهو وليهم اليوم وهم متفقون على الضلال ولهم يوم القيامة عذاب أليم .

وجوز الزمخشري على هذا الوجه أن يكون ضمير « وليهم » لقريش والمعنى أن الشيطان زين للامم الماضين أعمالهم وهو اليوم ولي قريش . ويبعده لزوم اختلاف الضمائر .

ويمكن أن يكون المراد بالامم الامم الماضين والهالكين فولاية الشيطان لهم اليوم كونهم من أولياء الشيطان في البرزخ ولهم هناك عذاب أليم .

وقيل : المراد باليوم مدة الدنيا فهي يوم الولاية والعذاب يوم القيامة .

وقيل : المراد به يوم القيامة فهناك ولاية الشيطان لهم ولهم هناك عذاب أليم .

وقيل : المراد يوم تزين الشيطان أعمالهم وهو من قبيل حكاية الحال الماضية .

واقرب الوجوه أولها ثم التالي فالتالي والله اعلم .

قوله تعالى : « وما أنزلنا عليك الكتاب إلا لتبين لهم الذي اختلفوا فيه » الخ
 ضمير لهم للمشركين والمراد بالذي اختلفوا فيه هو الحق من اعتقاد وعمل فيكون المراد
 بالتبين الإيضاح والكشف لإتمام الحجة ، والدليل على هذا الذي ذكرنا تفريق أمر
 المؤمنين منهم وإفرادهم بالذكر في قوله : « وهدى ورحمة لقوم يؤمنون » .

والمعنى : هذا حال الناس في الاختلاف في المعارف الحقة والأحكام الإلهية وما
 أنزلنا عليك الكتاب إلا لتكشف هؤلاء المختلفين الحق الذي اختلف فيه فيتم لهم الحجة ،
 وليكون هدى ورحمة لقوم يؤمنون يهديهم الله به إلى الحق ويرحمهم بالإيمان به والعمل .

(بحث روائي)

في الكافي بإسناده عن عبد الرحمان بن كثير قال : قلت لأبي عبد الله عليه السلام :
 « فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون » قال : الذكر محمد ونحن أهله المسؤولون الحديث .
 أقول : يشير عليه السلام إلى قوله تعالى : « قد أنزل الله عليكم ذكراً رسولاً » الطلاق :
 ١١ وفي معناه روايات كثيرة .

وفي تفسير البرهان عن البرقي بإسناده عن عبد الكريم بن أبي الديلم عن أبي عبد الله
 عليه السلام : قال جلّ ذكره : « فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون » قال : الكتاب
 الذكر وأهله آل محمد عليهم السلام أمر الله عز وجل بسؤالهم ولم يؤمر بسؤال الجهال
 وسمى الله عز وجل القرآن ذكراً فقال تبارك وتعالى : « وأنزلنا إليك الذكر لتبين
 للناس ما نزل إليهم ولعلهم يتفكرون » وقال تعالى : « وإنه لذكر لك ولقومك
 وسوف تسألون » .

أقول : وهذا احتجاج على كونهم أهل الذكر بأن الذكر هو القرآن وأنهم أهله
 لكونهم قوم رسول الله ﷺ والآيتان في آخر الكلام للاستشهاد على ذلك كما صرح
 بذلك في غيره من الروايات ، وفي معنى الحديث أحاديث أخر .

وفي تفسير العياشي عن محمد بن مسلم عن أبي جعفر عليه السلام قال : قلت له إن من
 عندنا يزعمون أن قول الله تعالى : « فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون » أنهم اليهود
 والنصارى فقال : إذا يدعونكم إلى دينهم قال : ثم قال بيده إلى صدره : نحن أهل

الذكر ونحن المسؤولون . قال : قال أبو جعفر عليه السلام : الذكر القرآن .

أقول : وروى نظير هذا البيان عن الرضا عليه السلام في مجلس المأمون .

وقد مر أن الخطاب في الآية على ما يفيد السياق للمشركين من الوثنيين المحيلين للرسالة أمروا أن يسألوا أهل الذكر وهم أهل الكتب السماوية : هل بعث الله للرسالة رجالاً من البشر يوحى اليهم ؟ ومن المعلوم أن المشركين لما كانوا لا يقبلون من النبي صلى الله عليه وآله لم يكن معنى لإرجاعهم إلى غيره من أهل القرآن لأنهم لم يكونوا يقرّون للقرآن أنه ذكر من الله فتعين أن يكون المسؤول عنه بالنظر إلى مورد الآية هم أهل الكتاب وخاصة اليهود .

وأما إذا أخذ قوله : « فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون » في نفسه مع قطع النظر عن المورد ومن شأن القرآن ذلك - ومن المعلوم أن المورد لا يختص بنفسه - كان القول عاماً من حيث السائل والمسئول والمسؤول عنه ظاهراً فالسائل كل من يمكن أن يجهل شيئاً من المعارف الحقيقية والمسائل من المكلفين ، والمسئول عنه جميع المعارف والمسائل التي يمكن أن يجهلها جاهل ، وأما المسئول فإنه وإن كان بحسب المفهوم عاماً فهو بحسب المصادق خاص وهم أهل بيت النبي عليه وعليهم السلام .

وذلك أن المراد بالذكر إن كان هو النبي صلى الله عليه وآله كما في آية الطلاق فهم أهل الذكر ، وإن كان هو القرآن كما في آية الزخرف فهو ذكر للنبي صلى الله عليه وآله ولقومه - وهم قومه أو المتيقن من قومه - فهم أهله وخاصته وهم المسؤولون وقد قارنهم بالقرآن وأمر الناس بالتمسك بها في حديث الثقلين المتواتر قائلاً : إنها لن يفترقا حتى يردها عليّ الحوض . الحديث .

ومن الدليل على أن كلامهم عليهم السلام من الجهة التي ذكرناها عدم تعرضهم لشيء من خصوصيات مورد الآية .

ومما قدمناه يظهر فساد ما أورده بعضهم على الأحاديث أن المشركين الذين أمروا بالسؤال ما كانوا يقبلون من النبي صلى الله عليه وآله فكيف يقبلون من أهل بيته ؟

وفي الدر المنثور أخرج ابن مردويه عن جابر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله : لا ينبغي للعالم أن يسكت على علمه ، ولا ينبغي للجاهل أن يسكت على جهله وقد قال الله :

« فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون » فينبغي للمؤمن أن يعرف عمله على هدى أم على خلافه .

وفي تفسير القمي في قوله تعالى : « أفأمن الذين مكروا السيئات - إلى قوله - بمجزيين » قال : قال عليه السلام : إذا جاؤا وذهبوا في التجارات فيأخذهم في تلك الحالة « أو يأخذهم على تخوف » قال : قال : على تيقظ .

وفي تفسير العياشي عن سماعة عن أبي عبد الله عليه السلام قال : سألت عن قول الله : « وله الدين واصباً » قال : واجباً .

وفي المعاني بإسناده عن حنّان بن سدير عن الصادق عليه السلام في حديث قال عليه السلام : « والله المثل الأعلى » الذي لا يشبه شيء ولا يوصف ولا يتوهم .

وفي الدر المنثور في قوله : « ولو يؤاخذ الله الناس بظلمهم » الآية ، أخرج ابن مردويه عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله : لو أن الله يؤاخذني وعيسى بن مريم بذنوبنا - وفي لفظ : بما جنت هاتان الإهلام والتي تليها - لعذبنا ما يظلمنا شيئاً .

أقول : والحديث مخالف لما يثبت الكتاب والسنة من عصمة الأنبياء عليهم السلام ولا وجه لجملة على إرادة ترك الأولى من الذنوب إذ لا عذاب عليه .

* * *

وَاللَّهُ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ - ٦٥ . وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهِ مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَبَنًا خَالِصًا سَائِغًا لِلشَّارِبِينَ - ٦٦ . وَمِنْ ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ - ٦٧ . وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنْ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ - ٦٨ . ثُمَّ كُلِي

مِنْ كُلِّ الشَّمَرَاتِ فَاسْأَلْكِ سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ
 مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ - ٦٩ .
 وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّاكُمْ وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لَكُمْ
 لَا يَعْلَمُ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ - ٧٠ . وَاللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ
 عَلَى بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ فَمَا الَّذِينَ فُضِّلُوا بِرَادِّي رِزْقِهِمْ عَلَى مَا مَلَكَتْ
 أَيْمَانُهُمْ فَهُمْ فِيهِ سَوَاءٌ أَفَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ - ٧١ . وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ
 مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُمْ
 مِنَ الطَّيِّبَاتِ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ - ٧٢ .
 وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِنَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ
 شَيْئًا وَلَا يَسْتَطِيعُونَ - ٧٣ . فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ
 وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ - ٧٤ . ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَمْلُوكًا لَا يَقْدِرُ عَلَى
 شَيْءٍ وَمَنْ رَزَقْنَاهُ مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنْفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا هَلْ
 يَسْتَوُونَ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ - ٧٥ . وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا
 رَجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَى مَوْلَاهُ أَيْنَمَا
 يُوَجَّهُهُ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَنْ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَهُوَ عَلَى
 صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ - ٧٦ . وَاللَّهُ غِيبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا أَمْرُ
 السَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ - ٧٧ .

(يات)

رجوع بعد رجوع إلى عدّ النعم والآلاء الإلهية واستنتاج التوحيد والبعث منها والإشارة إلى مسألة التشريع وهي النبوة .

قوله تعالى : « والله أنزل من السماء ماءً فأحيا به الأرض بعد موتها » الخ ، يريد إنبات الأرض بعد ما انقطعت عنه بحلول الشتاء بماء السماء الذي هو المطر فتأخذ أصول النباتات وبذورها في النمو بعد سكونها ، وهي حياة من سنخ الحياة الحيوانية وإن كانت أضعف منها ، وقد اتضح بالآبحاث الحديثة أن للنبات من جراثيم الحياة ما للحيوان وإن اختلفتا صورة وأثراً .

وقوله : « إن في ذلك لآية لقوم يسمعون » المراد بالسمع قبول ما من شأنه أن يقبل من القول فإن العاقل الطالب للحق إذا سمع ما يتوقع فيه الحق أصفى واستمع إليه ليعيه ويحفظه ، قال تعالى : « الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أولوا الألباب » الزمر : ١٨ .

فإذا ذكر من فيه قريحة قبول الحق حديث إزال الله المطر وإحيائه الأرض بعد موتها كان له في ذلك آية للبعث وأن الذي أحيهاها لحيي الموتى .

قوله تعالى : « وإن لكم في الأنعام لعبرة » الخ ، الفرث هو الثفل الذي ينزل إلى الكرش والأمعاء فإذا دفع فهو سرجين وليس فرثاً ، والسائغ اسم فاعل من السوغ يقال : ساغ الطعام والشراب إذا جرى في الحلق بسهولة .

وقوله : « وإن لكم في الأنعام لعبرة » أي لكم في الإبل والبقر والغنم لأمرأ أمكنكم أن تعتبروا به وتتعضوا ثم بين ذلك الأمر بقوله : « نسقيكم مما في بطونه » الخ ، أي بطون ما ذكر من الأنعام أخذ الكثير شيئاً واحداً .

وقوله : « من بين فرث ودم » الفرث في الكرش وألبان الأنعام مكانها مؤخر البطن بين الرجلين ، والدم مجراها الشرايين والأوردة وهي محيطة بها جميعاً فأخذ اللبن شيئاً هو بين الفرث والدم كأنه باعتبار مجاورته لكل منهما واجتماع الجميع في داخل الحيوان وهذا كما يقال : اخترت زيدا من بين القوم ودعوته وأخرجته من بينهم إذا

اجتمع معهم في مكان واحد وجاورهم فيه وإن كان جالساً في حاشية القوم لا وسطهم، والمراد بذلك أني مئزته من بينهم وقد كان غير متميز .

والمعنى : نسقيكم مما في بطونه لبناً خارجاً من بين فرث ودم خالصاً غير مختلط ولا مشوب بها ولا مستصحب لشيء من طعامها ورائحتها سائغاً للشاربين فذلك عبرة لمن اعتبر وذريعة إلى العلم بكمال القدرة ونفوذ الإرادة ، وأن الذي خلص اللين من بين فرث ودم لقادر على أن يبعث الإنسان ويحييه بعد ما صار عظاماً رميمًا وضلت في الأرض أجزاؤه .

قوله تعالى : « ومن ثمرات النخيل والأعناب تتخذون منه سكراً ورزقاً حسناً » إلى آخر الآية ، قال في المفردات : السكر - بضم السين - حالة تعرض بين المرء وعقله - إلى أن قال - والسكر - بفتح السين - ما يكون منه السكر ، قال تعالى : « تتخذون منه سكراً ورزقاً حسناً » انتهى .

وقال في المجمع : السكر في اللغة على أربعة أوجه : الأول ما أسكر من الشراب ، والثاني ما طعم من الطعام ، قال الشاعر : « جعلت عيب الأكرمين سكراً » أي جعلت ذمتهم طعماً لك ، والثالث السكون ومنه ليلة ساكرة أي ساكنة ، قال الشاعر : « وليست بطلق ولا ساكرة » ويقال : سكرت الريح سكنت ، قال : « وجعلت عين الحرور تسكر » ، والرابع المصدر من قولك : سكر سكراً ومنه التسكير التحجير في قوله : « سكرت أبصارنا » انتهى . والظاهر أن الأصل في معناه هو زوال العقل باستعمال ما يوجب ذلك ، وسائر ما ذكره من المعاني مأخوذة منه بنوع من الاستعارة والتوسع .

وقوله : « ومن ثمرات النخيل والأعناب » إما جملة اسمية معطوفة على قوله : « والله أنزل من السماء ماء » كقوله في الآية السابقة : « وإن لكم في الأنعام لعبرة » ، والتقدير : ومن ثمرات النخيل والأعناب ما - أو ^(١) شيء - تتخذون منه الخ ، قالوا :

(١) التزديد مبني على المذهبين في حذف الموصول كما سيأتي .

والعرب ربما يضمرون ما الموصولة كثيراً ، ومنه قوله تعالى : « وإذا رأيت ثم رأيت نعيماً وملكاً كبيراً » الدهر : ٢٠ ، والتقدير رأيت ماثم ، أو التقدير ومن ثمرات النخيل والأعناب شيء تتخذون منه ، بناء على عدم جواز حذف الموصول وإبقاء الصلة على ما ذهب إليه البصريون من النحاة .

وإما جملة فعلية معطوفة على قوله : « أنزل من السماء » ، كما في الآية التالية : « وأوحى ربك » والتقدير خلق لكم أو آتاكم من ثمرات النخيل والأعناب ، وقوله : « تتخذون منه » الخ ، بدل منه أو استئناف كأن قائل يقول : ماذا نستفيد منه فقيل : تتخذون منه سكرًا ورزقًا حسنًا ، وإفراد ضمير « منه » بتأويل المذكور كقوله : « مما في بطونه » في الآية السابقة .

وقوله : « تتخذون منه سكرًا ورزقًا حسنًا » أي تتخذون مما ذكر من ثمرات النخيل والأعناب ما هو مسكر كالخمر بأنواعها ورزقًا حسنًا كالتمر والزبيب والدبس وغير ذلك مما يقتات به .

ولا دلالة في الآية على إباحة استعمال السكر ولا على تحسين استعماله إن لم تدل على نوع من تقبيحه من جهة مقابلته بالرزق الحسن وإنما الآية تعد ما ينتفعون به من ثمرات النخيل والأعناب وهي مكيّة تخاطب المشركين وتدعوهم إلى التوحيد .

وعلى هذا فالآية لا تتضمن حكمًا تكليفيًا حتى تكون منسوخة أو غير منسوخة وبه يظهر فساد القول بكونها منسوخة بآية المائدة كما نسب إلى قتادة .

وقد أغرب صاحب روح المعاني إذ قال : وتفسير السكر بالخمر هو المروي عن ابن مسعود وابن عمر ، وأبي رزين والحسن ومجاهد والشعبي والنخعي وابن أبي ليلى وأبي ثور والكلبي وابن جبير مع خلق آخرين ، والآية نزلت في مكة والخمر إذ ذاك كانت حلالاً يشربها البر والفاجر ، وتحريمها إنما كان بالمدينة اتفاقاً ، واختلفوا في أنه قبل أحد أو بعدها ، والآية المحرمة لها : « يا أيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه » ، على ما ذهب إليه جمع فما هنا منسوخ بها وروي ذلك ، غير واحد ممن تقدم كالنخعي وأبي ثور وابن جبير . وقيل : نزلت قبل ولا نسخ بناء على ما روي عن ابن عباس أن السكر هو الخمر

بلغه الحبشة أو على ما نقل عن أبي عبيدة أن السكر المطعوم المتفكه به كالنقل وأنشد: « جعلت أعراض الكرام سكرأ » - إلى أن قال - وإلى عدم النسخ ذهب الحنفيون وقالوا : المراد بالسكر ما لا يسكر من الأنبذة واستدلوا عليه بأن الله تعالى امتن على عباده بما خلق لهم من ذلك ، ولا يقع الامتنان إلا بمحلل فيكون ذلك دليلاً على جواز شرب ما دون المسكر من النبيذ فإذا انتهى إلى السكر لم يحز انتهى موضع الحاجة .

أما ما ذكره في الحمر فقد فصلنا القول في ذلك في ذيل آيات التحريم من سورة المائدة ، وأقمنا الشواهد هناك على أن الحمر كانت محرمة قبل الهجرة وكان الإسلام معروفاً بتحريمها وتحريم الزنا عند المشركين عامتهم ، وأن تحريمها نزل في سورة الأعراف وقد نزلت قبل سورة النحل قطعاً ، وفي سورتي البقرة والنساء وقد نزلتا قبل سورة المائدة .

وأن التي نزلت في المائدة إنما نزلت لتشديد الحرمة وزجر بعض المسلمين حيث كانوا يتخلفون عن حكم التحريم كما وقع في الروايات وهو الذي يشير إليه بقوله : يشربها البر والفاجر وفي لفظ الآيات دلالة على ذلك إذ يقول : « فهل أنتم منتهون » . وأما ما نقله عن ابن عباس أن السكر في لغة الحبشة بمعنى الخل فلا معول عليه ، واستعمل اللفظ غير العربي وإن كان غير عزيز في القرآن كما قيل في استبرق وجههم وزقوم وغيرها لكنه إنما يجوز فيما لم يكن هناك مانع من لبس أو إيهام ، وأما في مثل السكر وهو في اللغة العربية الحمر وفي الحبشية الخل فلا وكيف يجوز أن ينسب إلى أبلغ الكلام أنه ترك الخل وهو عربي جيد واستعمل مكانه لفظة حبشية تفيد في العربية ضد معناها ؟ وأما ما نسبته إلى أبي عبيدة فقد تقدم ما عليه في أول الكلام فراجع .

وأما ما نسبته إلى الحنفية من أن المراد بالسكر النبيذ وأن الآية تدل على جواز شرب القليل منه ما لم يصل إلى حد الإسكار لمكان الامتنان فقيه أن الآية لا تدل على أكثر من أنهم يتخذون منه سكرأ ، وأما الامتنان عليهم بذلك فبمعزل من دلالة الآية وإنما عدت من النعم ثمرات النخيل والأعناب لا كل ما عملوا منها من حلال وحرام ولو كان في ذلك امتنان لم يقابله بالرزق الحسن الدال بمقابلته على نوع من العتاب على اتخاذه من سكرأ كما اعترف به البيضاوي وغيره .

على أن ما في الآية من لفظ السكر غير مقيّد بكونه نبيذاً أو خمرأً ولا قليلاً لا يبلغ حد الإسكار ولا غيره فلو كان اتخاذ السكر متعلقاً للامتنان الدال على الجواز لكانت الآية صريحة في حلية الجميع ثم لم يقبل النسخ أصلاً فإن لسان الامتنان لا يقبل أمدأ يرتفع بعده ، كيف يجوز أن يعدّ الله شيئاً من نعمه ويمتنّ على الناس به ثم يعدّه بعد برهة رجساً ومن عمل الشيطان كما في آية المائدة إلا بالبذاء بمعناه المستحيل عليه تعالى .

ثم ختم سبحانه الآية بقوله : « إن في ذلك لآية لقوم يعقلون » حثاً على التعقل والإيمان في أمر النبات وثمراته .

قوله تعالى : « وأوحى ربك إلى النحل أن اتخذي من الجبال بيوتاً » إلى آخر الآيتين ، الوحي — كما قال الراغب — الإشارة السريعة وذلك يكون بالكلام على سبيل الرمز أو بصوت مجرد عن التركيب أو بإشارة ونحوها ، والمحصل من موارد استعماله أنه إلقاء المعنى بنحو يخفى على غير من قصد إفهامه فالإلهام بإلقاء المعنى في فهم الحيوان من طريق الغريزة من الوحي وكذا ورود المعنى في النفس من طريق الرؤيا أو من طريق الوسوسة أو بالإشارة كل ذلك من الوحي ، وقد استعمل في كلامه تعالى في كل من هذه المعاني كقوله : « وأوحى ربك إلى النحل » الآية ، وقوله : « وأوحينا إلى أم موسى » القصص : ٧ ، وقوله : « إن الشياطين ليوحون إلى أوليائهم » الأنعام : ١٢١ ، وقوله : « فأوحى إليهم أن سبحوا بكرة وعشيّاً » مريم : ١١ ، ومن الوحي التكليم الإلهي لأنبيائه ورسله ، قال تعالى : « وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحياً » الشورى : ٥١ ، وقد قرّر الأدب الديني في الإسلام أن لا يطلق الوحي على غير ما عند الأنبياء والرسل من التكليم الإلهي .

قال في المجمع : والذلل جمع الذلول ، يقال : دابة ذلول بين الذل ورجل ذلول بين الذل والذلة . انتهى .

وقوله : « وأوحى ربك إلى النحل » أي ألهمه من طريق غريزته التي أودعها في بنيته ، وأمر النحل وهو زنبور العسل في حياته الاجتماعية وسيرته وصنعتة لعجيب ، ولعل بداعة أمره هو الموجب لصرف الخطاب عنهم إلى النبي ﷺ إذ قال : « وأوحى ربك » .

وقوله: « أن اتخذي من الجبال بيوتاً ومن الشجر ومما يعرشون » هذا من مضمون الوحي الذي أوحى إليه ، والظاهر أن المراد بما يعرشون هو ما يبنون لبيوت العسل .
وقوله : « ثم كلي من كل الثمرات » الأمر بأن تأكل من كل الثمرات مع أنها تنزل غالباً على الأزهار إنما هو لأنها إنما تأكل من مواد الثمرات أول ما تتكوّن في بطون الأزهار ولما تكبر وتنضج .

وقوله : « فاسلكي سبل ربك ذللاً » تفريعه على الأمر بالأكل يؤيد أن المراد به رجوعها إلى بيوتها لتودع فيها ما هيأته من العسل المأخوذ من الثمرات وإضافة السبل إلى الرب للدلالة على أن الجميع بإلهام إلهي .

وقوله : « يخرج من بطونها شراب مختلف ألوانه » النخ ، استئناف بعد ذكر جملة ما أمرت به يبين فيه ما يترتب على مجاهدتها في امتثال أمر الله سبحانه ذللاً وهو أنه يخرج من بطونها أي بطون النحل « شراب » وهو العسل « مختلف ألوانه » بالبياض والصفرة والحمرة الناصعة وما يميل إلى السواد « فيه شفاء للناس » من غالب الأمراض .
وتفصيل القول في حياة النحلة هذه الحشرة الفطنة التي بنت حياتها على مدنية عجيبة فاضلة لا تكاد تحصى غرائبها ولا يحيط بدقائقها ثم الذي تهوّه ببالح مجاهدتها وما يشتمل عليه من الخواص خارج عن وسع هذا الكتاب فليراجع في ذلك ميطان تحقيقه .

ثم ختم الآية بقوله : « إن في ذلك لآية لقوم يتفكرون » وقد اختلف التعبير بذلك في هذه الآيات فخصّ الآية في إحياء الأرض بعد موتها بقوم يسمعون ، وفي ثمرات النخيل والأعناب بقوم يعقلون ، وفي أمر النحل بقوم يتفكرون .

ولعل الوجه في ذلك أن النظر في أمر الموت والحياة بحسب طبعه من العبرة والموعظة ، وهي بالسمع أنسب ، والنظر في الثمرات من حيث ما ينفع الإنسان في وجوده من السير البرهاني من مسلك اتصال التدبير وارتباط الأنظمة الجزئية ورجوعها إلى نظام عام واحد لا يقوم إلا بتدبر واحد وهو للعقل أنسب ، وأمر النحل في حياتها يتضمن دقائق عجيبة لا تنكشف للإنسان إلا بالإمعان في التفكير فهو آية للمتفكرين .

وقد أشرنا سابقاً إلى ما في آيات السورة من مختلف الالتفاتات ، وعمدتها في هذه الآيات ترجع إلى خطاب المشرّكين رحمة لهم وإشفاقاً بحالهم وهم لا يعلمون ، والإعراض

عن مخاطبتهم لكفرهم وجحودهم إلى خطاب النبي ﷺ وهذا ظاهر مشهود في آيات السورة فلا يزال الخطاب فيها يتقلب بين النبي ﷺ وبين المشركين فيتحول منه اليهم ومنهم اليه .

قوله تعالى : « والله خلقكم ثم يتوفاكم ومنكم من يردّ إلى أرذل العمر لكي لا يعلم بعد علم شيئاً » الخ ، الأرذل اسم تفضيل من الرذالة وهي الرداءة ، والرذل الدون والردىء ، والمراد بأرذل العمر بقرينة قوله : « لكي لا يعلم » الخ ، سن الشيخوخة والهزم التي فيها انحطاط قوى الشعور والإدراك ، وهي تختلف باختلاف الأمزجة وتبتدىء على الأغلب من الخمس والسبعين .

والمعنى : والله خلقكم معشر الناس ثم يتوفاكم في عمر متوسط ومنكم من يردّ إلى سن الهرم فينتهي إلى أن لا يعلم بعد علم شيئاً لضعف القوى ، وهذا آية أن حياتكم وموتكم وكذا شعورك وعلمكم ليست بأيديكم وإلا اخترتم البقاء على الوفاة والعلم على عدمه بل ذلك على ما له من عجيب النظام منته إلى علمه وقدرته تعالى ، ولهذا علله بقوله : « إن الله عليم قدير » .

قوله تعالى : « والله فضل بعضكم على بعض في الرزق » إلى آخر الآية ، فضل بعض الناس على بعض في الرزق وهو ما تبقى به الحياة ربما كان من جهة الكمية كالغني المفضل بالمال الكثير على الفقير ، وربما كان من جهة الكيفية كأن يستقل بالتصرف فيه بعضهم ويتولى أمر الآخرين مثل ما يستقل المولى الحر بملك ما في يده والتصرف فيه بخلاف عبده الذي ليس له أن يتصرف في شيء إلا بإذنه وكذا الأولاد الصغار بالنسبة إلى وليهم والأنعام والمواشي بالنسبة إلى مالكيها .

وقوله : « فما الذين فضلوا برادتي رزقهم على ما ملكت أيماهم » قرينة على أن المراد هو القسم الثاني من التفضيل وهو أن بعضهم فضل بالحرية والاستقلال بملك ما رزق وليس يختار أن يردّ ما رزق باستقلاله وحرية إلى من يملكه ويملك رزقه ، ولا أن يبذل له ما أوتيته من نعمة حتى يتساوياً ويتشارك فيبطل ملكه ويذهب سودده .

فهذه نعمة ليسوا بمغمضين عنها ولا برادتين لها على غيرهم ، وليست إلا من الله سبحانه فإن أمر المولوية والرقسية وإن كان من الشئون الاجتماعية التي ظهرت عن آراء

الناس والسنن الاجتماعية الجارية في مجتمعاتهم لكن له اصول طبيعية تكوينية هي التي بعثت آراءهم على اعتباره كسائر الامور الاجتماعية العامة .

ومن الشاهد على ذلك أن الامم الراقية منذ عهد طويل أعلنوا بإلغاء سنتة الاسترقاق ثم اتبعتهم سائر الامم من الشرقيين وغيرهم وهم لا يزالون يحترمون معناها إلى هذه الغاية وإن ألغوا صورتها ، ويمحرون مسماتها وإن هجروا اسمها ^(١) ولن يزالوا كذلك فليس في وسع الإنسان أن يسد باب المغالبة ، وقد قدمنا كلاماً في هذا المعنى في آخر الجزء السادس من هذا الكتاب فليراجعه من شاء .

وكون هذا المعنى نعمة من الله إنما هو لأن من صلاح المجتمع الإنساني أن يتسلط بعضهم على بعض فيصلح القوي الضعيف بصالح التدبير ويكمله .

وعلى هذا فقوله : « فهم فيه سواء » متفرع على المنفي في قوله : « فما الذين فضلوا برادّي رزقهم » دون النفي ، والمعنى : ليسوا برادّي رزقهم على عيبدم فيكونوا متساوين فيه متشاركين وفي ذلك ذهاب مولويتهم ، ويحتمل أن يكون جملة استفهامية حذف منها أداة الاستفهام وفيها إنكار أن يكون المفضلون والمفضل عليهم في ذلك متساويين ، ولو كانوا سواء لم يمتنع المفضل من أن يرده رزقه على من فضل عليه فإن في ذلك دلالة على أنها نعمة خصه الله بها .

ولذلك عقبه ثانياً بقوله : « أفبنعمة الله يحددون » وهو استفهام توبيخي كالمترفع لما تقدمه من الاستفهام الإنكاري ، والمراد بنعمة الله هذا التفضيل المذكور بعينه .

والمعنى - والله أعلم - والله فرّق بينكم بأن فضل بعضكم على بعض في الرزق فبعضكم حرّ مستقل في التصرف فيه ، وبعضكم عبد تبع له لا يتصرف إلا عن إذن فليس الذين فضلوا برادّي رزقهم الذي رزقوه على سبيل الحرية والاستقلال على ما ملكت أيمانهم حتى يكون هؤلاء المفضلون والمفضل عليهم في الرزق سواء فليسوا سواء بل هي نعمة تختص بالمفضلين أفبنعمة الله يحددون ؟

هذا ما يفيد ظاهر الآية بما احتفتت به من القرائن ، والسياق سياق تعداد النعم ،

(١) وإنما نقلوا حكم الاسترقاق مما بين الفرد والفرد إلى ما بين المجتمع والمجتمع وسموه بغير اسم .

وربما قرّر معنى الآية على وجه آخر :

ف قيل : المعنى أنهم لا يشركون عبيدهم في أموالهم وأزواجهم حتى يكونوا في ذلك سواء ويرون ذلك نقصاً لأنفسهم فكيف يشركون عبيدي في ملكي وسلطاني ويعبدونهم ويتقربون إليهم كما يعبدونني ويتقربون إلي ، كما فعلوا في عيسى بن مريم عليه السلام ؟

قالوا : والآية على شاكلة قوله تعالى : « ضرب لكم مثلا من أنفسكم هل لكم مما ملكت أيمانكم من شركاء فيما رزقناكم فأنتم فيه سواء » الروم : ٢٨ . قالوا : والآية نزلت في نصارى نجران .

وفيه أن سياق الآية هو سياق تعداد النعم لاستنتاج التوحيد لا المناقضة والتوبيخ فلا أثر فيها منه .

على أن الآية بما نزلت بمكة وأين ذلك من وفود نصارى نجران على المدينة سنة ست من الهجرة أو بعدها ؟ وقياس هذه الآية من آية سورة الروم مع الفارق لاختلاف السياقين ، فسياق هذه الآية سياق الاحتجاج بذكر النعمة وسياق آية الروم هو سياق التوبيخ على الشرك .

وقيل : إن المعنى هؤلاء الذين فضلهم الله في الرزق من الأحرار لا يرزقون بمالهم وعبيدهم بل الله تعالى هو رازق الملاك والممالك فإن الذي ينفقه المولى على مملوكه إنما ينفقه مما رزقهم الله فالله رازقهم جميعاً فهم فيه سواء .

ومحصّله أن قوله : « فهم فيه سواء » حال محل إضراب مقدر والتقدير أن الموالي ليسوا برادّي رزق أنفسهم على عبيدهم فيما ينفقون عليهم بل الله يرزق العبيد بأيدي مواليتهم وهم سواء في الرزق من الله .

وفيه أن ما قرّر من المعنى مقتضاه أن يبطل التسوية أخيراً حكم التفضيل أولاً ، ولا يستقيم عليه مدلول قوله : « أفبنعمة الله يحدون » .

وقيل : المراد أن الموالي ليسوا برادّي ما بأيديهم من الرزق على مواليتهم حتى يستووا في التمتع منه .

وفيه أنه يعود حينئذ إلى أن الإنسان يمنع غيره من أن يتسلط على ما ملكه من

الرزق ، وحينئذ يكون تخصيص ذلك بالعبيد مستدركا زائداً ، ولو وجه بأنه إنما لا يردده عليه لمكان تسلطه على عبيده رجع إلى ما قدمناه من المعنى ، ولكانت النعمة المعدودة هي الفضل من جهة مالكية المولى لعبده ولما عنده من الرزق .

قوله تعالى : « والله جعل لكم من أنفسكم أزواجاً وجعل لكم من أزواجكم بنين وحفدة » إلى آخر الآية . قال في المفردات : قال الله تعالى : « وجعل لكم من أزواجكم بنين وحفدة » جمع حافذ وهو المتحرك المسرع بالخدمة أقارب كانوا أو أجانبا . قال المفسرون : هم الأسباط ونحوهم وذلك أن خدمتهم أصدق - إلى أن قال - قال الأصمعي : أصل الحفد مداركة الخطو . انتهى .

وفي المجمع : وأصل الحفد الإسراع في العمل - إلى أن قال - ومنه قيل للأعوان حفدة لإسراعهم في الطاعة . انتهى . والمراد بالحفدة في الآية الأعوان الخدم من البنين لمكان قوله : « وجعل لكم من أزواجكم » ولذا فسر بعضهم قوله : « بنين وحفدة » بصغار الأولاد وكبارهم ، وبعضهم بالبنين والأسباط وهم بنو البنين .

والمعنى : والله جعل لكم من أنفسكم أزواجاً تألفونها وتأنسبون بها ، وجعل لكم من أزواجكم بالإيلاء بنين وحفدة وأعواناً تستعينون بخدمتهم على حوائجكم وتدفعون بهم عن أنفسكم المكارة ورزقكم من الطيبات وهي ما تستطيعونه من أمتعة الحياة وتناولونه بلا علاج وعمل كالماء والثمرات أو بعلاج وعمل كالأطعمة والملابس ونحوها ، و « من » في « من الطيبات » للتبويض وهو ظاهر .

ثم وبخهم بقوله : « أقبالباطل » وهي الأصنام والأوثان ومن ذلك القول بالبنات لله ، والأحكام التي يشرعها لهم أثمتهم أئمة الضلال « يؤمنون وبنعمة الله هم يكفرون » والنعمة هي جعل الأزواج من أنفسهم وجعل البنين والحفدة من أزواجهم فإن ذلك من أعظم النعم وأجلها لكونه أساساً تكوينياً يبتني عليه المجتمع البشري ، ويظهر به فيهم حكم التعاون والتعاقد بين الأفراد ، وينتظم به لهم أمر تشريك الأعمال والمساعي فيتيسر لهم الظفر بسعادتهم في الدنيا والآخرة .

ولو أن الإنسان قطع هذا الرابط التكويني الذي أنعم الله به عليه وهجر هذا السبب الجليل ، وإن توصل بأي وسيلة غيره لتلاشي جمعه وتشتت شمله وفي ذلك

هلاك الإنسانية .

قوله تعالى : « ويعبدون من دون الله ما لا يملك لهم رزقاً في السماوات والأرض شيئاً ولا يستطيعون » عطف على موضع الجملة السابقة والمعنى يكفرون بنعمة الله ويعبدون من دون الله ما لا يملك الخ .

وقد ذكروا أن « رزقاً » مصدر و « شيئاً » مفعوله والمعنى لا يملك لهم أن يرزق شيئاً ، وقيل : الرزق بمعنى المرزوق و « شيئاً » بدل منه ، وقيل : إن « شيئاً » مفعول مطلق والتقدير : لا يملك شيئاً من الملك . وخير الوجوه أوسطها .

ويمكن أن يقال : « في السماوات والأرض شيئاً » بدل من « رزقاً » وهو من بدل الكل من البعض يفيد معنى الإضراب والترقي ، والمعنى ويعبدون ما لا يملك لهم رزقاً بل لا يملك لهم في السماوات والأرض شيئاً .

وقوله : « ولا يستطيعون » أي ولا يستطيعون أن يملكوا رزقاً و شيئاً ويمكن أن يكون منسي المتعلق جارياً مجرى اللازم أي ولا استطاعة لهم أصلاً .

وقد اجتمع في الآية رعاية الاعتبارين في الأصنام فإنها من جهة أنها معمولة من حجر أو خشب أو ذهب أو فضة غير عاقلة وبهذا الاعتبار قيل : « ما لا يملك » الخ ، ومن جهة أنهم يعبدونها آلهة دون الله ويعبدونها والعبادة لا تكون إلا لعاقل منسلكة — على زعمهم — في سلك العقلاء ، وبهذا الاعتبار قيل : « ولا يستطيعون » .

وفي الآية رجوع إلى التخلص لبيان الغرض من تعدد النعم وهو التوحيد وإثبات النبوة بمعنى التشريع والمعاد يجري ذلك إلى تمام أربع آيات ينهى في أولها عن ضربهم الأمثال لله سبحانه ، ويضرب في الثانية مثل تبين به وحدانيته تعالى في ربوبيته ، وفي الثالثة مثل يتبين به أمر النبوة والتشريع ، ويتعرض في الرابعة لأمر المعاد .

قوله تعالى : « فلا تضربوا الله الأمثال إن الله يعلم وأنتم لا تعلمون » الظاهر السابق إلى الذهن أن المراد بضرب الأمثال التوصيف المصطلح عليه بالاستعارة التمثيلية وهي إجراء الأوصاف عليه تعالى بضرب من التشبيه كقولهم : إن له بنات كالإنسان ، وإن الملائكة بناته ، وإن بينه وبين الجنة نسباً وصهرأ ، وإنه كيف يحيي العظام وهي

رميم إلى غير ذلك ، وهذا هو المعنى المعهود من هذه الكلمة في كلامه تعالى ، وقد تقدم في خلال الآيات السابقة قوله : « للذين لا يؤمنون بالآخرة مثل السوء والله المثل الأعلى » .

فالمعنى : إذا كان الأمر على ما ذكر فلا تصفوه سبحانه بما تشبهونه بغيره وتقيسونه إلى خلقه لأن الله يعلم وأنتم لا تعلمون حقائق الأمور وكنهه تعالى .

وقيل : المراد بالضرب الجعل ، وبالأمثال ما هو جمع المثل بمعنى الندى ، فقوله : فلا تضربوا الله الأمثال في معنى قوله في موضع آخر : « فلا تجعلوا لله أنداداً » البقرة : ٢٢ ، وهو معنى بعيد .

قوله تعالى : « ضرب الله مثلاً عبداً مملوكاً لا يقدر على شيء » إلى آخر الآية ، ما في الآية من المثل المضروب يفرض عبداً مملوكاً لا يقدر على شيء ، وآخر رزق من الله رزقاً حسناً ينفق منه سراً وجهراً ثم يسأل هل يستويان ؟ واعتبار التقابل بين المفروضين يعطي أن كلا من الطرفين مقيد بخلاف ما في الآخر من الوصف مع تبين الأوصاف بعضها لبعض .

فالعبد المفروض مملوك غير مالك لا لنفسه ولا لشيء من متاع الحياة وهو غير قادر على التصرف في شيء من المال ، والذي فرض قبالة حر يملك نفسه وقد رزقه الله رزقاً حسناً وهو ينفق منه سراً وجهراً على قدرة منه على التصرف بجميع أقسامه .

وقوله : « هل يستويان » سؤال عن تساويهما ، ومن البديهي أن الجواب هو نفي التساوي ويثبت به أن الله سبحانه وهو المالك لكل شيء المنعم بجميع النعم لا يساوي شيئاً من خلقه وهم لا يملكون لأنفسهم ولا غيرهم ولا يقدرُونَ على شيء من التصرف فمن الباطل قولهم : إن مع الله آلهة غيره وهم من خلقه .

والتعبير بقوله : « يستويان » دون أن يقال : يستويان للدلالة على أن المراد من ذلك الجنس من غير أن يختص بمولى وعبد معينين كما قيل .

وقوله : « الحمد لله » أي له عز اسمه جنس الحمد وحقيقته وهو الثناء على الجليل الاختياري لأن جميل النعمة من عنده ولا يحمد إلا الجليل فله تعالى كل الحمد كما أن له جنسه فافهم ذلك .

والجملة من تمام الحجة ومحصلها أنه لا يستوي المملوك الذي لا يقدر أن يتصرف في شيء وينعم بشيء ، والمالك الذي يملك الرزق ويقدر على التصرف فيه فيتصرف وينعم كيف شاء ، والله سبحانه هو المحمود بكل حمد إذ ما من نعمة إلا وهي من خلقه فله كل صفة يحمد عليها كالخلق والرزق والرحمة والمغفرة والإحسان والإنعام وغيرها ، فله كل ثناء جميل ، وما يعبدون من دونه مملوك لا يقدر على شيء فهو سبحانه الرب وحده دون غيره .

وقد قيل : إن الحمد في الآية شكر على نعمه تعالى ، وقيل : حمد على تمام الحجة وقوتها ، وقيل : تلقين للعباد ومعناه قولوا : الحمد لله الذي دلّنا على توحيدِهِ وهدانا إلى شكر نعمه ، وهي وجوه لا يعاب بها .

وقوله : « بل أكثرهم لا يعلمون أي أكثر المشركين لا يعلمون أن النعمة كلمها لله لا يملك غيره شيئاً ولا يقدر على شيء بل يثبتون لأوليائهم شيئاً من الملك والقدرة على سبيل التفويض فيعبدونهم طمعاً وخوفاً ، هذا حال أكثرهم وأما أقلهم من الخواص فانهم على علم من الحق لكنهم يحيدون عنه بغيّاً وعناداً .

وقد تبين مما تقدم أن الآية مثل مضروب في الله سبحانه وفيمن يزعمونه شريكاً له في الربوبية ، وقيل : إنها مثل تمثل به حال الكافر المخدول والمؤمن الموفق فإن الكافر لإحباط عمله وعدم الإعتداد بأعماله كالعبد المملوك الذي لا يقدر على شيء فلا يعدّ له إحسان وإن أنفق وبالعكس بخلاف المؤمن الذي يوفقه الله لمرضاته ويشكر مساعيه فهو ينفق مما عنده من الخير سراً وجهراً .

وفيه أنه لا يلزم سياق الاحتجاج الذي للآيات ، وقد تقدم أن الآية إحدى الآيات الثلاث المتوالية التي تتعرض لغرض تعداد النعم الإلهية ، وهي تذكر بالتوحيد بمثل يقيس حال من ينعم بجميع النعم من حال من لا يملك شيئاً ولا يقدر على شيء فيستنتج أن الرب هو المنعم لا غير .

قوله تعالى : « وضرب الله مثلاً رجلين أحدهما أبكم » إلى آخر الآية . قال في المجمع : الأبكم الذي يولد أخرس لا يفهم ولا يفهم ، وقيل : الأبكم الذي لا يقدر أن يتكلم والكل الثقل يقال : كل عن الأمر بكل كذا إذا ثقل عليه فلم ينبعث فيه .

وكلت السكين كلولا إذا غلظت شفرتها ، وكل لسانه إذا لم ينبعث في القول لغلظه
وذهب حده فالأصل فيه الغلظ المانع من النفوذ ، والتوجيه : الإرسال في وجه من
الطريق ، يقال : وجهته إلى موضع كذا فتوجه إليه . انتهى .

فقوله : « وضرب الله مثلا رجلين » مقايضة أخرى بين رجلين مفروضين متقابلين
في أوصافها المذكورة .

وقوله : « أحدهما أبكم لا يقدر على شيء » أي محروم من أن يفهم الكلام
وفهم غيره بالكلام لكونه أبكم لا يسمع ولا ينطق فهو فاقد لجميع الفعليات والمزايا
التي يكتسبها الإنسان من طريق السمع الذي هو أوسع الحواس نطاقاً ، به يتمكن
الإنسان من العلم بأخبار من مضى وما غاب عن البصر من الحوادث وما في ضمائر الناس
ويعلم العلوم والصناعات ، وبه يتمكن من إلقاء ما يدركه من المعاني الجليلة والدقيقة
إلى غيره ، ولا يقوى الأبكم على درك شيء منها إلا النزر اليسير مما يساعد عليه البصر
بإعانة من الإشارة .

فقوله : « لا يقدر على شيء » مخصص عمومه بالأبكم أي لا يقدر على شيء مما
يقدر عليه غير الأبكم وهو جملة ما يحرمه الأبكم من تلقي المعلومات وإلقائها .

وقوله : « وهو كل على مولاه » أي ثقل وعيال على من يلي ويدبر أمره فهو لا
يستطيع أن يدبر أمر نفسه ، وقوله : « أينما وجهه لا يأت بخير » أي إلى أي جهة
أرسله مولاه لحاجة من حوائج نفسه أو حوائج مولاه لم يقدر على رفعها فهو لا يستطيع
أن ينفع غيره كما لا ينفع نفسه ، فهذا أعني قوله : « أحدهما أبكم لا يقدر على شيء »
النخ ، مثل أحد الرجلين ، ولم يذكر سبحانه مثل الآخر لحصول العلم به من قوله : « هل
يستوي هو ومن يأمر بالعدل » النخ ، وفيه إيجاز لطيف .

وقوله : « هل يستوي هو ومن يأمر بالعدل وهو على صراط مستقيم » فيه إشارة
إلى وصف الرجل المفروض وسؤال عن استوائهما إذا قوبس بينهما وعدمه .

أما الوصف فقد ذكر له منه آخر ما يمكن أن يتلبس به غير الأبكم من الخير
والكمال الذي يحلي نفسه ويعدو إلى غيره وهو العدل الذي هو التزام الحد الوسط في
الأعمال واجتناب الإفراط والتفريط فإن الأمر بالعدل إذا جرى على حقيقته كان لازمه

أن يتمكن الصلاح من نفس الانسان ثم ينبسط على أعماله فيلتزم الاعتدال في الامور ثم يحب انبساطه على أعمال غيره من الناس فيأمرهم بالعدل وهو - كما عرفت - مطلق التجنب عن الإفراط والتفريط أي العمل الصالح أعم من العدل في الرعية .

ثم وصفه بقوله : « وهو على صراط مستقيم » وهو السبيل الواضح الذي يهدي سالكه إلى غايتهم من غير عوج ، والانسان الذي هو في مسير حياته على صراط مستقيم يجري في أعماله على الفطرة الانسانية من غير أن يناقض بعض أعماله بعضاً أو يتخلف عن شيء مما يراه حقاً ، وبالمجمل لا تخلف ولا اختلاف في أعماله .

وتوصيف هذا الرجل المفروض الذي يأمر بالعدل بكونه على صراط مستقيم يفيد أولاً أن أمره بالعدل ليس من أمر الناس بالبر ونسيان نفسه بل هو مستقيم في أحواله وأعماله يأتي بالعدل كما يأمر به .

وثانياً : أن أمره بالعدل ليس ببدع منه من غير أصل فيه يبتني عليه بل هو في نفسه على مستقيم الصراط ولازمه أن يحب لغيره ذلك فيأمرهم أن يلتزموا وسط الطريق ويجتنبوا حاشيتي الإفراط والتفريط .

وأما السؤال أعني ما في قوله : « هل يستوي هو ومن يأمر بالعدل » الخ ، فهو سؤال لا جواب له إلا النفي لا شك فيه وبه يثبت أن ما يعبدونه من دون الله من الأصنام والأوثان وهو مسلوب القدرة لا يستطيع أن يهدي من نفسه ولا أن يهدي غيره لا يساوي الله تعالى وهو على صراط مستقيم في نفسه هاد لغيره بإرسال الرسل وتشريع الشرائع .

ومنه يظهر أن هذا المثل المضروب في الآية في معنى قوله تعالى : « أفمن يهدي إلى الحق أحق أن يتبع أم من لا يهدي إلا أن يهدي فما لكم كيف تحكمون » يونس : ٣٥ فالله سبحانه على صراط مستقيم في صفاته وأفعاله ، ومن استقامة صراطه أن يجعل لما خلقه من الأشياء غايات تتوجه إليها فلا يكون الخلق باطلاً ، كما قال : « وما خلقنا السماوات والأرض وما بينهما باطلاً » وأن يهدي كلا إلى غايته التي تحصى كما خلقها وجعل لها غاية كما قال : « الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى » طه : ٥٠ فيهدي الإنسان إلى سبيل قاصد كما قال : « وعلى الله قصد السبيل » النحل : ٩ ، وقال :

« إنا هديناه السبيل » الدهر : ٣ .

وهذا أصل الحجة على النبوة والتشريع ، وقد مر تمامه في أبحاث النبوة في الجزء الثاني وفي قصص نوح في الجزء العاشر من الكتاب .

فقد تحصل أن الغرض من المثل المضروب في الآية إقامة حجة على التوحيد مع إشارة إلى النبوة والتشريع .

وقيل : إنه مثل مضروب فيمن يؤمل منه الخير ومن لا يؤمل منه ، وأصل الخير كله من الله تعالى فكيف يستوي بينه وبين شيء سواه في العبادة ؟ وفيه أن المورد أخص من ذلك فهو مثل مضروب فيمن هو على خير في نفسه وهو يأمر بالعدل وهو شأنه تعالى دون غيره على أنهم لا يساون بينه وبين غيره في العبادة بل يتركونه ويعبدون غيره .

وقيل : إنه مثل مضروب في المؤمن والكافر فالأبكم هو الكافر ، والذي يأمر بالعدل هو المؤمن ، وفيه أن صحة انطباق الآية على المؤمن والكافر بل على كل من يأمر بالعدل ومن يسكت عنه وجريها فيها أمر ، ومدلولها من جهة وقوعها في سياق تعداد النعم والاحتجاج على التوحيد وما يلحق به من الأصول أمر آخر ، والذي تفيده بالنظر إلى هذه الجهة أن مورد المثل هو الله سبحانه وما يعبدون من دونه لا غير .

قوله تعالى : « والله غيب السماوات والأرض وما أمر الساعة إلا كلمح البصر أو هو أقرب إن الله على كل شيء قدير » الغيب يقابل الشهادة في إطلاقات القرآن الكريم وقد تكرر فيه : « عالم الغيب والشهادة » وقد تقدم مراراً أنها أمران إضافيان فالأمر الواحد غيب وغائب بالنسبة إلى شيء وشهادة ومشهود بالنسبة إلى آخر .

وإذ كان من الأشياء ما هو ذو وجوه يظهر ببعض منها لغيره ويخفي ببعض أعني أنه متضمن غيباً وشهادة كانت إضافة الغيب والشهادة إلى الشيء قارة بمعنى اللام فيكون مثلاً غيب السماوات والأرض ما هو غائب عنها خارج من حدودها ، ويلحق بهذا الباب الإضافة لنوع من الاختصاص ، كما في قوله : « فلا يظهر على غيبه أحداً » الجن : ٢٦ .

وتارة بمعنى « من » أو ما يقرب منه فيكون المراد بغيب السماوات والأرض

الغيب الذي يشتملان عليه نوعاً من الاشتغال قبال ما يشتملان عليه من الشهادة وبعبارة أخرى ما يغيب عن الأفهام من أمرهما قبال ما يظهر منها .

والساعة هي من غيب السماوات والأرض بهذا المعنى الثاني :

أما أولاً : فلأنه سبحانه يعدها في كلامه من الغيب ، وليست بخارج من أمر السماوات والأرض فهو من الغيب بهذا المعنى .

وأما ثانياً : فلأن ما يصفها به من الأوصاف إنما يلائم هذا المعنى الثاني ككونها يوماً ينبئهم الله بما كانوا فيه يختلفون ويوم تبلى السرائر ويوماً يخاطب فيه الإنسان بمثل قوله : « لقد كنت في غفلة من هذا فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد » ، ويوماً يخاطبون ربهم بقولهم : « ربنا أبصرنا وسمعنا فارجعنا » وبالجملة هي يوم يظهر فيه ما استتر من الحقائق في هذه النشأة ظهور عيان ، ومن المعلوم أن هذه الحقائق غير خارجة من السماوات والأرض بل هي معها ثابتة .

كيف ؟ وهو تعالى يقول : « والله غيب السماوات والأرض » فيثبت ملكاً لنفسه وليس ملكه من الملك الاعتباري يتعلق بكل أمر موهوم أو جزافي بل ملك حقيقي يتعلق بأمر ثابت فلها نوع من الثبوت وإن فرض جهلنا بحقيقة ثبوتها .

والشواهد القرآنية على هذا الذي ذكرناه كثيرة . وقد عدّ سبحانه حياة هذه النشأة متاع الغرور ولعباً ولهواً ، وكرّر أن أكثر الناس لا يعلمون ما هو يوم القيامة ، وذكر أن الدار الآخرة هي الحيوان ، وأنهم سيعلمون أن الله هو الحق المبين وسيبدو لهم من الله ما لم يكونوا يحتسبون ، إلى غير ذلك مما يشتمل عليه الآيات على اختلاف ألسنتها .

وبالجملة الساعة من غيب السماوات والأرض ، والآية أعني قوله : « والله غيب السماوات والأرض » تقرر ملكه تعالى لنفس هذا الغيب لا لعلمه فلم يقل : « والله علم غيب السماوات والأرض » وسياق الآية يعطي أن الجملة أعني قوله : « والله غيب » الخ ، توطئة وتهميد لقوله : « ما أمر الساعة إلا كلمح البصر » الخ ، فالجملة مسوقة للاحتجاج .

وعلى هذا يعود معنى الآية إلى أن الله سبحانه يملك غيب السماوات والأرض ملكاً له أن يتصرف فيه كيف يشاء كما يملك شهادتها وكيف لا ؟ وغيب الشيء لا يفارق

شهادته وهو موجود ثابت معه وله الخلق والأمر ، والساعة الموعودة ليست بأمر محال حق لا يتعلق بها قدرة بل هي من غيب السماوات والأرض وحقيقتها المستورة عن الأفهام اليوم فهي مما استقر عليه ملكه تعالى ، وله أن يتصرف فيه بالإخفاء يوماً وبالإظهار آخر .

ولست بصعبة عليه تعالى فإنما أمرها كلمح البصر أو أقرب من ذلك لأن الله على كل شيء قدير .

ومن هنا يظهر أن قوله : « وما أمر الساعة إلا كلمح البصر أو هو أقرب إن الله على كل شيء قدير » مسوق لا لإثبات أصل الساعة أو إمكانها بل لنفي صعوبتها والمشقة في إقامتها وهوان أمرها عنده سبحانه .

فقوله : « وما أمر الساعة إلا كلمح البصر أو هو أقرب » أي بالنسبة إليه وإلا فقد استعظم سبحانه أمرها بما يهون عنده كل أمر خطير ووصفها بأوصاف لا يعادها فيها غيرها ، قال تعالى : « ثقلت في السماوات والأرض » الأعراف : ١٨٧ .

وتشبيه أمرها بلحم البصر إنما هو من جهة أن اللحم وهي مدة البصر وإرساله للرؤية أخف الأعمال عند الإنسان وأقصرها زماناً فهو تشبيه بحسب فهم السامع ولذلك عقبه بقوله : « أو هو أقرب » فإن مثل هذا السياق يفهم منه الإضراب فكأنه تعالى يقول : « إن أمرها في خفة المؤنة والهوان والسهولة بالنسبة إلينا يشبه لمح أحدكم ببصره ، وإنما أشبهه به رعاية لحالككم وتقريباً إلى فهمكم وإلا فالأمر أقرب من ذلك ، كما قال فيها : « ويقول كن فيكون » الأنعام : ٧٣ ، فأمر الساعة بالنسبة إلى قدرته ومشيته تعالى كأمر أيسر الخلق وأهونه .

وعلى ذلك تعالى ذلك بقوله : « إن الله على كل شيء قدير » فقد رتبته على كل شيء توجب أن تكون الأشياء بالنسبة إليه سواء .

وإياك أن تتوهم أن عموم القدرة لا يستوجب ارتفاع الاختلاف من بين الأشياء من حيث النسبة ، فقلة الأسباب المتوسطة بين الفاعل وفعله والشرائط والموانع وكثرتها لها تأثير في ذلك لا محالة ، فالإنسان مثلاً قادر على التنفس وحمل ما يطيقه من الأثقال

وليساً سواء بالنسبة اليه وعلى هذا القياس .

فإن في ذلك غفلة عن معنى عموم القدرة ، وتوضيحه أن القدرة التي فينا قدرة مقيدة ، فإن قدرة الإنسان مثلاً على أكل الغذاء وهي أن له نسبة الفاعلية اليه وهي في تأثيرها مشروطة بتحقيق غذاء في الخارج وكونه بين يديه ويمكن التناول وعدم ما يمنع من ذلك من إنسان أو غيره ، وكون أدوات الفعل كاليد والفم وغيرهما غير مصابة بأفة إلى غير ذلك ، والذي يملكه الإنسان هو الإرادة والزائد على ذلك وسائط وشروط وموانع خارجة عن قدرته بالحقيقة وقيد بقيتها ، وإذا أراد الإنسان أن يعمل قدرته فيأكل كان عليه أن يهيئ تلك الأمور التي تنقيد بها قدرته في التأثير كتحويل الغذاء ووضعه قريباً منه ورفع الموانع وإعمال الأدوات البدنية مثلاً .

ومن المعلوم أن قوة هذه الأمور وكثرتها وقربها وبعدها وما أشبه ذلك من صفاتها توجب اختلاف الفعل في السهولة وعدمها وضعف القدرة وقوتها فتقيد القدرة هو الموجب للاختلاف .

وأما قدرته تعالى فإنها عين ذاته التي يجب وجودها ويمتنع عدمها ، وإذا كان كذلك فلو تقيدت بقيد من وجود سبب أو شرط أو عدم مانع لانعدمت بانعدام قيديها وهو محال فقدرته تعالى مطلقة غير محدودة بحد ولا مقيدة بقيد ، عامة تتعلق بكل شيء على حد سواء من غير أن يكون شيء بالنسبة اليه أصعب من شيء أو أسهل ، وأقرب اليه من شيء أو أبعد ، وإنما الاختلاف بين الأشياء أنفسها بقياس بعضها إلى بعض .

وبتقريب آخر ما من شيء إلا وهو يفتقر اليه سبحانه في وجوده ، فإذا فرضنا كل أمر موجود بحيث لا يشذ عنها شاذ في جانب ونسبناها اليه تعالى كان الجميع متعلقاً لقدرته ، وليس هناك أمر ثالث يكون قيداً لقدرته من سبب أو شرط أو عدم مانع وإلا لكان شريكاً في التأثير ، تعالى عن ذلك .

وأما الذي بين الأشياء أنفسها من الأسباب المتوسطة والشروط والموانع فإنها توجب تقيد بعضها ببعض لا تقيد القدرة العامة الإلهية التي تتعلق بها ثم تتعلق القدرة بالمقيد منها دون المطلق بمعنى أن متعلق القدرة هو زيد الذي أبوه فلان وأمه فلان وهو في زمان كذا ومكان كذا ، وهكذا فوجود زيد بجميع روابطه وجود جميع العالم

والقدرة المتعلقة به متعلقة بالجميع بعينه، وليست هناك إلا قدرة واحدة متعلقة بالجميع يوجد بها كل شيء في موطنه الخاص به، وهي مطلقة غير مقيدة لا اختلاف للأشياء بالنسبة إليها وإنما الاختلاف بينها أنفسها.

فقد تبين مما تقدم أن عموم القدرة يوجب ارتفاع الاختلاف من بين الأشياء بالنسبة إليها بالسهولة والصعوبة وغير ذلك والآية الكريمة من غرر الآيات القرآنية يتبين بها : أولاً : أن حقيقة المعاد ظهور حقيقة الأشياء بعد خفائها .

وثانياً : أن القدرة الإلهية تتعلق بجميع الأشياء على نعت سواء من غير اختلاف بالسهولة والصعوبة والقرب والبعد وغير ذلك .

وثالثاً : أن الأشياء بحسب الحقيقة مرتبطة وجوداً بحيث أن إيجاد الواحد منها إيجاد الجميع والجميع متعلق قدرة واحدة لا مؤثر فيها غيرها .

نعم هناك نظر آخر أبسط من ذلك وهو النظر فيها من جهة نظام الأسباب والمسببات ، وقد صدقه الله في كلامه كما تقدم بيانه في البحث عن الإعجاز في الجزء الأول من الكتاب ، وهذه النظرة ينفصل الأشياء بعضها عن بعض ويتوقف وجود بعضها على وجود بعض أو عدمه فتتقدم وتتأخر وتسهل وتصعب ، وتكون الأسباب وسائط بينها وبينه تعالى ويكون تعالى فاعلاً بوساطة الأسباب ، وهو نظر بسيط .

وقد ذكر كثير من المفسرين في قوله : « والله غيب السماوات والأرض » أنه بحذف مضاف والتقدير والله علم غيب الخ ، وفيه أنه يستلزم ارتفاع الاتصال بين هذه الجملة وبين ما يليها إذ لا رابطة بين علم الغيب وبين هو ان أمر الساعة ، فتعود الجملة مستدركة مستغنى عنها في الكلام .

وقول بعضهم في رفع الاستدراك أن صدر الآية وذيلها يثبتان العلم والقدرة وبها معاً يتم خلق الساعة غير مفيد فإنهم إنما استشكلوا في الساعة من جهة القدرة لعدم إياها ممتنعة فلا حاجة إلى التثبت لإثباتها بمسألة العلم ، ويشهد لذلك ما في سائر الآيات المثبتة لإمكان المعاد بعموم القدرة .

وذكر بعضهم : أن المراد به علم غيبها لا بتقدير العلم في الكلام حتى يقال : إن الأصل عدمه بل لأن إضافة الغيب وهو ما يغيب عن الحس والعقل إلى السماوات

والأرض تفيد أن المراد الأمور المجهولة التي فيها مما يقع فيها حالاً أو بعد حين وملكه تعالى له ملكه للعلم به .

وفيه أن المقدمة الأخيرة ممنوعة وقد تقدم بيانه على أن إشكال ارتفاع الاتصال بين الجملتين في محله بعد .

وأيضاً ذكر بعضهم في توجيه التعليل المستفاد من قوله : « إن الله على كل شيء قدير » أن من جملة الأشياء إقامة الساعة في أسرع ما يكون فهو قادر على ذلك .

وفيه أنه لا يفي بتعليل ما يستفاد من الحصر بالنفي والإثبات وإنما يفي بتعليل ما لو قيل : إن الله سيجعل أمر الساعة كلمح البصر مع إمكان كونه لا كذلك فافهم ذلك .

(بحث روائي)

في تفسير القمي في قوله تعالى : « من بطونه من بين فرث ودم » قال : قال عليه السلام : الفرث ما في الكرش ، مركز بحوث وعلوم إسلامي

وفي الكافي عن علي بن إبراهيم عن أبيه عن النوفلي عن السكوني قال : قال أبو عبد الله عليه السلام : ليس أحد يفض بشرب اللبن لأن الله عز وجل يقول : « لبناً خالصاً سائغاً للشاربين » .

وفي تفسير القمي بإسناده عن رجل عن حريز عن أبي عبد الله عليه السلام في قوله : « وأوحى ربك إلى النحل » قال : نحن النحل الذي أوحى الله إليه أن اتخذ من الجبال بيوتاً أمرنا أن نتخذ من العرب شعبة « ومن الشجر » يقول : من المعجم « وما يعرشون » من الموالي ، والذي خرج من بطونها شراب مختلف ألوانه ، العلم الذي يخرج منا إليكم .

أقول : وفي هذا المعنى روايات أخر ، وهي من باب الجري ويشهد به ما في بعض هذه الروايات من تطبيق النحل على النبي صلى الله عليه وآله وسلم ، والجبال على قریش ، والشجر على العرب ، وما يعرشون على الموالي ، وما يخرج من بطونها على العلم .

وفي تفسير القمي بإسناده عن علي بن المغيرة عن أبي عبد الله عليه السلام قال : إذا بلغ العبد مائة سنة فذلك أرذل العمر .
وفي المجمع روي عن علي عليه السلام إن أرذل العمر خمس وسبعون سنة ، وروي عن النبي مثل ذلك .

أقول : روى ذلك في الدر المنثور عن الطبري عن علي عليه السلام ، وروي عن ابن مردويه عن أنس عن النبي صلى الله عليه وآله حديثاً مفصلاً يدل على أن أرذل العمر مائة سنة .
وفي تفسير العياشي عن عبد الرحمان الأشل عن الصادق عليه السلام في قول الله : « وجعل لكم من أزواجكم بنين وحفدة » قال : الحفدة بنو البنات ، ونحن حفدة رسول الله صلى الله عليه وآله .

وفيه عن جميل بن درّاج عن أبي عبد الله عليه السلام في الحفدة قال : وهم العمون منهم يعني البنين .
وفي المجمع في معنى الحفدة : هي اختان الرجل على بناته قال : وهو المروي عن أبي عبد الله عليه السلام .

أقول : ولا تنافي بين الروايات كما تقدم في البيان .
وفي التهذيب بإسناده عن شعيب العرقوفي عن أبي عبد الله عليه السلام في طلاق العبد ونكاحه قال : ليس له طلاق ولا نكاح أما تسمع الله تعالى يقول : « عبداً مملوكاً لا يقدر على شيء » قال : لا يقدر على طلاق ولا على نكاح إلا بإذن مولاه .
أقول : وفي هذا المعنى عدة روايات من طرق الشيعة .

وفي تفسير القمي في قوله تعالى : « هل يستوي هو ومن يأمر بالعدل » قال : قال عليه السلام : كيف يستوي هذا ؟ ومن يأمر بالعدل أمير المؤمنين والأئمة عليهم السلام .
وفي تفسير البرهان عن ابن شهر آشوب عن حمزة بن عطاء عن أبي جعفر عليه السلام في قوله تعالى : « هل يستوي هو ومن يأمر بالعدل » الآية ، قال : هو علي بن أبي طالب عليه السلام وهو على صراط مستقيم .

أقول : والروايتان من الجري وليستا من أسباب النزول في شيء لما تقدم في البيان السابق .

وكذا ما روي من طرق أهل السنة أن قوله : « ضرب الله مثلاً عبداً مملوكاً ، الآية » نزل في هشام بن عمرو وهو الذي ينفق ماله سراً وجهراً في عبده أبي الجوزاء الذي كان ينهائه ، وكذا ما روي أن الآية نزلت في عثمان بن عفان وعبد له .

وكذا ما روي في قوله : « وضرب الله مثلاً رجلين » الآية ، أن الأبكم أبي بن خلف ومن يأمر بالعدل حمزة وعثمان بن مظعون ، وكذا ما روي أن الأبكم هشام بن عمر بن الحارث القرشي وكان قليل الخير يعادي رسول الله ﷺ ، وما روي أن الأبكم أبو جهل والأمر بالعدل عمار ، وما روي أن الأمر بالعدل عثمان بن عفان ، والأبكم مولى له كافر وهو أسيد بن أبي العيص ، إلى غير ذلك .

* * *

وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئاً وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ — ٧٨ . أَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوْاءِ السَّمَاءِ مَا يُمَسِّكُهُنَّ إِلَّا اللَّهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ — ٧٩ . وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ وَمِنْ أَصْوَابِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثْنَاثًا مَّتَاعًا إِلَى حِينٍ — ٨٠ . وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَالًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْجِبَالِ أَكْنَانًا وَجَعَلَ لَكُم سَرَائِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ وَسَرَائِيلَ تَقِيكُمُ بَأْسَكُمْ كَذَلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ — ٨١ . فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ الْمُبِينُ — ٨٢ . يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يُنْكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ — ٨٣ .

وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ - ٨٤ . وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ ظَلَمُوا الْعَذَابَ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ - ٨٥ . وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ أَشْرَكُوا شُرَكَاءَهُمْ قَالُوا رَبَّنَا هَؤُلَاءِ شُرَكَائُنَا الَّذِينَ كُنَّا نَدْعُو مِنْ دُونِكَ فَأَلْقَوْا إِلَيْهِمُ الْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَاذِبُونَ - ٨٦ . وَأَلْقَوْا إِلَى اللَّهِ يَوْمَئِذٍ السَّلْمَ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ - ٨٧ . الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ - ٨٨ . وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَى هَؤُلَاءِ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ - ٨٩ .

(بَيَان)

الآيات تذكر عدة أخرى من النعم الإلهية ثم تعطف الكلام إلى ما تكشف عنه من حق القول في وحدانيته تعالى في الربوبية وفي البعث وفي النبوة والتشريع نظيره القبيل السابق الذي أوردناه من الآيات .

قوله تعالى : « والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئاً » إلى آخر الآية . الامهات جمع أم والهاء زائدة نظير إهراق وأصله أراق وقد تأتي أمات ، وقيل : الامهات في الانسان والامات في غيره من الحيوان ، والأفئدة جمع قلة للفؤاد وهو القلب واللب ، ولم يبن له جمع كثرة .

وقوله : « والله أخرجكم من بطون أمهاتكم » إشارة إلى التولد و « لا تعلمون شيئاً » حال من ضمير الخطاب أي أخرجكم من أرحامهن بالتولد والحال أن نفوسكم خالية من هذه المعلومات التي أحرزتموها من طريق الحس والخيال والعقل بعد ذلك .

والآية تؤيد ما ذهب إليه علماء النفس أن لوح النفس خالية عن المعلومات أول تكوينها ثم تنتقش فيها شيئاً فشيئاً - كما قيل - وهذا في غير علم النفس بذاتها فلا يطلق عليه عرفاً « يعلم شيئاً » والدليل عليه قوله تعالى في خلال الآيات السابقة فيمن برء إلى أرذل العمر لكي لا يعلم من بعد علم شيئاً فإن من الضروري أنه في تلك الحال عالم بنفسه . واحتج بعضهم بعموم الآية على أن العلم الحضورى يعني به علم الإنسان بنفسه كسائر العلوم الحسولية مفقود في بادىء الحال حادث بعد ذلك ثم ناقش في أدلة كون علم النفس بذاتها حضورياً مناقشات عجيبة .

وفيه أن العموم منصرف إلى العلم الحسولي ويشهد بذلك الآية المتقدمة .

وقوله : « وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة لعلكم تشكرون » إشارة إلى مبادىء العلم الذي أنعم بها على الإنسان فبدأ بالتصور هو الحس ، والعمدة فيه السمع والبصر وإن كان هناك غيرهما من اللبس والذوق والشم ، ومبدأ الفكر هو الفؤاد .

قوله تعالى : « ألم يروا إلى الطير مسخرات في جو السماء ما يمسكهن إلا الله ، الخ » قال في الجمع : الجوا الهواء البعيد من الأرض . انتهى . يقول : ألم ينظروا إلى الطير حال كونها مسخرات لله سبحانه في جو السماء والهواء البعيد من الأرض ، ثم استأنف فقال مشيراً إلى ما هو نتيجة هذا النظر : « ما يمسكهن إلا الله » .

وإثبات الإمساك لله سبحانه ونفيه عن غيره مع وجود أسباب طبيعية هناك مؤثرة في ذلك وكلامه تعالى يصدق ناموس العلوية وإنما هو من جهة أن توقف الطير في الجو من دون أن تسقط كيفما كان وإلى أي سبب استند هو وسببه والرابطة التي بينها جميعاً مستندة إلى صنعه تعالى فهو الذي يفيض الوجود عليه وعلى سببه وعلى الرابطة التي بينها فهو السبب المفيض لوجوده حقيقة وإن كان سببه الطبيعي القريب معه يتوقف هو عليه .

ومعنى توقفه في وجوده على سببه ليس أن سببه يفيد وجوده بعد ما استفاد

وجود نفسه منه تعالى بل إن هذا المسبب يتوقف في أخذه الوجود منه تعالى إلى أخذ سببه الوجود منه تعالى قبل ذلك ، وقد تقدم بعض الكلام في توضيح ذلك من قريب . وهذا معنى توحيد القرآن ، والدليل عليه من جهة لفظه أمثال قوله : « ألا له الخلق والأمر » الأعراف : ٥٤ ، وقوله : « أن القوة لله جميعاً » البقرة : ١٦٥ ، وقوله : « الله خالق كل شيء » الزمر : ٦٢ ، وقوله : « إن الله على كل شيء قدير » النحل : ٧٧ . والدليل على ما قدمناه في معنى النفي والإثبات في الآية قوله تعالى : « مسخرات » فإن التسخير إنما يتحقق بقهر أحد السببين الآخر في فعله على ما يريده السبب القاهر ففي لفظه دلالة على أن للمقهور نوعاً من السببية .

وليس طيران الطائر في جو السماء بالحقيقة بأعجب من سكون الإنسان في الأرض فالجميع ينتهي إلى صنعه تعالى على حد سواء لكن ألفه الإنسان لبعض الأمور وكثرة عهده به توجب خمود قريحة البحث عنه فإذا صادف ما يخالف ما ألفه وكثر عهده به كالمستثنى من الكلية انتبه لذلك وانتزعت القريحة للبحث عنه والإنسان يرى الأجسام الأرضية الثقيلة معتمدة على الأرض مجذوبة إليها فإذا وجد الطير مثلاً تنقض كلية هذا الحكم بطيرانها تعجب منه وانبسط للبحث عنه والحصول على علته ، وللحق نصيب من هذا البحث وهذا هو أحد الأسباب في أخذ هذا النوع من الأمور في القرآن مواد للاحتجاج .

وقوله : « إن في ذلك لآيات لقوم يؤمنون » أي في كونها مسخرات في جو السماء فإن للطير وهو في الجو دفيماً وصبغاً وبسطاً لأجنحتها وقبضاً وسكوناً وانتقالاً وصعوداً ونزولاً وهي جميعاً آيات لقوم يؤمنون كما ذكره الله .

قوله تعالى : « والله جعل لكم من بيوتكم سكناً » إلى آخر الآية ، في المفردات : البيت مأوى الإنسان بالليل لأنه يقال : بات أقام بالليل كما يقال : ظل بالنهار . ثم قد يقال : للمسكن بيت من غير اعتبار الليل فيه ، وجمعه أبيات وبيوت لكن البيوت بالمسكن أخص والأبيات بالشعر ، قال : ويقع ذلك على المتخذ من حجر ومدر وصوف ووبر . انتهى موضع الحاجة .

والسكن ما يسكن إليه ، والظعن الارتحال وهو خلاف الإقامة ، والصوف

للضأن والوبر للإبل كالشعر للانسان ويسمى ما للمعز شعراً كالإنسان ، والأثاث متاع البيت الكثير ولا يقال للواحد منه أثاث ، قال في المجمع : ولا واحد للأثاث كما أنه لا واحد للمتاع . انتهى . والمتاع أعم من الأثاث فإنه مطلق ما يتمتع به ولا يختص بما في البيت .

وقوله : « والله جعل لكم من بيوتكم سكناً » أي جعل لكم بعض بيوتكم سكناً تسكنون إليه ، ومن البيوت ما لا يسكن إليه كالتخذ لادخار الأموال واختزان الأمتعة وغير ذلك وقوله : « وجعل لكم من جلود الأنعام بيوتاً » الخ ، أي من جلودها بعد الدبغ وهي الأنطاع والأدم « بيوتاً » وهي القباب والخيام « تستخفونها » أي تعدونها خفيفة من جهة الحمل « يوم ظعنكم » وارتحالكم « ويوم إقامتكم » من غير سفر وظعن .

وقوله : « ومن أصوافها وأوبارها وأشعارها » الخ ، معطوف على موضع « من جلود » أي وجعل لكم « من أصوافها » وهي للضأن و « أوبارها » وهي للإبل « وأشعارها » وهي للمعز « أثاثاً » تستعملونه في بيوتكم « ومتاعاً » تتمتعون به « إلى حين » محدود ، قيل : وفيه إشارة إلى أنها فانية دائرة فلا ينبغي للعاقل أن يختارها على نعم الآخرة .

قوله تعالى : « والله جعل لكم مما خلق ظلالاً » إلى آخر الآية ، الظرفان أعني قوله : « لكم » و « مما خلق » متعلقان بحمل وتعليق الظلال بما خلق لكونها أمراً عديماً محققاً بتبع غيره وهي مع ذلك من النعم العظيمة التي أنعم الله بها على الإنسان وسائر الحيوان والنبات فما الانتفاع بالظل للانسان وغيره بأقل من الانتفاع بالنور ولولا الظل وهو ظل الليل وظل الأبنية والأشجار والكهوف وغيرها لما عاش على وجه الأرض عائن .

وقوله : « وجعل لكم من الجبال أكناناً » الكن ما يستقر به الشيء حتى أن القميص كن للابس ، وأكنان الجبال هي الكهوف والثقب الموجودة فيها .

وقوله : « وجعل لكم سراويل تقيكم الحر » أي قميصاً يحفظكم من الحر ، قال في المجمع : ولم يقل : وتقيكم البرد لأن ما وقى الحر وقى البرد ، وإنما خص الحر

بذلك مع أن وقايتها للبرد أكثر لأن الذين خوطبوا بذلك أهل حر في بلادهم فحاجتهم إلى ما بقي الحر أكثر ، عن عطاء .

قال : على أن العرب يكتفي بذكر أحد الشئيين عن الآخر للعلم به قال الشاعر :

وما أدري إذا يممت أرضاً أريد الخير أيها يليني

فكنى عن الشر ولم يذكره لأنه مدلول عليه ، ذكره القراء انتهى .

ولعل بعض الوجه في ذكره الحر والإكتفاء به أن البشر الأولي كانوا يسكنون المناطق الحارة من الأرض فكان شدة الحر أمس بهم من شدة البرد وتنبيههم لاتخاذ السراويل إنما هو للإتقاء مما كان الابتلاء به أقرب اليهم وهو الحر والله أعلم .

وقوله : « وسراويل تقيكم بأسكم » الظاهر أن المراد به درع الحديد ونحوه .

وقوله : « كذلك يتم نعمته عليكم لعلكم تسلمون » امتنان عليهم بإتمام النعم التي ذكرها ، وكانت العناية المرجوة من ذلك إسلامهم لله عن معرفتها فإن المترقب المتوقع ممن يعرف النعم وإتمامها عليه أن يسلم لإرادة منعمه ولا يقابله بالاستكبار لأن منعماً هذا شأنه لا يريد به سوء .

قوله تعالى : « فإن تولوا فإنما عليك البلاغ المبين » قال في المجمع : البلاغ الاسم والتبليغ المصدر مثل الكلام والتكليم ، انتهى .

لما فرغ عن ذكر ما أريد ذكره من النعم والاحتجاج بها ختمها بما مدلولها العتاب واللوم والوعيد على الكفر ويتضمن ذكر وحدانيته تعالى في الربوبية والمعاد والنبوة ، وبدء ذلك ببيان وظيفة النبي ﷺ في رسالته وهو البلاغ فقال : « فإن تولوا » أي يتفرع على هذا البيان الذي ليس فيه إلا دعوتهم إلى ما فيه صلاح معاشهم ومعادهم من غير أن يتبعه إجبار أو إكراه أنهم إن تولوا وأعرضوا عن الإصغاء إليه والإهتمام به « فإنما عليك البلاغ المبين » والتبليغ الواضح الذي لا إيهام فيه ولا ستر عليه لأنك رسول وما على الرسول إلا ذلك .

وفي الآية تسلية للنبي ﷺ وبيان وظيفة له .

قوله تعالى : « يعرفون نعمه الله ثم ينكرونها وأكثرهم الكافرون » المعرفة

والإنكار متقابلان كالعلم والجهل وهذا هو الدليل على أن المراد بالإنكار وهو عدم المعرفة لازم معناه وهو الإنكار في مقام العمل وهو عدم الإيمان بالله ورسوله واليوم الآخر أو الجحود لساناً مع معرفتها قلباً ، لكن قوله : « وأكثرهم الكافرون » يخص الجحود بأكثرهم كما سيأتي فيبقى للإنكار المعنى الأول .

وقوله : « وأكثرهم الكافرون » دخول اللام على « الكافرون » يدل على الكمال أي إنهم كافرون بالنعم الإلهية أو بما تدل عليه من التوحيد وغيره جميعاً لكن أكثرهم كاملون في كفرهم وذلك بالجحود عناداً والإصرار عليه والصدّة عن سبيل الله .

والمعنى : يعرفون نعمة الله بعنوان أنها نعمة منه ومقتضاه أن يؤمنوا به ورسوله واليوم الآخر ويسلموا في العمل ثم إذا وردوا مورد العمل عملوا بما هو من آثار الإنكار دون المعرفة ، وأكثرهم لا يكتفون بمجرد الإنكار العملي بل يزدون عليه بكال الكفر والعناد مع الحق والجحود والإصرار عليه .

وفيما قدمناه كفاية لك عما أطال فيه المفسرون في معنى قوله : « وأكثرهم الكافرون » مع أنهم جميعاً كافرون بإنكارهم من قول بعضهم ، إنما قال : « أكثرهم » لأن منهم من لم تقم عليه الحجة كمن لم يبلغ حد التكليف أو كان مؤمناً في عقله أو لم تصل إليه الدعوة فلا يقع عليه اسم الكفر .

وفيه أن هؤلاء خارجون عن إطلاق الآية رأساً فإنها تذكر توبيخاً وإيعاداً أنهم ينكرون نعمة الله بعد ما عرفوها ، وهؤلاء إن كانوا ينكرونها كانوا بذلك كافرين وإن لم ينكروها لم يدخلوا في إطلاق الآية قطعاً ، وكيف يصح أن يقال : إنهم لم تقم عليهم الحجة وليست الحجة إلا النعمة التي يعدها الله سبحانه وهم يعرفونها ؟

وقول بعضهم : إنما قال : « وأكثرهم الكافرون » لأنه كان يعلم أن فيهم من سيؤمن ، وفيه أنه قول لا دليل عليه .

وقول بعضهم : إن المراد بالأكثر الجميع وإنما عدل عن البعض احتقاراً له أن يذكره ، ونسب إلى الحسن البصري ، وهو قول عجيب .

قيل : وفي الآية دليل على فساد قول المجهرة أنه ليس لله على الكافر نعمة

وأن جميع ما فعله بهم إنما هو خذلان ونقمة لأنه سبحانه نصّ في هذه الآية على خلاف قولهم ، انتهى .

والحق أن للنعمة اعتبارين : أحدهما كونها نعمة أي ناعمة ملائمة لحال المنعم عليه من حيث كونه في صراط التكوين أي من حيث سعادته الجسمية ، والآخر من حيث وقوع المنعم عليه في صراط التشريع أي من حيث سعادته الروحية الانسانية بأن تكون النعمة بحيث توجب معرفتها إيمانه بالله ورسوله واليوم الآخر واستعمالها في طريق مرضاة الله ، والمؤمن منعم بالنعمتين كليهما والكافر منعم في الدنيا بالطائفة الاولى محروم من الثانية ، وفي كلامه سبحانه شواهد كثيرة تشهد على ذلك .

قوله تعالى : « ويوم نبعث من كل أمة شهيداً ثم لا يؤذن للذين كفروا ولا هم يستعتبون » قال في الجمع : قال الزجاج : والعتب الموجدة يقال : عتب عليه يعتب إذا وجد عليه فإذا فاضه ما عتب عليه قالوا : عاتبه ، وإذا رجع إلى مسرته قيل : أعتب ، والاسم العتبي وهو رجوع المعتوب عليه إلى ما يرضي العاتب ، واستعتبه طلب منه أن يعتب . انتهى .

وقوله : « ويوم نبعث من كل أمة شهيداً » يفيد السياق أن المراد بهذا اليوم يوم القيامة ، وهؤلاء الشهداء الذين يبعث كل واحد منهم من أمة ، شهداء الأعمال الذين تحمّلوا حقائق أعمالهم في الدنيا وهم يستشهد بهم ويشهدون عليهم يوم القيامة ، وقد تقدم بعض الكلام في معنى هذه الشهادة في تفسير قوله : « لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيداً » البقرة : ١٤٣ في الجزء الأول من الكتاب .

ولا دلالة في لفظ الآية على أن المراد بشهيد الأمة نبيّها ، ولا أن المراد بالأمة أمة الرسول فمن الجائز أن يكون غير النبي من أئمة كالإمام شهيداً كما يدلّ عليه آية البقرة السابقة وقوله تعالى : « وجيء بالنبين والشهداء » الزمر : ٦٩ ، وعلى هذا فالمراد بكل أمة أمة الشهيد المبعوث وأهل زمانه .

وقوله : « ثم لا يؤذن للذين كفروا ولا هم يستعتبون » ذكر بعث شهداء الأمم دليل على أنهم يشهدون على أممهم بما عملوا في الدنيا ، وقرينة على أن المراد من نفي الإذن للكافرين أنهم لا يؤذن لهم في الكلام وهو الاعتذار لا محالة ، ونفي الإذن في الكلام

إنما هو تمهيد لأداء الشهود شهادتهم كما تلوّح إليه آيات آخر كقوله : « اليوم نختم على أفواههم وتكلمنا أيديهم وتشهد أرجلهم » يس : ٦٥ ، وقوله : « هذا يوم لا ينطقون ولا يؤذن لهم فيعتذرون » المرسلات : ٣٦ .

على أن سياق قوله : « ثم لا يؤذن » الخ ، يفيد أن المراد بهذا الذي ذكر نفي ما يتقى به الشر يومئذ من الحيل وبيان أنه لا سبيل إلى تدارك ما فات منهم وإصلاح ما فسد من أعمالهم في الدنيا يومئذ وهو أحد أمرين : الاعتذار أو استئناف العمل ، أما الثاني فيتكفله قوله : « ولا هم يستعتبون » ولا يبقى للأول وهو الاعتذار بالكلام إلا قوله : « ثم لا يؤذن للذين كفروا » .

ومن هنا يظهر أن قوله : « ولا هم يستعتبون » أي لا يطلب منهم أن يعتبوا الله ويرضوه بيان لعدم إمكان تدارك ما فات منهم بتجديد العمل والرجوع إلى السمع والطاعة فإن اليوم يوم جزاء لا يوم عمل ولا سبيل إلى رجوعهم القهقري إلى الدنيا حتى يعملوا صالحاً فيجزوا به .

وقد بين سببانه ذلك في مواضع أخرى من كلامه بلسان آخر كقوله تعالى : « يوم يكشف عن ساق ويدعون إلى السجود فلا يستطيعون » ، خاشعة أبصارهم ترهقهم ذلة وقد كانوا يدعون إلى السجود وهم سالمون » القلم : ٤٣ ، وقوله : « ولو ترى إذ المجرمون ناكسوا رؤوسهم عند ربهم ربنا أبصرنا وسمعنا فارجعنا نعمل صالحاً إننا موقنون » الم السجدة : ١٢ .

قوله تعالى : « وإذا رأى الذين ظلموا العذاب فلا يخفف عنهم ولا هم ينظرون » كانت الآية السابقة بالحقيقة مسوقة لبيان الفرق بين يوم الجزاء الذي هو يوم القيامة وبين سائر ظروف الجزاء في الدنيا بأن جزاء يوم القيامة لا يرتفع ولا يتغير باعتذار ولا باستعتاب ، وهذه الآية بيان فرق عذاب اليوم مع العذابات الدنيوية التي تتعلق بالظالمين في الدنيا فإنها تقبل بوجه التخفيف أو الإنظار بتأخير ما وعذاب يوم القيامة لا يقبل تخفيفاً ولا إنظاراً .

فقوله : « وإذا رأى الذين ظلموا العذاب » ذكر الظلم في الصلة دون الكفر ونحوه للدلالة على سبب الحكم وملاكه ، والمراد برؤية العذاب إشرافه عليهم

وإشرافهم عليه بعد فصل القضاء كما يفيد السياق، والمراد بالعذاب عذاب يوم القيامة وهو عذاب النار .

والمعنى - والله أعلم - وإذا قضي الأمر بعذابهم وأشرفوا على العذاب بمشاهدة النار فلا مخلص لهم عنه بتخفيف أو بإنظار وإمهال .

قوله تعالى : « وإذا رأى الذين أشركوا شركاءهم » إلى آخر الآية ، مضي في حديث يوم البعث ، وقوله : « وإذا رأى الذين أشركوا » وهم في عرف القرآن عبدة الأصنام والأوثان قرينة على أن المراد بقوله : « شركاءهم » الذين أشركوهم بالله زعماء منهم أنهم شركاء لله وافتراء وبدل أيضاً عليه ذيل الآية والآية التالية .

فتسميتهم شركاءهم وهم يسمونهم شركاء الله للدلالة بها على أن ليس لهم من الشراكة إلا الشراكة يجعلهم بحسب ومهم فليس لإشراكهم شركاءهم من الحقيقة إلا أنها لا حقيقة لها .

وبذلك يظهر أن تفسير شركائهم بالأصنام أو بالمعبودات الباطلة وأنهم إنما عدوا شركائهم لأنهم جعلوا لها نصيباً من أموالهم وأنعامهم ، أو الشياطين لأنهم شاركوهم في الأموال والأولاد أو شركائهم في الكفر وهم الذين كفروا مثل كفرهم أو شاركوهم في وبال كفرهم ، كل ذلك في غير محله ولا نطيل بالمناقشة في كل واحد منها .

وقوله : « قالوا ربنا هؤلاء شركاؤنا الذين كنا ندعو من دونك » معناه ظاهر وهو تعريف منهم إياهم لربهم ، ولا حاجة إلى البحث عن غرض المشركين في تعريفهم فإن اليوم يوم أحاط بهم الشقاء والعذاب من كل جانب ، والإنسان في مثل ذلك يلوي إلى كل ما يخطر بباله من طرق السعي في خلاص نفسه وتنفيس كربته .

وقوله : « فألقوا إليهم القول إنكم لكاذبون » قال في الجمع : تقول : ألقيت الشيء إذا طرحته ، وألقى الشيء الملقى ، وألقيت إليه مقالة إذا قلتها له ، وتلقاها إذا قبلها ، انتهى .

والمعنى : أن شركاءهم ردوا إليهم وكذبوهم ، وقد عبر سبحانه في موضع آخر عن هذا التكذيب بالكفر كقوله : « ويوم القيامة يكفرون بشرككم » فاطر : ١٤ وقوله حكاية عن مخاطبة الشيطان لهم يوم القيامة « إني كفرت بما أشركتمون من

قبل « إبراهيم : ٢٢ .

قوله تعالى : « وألقوا إلى الله يومئذ السلم وصلّ عنهم ما كانوا يفترون » السلم الإسلام والاستسلام ، وكان في التعبير بإلقاء السلم إشارة إلى انضمام شيء من الخضوع والمقهورية بالقهر الإلهي إلى سلمهم .

وضمير « ألقوا » عائد إلى الذين أشركوا بقرينة قوله بعد « وصلّ عنهم ما كانوا يفترون » فالمراد أن المشركين يسلّمون يوم القيامة لله وقد كانوا يدعون إلى الإسلام في الدنيا وهم يستكبرون .

وليس المراد بإلقاء السلم هذا يوم القيامة هو انكشاف الحقيقة وظهور الوحدانية وهو مدلول قوله في صفة يوم القيامة : « ويعلمون أن الله هو الحق المبين » النور : ٢٥ ، لأن العلم بثبوت شيء أمر ، والتسليم والإيمان بثبوته أمر آخر كما يظهر من قوله تعالى : « وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم » النمل : ١٤ .

ومجرد العلم بأن الله هو الحق لا يكفي في سعادة الإنسان بل تحتاج في تمامها إلى تسليمه والإيمان به بترتيب آثاره عليه ثم من التسليم والإيمان ما كان عن طوع واختيار ومنه ما كان عن كره واضطرار ، والذي ينفع في السعادة هو التسليم والإيمان عن اختيار وموطن الاختيار الدنيا التي هي دار العمل دون الآخرة التي هي دار الجزاء .

وهم لم يسلموا للحق ما داموا في الدنيا وإن أيقنوا به حتى إذا وردوا الدار الآخرة وأوقفوا موقف الحساب عاينوا أن الله هو الحق المبين ، وأن عذاب الشقاء أحاط بهم من كل جانب أسلموا للحق وهم مضطرون وليس ينفعهم ، وإلى هذا العلم والتسليم الاضطراري يشير قوله تعالى : « يومئذ يوفّيهم الله دينهم الحق ويعلمون أن الله هو الحق المبين » النور : ٢٥ ، فصدر الآية يخبر عن إسلامهم لأنه الدين الحق ، قال تعالى : « إن الدين عند الله الإسلام » آل عمران : ١٩ ، وذيل الآية عن انكشاف الحق لهم وظهور الحقيقة عليهم .

والآية المبحوث عنها أعني قوله : « وألقوا إلى الله يومئذ السلم وصلّ عنهم ما كانوا يفترون » صدرها يشير إلى إسلامهم وذيلها إلى كون ذلك الإسلام اضطرارياً لا ينفعهم لأنهم كانوا يرون الله ألوهية ولشركائهم ألوهية فاختراروا تسليم شركائهم

وعبادتهم على التسليم لله ثم لما ظهر لهم الحق يوم القيامة وكذبهم شركائهم بطل ما زعموه وضل عنهم ما افتروه فلم يبق للتسليم إلا الله سبحانه فسلموا له مضطرين وانقادوا له كارهين .

قوله تعالى : « الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله زدناهم عذاباً فوق العذاب بما كانوا يفسدون » استئناف متعرض لحال أئمة الكفر بالخصوص بعدما أشار إلى حال عامة الظالمين والمشركين في الآيات السابقة .

والسامع إذا سمع ما شرحه الله من حالهم يوم القيامة في هذه الآيات وأنهم معذبون جميعاً من غير أن يخفف عنهم أو ينظروا فيه ، وقد سمع منه أن منهم طائفة هم أشد كفراً وأشقى من غيرهم إذ يقول : « وأكثرهم الكافرون » خطر بباله طبعاً أنهم هل يساوون غيرهم في العذاب الموعود وهم يزيدون عليهم في السبب وهو الكفر . فاستؤنف الكلام جواباً عن ذلك فقيل : « الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله » بالعناد واللجاج فأكملوا في الكفر واقتدى بهم غيرهم « زدناهم عذاباً » وهو الذي للصد وهم يختصون به « فوق العذاب » وهو الذي بإزاء مطلق الظلم والكفر ويشار كون فيه عامة إخوانهم ، وكأن اللام في العذاب التكرار يشار بها إلى ما ذكر في قوله : « وإذا رأى الذين ظلموا العذاب » الخ ، « بما كانوا يفسدون » تعليل لزيادة العذاب .

ومن هنا يظهر أن المراد بالإفساد الواقع في التعليل هو الصد لأنه الوصف الذي يزيدون به على غيرهم وهو إفساد الغير بصرفه عن سبيل الله ، وبتقرير آخر : إفساد في الأرض بالمنع عن انعقاد مجتمع صالح كان من المترقب حصوله بإقبال أولئك المصروفين على دين الله وسلوك سبيله .

قوله تعالى : « ويوم نبعث في كل أمة شهيداً عليهم من أنفسهم وجئنا بك شهيداً على هؤلاء » الخ ، صدر الآية تكرر ما تقدم قبل بضع آيات من قوله : « ويوم نبعث من كل أمة شهيداً » غير أنه كان هناك توطئة وتمهيداً لحديث عدم الإذن لهم في الكلام يومئذ ، وهو هنا توطئة وتمهيد لذكر شهادته ﷺ هؤلاء يومئذ وهو في الموضعين

مقصود لغيره لا لنفسه .

وكيف كان فقوله : « ويوم نبعث في كل أمة شهيداً عليهم من أنفسهم » يدل على بعث واحد في كل أمة للشهادة على أعمال غيره وهو غير البعث بمعنى الإحياء للحساب بل بعث بعد البعث ، وإنما جعل من أنفسهم ليكون أتم للحجة وأقطع للمعذرة كما يفيد السياق وذكره المفسرون حتى أنهم ذكروا شهادة لوط على قومه ولم يكن منهم نسباً ووجهه بأنه كان تاهل فيهم ومكن معهم فهو معدود منهم .

وقوله : « وجئنا بك شهيداً على هؤلاء » يفيد أنه عليه السلام شهيد على هؤلاء ، واستظهروا أن المراد بهؤلاء هم أمته ، وأيضاً إنهم قاطبة من بعث إليه من لدن عصره إلى يوم القيامة ممن حضره ومن غاب ومن عاصره ومن جاء بعده من الناس .

وآيات الشهادة من معضلات آيات القيامة على ما في جميع آيات القيامة من الإعضال وصعوبة المنال ، وقد تقدم في ذيل قوله : « لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيداً » البقرة : ١٤٣ في الجزء الأول من الكتاب نبذة من الكلام في معنى هذه الشهادة .

ومن الواجب قبل ورود في بحث الشهادة وسائر الأمور التي تصفها الآيات ليوم القيامة كالجمع والوقوف والسؤال والميزان والحساب أن يعلم أنه تعالى يعد في كلامه هذه الأمور في عداد الحجج التي تقام يوم القيامة على الإنسان لتثبيت ما عمله من خير أو شر والقضاء عليه بما ثبت بالحجة القاطعة للعدر والمنيرة للحق ثم المجازاة بما يستوجبه القضاء من سعادة أو شقاء وجنة أو نار ، وهذا من أوضح ما يستفاد من آيات القيامة الشارحة لشؤون هذا اليوم وما يواجهه الناس منها .

وهذا أصل مقتضاه أن يكون بين هذه الحجج وأجزائها ونتائجها روابط حقيقية بينة يضطر العقل إلى الإذعان بها ، ولا يسع للإنسان بما عنده من الشعور الفطري ردّها ولا الشك والارتياب فيها .

وعلى هذا فمن الواجب أن تكون الشهادة القائمة هناك بإقامة منه تعالى مشتملة من الحقيقة على ما لا سبيل للمناقشة فيها ، والله سبحانه لو أمر أشقى الناس على أن يشهد على الأولين والآخرين بما عملوه باختيار من الشاهد أو يخلق الشهادة في لسانه بلا

إرادة منه ، أو أن يشهد بما عملوه من غير أن يكون قد تحملها في الدنيا وشهدها شهود عيان بل معتمداً على إعلام من الله أو ملائكته أو على حجة ثم أمضى تعالى ذلك وأنفذه وجازى به محتجاً في جميع ذلك بشهادته ثانياً عليها لم يكن ذلك مما لا تطبيقه سعة قدرته ولا يسعه نفوذ إرادته ولا استطاع أحد أن ينازعه في ملكه أو يعقّب حكمه أو يغلّبه على أمره .

لكنها حجة تحكّمية غير تامة لا تقطع بالحقيقة عذراً ولا تدفع ريباً نظير التحكّكات التي نجدّها من جبايرة الإنسان والطواغيت العابثين بالحق والحقيقة وكيف يتصور لمثل هذه الحجج المختلفة عين أو أثر يوم لا عين فيه إلا للحق ولا أثر فيه إلا للحقيقة؟

وعلى هذا فمن الواجب أن يكون هذا الشهيد ذا عصمة إلهية يمتنع عليه الكذب والجفاف ، وأن يكون عالماً بحقائق الأعمال التي يشهد عليها لا بظاهر صورها وهيئاتها المحسوسة بل بحقيقة ما انعمدت عليه في القلوب ، وأن يستوي عنده الحاضر والغائب من الناس كما تقدمت الإشارة إليه في تفسير آية سورة البقرة .

ومن الواجب أن تكون شهادته شهادة عن معانية كما هو ظاهر لفظ الشهيد وظاهر تقييده بقوله : « من أنفسهم » في قوله : « شهيداً عليهم من أنفسهم » غير مستندة إلى حجة عقلية أو دليل مسمّى . ويشهد به قوله تعالى حكاية عن المسيح عليه السلام : « وكنت شهيداً عليهم ما دمت فيهم فلما توفيتني كنت أنت الرقيب عليهم وأنت على كل شيء شهيد » المائدة : ١١٧ .

وبهذا تتلاءم الآيتان مضموناً أعني قوله : « ويوم نبعث في كل أمة شهيداً عليهم من أنفسهم وجئنا بك شهيداً على هؤلاء » وقوله : « وكذلك جعلناكم أمة وسطاً لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيداً » البقرة : ١٤٣ .

فإن ظاهر آية البقرة أن بين النبي صلى الله عليه وآله وسلم وبين الناس الذين هم عامة من بعث إليهم من زمانه إلى يوم القيامة شهداء يشهدون على أعمالهم ، وأن الرسول إنما هو شهيد على هؤلاء الشهداء دون سائر الناس إلا بواسطتهم ، ولا ينبغي أن يتوهم أن الأمة هم المؤمنون وغيرهم الناس وهم خارجون من الأمة فإن ظاهر الآية السابقة في السورة : « ويوم نبعث من كل أمة شهيداً ثم لا يؤذن للذين كفروا » الآية أن الكفار من الأمة

المشهد عليهم .

ولازم ذلك أن يكون المراد بالامة في الآية المبعوث عنها : « ويوم نبعث في كل امة شهيداً عليهم من أنفسهم » جماعة الناس من أهل عصر واحد يشهد أعمالهم شهيد واحد ، ويكون حينئذ الامة التي بعث اليها النبي ﷺ منقسمة الى امم كثيرة .

ويكون المراد بالشهيد الإنسان المبعوث بالعصمة والمشاهدة كما تقدم ويؤيده قوله : « من أنفسهم » إذ لولا المشاهدة لم يكن لكونه من أنفسهم وقع ، ولا لتعدد الشهداء بتعدد الامم وجه فلكل قوم شهيد من أنفسهم سواء كان نبياً لهم أو غير نبينهم فلا ملازمة كما يؤيده قوله : « وجيء بالنبين والشهداء » الزمر : ٦٩ .

ويكون المراد بهؤلاء في قوله : « وجئنا بك شهيداً على هؤلاء » الشهداء دون عامة الناس فالشهداء شهداء على الناس والنبي ﷺ شهيد على الشهداء وظاهر الشهادة على الشاهد تعديله دون الشهادة على عمله فهو ﷺ شهيد على مقامهم لا على أعمالهم . ولذلك لم يكن من الواجب أن يعاصرهم ويتحد بهم زماناً فافهم ذلك .

والإنصاف أنه لولا هذا التقريب لم يرتفع ما يترامى ما في آيات الشهادة من الاختلاف كدلالة آية البقرة ، وقوله : « ليكون الرسول شهيداً عليكم وتكونوا شهداء على الناس » الحج : ٧٨ ، على كون الامة هم المؤمنين ، ودلالة غيرها على الأعم ، ودلالتهما على أن النبي إنما هو شهيد على الشهداء ، وأن بينه وبين الناس شهداء ودلالة غيرها على خلافه وأن على الناس شهيداً واحداً هو نبينهم لأن المفروض حينئذ أن شهيد كل أمة هو نبينهم ، وكون أخذ الشهيد من أنفسهم لغو لا أثر له مع عدم لزوم الحضور والمعاصرة وأن الشهادة إنما تكون من حي كما في الكلام المحكي عن المسيح عليه السلام وإشكالات أخرى تتوجه على نجاح الحجة ومضيتها ، تقدمت الإشارة اليها والله الهادي .

وقوله : « ونزلنا عليك الكتاب تبياناً لكل شيء وهدى ورحمة وبشرى للمسلمين » ذكروا أنه استئناف يصف القرآن بكرائمه صفاته فصفته العامة أنه تبيان لكل شيء والتبيان والبيان واحد - كما قيل - وإذ كان كتاب هداية لعامة الناس وذلك شأنه كان الظاهر أن المراد بكل شيء كل ما يرجع إلى أمر الهداية مما يحتاج اليه الناس في

اهتدائهم من المعارف الحقيقية المتعلقة بالمبدء والمعاد والأخلاق الفاضلة والشرائع الإلهية والقصص والمواعظ فهو تبيان لذلك كله .

ومن صفته الخاصة أي المتعلقة بالمسلمين الذين يسلمون للحق أنه هدى يهتدون به إلى مستقيم الصراط ورحمة لهم من الله سبحانه يحوزون بالعمل بما فيه خير الدنيا والآخرة وينالون به ثواب الله ورضوانه ، وبشرى لهم يبشرهم بغفرة من الله ورضوان وجنات لهم فيها نعيم مقيم .

هذا ما ذكره وهو مبني على ما هو ظاهر التبيان من البيان المعهود من الكلام وهو إظهار المقاصد من طريق الدلالة اللفظية فإننا لا نهتدي من دلالة لفظ القرآن الكريم إلا على كلييات ما تقدم ، لكن في الروايات ما يدل على أن القرآن فيه علم ما كان وما يكون وما هو كائن إلى يوم القيامة ، ولو صحّت الروايات لكان من اللازم أن يكون المراد بالتبيان الأعم مما يكون من طريق الدلالة اللفظية فلعل هناك إشارات من غير طريق الدلالة اللفظية تكشف عن أسرار وخبايا لا سبيل للفهم المتعارف إليها .

والظاهر على ما يستفاد من سياق هذه الآيات المسوقة للاحتجاج على الأصول الثلاثة : التوحيد والنبوة والمعاد ، والكلام فيها ينعطف مرة بعد أخرى عليها أن قوله : « ونزلنا عليك الكتاب » الخ ، ليس باستئناف بل حال عن ضمير الخطاب في « جئنا بك » بتقدير « قد » أو بدون تقديرها - على الخلاف بين النحاة في الجملة الحالية المصدرة بالفعل الماضي - .

والمعنى : وجئنا بك شهيداً على هؤلاء والحال أنا نزلنا عليك من قبل في الدنيا الكتاب وهو بيان لكل شيء من أمر الهداية يعلم به الحق من الباطل فيتحمل شهادة أعمالهم فيشهد يوم القيامة على الظالمين بما ظلموا وعلى المسلمين بما أسلموا لأن الكتاب كان هدى ورحمة وبشرى لهم وكنت أنت بذلك هادياً ورحمة ومبشراً لهم .

وعلى هذا فصدر الآية كالتوطئة لذيها كأنه قيل : سيبعث شهداء يشهدون على الناس بأعمالهم وأنت منهم ولذلك نزلنا عليك كتاباً يبين الحق والباطل ويميز بينها حتى تشهد به يوم القيامة على الظالمين بظلمهم وقد تبين الكتاب وعلى المسلمين بإسلامهم ، وقد كان الكتاب هدى ورحمة وبشرى لهم وكنت هادياً ورحمة ومبشراً به .

ومن لطيف ما يؤيد هذا المعنى مقارنة الكتاب بالشهادة في بعض آيات الشهادة كقوله : « وأشرق الأرض بنور ربها ووضع الكتاب وجيء بالنبيين والشهداء » الزمر : ٦٩ ، وسيجيء إن شاء الله أن المراد به اللوح المحفوظ ، وقد تكرر في كلامه تعالى أن القرآن من اللوح المحفوظ كقوله : « إنه لقرآن كريم في كتاب مكنون » الواقعة : ٧٨ ، وقوله : « بل هو قرآن مجيد في لوح محفوظ » البروج : ٢٢ .

وشهادة اللوح المحفوظ وإن كانت غير شهادة النبي ﷺ لكنها جميعاً متوقفتان على قضاء الكتاب النازل .

(بحث روائي)

في الدر المنثور أخرج ابن أبي حاتم عن مجاهد أن أعرابياً أتى النبي ﷺ فسأله فقرأ عليه رسول الله ﷺ : « والله جعل لكم من بيوتكم سكناً » قال الأعرابي : نعم . قال : « وجعل لكم من جلود الأنعام بيوتاً تستخفونها » قال الأعرابي : نعم . ثم قرأ عليه كل ذلك يقول : نعم حتى بلغ « كذلك يتم نعمته عليكم لعلكم تسلمون » فولى الأعرابي فأئزله : « يعرفون نعمته الله ثم ينكرونها وأكثرهم الكافرون » .

في تفسير البرهان عن ابن شهر آشوب عن الباقر عليه السلام في قوله تعالى : « يعرفون نعمته الله » الآية ، قال : عرفهم ولاية علي وأمرهم بولايته ثم أنكروا بعد وفاته .

أقول ، والرواية من الجري .

وفي تفسير العياشي عن جعفر بن أحمد عن التركي النيشابوري عن علي بن جعفر ابن محمد عن أخيه موسى بن جعفر عليه السلام أنه سئل عن هذه الآية : « يعرفون نعمته الله » الآية ، قال : عرفوه ثم أنكروه .

وفي تفسير القمي في قوله تعالى : « ويوم نبعث في كل أمة شهيداً عليهم من أنفسهم » قال الصادق عليه السلام : لكل زمان وأمة شهيد تبعث كل أمة مع إمامها .

أقول : وذيل كلامه عليه السلام مضمون قوله تعالى : « يوم ندعو كل أناس بإمامهم » .

وفي الدر المنثور أخرج عبد بن حميد ، وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن

قتادة قال الله : « وجئنا بك شهيداً على هؤلاء » قال : ذكر لنا أن نبي الله ﷺ كان إذا قرأ هذه الآية فاضت عيناه .

أقول : « والروايات في باب الشهادة يوم القيامة كثيرة جداً وقد أوردنا بعضها في ذيل قوله : « وكذلك جعلناكم أمة وسطاً » البقرة : ١٤٣ ، وبعضها في ذيل قوله : « وجئنا بك على هؤلاء شهيداً » النساء : ٤١ ، وقوله : « ويوم القيامة يكون عليهم شهيداً » النساء : ١٥٩ .

وفي الدر المنثور أخرج ابن مردويه والخطيب في ثالي التلخيص عن البراء أن النبي ﷺ سئل عن قول الله : « زدناهم عذاباً فوق العذاب » قال : عقارب أمثال النخل الطوال ينهشونهم في جهنم .

وفي الكافي بإسناده عن عبيد الأعلى بن أعين قال : سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول : قد ولدني رسول الله ﷺ وأنا أعلم كتاب الله وفيه بدؤ الخلق وما هو كائن إلى يوم القيامة ، وفيه خبر السماء وخبر الأرض وخبر الجنة وخبر النار وخبر ما كان وخبر ما هو كائن أعلم ذلك كما أنظر إلى كفي إن الله عز وجل يقول : فيه تبيان كل شيء .

مركز تحقيق كتاب توير علوم اسلامی

أقول : والآية منقولة في الرواية بالمعنى .

وفي تفسير العياشي عن منصور عن حماد اللحام قال : قال أبو عبد الله عليه السلام نحن نعلم ما في السماوات ونعلم ما في الأرض ، وما في الجنة وما في النار وما بين ذلك . قال : فبهت أنظر إليه فقال : يا حماد إن ذلك في كتاب الله تعالى ثم تلا هذه الآية : « ويوم نبعث في كل أمة شهيداً عليهم من أنفسهم وجئنا بك شهيداً على هؤلاء ونزلنا عليك الكتاب تبياناً لكل شيء وهدى ورحمة وبشرى للمسلمين » إنه من كتاب فيه تبيان كل شيء .

وفي الكافي عن عدة من أصحابنا عن أحمد بن محمد بن سنان عن يونس بن يعقوب عن الحارث بن المغيرة وعدة من أصحابنا منهم عبد الأعلى وأبو عبيدة وعبد الله بن بشير الحثمي سمعوا أبا عبد الله عليه السلام يقول : إني لأعلم ما في السماوات وما في الأرض وأعلم ما في الجنة وأعلم ما في النار وأعلم ما كان وما يكون ثم مكث هنيهة فرأى

أن ذلك كبر على من سمعه منه فقال : علمت ذلك من كتاب الله عز وجل إن الله يقول : فيه تبيان كل شيء .

وفي تفسير العياشي عن عبد الله بن الوليد قال : قال أبو عبد الله عليه السلام قال الله لموسى : « وكتبنا له في الألواح من كل شيء » فعلمنا أنه لم يكتب لموسى الشيء كله ، وقال الله لعيسى : « لا بين لكم بعض الذي تختلفون فيه » وقال الله لحمد عليه السلام : « وجئنا بك شهيداً على هؤلاء ونزلنا عليك الكتاب تبياناً لكل شيء » .
أقول : ورواه العياشي بالإسناد عليه السلام .

* * *

إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ
الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ — ٩٠ . وَأَوْفُوا
بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ
جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ — ٩١ . وَلَا تَكُونُوا
كَالَّذِي نَقَضَتْ غَزَاهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنْكَاثًا تَتَّخِذُونَ أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا
بَيْنَكُمْ أَنْ تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ إِنَّمَا يَبُلُوكُمْ اللَّهُ بِهِ وَلِيُبَيِّنَ
لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ — ٩٢ . وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ
أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَلَتَسْأَلُنَّ عَمَّا
كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ — ٩٣ . وَلَا تَتَّخِذُوا أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ فَتَزِلَّ قَدَمُ
بَعْدَ ثُبُوتِهَا وَتَذُوقُوا السُّوءَ بِمَا صَدَدْتُمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَلَكُمْ عَذَابٌ
عَظِيمٌ — ٩٤ . وَلَا تَشْتَرُوا بِعَهْدِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا إِنَّمَا عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْرٌ

لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ — ٩٥ . مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ
وَلَنَجْزِيَنَّ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ — ٩٦ . مَنْ
عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُخَوِّضَهُ حَيَاةً طَيِّبَةً
وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ — ٩٧ . فَإِذَا قَرَأْتَ
الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ — ٩٨ . إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ
عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ — ٩٩ . إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ
يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ — ١٠٠ . وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَكَانَ آيَةٍ
وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنْزِلُ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٍ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ — ١٠١ .
قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا وَهُدًى
وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ — ١٠٢ . وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ
لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ — ١٠٣ .
إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ لَا يَهْدِيهِمُ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ — ١٠٤ .
إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكَذِبَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ
الْكَاذِبُونَ — ١٠٥ .

(بيان)

تذكر الآيات عدة من الأحكام مما يلائم حال الإسلام قبل الهجرة مما يصلح به
حال المجتمع العام كالأمر بالعدل والإحسان والنهي عن الفحشاء والمنكر والبغي وما

يلحق بذلك كالأمر بإيتاء ذي القربى والنهي عن نقض العهد واليمين ، وتذكر أموراً أخرى تناسب ذلك وتثبتها .

قوله تعالى : « إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى » ابتداء سبحانه بهذه الأحكام الثلاثة التي هي بالترتيب أهم ما يقوم به صلب المجتمع الإنساني لما أن صلاح المجتمع العام أهم ما يبتغيه الإسلام في تعامله المصلحة فإن أهم الأشياء عند الإنسان في نظر الطبيعة وإن كان هو نفسه الفردية ، لكن سعادة الشخص مبنية على صلاح الظرف الاجتماعي الذي يعيش هو فيه ، وما أصعب أن يفلح فرد في مجتمع فاسد أحاط به الشقاء من كل جانب .

ولذلك اهتم في إصلاح المجتمع اهتماماً لا يعادله فيه غيره وبذل الجهد البالغ في جعل الدساتير والتعاليم الدينية حتى العبادات من الصلاة والحج والصوم اجتماعية ما أمكن فيها ذلك ، كل ذلك ليستصلح الإنسان في نفسه ومن جهة ظرف حياته .

فقوله : « إن الله يأمر بالعدل » أمر بالعدل ويقابله الظلم ، قال في المفردات : العدالة والمعادلة لفظ يقتضي معنى المساواة ، ويستعمل باعتبار المضايقة ، والعدل - بفتح العين - والعدل - بكسرها - يتقاربان لكن العدل - بفتح العين - يستعمل فيما يدرك بالبصيرة كالأحكام ، وعلى ذلك قوله تعالى : « أو عدل ذلك صيماً » والعدل - بكسر العين - والمعدل فيما يدرك بالحاسة كالموزونات والمعدودات والمكيلات ، فالعدل هو التقسيط على سواء .

قال : والعدل ضربان : مطلق يقتضي العقل حسنه ، ولا يكون في شيء من الأزمنة منسوخاً ولا يوصف بالاعتداء بوجه نحو الإحسان إلى من أحسن إليك وكفى الأذى عن كفى أذاه عنك ، وعدل يعرف كونه عدلاً بالشرع ويمكن أن يكون منسوخاً في بعض الأزمنة كالقصاص واروش الجنايات وأصل مسال المرتدة ، ولذلك قال : « فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه » ، وقال : « وجزاء سيئة سيئة مثلها » فسمي اعتداء وسيئة .

وهذا النحو هو المعنى بقوله : « إن الله يأمر بالعدل والإحسان » فإن العدل هو المساواة في المكافاة إن خيراً فخير وإن شراً فشر ، والإحسان أن يقابل الخير بأكثر

منه والشر بأقل منه ، انتهى موضع الحاجة .

وما ذكره على ما فيه من التفصيل يرجع إلى قولهم إن العدل هو لزوم الوسط والاجتناب عن جانبي الإفراط والتفريط في الأمور وهو من قبيل التفسير بلازم المعنى فإن حقيقة العدل هي إقامة المساواة والموازنة بين الأمور بأن يعطى كل من السهم ما ينبغي أن يعطاه فيتساوى في أن كلا منها واقع موضعه الذي يستحقه ، فالعدل في الاعتقاد أن يؤمن بما هو الحق ، والعدل في فعل الإنسان في نفسه أن يفعل ما فيه سعادته ويتحرز مما فيه شقاؤه . باتّباع هوى النفس ، والعدل في الناس وبينهم أن يوضع كل موضعه الذي يستحقه في العقل أو في الشرع أو في العرف فيثاب المحسن بإحسانه ، ويعاقب المسيء على إساءته ، وينتصف للمظلوم من الظالم ولا يبعث في إقامة القانون ولا يستثنى .

ومن هنا يظهر أن العدل يساوق الحسن ويلازمه إذ لا نعني بالحسن إلا ما من طبعه أن تميل إليه النفس وتنجذب نحوه وإقرار الشيء في موضعه الذي ينبغي أن يقر عليه من حيث هو كذلك مما يميل إليه الإنسان ويعترف بحسنه ويقدم العذر لو خالفه إلى من يقرعه باللوم لا يختلف في ذلك اثنين ، وإن اختلف الناس في مصاديقه كثيراً باختلاف مسالكهم في الحياة .

ويظهر أيضاً أن ما عدا الراغب في كلامه من الاعتداء والسيئة عدلاً لا يخلو عن مساحة ، فإن الاعتداء والسيئة اللذين يجازى بهما المعتدي والمسيء إنما هما اعتداء وسيئة بالنسبة إليهما وأما بالنسبة إلى من يجازيها بهما فهما من لزوم وسط الاعتدال وخصلة الحسن لكونهما من وضع الشيء موضعه الذي ينبغي أن يوضع فيه .

وكيف كان فالعدل وإن كان منقسماً إلى عدل الإنسان في نفسه وإلى عدله بالنسبة إلى غيره ، وهما العدل الفردي والعدل الاجتماعي ، واللفظ مطلق لكن ظاهر السياق أن المراد به في الآية العدل الاجتماعي وهو أن يعامل كل من أفراد المجتمع بما يستحقه ويوضع في موضعه الذي ينبغي أن يوضع فيه ، وهذا أمر بخصلة اجتماعية متوجه إلى أفراد المكلفين بمعنى أن الله سبحانه يأمر كل واحد من أفراد المجتمع أن يأتي بالعدل ، ولازمه أن يتعلق الأمر بالمجموع أيضاً فيكلف المجتمع إقامة هذا الحكم وتقلده الحكومة

بما أنها تتولى أمر المجتمع وتدبره .

وقوله : « والإحسان » الكلام فيه من حيث اقتضاء السياق كسابقه فالمراد به الإحسان إلى الغير دون الإحسان بمعنى إتيان الفعل حسناً ، وهو إيصال خير أو نفع إلى غير لا على سبيل المجازاة والمقابلة كأن يقابل الخير بأكثر منه ويقابل الشر بأقل منه - كما تقدم - ويوصل الخير إلى غير متبرعاً به ابتداء .

والإحسان على ما فيه من إصلاح حال من أذلت المسكنة والفاقة أو اضطرت النوازل ، وما فيه من نشر الرحمة وإيجاد المحبة يعود محمود أثره إلى نفس المحسن بدوران الثروة في المجتمع وجلب الأمن والسلامة بالتحبيب .

وقوله : « وإيتاء ذي القربى » أي إعطاء المال لذوي القرابة وهو من أفراد الإحسان خص بالذكر ليدل على مزيد العناية بإصلاح هذا المجتمع الصغير الذي هو السبب بالحقيقة لانعقاد المجتمع المدني الكبير كما أن مجتمع الازدواج الذي هو أصغر بالنسبة إلى مجتمع القرابة سبب مقدم مكون له فالمجتمعات المدنية العظيمة إنما ابتدأت من مجتمع بيتي عقده الازدواج ثم بسطه التوالد والتناسل ووسعه حتى صار قبيلة وعشيرة ولم يزل يتزايد ويتكاثر حتى عادت أمة عظيمة فالمراد بذوي القربى الجنس دون الفرد وهو عام لكل قرابة كما ذكرناه .

وفي التفسير المأثور عن أئمة أهل البيت عليهم السلام أن المراد بذوي القربى الإمام من قرابة رسول الله ﷺ ، والمراد بالإيتاء إعطاء الخمس الذي فرضه الله سبحانه في قوله : « واعلموا أن ما غنمتم من شيء فأن لله خمسة وللرسول ولذوي القربى واليتامى والمساكين » الآية ، الأنفال : ٤١ وقد تقدم تفسيرها .

ولعل التعبير بالإفراد حيث قيل : « ذي القربى » ولم يقل : ذوي القربى أو أولي القربى كما في قوله : « وإذا حضر القسمة أولوا القربى واليتامى والمساكين » النساء : ٨ ، وقوله : « وآتى المال على حبه ذوي القربى واليتامى والمساكين » البقرة : ١٧٧ يؤيد ذلك .

واحتال إرادة الجنس من ذي القربى يبعده ما وقع في سياق آية الخمس من ذكر اليتامى والمساكين معه بصيغة الجمع مع عدم ظهور نكتة يختص بها ذوي القربى أو

اليتامى والمساكين تقضي بالفرق .

على أن الآية لا قرينة واضحة فيها على كون المراد بالإيتاء هو الإحسان ثم بالإحسان مطلق الإحسان . والله أعلم .

قوله تعالى : « وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى يعظكم لعلكم تذكرون » قال في المفردات : الفحش والفحشاء والفاحشة ما عظم قبحه من الأفعال والأقوال . انتهى ولعل الأصل في معناه الخروج عن الحد فيما لا ينبغي يقال : غبن فاحش أي خارج عن حد التحمل والصبر والسكوت .

والمنكر ما لا يعرفه الناس في مجتمعهم من الأعمال التي تكون متروكة عندهم لقبحها أو إثمها كالمواقعة أو كشف العورة في مشهد من الناس في المجتمعات الإسلامية . والبغى الأصل في معناه الطلب وكثر استعماله في طلب حق الغير بالتعدي عليه فيفيد معنى الاستعلاء والاستكبار على الغير ظلماً وعتواً ، وربما كان بمعنى الزنا والمراد به في الآية هو التعدي على الغير ظلماً .

وهذه الثلاثة أعني الفحشاء والمنكر والبغى وإن كانت متحدة المصاديق غالباً فكل فحشاء منكر ، وغالب البغى فحشاء ومنكر لكن النهي إنما تعلق بها بما لها من العناوين لما أن وقوع الأعمال بهذه العناوين في مجتمع من المجتمعات يوجب ظهور الفصل الفاحش بين الأعمال المجتمعة فيه الصادرة من أهلها فينقطع بعضها من بعض ويبطل الالتزام بينها ويفسد بذلك النظم وينحل المجتمع في الحقيقة وإن كان على ساقه صورة وفي ذلك هلاك سعادة الأفراد .

فالنهي عن الفحشاء والمنكر والبغى أمر بحسب المعنى باتحاد مجتمع تتعارف أجزاؤه وتتلاءم أعماله لا يستعلي بعضهم على بعض بغياً ، ولا يشاهد بعضهم من بعض إلا الجميل الذي يعرفونه لا فحشاء ولا منكراً وعند ذلك تستقر عليهم الرحمة والمحبة والألفة وترتكز فيهم القوة والشدة ، وتهجرهم السخطة والعداوة والنفرة وكل خصلة سيئة تؤدي إلى التفرق والتهلكة .

ثم ختم سبحانه الآية بقوله : « يعظكم لعلكم تذكرون » أي تتذكرون فتعلمون أن الذي يدعوكم إليه فيه حياتكم وسعادتكم .

قوله تعالى : « وأوفوا بعهدهم الله إذا عاهدتم ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها » الخ ، قال في المفردات : العهد حفظ الشيء ومراعاته حالاً بعد حال ، وسمي الموثق الذي يلزم مراعاته عهداً . قال : وعهد فلان إلى فلان يعهد أي ألقى إليه العهد وأوصاه بحفظه ، انتهى .

وظاهر إضافة العهد إلى الله تعالى في قوله : « وأوفوا بعهدهم الله » أن المراد به هو العهد الذي يعاهد فيه الله على كذا دون مطلق العهد ويأتي نظير الكلام في نقض اليمين . وقوله : « ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها » نقض اليمين نكثه ومخالفة مقتضاه والمراد باليمين هو اليمين بالحلف بالله سبحانه كأن ما عدا ذلك ليس بيمين والدليل عليه قوله بعد : « وقد جعلتم الله عليكم كفيلاً » .

والمراد بتوكيدها إحكامها بالقصد والعزم وكونها لأمر راجح بخلاف قولهم : لا والله وبلى والله وغيره من لغو الأيمان ، فالتوكيد في هذه الآية يفيد ما يفيد التأكيد في قوله تعالى : « لا يؤاخذكم الله باللغو في أيمانكم ولكن يؤاخذكم بما عقدتم الأيمان » المائدة : ٨٩ .

ونقض اليمين بحسب الاعتبار أشنع من نقض العهد وإن كان منهيّاً عنها جميعاً ، على أن العناية بالحلف في الشرع الاسلامي أكثر كما في باب القضاء .

وتوضيح شناعة نقضه : أن حقيقة معنى اليمين إيجاب ربط خاص بين النسبة الكلامية من خبر أو إنشاء وبين أمر ذي بال شريف بحيث يستوجب بطلان النسبة من جهة ظهور كذبه إن كان خبراً ومخالفة مقتضاه إن كان عزمياً أو أمراً أو نهياً كقولنا : والله لأفعلن كذا وبالله عليك افعل أو لا تفعل كذا أن يذهب بذلك ما يعتقده المقسم من الكرامة والعزة للمقسم به فيؤول الأمر إلى أن المقسم به بما له من الكرامة والعزة هو المسئول عن صحة النسبة الكلامية والمقسم هو المسئول عند المقسم به بما علق صحة النسبة على كرامته وعزته كمن يعقد عهداً أو يتعهد عملاً ثم يعطي لمن عاقده أو تعهد له موثقاً يثق به من مال أو ولد أو غير ذلك أو يضمن له ذلك شريف بشرافته .

وبهذا يظهر معنى قوله تعالى : « وقد جعلتم الله عليكم كفيلاً » فإن الحالف إذا قال : والله لأفعلن كذا أو لأتركن كذا فقد علق ما حلف عليه نوعاً من التعليق

على الله سبحانه وجعله كفيلاً عنه في الوفاء بما عقد عليه اليمين، فإن نكث ولم يف كان لكفيله أن يؤديه إلى الجزاء والعقوبة ، ففي نكث اليمين إهانة وإرزاء بساحة العزة والكرامة مضافاً إلى ما في نقض اليمين والعهد معاً من الانقطاع والانفصال عنه سبحانه بعد تأكيد الاتصال .

فقوله : « وقد جعلتم الله » الخ ، حال من ضمير الجمع في قوله : « ولا تنقضوا » وقوله : « إنا الله يعلم ما تفعلون » في معنى تأكيد النهي بأن العمل مبغوض وهو به علم . قوله تعالى : « ولا تكونوا كالتى نقضت غزلها من بعد قوة أنكاثاً » إلى آخر الآية ، النقض ويقابله الإبرام إفساد ما أحكم من حبل أو غزل بالقتل فنقض الشيء المبرم كحل الشيء المعقود ، والنكث النقض ، قال في الجمع : وكل شيء نقض بعد القتل فهو أنكاث حبل كان أو غزلاً ، والدخل بفتحين في الأصل كل ما دخل الشيء وليس منه ، ويكنى به عن الدغل والخدعة والخيانة ، كما قيل : وأربى أفعل من الربا وهو الزيادة .

وقوله : « ولا تكونوا كالتى نقضت غزلها من بعد قوة أنكاثاً » في معنى التفسير لقوله في الآية السابقة : « ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها » وهو تمثيل بمرأة تغزل الغزل بقوة ثم تعود فتنقض ما أتعبت نفسها فيه وغزلته من بعد قوة وتجعله أنكاثاً لا قتل فيه ولا إبرام .

ونقل عن الكلبي أنها امرأة حمقاء من قريش كانت تغزل مع جواربها إلى انتصاف النهار ثم تأمرهن أن ينقضن ما غزلن ولا يزال ذلك دأبها ، واسمها ربيعة بنت عمرو بن كعب بن سعد بن تميم بن مرة ، وكانت تسمى خرقاء مكة .

وقوله : « تتخذون أيمانكم دخلاً بينكم أن تكون أمة هي أربى من أمة » أي تتخذون أيمانكم وسيلة للغدر والخدعة والخيانة تطيبون بها نفوس الناس ثم تخونون وتخذعونهم بنقضها ، وإنما يفعلون ذلك لتكون أمة - وهم الحالفون - أربى وأزيد سهماً من زخارف الدنيا من أمة - وهم المحلوف لهم - .

فالمراد بالدخل وسيلته من تسمية السبب باسم المسبب و « أن تكون أمة » مفعول له بتقدير اللام ، والكلام نوع بيان لنقض اليمين أو لكونهم كالتى نقضت غزلها

من بعد قوة أنكاثا، ومحصل المعنى أنكم كمثلها إذ تتخذون أيمانكم دخلاً بينكم فتؤكّدونها وتعقدونها ثم تخونون وتخدعون بنقضها ونكثها والله ينهاكم عنه .

وذكر بعضهم أن قوله : « تتخذون أيمانكم » الخ ، جملة استفهامية محذوفة الأداة والاستفهام للإنكار .

وقوله : « إنما يبلوكم الله به » الخ ، أي إن ذلك امتحان إلهي يمتحنكم به وأقسم ليبين لكم يوم القيامة ما كنتم فيه تختلفون فتعلمون عند ذلك ما حقيقة ما أنتم عليه اليوم من التكالب على الدنيا وسلوك سبيل الباطل لإمالة الحق ودحضه ويتبين لكم يومئذ من هو الضال ومن هو المهتدي .

قوله تعالى : « ولو شاء الله لجمعكم أمة واحدة ولكن يضل من يشاء ويهدي من يشاء » الخ ، لما انجرّ الكلام إلى ذكر اختلافهم عقّب ذلك ببيان أن اختلافهم ليس بناقض للغرض الإلهي في خلقهم ولا أنهم معجزون له سبحانه ولو شاء لجمعهم أمة واحدة لا اختلاف بينهم ولكن الله سبحانه جعلهم مختلفين بالهداية والإضلال فهدي قوماً وأضل آخرين .

وذلك أنه تعالى وضع سعادة الإنسان وسقاه على أساس الاختيار وعرفهم الطاعة المفضية إلى غاية السعادة والمعصية المؤدية إلى غاية الشقاء فمن سلك مسلك المعصية واجتاز للضلال جازاه الله ذلك ، ومن ركب سبيل الطاعة واختار الهدى جازاه الله ذلك وسيألفهم جميعاً عما عملوا واختاروا .

وبما تقدم يظهر أن المراد يجعلهم أمة واحدة رفع الاختلاف من بينهم وحملهم على الهدى والسعادة ، وبالإضلال والهداية ما هو على سبيل المجازاة لا الضلال والهدى الابتدائيان فإن الجميع على هدى فطري فالذي يشاء الله ضلاله فيضله هو من اختار المعصية على الطاعة من غير رجوع ولا ندم ، والذي شاء الله هداه فهده هو من بقي على هداه الفطري وجرى على الطاعة أو تاب ورجع عن المعصية صراطاً مستقيماً وسنة إلهية ولن تجد لسنة الله تبديلاً ولن تجد لسنة الله تحويلاً .

وأن قوله : « ولتسألن » عما كنتم تعملون ، لدفع ما يسبق إلى الوم أن استناد الضلال والهدى إليه سبحانه يبطل تأثير اختيارهم في ذلك وتبطل بذلك الرسالة وتلغو

الدعوة فاجيب بأن السؤال باقٍ على حاله لما أن اختياركم لا يبطل بذلك بل الله سبحانه يمدّ لكم من الضلال والهدى ما أنتم تختارونه بالركون إلى معصيته أو بالإقبال إلى طاعته.

قوله تعالى : « ولا تتخذوا أيمانكم دخلاً بينكم فتزلّ قدم بعد ثبوتها » إلى آخر الآية ، قال في المفردات : الصدود والصدّ قد يكون انصرافاً عن الشيء وامتناعاً نحو « يصدّون عنك صدوداً » وقد يكون صرفاً ومنعاً نحو « وزيتن لهم الشيطان أعمالهم فصدمهم عن السبيل » . انتهى .

والآية نهى عن اتخاذ الأيمان دخلاً بعد النهي عن أصل نقض الأيمان لأن لخصوص اتخاذها دخلاً مفسدة مستقلة هي ملاك النهي غير المفسدة التي لأصل نقض الأيمان وقد أشار إلى مفسدة أصل النقض بقوله : « وقد جعلتم الله عليكم كفيلاً » الخ ، ويشير في هذه الآية إلى مفسدة اتخاذها دخلاً بقوله : « فتزلّ قدم بعد ثبوتها وتذوقوا السوء بما صددتم عن سبيل الله ولكم عذاب عظيم » .

والملاك - كما هو ظاهر - متغايران نعم أحدهما كالمقدمة للآخر كما أن نقض الأيمان كالمقدمة لاتخاذها دخلاً فإن الإنسان إذا نقض اليمين لسبب من الأسباب لأول مرة هان عليه أمر النقض ومهد ذلك السبيل إلى النقض ثانياً وثالثاً وجعل الحلف ثم النقض وسيلة خدعة وخيانة فلا يلبث دون أن تكون حليف دغل وخدعة وخيانة وغرور ومكر وكيد وكذب وزور لا يبالي ما قال وما فعل ويعود جرثومة فساد يفسد المجتمع الانساني أينما توجه ، ويقع في سبيل غير سبيل الله الذي خطته الفطرة السليمة .

وكيف كان فظاهر قوله : « ولا تتخذوا أيمانكم دخلاً بينكم » نهى استقلالي عن الخدعة باليمين بعد النهي الضمني عنه في الآية السابقة ، وقوله : « فتزلّ قدم بعد ثبوتها » تفريع على المنهي عنه دون النهي أي يتفرع على اتخاذها دخلاً أن تزلّ قدم بعد ثبوتها الخ ، وزلة القدم بعد ثبوتها مثل لنقض اليمين بعد العقد والتوكيد والزوال عن الموقف الذي ارتكز فيه فإن ثبات الإنسان واستقامته على ما عزم عليه واهتم به من كرائم الانسانية وأصول فضائلها وعليه بناء الدين الإلهي ، وحفظ اليمين على توكيده

قدم من الأقدام التي يتم بها هذا الأصل الواسع ، وكأنه لذلك جيء بالقدم فكرة في قوله : « فتزل قدم » الخ .

وقوله : « وتذوقوا السوء بما صددتم عن سبيل الله ولكم عذاب عظيم » معطوف على قوله : « تزل قدم » الخ ، وبيان نتيجه كما أنه بيان نتيجة وعاقبة لقوله : « تتخذوا أيمانكم دخلاً » وبذلك يظهر أن قوله : « بما صددتم عن سبيل الله » بمنزلة التفسير لقوله : « فتزل قدم بعد ثبوتها » .

والمراد بالصدود عن سبيل الله الإعراض والإمتناع عن السنة الفطرية التي فطر الله الناس عليها ودعت الدعوة النبوية إليها من التزام الصدق والاستقامة ورعاية العهود والمواثيق والأيمان والتجنب عن الدغل والخدعة والخيانة والكذب والزور والغرور .

والمراد بذوق السوء العذاب ، وقوله : « ولكم عذاب عظيم » حال عن فاعل « تذوقوا » ويمكن أن يكون المراد بذوق السوء ما ينالهم من آثار الضلال السيئة في الدنيا ، وقوله : « ولكم عذاب عظيم » إخباراً عما يحل بهم في الآخرة ، هذا ما يستفاد من ظاهر الآية الكريمة .

فالمعنى : ولا تتخذوا أيمانكم وسيلة دخل بينكم حق يؤدبكم ذلك إلى الزوال عما ثبت عليه ونقض ما أبرمتموه ، وفيه إعراض عن سبيل الله الذي هو التزام الفطرة والتحرز عن الغدر والخدعة والخيانة والدغل وبالجملة الإفساد في الأرض بعد إصلاحها ، ويؤدبكم ذلك إلى أن تذوقوا السوء والشقاء في حياتكم الدنيا ولكم عذاب عظيم في الآخرة .

وذكر بعضهم : أن الآية مختصة بالنهي عن نقضبيعة النبي ﷺ على ما استقرت عليه السنة في صدر الإسلام ، وأن الآية نزلت في الذين بايعوا النبي ﷺ على نصرته الإسلام وأهله فنهاهم الله عن نقض تلك البيعة ، وعلى هذا فالمراد بالصد عن سبيل الله صرف الناس ومنهم عن اتباع دين الله كما أن المراد بزلة قدم بعد ثبوتها الردة بعد الإسلام والضلال بعد الرشاد .

وفيه أن السياق لا يساعد على ذلك ، وعلى تقدير التسليم خصوص المورد لا ينافي عموم الآية .

قوله تعالى: « ولا تشتروا بعهد الله ثمناً قليلاً إن ما عند الله هو خير لكم إن كنتم تعلمون » قال في المفردات : كل ما يحصل عوضاً عن شيء فهو ثمناً ، انتهى .

والظاهر أن الآية نهي عن نقض العهد بعد ما تقدم الأمر بالوفاء به اعتناء بشأنه كما جرى مثل ذلك في نقض الأيمان ، والآية مطلقة ، والمراد بعهد الله العهد الذي عاهد به الله مطلقاً ، والمراد بالاشتراء به ثمناً قليلاً بقرينة ذيل الآية أن يبدل العهد من شيء من حطام الدنيا فينقض لنيله فسمى المبدل منه ثمناً لأنه عوض كما تقدم ، والباقي ظاهر .

قوله تعالى : « ما عندكم ينفد وما عند الله باق » في مقام التعليل لقوله في الآية السابقة : « ما عند الله هو خير لكم » وقد وجهه بأن الذي عندكم أي في الحياة الدنيا التي هي حياة مادية قائمة على أساس التبدل والتحول منعومة بنعت الحركة والتغير زائل نافذ ، وما عند الله سبحانه مما يعد المتقين منكم باق لا يزول ولا يفنى والباقي خير من النافذ بصريح حكم العقل .

واعلم أن قوله : « ما عندكم ينفد وما عند الله باق » على ما في لفظه من الإطلاق قاعدة كلية غير منقوضة باستثناء ، تحتها جزئيات كثيرة من المعارف الحقيقية .

قوله تعالى : « ولنجزين الذين صبروا أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون » لما كان الوفاء بالعهد مستلزماً للصبر على 'مر' مخالفة هوى النفس في نقضه والاسترسال فيما تشتهيه ، صرف الكلام عن ذكر أجر خصوص الموفين بالعهد إلى ذكر أجر مطلق الصابرين في جنب الله .

فقوله : « ولنجزين الذين صبروا أجرهم » وعد مؤكد على مطلق الصبر سواء كان صبراً على الطاعة أو عن المعصية أو عند المصيبة غير أنه يجب أن يكون صبراً في جنب الله ولوجه الله فإن السياق لا يساعد على غيره .

وقوله : « بأحسن ما كانوا يعملون » الباء للمقابلة كما في قولنا : بعث هذا بهذا ، وليس المراد بأحسن ما كانوا يعملون الأحسن من أعمالهم في مقابل الحسن منها بأن يميز الله سبحانه بين أعمالهم الحسنة فيقسمها إلى حسن وأحسن ثم يحزيهم بأحسنها ويلقي الحسن كما ذكره بعضهم فإن المقام لا يؤيده ، وآيات الجزاء تنفيه والرحمة الواسعة الإلهية تأباه .

وليس المراد به الواجبات والمستحبات من أعمالهم قبيل المباحات التي أتوا بها فإنها لا تخلو من حسن كما ذكره آخرون .

فإن الكلام ظاهر في أن المراد بيان الأجر على الأعمال المأتي بها في ظرف الصبر مما يرتبط به ارتباطاً ، وواضح أن المباحات التي يأتي بها الصابر في الله لا ارتباط لها بصبره فلا وجه لاعتبارها بين الأعمال ثم اختيار الأحسن من بينها .

على أنه لا مطمع لعبد في أن يثيبه الله على ما أتى به من المباحات حتى يبين له أن الثواب في مقابل ما أتى به من الواجبات والمستحبات التي هي أحسن مما أتى به من المباحات فيكون ذكر الحسن مستدر كآزئداً .

ومن هنا يظهر أن ليس المراد به النوافل بناء على عدم الإلزام فيها فتكون أحسن ما عمل فإن كون الواجب مشتملاً من المصلحة الموجبة للحسن على أزيد من النقل معلوم من الخطابات التشريعية بحيث لا يرتاب فيه .

بل المراد بذلك أن العمل الذي يأتي به وله في نوعه ما هو حسن وما هو أحسن فالله سبحانه يحزيه من الأجر على ما أتى به ما هو أجر الفرد الأحسن من نوعه فالصلاة التي يصلّيها الصابر في الله يحزيه الله سبحانه لها أجر الفرد الأحسن من الصلاة وإن كانت ما صلاتها غير أحسن وبالحقيقة يستدعي الصبر أن لا يناقش في العمل ولا يحاسب ما هو عليه من الخصوصيات المقتضية لحسنه وردائه كما يفيد قوله تعالى : « إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب » .

ويستفاد من الآية أن الصبر في الله يوجب كمال العمل وفي قوله : « ولنجزينهم » الخ ، التفات من الغيبة إلى التكلم مع الغير كما قيل ، والذي أظنه أنه رجوع إلى السياق السابق في الآيات وكان سياق التكلم مع الغير ، وإنما الالتفات في قوله تعالى قبل بضع آيات : « إن الله يأمر بالعدل والإحسان » والوجه فيه أن هذه الآية وما بعدها من الآيات المسرودة إلى هذه الغاية مشتملة على عدة من الأوامر والنواهي الإلهية ، والأنسب بالأمر والنهي أن يستند إلى أعظم مقامات مصدرها وأقواها ليتأيّد بذلك ، وهذه صناعة معمولة في المحاورات فيقال : إن الملك يأمر بكذا وإن مولاك يقول لك كذا ، ولا يقال : فلان ابن فلان يأمر أو يقول .

فكان من الأنسب أن يسند هذه التكاليف إلى مقام الجلالة ، ويقال بالالتفات من التكلم مع الغير إلى الغيبة : « إن الله يأمر بالعدل والإحسان » الخ . ولذلك استمر السياق على هذا النسق في التكاليف التالية أيضاً ف قيل : « وأوفوا بعهده الله » الخ ، « إنما يبلوكم الله » الخ ، « ولو شاء الله » الخ ، « ولا تشتروا بعهده الله » الخ ، « وما عند الله باق » .

ثم رجع إلى السياق السابق وهو التكلم مع الغير فقال : « ولنجزين الذين صبروا » وجرى على ذلك حتى إذا بلغ قوله : « فإذا قرأت القرآن » وهو حكم التفتت ثانياً فقال : « فاستعذ بالله » وأحسن ما يحلتي المعنى الذي ذكرناه قوله تعالى بعده : « وإذا بدلنا آية مكان آية والله أعلم بما ينزل » حيث جمع بين الأمرين فأسند تبديل آية مكان آية إلى ضمير التكلم والأعلمية إلى الله عز اسمه .

قوله تعالى : « مَنْ عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة » إلى آخر الآية . وعد جميل للمؤمنين إن عملوا عملاً صالحاً وبشرى للإناث أن الله لا يفرق بينهن وبين الذكور في قبول إيمانهن ولا أثر عملهن الصالح الذي هو الإحياء بحياة طيبة والأجر بأحسن العمل على الرغم مما بنى عليه أكثر الوثنية وأهل الكتاب من اليهود والنصارى من حرمان المرأة من كل مزية دينية أو جلستها وحط مرتبتها من مرتبة الرجل ووضعها وضعاً لا يقبل الرفع البتة .

فقوله : « مَنْ عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن » حكم كلي من قبيل ضرب القاعدة لمن عمل صالحاً أي من كان وقد قيده بكونه مؤمناً وهو في معنى الاشتراط فإن العمل بمن ليس مؤمناً حابط لا يترتب عليه أثر ، كما قال تعالى : « ومن يكفر بالإيمان فقد حبط عمله » المائدة : ٥ ، وقال : « وحبط ما صنعوا فيها وباطل ما كانوا يعملون » هود : ١٦ .

وقوله : « فلنحيينه حياة طيبة » الإحياء إلقاء الحياة في الشيء وإفاضتها عليه فالجملة بلفظها دالة على أن الله سبحانه يكرم المؤمن الذي يعمل صالحاً بحياة جديدة غير ما يشاركه سائر الناس من الحياة العامة ، وليس المراد به تغيير صفة الحياة فيه وتبديل الحبيثة من الطيبة مع بقاء أصل الحياة على ما كانت عليه ، ولو كان كذلك

لقليل : فلنطيق حياتة .

فالآية نظيرة قوله : « أو من كان ميتاً فأحييناه وجعلنا له نوراً يمضي به في الناس » الأنعام : ١٢٢ ، وتقيد ما يفيد من تكوين حياة ابتدائية جديدة .

وليس من التسمية المجازية لأن الآيات المتعرضة لهذا الشأن ترتب عليه آثار الحياة الحقيقية كقوله تعالى : « أولئك كتب في قلوبهم الإيمان وأيدهم بروح منه » المجادلة : ٢٢ ، وكقوله في آية الأنعام المنقولة آنفاً : « وجعلنا له نوراً يمضي به في الناس » فإن المراد بهذا النور العلم الذي يهتدي به الإنسان إلى الحق في الاعتقاد والعمل قطعاً .

وكما أن له من العلم والإدراك ما ليس لغيره كذلك له من موهبة القدرة على إحياء الحق وإمالة الباطل ما ليس لغيره ، وقد قال سبحانه : « وكان حقاً علينا نصر المؤمنين » الروم : ٤٧ ، وقال : « من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحاً فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون » المائدة : ٦٩ .

وهذا العلم والقدرة الحديشان يمدان له أن يرى الأشياء على ما هي عليها فيقسمها قسمين : حق باق وباطل فان ، فيعرض بقلبه عن الباطل الغاني الذي هو الحياة الدنيا بزخارفها الفائرة الفتانة ويعتز بعزة الله فلا يستذله الشيطان بوساوسه ولا النفس بأهوائها وهوساتها ولا الدنيا بزهرتها لما يشاهد من بطلان أمتعتها وفناء نعمتها .

ويتعلق قلبه بربه الحق الذي هو يحق كل حق بكلماته فلا يريد إلا وجهه ولا يحب إلا قربه ولا يخاف إلا سخطه وبعده ، يرى لنفسه حياة طاهرة دائمة مخلدة لا يدبر أمرها إلا ربه الغفور الودود ، ولا يواجهها في طول مسيرها إلا الحسن الجميل فقد أحسن كل شيء خلقه ، ولا قبيح إلا ما قبّحه الله من معصيته .

فهذا الإنسان يجد في نفسه من البهاء والكمال والقوة والعزة واللذة والسرور ما لا يقدر بقدر ، وكيف لا ؟ وهو مستغرق في حياة دائمة لا زوال لها ونعمة باقية لا نفاد لها ولا ألم فيها ولا كدورة تكدرها ، وخير وسعادة لا شقاء معها ، هذا ما يؤيده الاعتبار وينطق به آيات كثيرة من القرآن لا حاجة إلى إيرادها على كثرتها .

فهذه آثار حيوية لا تترتب إلا على حياة حقيقية غير مجازية ، وقد رتبها الله

سبحانه على هذه الحياة التي يذكرها ويخصها بالذين آمنوا وعملوا الصالحات فهي حياة حقيقية جديدة يفيضها الله سبحانه عليهم .

وليست هذه الحياة الجديدة المختصة بمنفصلة عن الحياة القديمة المشتركة وإن كانت غيرها فإنما الاختلاف بالمراتب لا بالعدد فلا يتعدد بها الانسان ، كما أن الروح القدسية التي يذكرها الله سبحانه للأنبياء لا توجب لهم إلا ارتفاع الدرجة دون تعدد الشخصية . هذا ما يعطيه التدبر في الآية الكريمة وهو حقيقة قرآنية وبه يظهر وجه توصيفها بالطيب في قوله : « حياة طيبة » كأنها - كما اتضح - حياة خالصة لا خبث فيها يفسدها في نفسها أو في أثرها .

وللمفسرين في الآية وجوه من التفسير :

منها : أن الحياة الطيبة هي الحياة التي تكون في الجنة فلا موت فيها ولا فقر ولا سقم ولا أي شقاء آخر .

ومنها : أنها الحياة التي تكون في البرزخ ولعل التخصيص من حمل ذيل الآية على جنة الآخرة .

ومنها : أنها الحياة الدنيوية المقارنة للقناعة والرضا بما قسم الله سبحانه فإنها أطيب الحياة .

ومنها : أنها الرزق الحلال إذ لا عقاب عليه .

ومنها : أنها رزق يوم بيوم .

ووجوه المناقشة فيها لا تكاد تخفى على الباحث المتدبر فلا نطيل بإيرادها .

وقوله : « ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون » تقدم الكلام فيه في الآية السابقة ، وفي معنى الآية قوله تعالى : « وَمَنْ عَمِلْ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ » المؤمن : ٤٠ .

قوله تعالى : « فإذا قرأت القرآن فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم » الاستعاذة طلب المعاذ ، والمعنى : إذا قرأت القرآن فاطلب منه تعالى ما دمت تقرأه أن يعينك من الشيطان الرجيم أن يغويك ، فالاستعاذة المأمور بها حال نفس القارىء ما دام يقرأ وقد أمر أن يوجد لها لنفسه ما دام يقرأ ، وأما قول القارىء : أعوذ بالله من الشيطان

الرجيم أو ما يشابهه من اللفظ فهو سبب لإيجاد معنى الاستعاذة في النفس وليس بنفسها إلا بنوع من المجاز ، وقد قال سبحانه : استعذ بالله ، ولم يقل : قل أعوذ بالله .

وبذلك يظهر أن قول بعضهم : إن المراد بالقراءة إرادتها فهي مجاز مرسل من قبيل إطلاق المسبب وإرادة السبب لا يخلو عن تساهل .

قوله تعالى : « إنه ليس له سلطان على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون » في مقام التعليل للأمر الوارد في الآية السابقة أي استعذ بالله حين القراءة ليعمذك منه لأنه ليس له سلطان على من آمن بالله وتوكل عليه .

ويظهر من الآية أولاً : أن الاستعاذة بالله توكل عليه فإنه سبحانه بدّل الاستعاذة في التعليل من التوكل ونفى سلطانه عن المتوكلين .

وثانياً : أن الإيمان والتوكل ملاك صدق العبودية كقوله تعالى لإبليس : « إن عبادي ليس لك عليهم سلطان إلا من اتبعك من الغاوين » الحجر : ٤٢ ، فنفى سلطانه عن عباده وقد بدّل العباد في هذه الآية من الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون ، والاعتبار يساعد عليه فإن التوكل وهو إلقاء زمام التصرف في أمور نفسه إلى غيره والتسليم لما يؤثره له منها أخص آثار العبودية .

قوله تعالى : « إنما سلطانه على الذين يتولونه والذين هم به مشركون » ضمائر الأفراد الثلاثة للشيطان أي ينحصر سلطان الشيطان في الذين يتخذونه ولياً لهم يدبر أمورهم كما يريد ، وهم يطيعونه ، وفي الذين يشركون به إذ يتخذونه ولياً من دون الله ورباً مطاعاً غيره فإن الطاعة عبادة كما يشير إليه قوله : « ألم أعهد اليكم يا بني آدم أن لا تعبدوا الشيطان إنه لكم عدو مبين وأن اعبدوني » يس : ٦١ .

وبذلك يظهر أولاً : أن ذيل الآية يفسر صدرها ، وأن تولّي من لم يأذن الله في تولّيه شرك بالله وعبادة لغيره .

وثانياً : أن لا واسطة بين التوكل على الله ، وتولّي الشيطان وعبادته ، فمن لم يتوكل على الله فهو من أولياء الشيطان .

وربما قيل : إن ضمير الأفراد في قوله : « والذين هم به مشركون » راجع إليه

تعالى ، وتفسير الآية حينئذ أن سلطانه على طائفتين : المشركين والذين يتولونه من الموحدین هذا ، ولزوم اختلاف الضمائر يدفعه .

قوله تعالى : « وإذا بدلنا آية مكان آية والله أعلم بما ينزل قالوا إنما أنت مفتر بل أكثرهم لا يعلمون » إشارة إلى النسخ وحكمته ، وجواب عما اتهموه عليه السلام به من الافتراء على الله ، والظاهر من سياق الآيات أن القائلين هم المشركون وإن كانت اليهود هم المتصلبين في نفي النسخ ومن المحتمل أن تكون الكلمة مما تلقفها المشركون من اليهود فكثيراً ما كانوا يراجعونهم في أمر النبي عليه السلام .

وقوله : « وإذا بدلنا آية مكان آية » قال في المفردات : الإبدال والتبديل والتبديل والاستبدال جعل شيء مكان آخر ، وهو أعم من العوض فإن العوض هو أن يصير لك الثاني بإعطاء الأول ، والتبديل قد يقال للتغيير مطلقاً وإن لم يأت ببدله قال تعالى : « فبدل الذين ظلموا قولاً غير الذي قيل لهم » - إلى أن قال - وقال تعالى : « فمن بدله بعد ما سمعه » « وإذا بدلنا آية مكان آية » و « بدلناهم بجننتهم جنتين » « ثم بدلنا مكان السيئة الحسنة » انتهى موضع الحاجة .

فالتبديل بمعنى التغيير يخالف التبديل بمعنى المعروف في أن مفعوله الأول هو المأخوذ والمطلوب بخلافه بالمعنى المعروف فمعنى قوله : « وإذا بدلنا آية مكان آية » معناه وضعنا الآية الثانية مكان الأولى بالتغيير فكانت الثانية المبدلة هي الباقية المطلوبة . وقوله : « والله أعلم بما ينزل » كناية عن أن الحق لم يتعد مورده وأن الذي أنزله هو الحقيقي بأن ينزل فإن الله أعلم به منهم ، والجملة حالية .

وقوله : « قالوا إنما أنت مفتر » القول للمشركين يخاطبون النبي عليه السلام ويتهمون به بأنه يفترى على الله الكذب فإن تبديل قول مكان قول ، والثبات على رأي ثم العدول عنه مما يتنزه عنه ساحة رب العزة .

وقد بالغوا في قولهم إذ لم يقولوا : افتريت في هذا التبديل والنسخ بل قالوا : « إنما أنت مفتر » فقصروه عليه السلام في الافتراء ، وأثوا بالجملة الاسمية وسموه مفترين ، وقد بنوا ذلك على أن ما جاء به النبي عليه السلام من سنخ واحد وهو يسند الجميع إلى ربه ويقول : إنما أنا نذير فإذا كان مفترين في واحد كان مفترين في الجميع فليس إلا مفترين .

وقوله : « بل أكثرهم لا يعلمون » أي أكثر هؤلاء المشركين الذين يتهمونك بقولهم : « إنما أنت مفتر » لا يعلمون حقيقة هذا التبديل والحكمة المؤدية إليه على ما سينكشف في الجواب أن الأحكام الإلهية تابعة لمصالح العباد ومن المصالح ما يتغير بتغير الأوضاع والأحوال والأزمنة فمن الواجب أن يتغير الحكم بتغير مصلحته فينسخ الحكم الذي ارتفعت مصلحته الموجبة له بحكم آخر حدثت مصلحته .

فأكثر هؤلاء غافلون عن هذا الأمر وأما الأقل منهم فهم واقفون على حقيقة الأمر ولو إجمالاً غير أنهم مستكبرون على الحق معاندون له وإنما يلقون القول إلقاء من غير رعاية جانب الحق .

قوله تعالى : « قل نزل روح القدس من ربك بالحق ليثبت الذين آمنوا وهدى وبشرى للمسلمين » قد تقدمت في أول السورة إشارة إلى معنى الروح ، والقدس الطهارة والنزاهة والظاهر أن الإضافة للاختصاص أي روح طاهرة عن قذارات المادة نزيهة عن الخطأ والغلط والضلال ، وهو المسمى في موضع آخر من كلامه تعالى بالروح الأمين ، وفي موضع آخر يجبريل من الملائكة قال تعالى : « نزل به الروح الأمين على قلبك » الشعراء : ١٩٤ ، وقال : « من كان عدواً لجبريل فإنه نزل على قلبك » ، البقرة : ٩٧ .

فقوله : « قل نزل روح القدس من ربك » أمر بالجواب والأسبق إلى الذهن أن يكون الضمير راجعاً إلى القرآن من جهة كونه ناسخاً أي الآية الناسخة ، ويمكن أن يكون راجعاً إلى مطلق القرآن ، وفي التعبير بالتنزيل دون الإنزال إشارة إلى التدرج .

وكان من طبع الكلام أن يقال : من ربي لكن عدل عنه إلى قوله : « من ربك » للدلالة على كمال العناية والرحمة في حقه ﷺ كأنه لا يرضى بانقطاع خطابه فيغتنم الفرصة لتكليمه أينما أمكن ، وليدل على أن المراد بالقول المأمور به إخبارهم بذلك لا مجرد التلفظ بهذه الألفاظ فافهم .

وقوله : « ليثبت الذين آمنوا » التثبيت تحكيم الثبات وتأكيده بإلقاء الثبات بعد الثبات عليهم كأنهم بأصل إيمانهم بالله ورسوله واليوم الآخر ثبتوا على الحق وبتجدد الحكم حسب تجدد المصلحة يؤتون ثباتاً على ثبات من غير أن يضعف ثباتهم الأول بالماضي

على أعمال لا تطابق مصلحة الوقت فإن من الواضح أن من أمر بسلوك سبيل لمصلحة غاية فأخذ بسلوكه عن إيمان بالآمر الهادي فقطع قطعة منه على حسب ما يأمره به رعاية لمصلحة الغاية بسرعة أو ببطء أو في ليل أو نهار ثم تغير نحو المصلحة فلو لم يغير الأمر الهسادي نحو السلوك واستمر على أمره السابق لضعف إيمان السالك وانسلب أركانه لكن لو أمر بنحو جديد من السلوك يوافق المصلحة ويضمن السعادة زاد إيمانه ثباتاً على ثبات .

ففي تنزيل القرآن بالنسخ وتجديد الحكم حسب تجدد المصلحة تثبت للذين آمنوا وإعطاء لهم ثباتاً على ثبات .

وقوله : « وهدى وبشرى للمسلمين » وهم الذين يسلّمون الحكم لله من غير اعتراض فالآية الناسخة بالنسبة اليهم إرادة طريق وبشارة بالسعادة والجنة .

وتفريق الآثار بتخصيص التثبيت بالمؤمنين والهدى والبشرى بالمسلمين إنما هو لما بين الإيمان والإسلام من الفرق فالإيمان للقلب ونصيبه التثبيت في العلم والإذعان ، والإسلام في ظاهر العمل ومرحلة الجوارح ونصيبها الاهتداء إلى واجب العمل ، والبشرى بأن الغاية هي الجنة والسعادة .

وقد مرّ بعض الكلام في النسخ في تفسير قوله تعالى : « ما ننسخ من آية أو ننسها نأت بخير منها أو مثلها » البقرة : ١٠٦ في الجزء الأول من الكتاب .

قوله تعالى : « ولقد نعلم أنهم يقولون إنما يعلمه بشر » افتراء آخر منهم على النبي ﷺ وهو قولهم : « إنما يعلمه بشر » وهو كما يلوح إليه سياق اعتراضهم وما ورد في الجواب عنه أنه كان هناك رجل أعجمي غير فصيح في منطقته عنده شيء من معارف الأديان وأحاديث النبوة ربما لاقاه النبي ﷺ فاتهموه بأنه يأخذ ما يدعيه وحياً منه والرجل هو الذي يعلمه وهو الذي حكاه الله تعالى من قولهم : « إنما يعلمه بشر » وفي القول إيجاز ، وتقديره : إنما يعلمه بشر وينسب ما تعلمه منه إلى الله افتراء عليه ، وهو ظاهر .

ومن المعلوم أن الجواب عنه بمجرد أن لسان الرجل أعجمي والقرآن عربي مبين لا يحسم مادة الشبهة من أصلها لجواز أن يلقي إليه المطالب بلسانه الأعجمي ثم يسبكه

هو ﷺ ببلاغة منطق في قالب العربية الفصيحة بل هذا هو الأسبق إلى الذهن من قولهم : « إنما يعلمه بشر » حيث عبّروا عن ذلك بالتعليم دون التلقين والإملاء ، والتعليم أقرب إلى المعاني منه إلى الألفاظ .

وبذلك يظهر أن قوله : « لسان الذي يلحدون إليه - إلى قوله - مبين » ليس وحده جواباً عن شبهتهم بل ما يتلوه من الكلام إلى تمام آيتين من تمام الجواب .

وملخص الجواب مأخوذ من جميع الآيات الثلاث أن ما اهتمموا به أن بشراً يعلمه ثم هو ينسبه إلى الله افتراءً إن أردتم أنه يعلمه القرآن بلفظه بالتلقين عليه وأن القرآن كلامه لا كلام الله فجوابه أن هذا الرجل لسانه أعجمي وهذا القرآن عربي مبين .

وإن أردتم أن الرجل يعلمه معاني القرآن - واللفظ لا محالة للنبي ﷺ - وهو ينسبه إلى الله افتراءً عليه فالجواب عنه أن الذي يتضمنه القرآن معارف حقّة لا يرثاب ذو لبّ فيها وتضطرّ العقول إلى قبولها قد هدى الله النبي إليها فهو مؤمن بآيات الله إذ لو لم يكن مؤمناً لم يهده الله والله لا يهدي من لا يؤمن بآياته وإذ كان مؤمناً بآيات الله فهو لا يفترى على الله الكذب فإنه لا يفترى عليه إلا من لا يؤمن بآياته ، فليس هذا القرآن بمفترى ، ولا مأخوذاً من بشر ومنسوباً إلى الله سبحانه كذباً .

فقوله : « لسان الذي يلحدون إليه أعجمي وهذا لسان عربي مبين » جواب عن أول شقّي الشبهة وهو أن يكون القرآن بلفظه مأخوذاً من بشر على نحو التلقين ، والمعنى : أن لسان الرجل الذي يلحدون أي يميلون إليه وينوونه بقولهم : « إنما يعلمه بشر » أعجمي أي غير فصيح بيّن وهذا القرآن المتلو عليكم لسان عربي مبين وكيف يتصور صدور بيان عربي بليغ من رجل أعجمي اللسان ؟

وقوله : « إن الذين لا يؤمنون » إلى آخر الآيتين جواب عن ثاني شقّي الشبهة وهو أن يتعلم منه المعاني ثم ينسبها إلى الله افتراءً .

والمعنى : أن الذين لا يؤمنون بآيات الله ويكفرون بها لا يهديهم الله إليه وإلى معارفه الحقّة الظاهرة ولهم عذاب أليم ، والنبي ﷺ مؤمن بآيات الله لأنه مهدي بهداية الله ، وإنما يفترى الكذب وينسبه إلى الله الذين لا يؤمنون بآيات الله وأولئك هم الكاذبون المستمرون على الكذب ، وأما مثل النبي ﷺ المؤمن بآيات الله فإنه لا

يفتري الكذب ولا يكذب فالآيتان كنايةتان عن أن النبي ﷺ مهدي بهداية الله مؤمن بآياته ومثله لا يفتري ولا يكذب .

والمفسرون قطعوا الآيتين عن الآية الأولى وجعلوا الآية الأولى هي الجواب الكامل عن الشبهة وقد عرفت أنها لا تفي بتمام الجواب .

ثم حملوا قوله : « وهذا لسان عربي مبين » على التحدي بإعجاز القرآن في بلاغته ، وأنت تعلم أن لا خبر في لفظ الآية عن أن القرآن معجز في بلاغته ولا أثر عن التحدي ، ونهاية ما فيه أنه عربي مبين لا وجه لأن يفصح عنه ويلفظه أعجمي .

ثم حملوا الآيتين التاليتين على تهديد أولئك الكفرة بآيات الله الرامين لرسوله ﷺ بالإفتراء ، ووعيدهم بالعذاب الأليم ، وقلب الافتراء والكذب إليهم بأنهم أولى بالإفتراء والكذب بما أنهم لا يؤمنون بآيات الله فإن الله لم يهدهم .

ثم تكلموا بالبناء عليه في مفردات الآيتين بما يزيد في الإبتعاد عن حق المعنى . وقد عرفت أن ذلك يؤدي إلى عدم كفاية الجواب في حسم الإشكال من أصله .

(تم بحث زواتني ردي)

في الدر المنثور أخرج أحمد عن عثمان بن أبي العاصي قال : كنت عند رسول الله ﷺ جالساً إذ شخص بصره فقال : أتاني جبريل فأمرني أن أضع هذه الآية بهذا الموضع من السورة : « إن الله يأمر بالعدل والإحسان - إلى قوله - تذكرون » .

أقول : ورواه أيضاً عن ابن عباس عن عثمان بن مظعون رضي الله عنه .

وفي المجمع وجاءت الرواية أن عثمان بن مظعون قال : كنت أسلمت استحياء من رسول الله ﷺ لكثرة ما كان يعرض علي الإسلام ولم يقر الإسلام في قلبي فكنت ذات يوم عنده حال تأمله فشخص بصره نحو السماء كأنه يستفهم شيئاً فلما سري عنه سأله عن حاله فقال : نعم بينا أنا أحدثك إذ رأيت جبرائيل في الهواء فأتاني بهذه الآية : « إن الله يأمر بالعدل والإحسان » فقرأها علي إلى آخرها فقر الإسلام في قلبي . وأتيت عمه أبا طالب فأخبرته فقال : يا آل قريش اتبعوا محمداً ترشدوا فإنه لا

يأمركم إلا بكمالرم الأخلاق ، وأتيت الوليد بن المغيرة وقرأت عليه هذه الآية فقال :
 إن كان محمد قاله فنعم ما قال ، وإن قاله ربه فنعم ما قال . قال : فأنزل الله :
 « أفرأيت الذي تولى وأعطى قليلاً وأكدى ، الحديث .

وفيه عن عكرمة قال : إن النبي ﷺ قرأ هذه الآية على الوليد بن المغيرة
 فقال : يا بن أخي أعد فأعاد فقال : إن له لحلاوة وإن له لطلاوة وإن أعلاه لمثمر وإن
 أسفله لمعذب وما هو قول البشر .

وفي تفسير القمي بإسناده عن اسماعيل بن مسلم عن الصادق عليه السلام في الآية :
 ليس لله في عباده أمر إلا العدل والإحسان .

وفي تفسير البرهان عن ابن بابويه بإسناده عن عمرو بن عثمان قال : خرج علي
 عليه السلام على أصحابه وهم يتذاكرون المروءة فقال : أين أنتم من كتاب الله ؟ قالوا يا
 أمير المؤمنين في أي موضع ؟ فقال : في قوله عز وجل : « إن الله يأمر بالعدل
 والإحسان » فالعدل الإنصاف والإحسان التفضل .

أقول : ورواه العياشي عن عمرو بن عثمان العاصي عنه عليه السلام ، ورواه في الدر
 المنثور عن ابن النجار في تاريخه من طريق العكلي عن أبيه عنه عليه السلام ولفظه : مرّ علي
 ابن أبي طالب بقوم يتحدثون فقال : قيم أنتم ؟ فقالوا : نتذاكر المروءة ، فقال : أو ما
 كفاكم الله عز وجل ذلك في كتابه إذ يقول الله : « إن الله يأمر بالعدل والإحسان »
 فالعدل الانصاف والاحسان التفضل .

أقول : وقد ورد في عدة روايات تفسير العدل بالتوحيد أو بالشهادتين وتفسير
 الاحسان بالولاية ، وفي أخرى إرجاع تحريم نقض العهد بوجوب الثبات على الولاية .

وفي تفسير القمي في قوله تعالى : « من عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن
 فلنجينه حياة طيبة » الآية ، قال : قال عليه السلام : القنوع .

وفي المعاني بإسناده عن ابن أبي عمير عن بعض أصحابه عن أبي عبد الله عليه السلام
 قال : قيل له : إن أبا الخطاب يذكر عنك أنك قلت : إذا عرفت الحق فاعمل بما
 شئت ، فقال : لعن الله أبا الخطاب والله ما قلت هكذا ولكني قلت له : إذا عرفت
 الحق فاعمل ما شئت من خير يقبل منك إن الله عز وجل يقول : « من عمل صالحاً من

ذكر أو أنثى وهو مؤمن فاولئك يدخلون الجنة يرزقون فيها بغير حساب « ويقول : « من عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة » .

أقول : وهو ما قدمناه في معنى الآية .

وفي الكافي بإسناده عن أبي بصير عن أبي عبد الله عليه السلام قال : قلت له : « فإذا قرأت القرآن فاستعذ بالله - إلى قوله - يتوكلون » فقال : يا محمد يسلط الله من المؤمن على بدنه ولا يسلط على دينه قد سلط على أيوب فشوه خلقه ولم يسلط على دينه ، وقد يسلط من المؤمنين على أبدانهم ولا يسلط على دينهم .

قلت له : قوله عز وجل : « إنما سلطانه على الذين يتولونه والذين هم به مشركون » قال : الذين هم بالله مشركون يسلط على أبدانهم وعلى أديانهم .

أقول : ورواه العياشي عن أبي بصير عنه عليه السلام وإرجاع ضمير « به » إلى الله أحد المعنيين في الآية .

وفي الدر المنثور أخرج الحاكم وصححه والبيهقي في شعب الإيمان عن ابن عباس في قوله : « إنما يعلمه بشر » قال : قالوا : إنما يعلم محمداً عبداً بن الحضرمي وهو صاحب الكتب ، فقال الله : « لسان الذي يلحدون إليه أعجمي وهذا لسان عربي مبين » .

وفي تفسير العياشي عن محمد بن عزيمة الصيرفي عن أخبره عن أبي عبد الله عليه السلام قال : إن الله عز وجل خلق روح القدس فلم يخلق خلقاً أقرب إلى الله منها وليست بأكرم خلقه عليه ، فإذا أراد أمراً ألقاه إليها فإلقاه إلى النجوم فجرت به ، قوله تعالى (١) : « ولقد نعلم أنهم يقولون إنما يعلمه بشر لسان الذي يلحدون إليه » وهو لسان أبي فكيهة مولى بني الحضرمي كان « أعجمي » اللسان وكان قد اتبع نبي الله وآمن به ، وكان من أهل الكتاب فقالت قريش : هذا والله يعلم محمداً علّمه بلسانه ، يقول الله : « وهذا لسان عربي مبين » .

(١) هذا الذيل المذكور في تفسير البرهان نقلاً عن العياشي لكنه غير موجود في النسخة المطبوعة

أخيراً من التفسير .

أقول : والروايات في هذا الرجل مختلفة ففي هذه الرواية أنه أبو فكيهة مولى بني الحضرمي ، وفي الرواية السابقة أنه عبدة بن الحضرمي ، وعن قتادة أنه عبدة بن الحضرمي وكان يسمى مقيس ، وعن السدي أنه كان عبداً لبني الحضرمي نصرانياً ، كان قد قرأ التوراة والإنجيل يقال له أبو بشر ، وعن مجاهد أنه ابن الحضرمي كان أعجمياً يتكلم بالرومية ، وعن ابن عباس أيضاً في رواية أنه كان قيناً بمكة اسمه بلعام وكان عجمي اللسان فكان المشركون يرون رسول الله ﷺ يدخل عليه ويخرج منه عنده فقالوا : إنما يعلمه بلعام .

والمتيقن من مضامينها أنه كان رجلاً رومياً مولى لبني الحضرمي يسكن مكة نصرانياً له خبرة بكتب أهل الكتاب رموه بأنه يعلم النبي ﷺ .

وفي الدر المنثور أخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن الضحاك في الآية قال : كانوا يقولون : إنما يعلمه سلمان الفارسي ، فأنزل الله : « لسان الذي يلحدون إليه أعجمي » .

أقول : وهو لا يلائم كون الآية مكية .

وفيه أخرج ابن الحرائطي في مساوي الأخلاق وابن عساكر في تاريخه عن عبد الله ابن جراد أنه سأل النبي ﷺ : هل يزني المؤمن ؟ قال : قد يكون ذلك ، قال : هل يسرق المؤمن ؟ قال : قد يكون ذلك ، قال : هل يكذب المؤمن ؟ قال : لا ، ثم أتبعها نبي الله ﷺ : « إنما يفترى الكذب الذين لا يؤمنون » .

وفي تفسير العياشي عن العباس بن الهلال عن أبي الحسن الرضا عليه السلام أنه ذكر رجلاً كذاباً ثم قال : قال الله : « إنما يفترى الكذب الذين لا يؤمنون » .

* * *

مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيْمَانِهِ إِلَّا مَنْ أَكْرَهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ
بِالْإِيْمَانِ وَلَكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِنَ اللَّهِ
وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ — ١٠٦ . ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ اسْتَحَبُّوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى

الْآخِرَةِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ - ١٠٧ . أُولَئِكَ الَّذِينَ
 طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَسَمِعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ - ١٠٨ .
 لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْخَاسِرُونَ - ١٠٩ . ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ
 هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا فُتِنُوا ثُمَّ جَاهَدُوا وَصَبَرُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا
 لَغَفُورٌ رَحِيمٌ - ١١٠ . يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَنْ نَفْسِهَا وَتُوَفَّى
 كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ - ١١١ .

(بَيَان)

في الآيات وعيد على الكفر بعد الإيمان وهو الارتداد ووعد جميل للمهاجرين من
 بعد ما فتنوا المجاهدين الصابرين في الله ، وفيها تعرض لحكم التقية .

قوله تعالى : « من كفر بالله من بعد إيمانه إلا من أكره » الاطمئنان السكون
 والاستقرار ، والشرح البسط ، قال في المفردات : أصل الشرح بسط اللحم ونحوه ،
 يقال : شرحت اللحم وشرحته ، ومنه شرح الصدر أي بسطه بنور إلهي وسكينة
 من جهة الله وروح منه ، قال تعالى : « رب اشرح لي صدري » « ألم نشرح لك
 صدرك » « أفمن شرح الله صدره » وشرح المشكل من الكلام بسطه وإظهار ما يخفى
 من معانيه . انتهى .

وقوله : « من كفر بالله من بعد إيمانه » شرط جوابه قوله : « فعليهم غضب من
 الله » وعطف عليه قوله : « ولهم عذاب عظيم » وضمير الجمع في الجزاء عائد إلى إسم
 الشرط « من » لكونه بحسب المعنى كلياً ذا أفراد .

وقوله : « إلا من أكره » وقلبه مطمئن بالإيمان » استثناء من عموم الشرط والمراد

بالإكراه الإجبار على كلمة الكفر والتظاهر به فإن القلب لا يقبل الإكراه والمراد أستثني من أكره على الكفر بعد الإيمان فكفر في الظاهر وقلبه مطمئن بالإيمان .

وقوله : « ولكن من شرح بالكفر صدراً » أي بسط صدره للكفر فقبله قبول رضى ووعاه ، والجملة استدراك من الاستثناء فيعود إلى معنى المستثنى منه فإن المعنى ما أريد بقولي : « من كفر بالله من بعد إيمانه » من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان ولكن أريد به من شرح بالكفر صدراً ، وفي مجموع الاستثناء والاستدراك بيان كامل للشرط ، وهذه هي النكته لاعتراض الاستثناء بين الشرط والجزاء وعدم تأخيرها إلى أن تتم الشرطية .

وقيل : قوله : « من كفر » بدل من « الذين لا يؤمنون بآيات الله » في الآية السابقة ، وقوله : « واولئك هم الكاذبون » جملة معترضة ، وقوله : « إلا من أكره » استثناء من ذلك وقوله : « ولكن من شرح » مبتدأ خبره أو القائم مقام خبره قوله : « فعليهم غضب من الله » .

والمعنى - على هذا - إنما يفترى الكذب الذين كفروا من بعد إيمانهم إلا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان ، وعند ذلك تم الكلام ثم بدأ فقال : ولكن من شرح بالكفر صدراً فعليهم غضب من الله .

والذوق السليم يكفي مؤنة هذا الوجه على ما به من السخافة .

قوله تعالى : « ذلك بأنهم استحبوا الحياة الدنيا على الآخرة وأن الله لا يهدي القوم الكافرين » بيان لسبب حلول غضب الله بهم وثبوت العذاب العظيم عليهم وهو أنهم اختاروا الحياة الدنيا وهي الحياة المادية التي لا غاية لها إلا التمتع الحيواني والاشتغال بمشتبهات النفس على الآخرة التي هي حياة دائمة مؤبدة في جوار رب العالمين وهي غاية الحياة الإنسانية .

وبعبارة أخرى هؤلاء لم يريدوا إلا الدنيا وانقطعوا عن الآخرة وكفروا بها والله لا يهدي القوم الكافرين وإذا لم يهديهم الله ضلوا عن طريق السعادة والجنة والرضوان فوقعوا في غضب من الله وعذاب عظيم .

قوله تعالى : « واولئك الذين طبع الله على قلوبهم وسمعهم وأبصارهم واولئك

هم الغافلون ، إشارة إلى أن اختيار الحياة الدنيا على الآخرة والحرمان من هداية الله سبحانه هو الوصف الذي يوصف به الذين طبع الله على قلوبهم وسمعهم وأبصارهم والذين يسمون غافلين .

فإنهم باختيارهم الحياة الدنيا غاية لأنفسهم وحرمانهم من الإعتداء إلى الأخرى انقطعوا عن الآخرة وتعلقوا بالدنيا وجعلوها غاية لأنفسهم فوقف حسهم وعقلهم فيها دون أن يتعدوها إلى ما وراءها وهو الآخرة فليسوا يبصرون ما يعتبرون به ولا يسمعون عظة يتعظون بها ولا يعقلون حجة يهتدون بها إلى الآخرة .

فهم مطبوع على قلوبهم وسمعهم وأبصارهم فلا تنال قلوبهم ولا سمعهم وأبصارهم ما يدلهم على الآخرة ، وهم غافلون عنها لا يتنبهون لشيء من أمرها .

فظهر أن ما في الآية السابقة من الوصف بمنزلة المعرف لما في هذه الآية من الطبع ومن الغفلة فعدم هداية الله إياهم إثر ما تعلقوا بالدنيا هو معني الطبع والغفلة ، والطبع صنع إلهي منسوب إليه تعالى فعله بهم مجازاة والغفلة صفة منسوبة إليهم أنفسهم .

قوله تعالى : « لا جرم أنهم في الآخرة هم الخاسرون » لأنهم ضيعوا رأس مالهم في الدنيا فبقوا لا زاد لهم يعيشون به في آخرهم ، وقد وقع في نظير المقام من سورة هود : « لا جرم أنهم في الآخرة هم الأخسرون » هود : ٢٢ ، ولعل وجه التشديد هناك أنه تعالى أضاف إلى صفاتهم هناك أنهم صدوا عن سبيل الله فراجع .

قوله تعالى : « ثم إن ربك للذين هاجروا من بعد ما فتنوا ثم جاهدوا وصبروا إن ربك من بعدها لغفور رحيم » الفتنة في الأصل إدخال الذهب النار ليظهر جودته ثم استعمل في مطلق البلاء والتعذيب ، وقد كانت قريش ومشركوا مكة يفتنون المؤمنين ليردوهم عن دينهم ويعذبونهم بأنواع العذاب حتى ربما كانوا يموتون تحت العذاب كما فتنوا عماراً وأباه وأمه فقتل أبواه وارتد عمار ظاهراً فتفصى منهم بالتقية ، وفي ذلك نزلت الآيات السابقة كما سيأتي إن شاء الله في البعث الروائي .

ومن هنا يظهر أن للآية اتصالاً بما قبلها من قوله : « إلا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان » وهي في معني قولنا : وبعد ذلك كله إن الله غفور رحيم للذين هاجروا من بعد ما فتنوا ثم جاهدوا وصبروا .

فقوله : « ثم إن ربك للذين هاجروا من بعد ما فتنوا » وعد جميل للمهاجرين من بعد ما فتنوا بالمغفرة والرحمة يوم القيامة قبال ما أوعدهم بالخسران التام يومئذ وقد قيّد ذلك بالجهد والصبر بعد المهاجرة .

وقوله : « إن ربك من بعدها لغفور رحيم » بمنزلة تلخيص صدر الكلام - لطوله - ليلحق به ذيله ، ويفيد فائدة التأكيد كقولنا : زيد في الدار زيد في الدار كذا وكذا ، ويفيد أن لما ذكر من قيود الكلام دخلاً في الحكم فالله سبحانه لا يرضى عنهم إلا أن يهاجروا ولا عن هجرتهم إلا أن يجاهدوا بعدها ويصبروا .

قوله تعالى : « يوم تأتي كل نفس تجادل عن نفسها وتوفى كل نفس ما عملت وهم لا يظلمون » إتيان النفس يوم القيامة كناية عن حضورها عند الملك الديان ، كما قال : « فإنهم لمحضرون » الصافات : ١٢٧ ، والضمير في قوله : « عن نفسها » للنفس ولا ضمير في إضافة النفس إلى ضمير النفس فإن النفس ربما يراد بها الشخص الإنساني كقوله : « من قتل نفساً بغير نفس » المائدة : ٢٢ ، وربما يراد بها التأكيد ويتحدد معناها بما تقدمها من المؤكد سواء كان إنساناً أو غيره ، كما يقال : الإنسان نفسه والفرس نفسه والحجر نفسه والسواد نفسه ، ويقال : نفس الإنسان ونفس الفرس ونفس الحجر ونفس السواد ، وقوله : « عن نفسها » المراد فيه بالمضاف المعنى الثاني وبالمضاف إليه المعنى الأول ، وقد دفع التعبير بالضمير بشاعة تكرار اللفظ بالإضافة ، وفي هذا المقدار كفاية عن الأبحاث الطويلة التي أوردتها المفسرون .

وقوله : « يوم تأتي كل نفس تجادل عن نفسها » الظرف متعلق بقوله في الآية السابقة : « لغفور رحيم » ومجادلة النفس عن نفسها دفاعها عن نفسها وقد نسيت كل شيء وراء نفسها على خلاف ما كانت عليه في الدنيا من التعلق بكل شيء دون نفسها بنسيانها وليس ذلك إلا لظهور حقيقة الأمر عليها وهي أن الإنسان لا سبيل له إلى ما وراء نفسه ، وليس له في الحقيقة إلا أن يشغل بنفسه .

فالיום تأتي النفس وتحضر للحساب وهي تجادل وتصر على الدفاع عن نفسها بما تقدر عليه من الأعذار .

وقوله : « وتوفى كل نفس ما عملت وهم لا يظلمون » التوفية إعطاء الحق تاماً

من غير تنقيص ، وقد علّق التوفية على نفس العمل إذ قيل : « ما عملت » فافيد أن الذي أعطيته نفس العمل من غير أن يتصرف فيه بتغيير أو تعويض ، وفيه كمال العدل حيث لم يضاف إلى ما استحقته شيء ولا نقص منه ولذلك عقبه بقوله : « وهم لا يظلمون » .
ففي الآية إشارة :

أولاً : إلى أن نفساً لا تدافع يوم القيامة ولا تجادل عن غيرها بل إنما تشتغل بنفسها لا فراغ لها لغيرها كما قال : « يوم لا يغني مولى عن مولى شيئاً » الدخان : ٤١ ، وقال : « يوم لا ينفع مال ولا بنون » الشعراء : ٨٨ ، وقال : « يوم لا بيع فيه ولا خلة ولا شفاعة » البقرة : ٢٥٤ .

وثانياً : إلى أن الجدال لا ينفعها في صرف ما استحققتها من الجزاء شيئاً فإن الذي تجزاه هو عين ما عملت ولا سبيل إلى تغيير هذه النسبة وليس من الظلم في شيء .

(بحث روائي)

في الدر المنثور أخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه عن ابن عباس قال : لما أراد رسول الله ﷺ أن يهاجر إلى المدينة قال لأصحابه : تفرقوا عني فمن كانت به قوة فليأتني إلى آخر الليل ومن لم تكن به قوة فليذهب في أول الليل فإذا سمعتم بي قد استقرت بي الأرض فالحقوا بي .

فأصبح بلال المؤذن وخبّاب وعمار وجارية من قريش كانت أسلمت فأصبحوا بمكة فأخذهم المشركون وأبو جهل فعرضوا على بلال أن يكفر فأبى فجعلوا يضعون درعاً من حديد في الشمس ثم يلبسونها إياه فإذا ألبسوها إياه قال : أحد أحد ، وأما خباب فجعلوا يحرقونه في الشوك .

وأما عمار فقال لهم كلمة أعجبتهم تقية ، وأما الجارية فوجد لها أبو جهل أربعة أوتاد ثم مدّها فأدخل الحربة في قلبها حتى قتلها ثم خلّوا عن بلال وخبّاب وعمار فلحقوا برسول الله ﷺ فأخبروه بالذي [كان] من أمرهم واشتدّ على عمار الذي كان تكلم به فقال له رسول الله ﷺ : كيف كان قلبك حين قلت الذي قلت ؟ أكان منشراحاً بالذي قلت أم لا ؟ قال : لا . قال : وأنزل الله : « إلا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان » .

أقول : والجارية المذكورة في الرواية هي سمية أم عمار ، وكان معهم ياسر أبو عمار ، وقيل : وكان أبو عمار أول شهيد في الاسلام ، وقد استفاضت الروايات على قتلها بالفتنة وإظهار عمار الكفر تقية ونزول الآية فيه .

وفيه أخرج عبد الرزاق وابن سعد وابن جرير وابن أبي حاتم وابن مردويه الحاكم وصححه والبيهقي في الدلائل من طريق أبي عبيدة بن محمد بن عمار عن أبيه قال : أخذ المشركون عمار بن ياسر فلم يتركوه حتى سب النبي ﷺ وذكر آلهتهم بخير ثم تركوه .

فلما أتى رسول الله ﷺ قال : ما وراءك شيء ؟ قال : شر . ما تركت حتى نلت منك وذكرت آلهتهم بخير . قال : كيف تجد قلبك ؟ قال : مطمئن بالإيمان . قال : إن عادوا فعد ، فنزلت : « إلا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان » .

وفي الجمع عن ابن عباس وقتادة : إن الآية نزلت في جماعة أكرهو وهم عمار وياسر أبوه وأمه سمية وصهيب وبلال وخباب عذبوا وقتل أبو عمار وامه وأعطاهم عمار بلسانه ما أرادوا منه ثم أخبر سبحانه رسول الله ﷺ فقال قوم : كفر عمار فقال ﷺ كلا إن عماراً مليء إيماناً من قرنه إلى قدمه واختلط الإيمان بلحمه ودمه .

وجاء عمار إلى رسول الله ﷺ وهو يبكي فقال ﷺ : ما وراءك ؟ فقال : شر يا رسول الله ما تركت حتى نلت منك وذكرت آلهتهم بخير فجعل رسول الله ﷺ يمسح عينيه ويقول : إن عادوا لك فعد لهم بما قلت فنزلت الآية .

وفي الدر المنثور أخرج ابن سعد عن عمر بن الحكم قال : كان عمار بن ياسر يعذب حتى لا يدري ما يقول ، وكان صهيب يعذب حتى لا يدري ما يقول ، وكان أبو فكيهة يعذب حتى لا يدري ما يقول ، وبلال وعامر وابن فهيرة وقوم من المسلمين وفيهم نزلت هذه الآية : « ثم إن ربك للذين هاجروا من بعد ما فتنوا » .

أقول : وسمي منهم في بعض الروايات عباس بن أبي ربيعة وفي بعضها الآخر هو والوليد بن أبي ربيعة والوليد بن الوليد بن المغيرة وأبو جندل بن سهيل بن عمرو وأجمع رواية في ذلك ما عن ابن عباس : أن هذه الآية نزلت فيمن كان يفتن من أصحاب النبي ﷺ : « ثم إن ربك للذين هاجروا من بعد ما فتنوا » .

وفي الكافي بإسناده عن أبي عمرو الزبيري عن أبي عبد الله عليه السلام في حديث قال : فأما ما فرض على القلب من الإيمان الإقرار والمعرفة والعقد والرضا والتسليم بأن لا إله إلا الله وحده لا شريك له إلهاً واحداً لم يتخذ صاحبة ولا ولداً وأن محمداً عبده ورسوله ، والإقرار بما جاء به من عند الله من نبي أو كتاب : فذلك ما فرض الله على القلب من الإقرار والمعرفة وهو عمله وهو قول الله عز وجل : « إلا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان ولكن من شرح بالكفر صدراً » .

وفيه بإسناده عن مسعدة بن صدقة قال : قيل لأبي عبد الله عليه السلام : إن الناس يروون أن علياً عليه السلام قال على منبر الكوفة : يا أيها الناس إنكم ستدعون إلى سبتي فسيبوني ثم تدعون إلى البراءة مني فلا تبرؤوا مني . قال : ما أكثر ما يكذبون الناس على علي عليه السلام ثم قال : إنما قال : إنكم ستدعون إلى سبتي فسيبوني ثم تدعون إلى البراءة وإني لعلي دين محمد ولم يقل : ولا تبرؤوا مني .

فقال له السائل : أرأيت إن اختار القتل دون البراءة ؟ قال : والله ما ذاك عليه وما له إلا ما مضى عليه عمار بن ياسر حيث أكرهه أهل مكة وقلبه مطمئن بالإيمان فقال له النبي صلى الله عليه وآله وسلم عندهما : يا عمار إن عادوا فعد فقد أنزل الله عذرك « إلا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان » وأمرك أن تعود إن عادوا ، عمار بن ياسر

أقول : وروى هذا المعنى العياشي في تفسيره عن معمر بن يحيى بن سالم عن أبي جعفر عليه السلام ، وقوله عليه السلام : « وأمرك أن تعود إن عادوا » يستفاد ذلك من الآية حيث لم يرد الاستثناء فيها من الشخص بل وردت على العنوان وهو إكراه من اطمأن قلبه بالإيمان ، وأما كونه أمراً منه تعالى كما أمر به النبي صلى الله عليه وآله وسلم فعمل الوجه أن صريح الاستثناء هو الجواز ومع جواز ذلك لا ماساغ للإباء الذي هو عرض النفس للقتل وإلغاؤها في التهلكة فيجتمع هذا الجواز الوجوب دون الإباحة .

وفي تفسير العياشي عن عمرو بن مروان قال : سمعت أبا عبد الله عليه السلام قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : رفع عن امتي أربعة خصال : ما أخطأوا وما نسوا وما أكرهوا عليه وما لم يطيقوا ، وذلك في كتاب الله : « إلا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان » .

وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا
 مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعَمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ
 وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ - ١١٢ . وَلَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْهُمْ
 فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ وَهُمْ ظَالِمُونَ - ١١٣ . فَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمْ
 اللَّهُ حَلَالًا طَيِّبًا وَأَشْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ - ١١٤ .
 إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ
 فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ - ١١٥ . وَلَا
 تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلَالٌ وَهَذَا حَرَامٌ لِتَفْتَرُوا
 عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ - ١١٦ .
 مَتَاعٌ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ - ١١٧ . وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا مَا
 قَصَصْنَا عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ
 يَظْلِمُونَ - ١١٨ . ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا الشُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابُوا مِنْ
 بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ - ١١٩ .
 إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ - ١٢٠ .
 شَاكِرًا لِأَنْعَمِهِ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ - ١٢١ . وَآتَيْنَاهُ
 فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ - ١٢٢ . ثُمَّ أَوْحَيْنَا
 إِلَيْكَ أَنْ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ - ١٢٣ .

إِنَّمَا جُعِلَ السَّبْتُ عَلَى الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ
يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ - ١٢٤ . أَدْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ
بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ
أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ - ١٢٥ . وَإِنْ عَاقَبْتُمْ
فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ - ١٢٦ .
وَأَصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا
يَمْكُرُونَ - ١٢٧ . إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ - ١٢٨ .

(بَيَان)

تتمة آيات الأحكام السابقة تذكر فيها محرمات الأكل ومحلاته ونهي عن التحليل
والتحريم ابتداءً بغير إذن الله وذكر بعض ما شرع لليهود من الأحكام التي نسخت
بعد ، وفي ذلك عطف على ما تقدم من حديث النسخ في قوله : « وإذا بدلنا آية مكان
آية » وإشارة إلى أن ما أنزل على النبي ﷺ إنما هو دين إبراهيم عليه السلام المبني على
الاعتدال والتوحيد مرفوعاً عنه ما في دين اليهود من التشديد عليهم قبال ظلمهم .

وفي آخرها أمر بالعدل في المعاقبة وندب إلى الصبر والاحتساب ، ووعد جميل
بالنصرة والكفاية إن اتقوا وأحسنوا .

قوله تعالى : « ضرب الله مثلاً قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغداً ، إلى
آخر الآية ، الرغد من العيش هو الواسع الطيب .

هذا مثل ضربه الله تعالى فوصف فيه قرية آناها ما تحتاج اليه من نعم الحياة ،
وأنتم ذلك كله بنبي بعثه اليهم يدعوهم إلى ما فيه صلاح دنياهم وأخراهم فكفروا بأنعمه
وكذبوا رسوله فبدل الله نعمته نقمة وعذبهم بما ظلموا بتكذيب رسوله ، وفي المثل

تحذير عن كفران نعمة الله بعد إذ بذلت والكفر بآياته بعد إذ أنزل .

وفيه توطئة وتمهيد لما سيذكره من محلات الأكل ومحرماته وينهى عن تشريع الحلال والحرام بغير إذن الله كل ذلك بالاستفادة من سياق الآيات فإن كل سابقة منها تسوق النظر إلى اللاحقة .

وقيل : إن هذه القرية هي مكة عذبهم الله بالجوع سبع سنين لما كفروا بأنعم الله وقد وسعها عليهم وكذبوا رسوله وقد أرسله اليهم فابتلوا بالقحط وكان يغار عليهم قوافلهم بسخط من الله سبحانه لما دعا عليهم النبي ﷺ ، ذكره في الجمع ونسبه إلى ابن عباس ومجاهد وقناة .

وفيه أن لا إشكال في أنه في نفسه يقبل الانطباق على ما ذكر لكن سياق الآيات إنما يلائم كونه مثلاً عاماً مذكوراً توطئة وتمهيداً لما بيّناه .

فقوله : « ضرب الله مثلاً قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغداً » وصف القرية بثلاثة أوصاف متعاقبة غير أن الأوسط منها وهي الاطمئنان كالرابط بين الطرفين فإن القرية إذا أمنت المخاطر كهاجمة الأشرار وشن الغارات وقتل النفوس وسي الذراري ونهب الأموال وكذا أمنت الحوادث الطبيعية كالزلازل وغيرها اطمأنت وسكنت فلم يضطر أهلها إلى الجلاء والتفرق .

ومن كمال اطمئنانها أن يأتيها رزقها رغداً من كل مكان ولا يلجأ أهلها إلى الاغتراب وقطع الفيافي وركوب البحار وتحمل المشاق البالغة في طلب الرزق وجلبه إليها .

فاتصاف القرية بصفاتها الثلاث المذكورة : الأمن والاطمئنان وإتيان رزقها إليها من كل مكان يتم ويكمل لها جميع النعم المادية الصورية ، وسيضيف سبحانه إليها النعم المعنوية في الآية التالية : « ولقد جاءهم رسول منهم » فهي قرية أتم الله نعمه عليها وأكملها .

وقوله : « فكفرت بأنعم الله فأذاقها الله لباس الجوع والخوف » التعبير بأنعم الله وهو جمع قلة للإشارة بها إلى الأصناف المذكورة وهي ثلاثة : الأمن والاطمئنان وإتيان الرزق ، والإذاقة استعارة للإيصال اليسير فإذا ذاق الجوع والخوف مشرباً بالذي يوصلها قاصر على تضييف ذلك وتكثيره بما لا يقدر بقدر كيف لا ؟ وهو الله الذي له القدرة كلها .

ثم إضافة اللباس إلى الجوع والخوف وفيها دلالة على الشمول والإحاطة كما يشمل اللباس البدن ، ويحيط به ، تشعر بأن هذا المقدار اليسير من الجوع والخوف الذي أذاقهم شملهم كما يشمل اللباس بدن الإنسان وهو سبحانه قادر على أن يزيد على ذلك فهو المتناهي في قهره وغلبته وهم المتناهون في ذلتهم وهوانهم .

ثم ختم الآية بقوله : « بما كانوا يصنعون » للدلالة على أن سنة المجازاة في الشكر والكفر قائمة على ساق .

والمعنى : ضرب الله مثلاً مثل قرية كان أهلها آمنين من كل شر وسوء يهددهم في نفوسهم وأعراضهم وأموالهم ساكنين غير مضطرين يأتيهم رزقهم طيباً واسعاً من كل مكان من غير أن يضطروا إلى السفر والاغتراب فكفر أهلها بهذه النعم الإلهية ولم يشكروه سبحانه فأناهم الله شيئاً يسيراً من نعمته - بسلب هذه النعم - وهو الجوع والخوف اللذان عمّاهم وشملاهم قبال ما استمروا عليه بكفران الأنعم جزاء لكفرانهم .

قوله تعالى : « ولقد جاءهم رسول منهم فكذبوه فأخذهم العذاب وهم ظالمون » وهذا هو النعمة المعنوية التي أضافها إلى نعمه المادية المذكورة ، وكان فيها صلاح معاشهم ومعادهم وتحذير لهم من الكفران بأنعم الله وشرح ما فيه من الشؤم والشقاء لكنهم كذبوا رسولهم الذي هو منهم يعرفونه ويدرون أنه إنما يدعوهم لأمر إلهي ويهديهم إلى سبيل الرشاد وسعادة الجد فظلموا ذلك فأخذهم العذاب بظلمهم .

وبهذا التقرير يظهر ما في القيود المأخوذة في الآية من النكات .

قوله تعالى : « فكلوا مما رزقكم الله حلالاً طيباً » إلى آخر الآية ، تفريع على ما تحصل من المثل نتيجة ، والتقدير إذا كان الحال هذا الحال وكان في كفران هذا الرزق الرغد عذاب وفي تكذيب الدعوة عذاب فكلوا مما رزقكم الله حال كونه حلالاً طيباً أي لستم بممنوعين منه وأنتم تستطيبونه فكلوا منه واشكروا نعمة الله إن كنتم إياه تعبدون .

وقد ظهر بذلك :

أولاً : أن الآية مسوقة لتحليل طيبات الرزق مطلقاً فلا سبيل إلى ما ذكره بعضهم أن المراد فكلوا مما رزقكم الله من الغنائم رزقاً حلالاً طيباً بناء على أن الآية

نزلت بعد وقعة بدر والمثل السابق مثل مضروب لأهل مكة ، والمراد بالرسول الذي كذبوه هو النبي ﷺ ، وبالعذاب الذي أخذهم هو القتل الذريع لصناديدهم يوم بدر . وهذا كله مما لا دليل عليه من طريق لفظ الآيات . على أنه قد تأيد سابقاً أنها مكينة .

وثانياً : أن المراد بالحل والطيب كون الرزق بحيث لم يحرم منه الإنسان طبعاً وطبعه يستطيه أي الحل والطيب بحسب الطبع وذلك ملاك الحلية الشرعية التي تتبع الحلية بحسب الفطرة فإن الدين فطري لأن الله سبحانه فطر الإنسان مجهزاً بجهاز التغذية وجعل أشياء أرضية من الحيوان والنبات ملائمة لقوامه يميل إليها طبعه من غير نفرة فله أن يأكل منها وهو الحل .

وثالثاً : أن قوله : « فكلوا » أمر مقدمي بالنسبة إلى قوله : « واشكروا » نعمة الله ، وذكر النعمة تلويح إلى سبب الحكم فإن كون الشيء نعمة هو السبب في وجوب الشكر عليه .

ورابعاً : أن قوله : « إن كنتم إياه تعبدون » خطاب للمؤمنين فإنهم هم الذين يعبدون الله ولا يعبدون غيره ، والقصر في الجملة الذي يدل عليه تقديم المفعول على الفعل قصر القلب ، وغيرهم وهم المشركون إنما يعبدون الأصنام والآلهة من دون الله .

وجعل الخطاب للمشركين ودعوى أن المراد بالعبادة في قوله : « إن كنتم إياه تعبدون » الإطاعة أو أن المعنى إن صح زعمكم أنكم تقصدون بعبادتكم لألهتكم عبادته تعالى ، لا يرجع إلى طائل فإن جعل العبادة بمعنى الإطاعة يحتاج إلى قرينة ولا قرينة ، والمشركون لا يعبدون الله سبحانه ولو بإشراكه في العبادة ولا يقصدون بعبادة آلهتهم عبادته تعالى بل ينزهونه تعالى عن عبادتهم لكونه أجلاً من أن يناله إدراك أو ينتهي إليه توجهه .

وكون الخطاب في الآية للمؤمنين يوجب كون المثل مضروباً لأجلهم ورجوع سائر الخطابات التشريعية فيما قبل الآية وما بعدها متوجهة إليهم ، وربما قيل : إن الخطاب لعامة الناس أعم من المؤمن والكافر وتطبيقه على الآيات لا يخلو من تكلف وإن كان دون تخصيص الخطاب بالمشركين اشكالاً .

قوله تعالى : « إنما حرم عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل لغير الله به فمن اضطر غير باغ ولا عاد فإن الله غفور رحيم » تقدم الكلام في معنى الآية في تفسير سورة البقرة الآية ١٧٣ وسورة المائدة الآية ٣ وسورة الأنعام الآية ١٤٥ .

والآية بمعناها على اختلاف ما في لفظها واقعة في أربعة مواضع من القرآن : في سورتي الأنعام والنحل وهما مكيتان من أوائل ما نزلت بمكة وأواخرها ، وفي سورتي البقرة والمائدة وهما من أوائل ما نزلت بالمدينة وأواخرها ، وهي تدل على حصر محرّمات الأكل في الأربع المذكورة : الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل لغير الله به كما نبّه عليه بعضهم .

لكن بالرجوع إلى السنّة يظهر أن هذه هي المحرّمات الأصلية التي عفي بها في الكتاب وما سوى هذه الأربع من المحرّمات مما حرّمه النبي ﷺ بأمر من ربه وقد قال تعالى : « ما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا » الحشر : ٧ ، وقد تقدم بعض الروايات الدالة على هذا المعنى .

قوله تعالى : « ولا تقولوا لما تصف ألسنتكم الكذب هذا حلال وهذا حرام لتفتروا على الله الكذب » الخ ، « ما » في قوله : « لما تصف » مصدرية والكذب مفعول « تصف » أي لا تقولوا هذا حلال وهذا حرام بسبب وصف ألسنتكم لغاية افتراء الكذب على الله .

وكون الخطاب في الآيات للمؤمنين — على ما يؤيده سياقها كما مرّ — أو لعامة الناس يؤيد أن يكون المراد بقوله : « ولا تقولوا لما تصف ألسنتكم الكذب هذا حلال وهذا حرام » النهي عن الابتداع بإدخال حلال أو حرام في الأحكام الجارية في المجتمع المعمولة بينهم من دون أن ينزل به الوحي فإن ذلك من إدخال ما ليس من الدين في الدين وافتراء على الله وإن لم ينسبه واضعه إليه تعالى .

وذلك أن الدين في عرف القرآن هو سنّة الحياة وقد تكرر منه سبحانه قوله : « يصدّون عن سبيل الله ويبغونها عوجاً » أو ما يقرب منه ، فالدين لله ومن زاد فيه شيئاً فقد نسبّه إليه تعالى افتراء عليه وإن سكّت عن الإسناد أو نفى ذلك بلسانه .

وذكر الجمهور أن المراد بالآية النهي عما كان المشركون يحلّونه كاللينة والدم وما

أهل" لغير الله به أو يحرّمونه كالبحيرة والسائبة وغيرهما، والسياق — كما مر — لا يؤيده.
ثم قال سبحانه في مقام تعليل النهي : « إن الذين يفترون على الله الكذب لا يفلحون » ثم بيّن حرمانهم من الفلاح بقوله : « متاع قليل ولهم عذاب أليم » .

قوله تعالى : « وعلى الذين هادوا حرمنا ما قصصنا عليك من قبل » الخ ، المراد بقوله : « ما قصصنا عليك من قبل » — كما قيل — ما قصّه تعالى على نبيه ﷺ في سورة الأنعام — وقد نزلت قبل سورة النحل بلا إشكال — بقوله : « وعلى الذين هادوا حرمنا كل ذي ظفر » إلى آخر الآية ، الأنعام : ١٤٦ .

والآية في مقام دفع الدخل وفيها عطف على مسألة النسخ المذكورة سابقاً كأن قائل يقول : فإذا كانت محرّمات الأكل منحصرة في الأربع المذكورة : الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل" لغير الله به ، وكان ما وراءها حلالاً فما هذه الأشياء المحرّمة على بني إسرائيل من قبل ؟ هل هذا إلا ظلم بهم ؟ .

فأجاب عنه بأننا حرّمنا عليهم ذلك وما ظلمناهم في تحريمه ولكنهم كانوا يظلمون أنفسهم فنحرّم عليهم بعض الأشياء أي إنّه كان محلاً لهم ما ذوّبوا فيه لكنهم ظلّموا أنفسهم وعصوا ربهم فجزّيناهم بتجريده عقوبة كما قال سبحانه في موضع آخر : « فبظلم من الذين هادوا حرمنا عليهم طيّبات أحلت لهم » الآية ، ولو أنهم بعد ذلك كله رجعوا إلى ربهم وتابوا عن معاصيهم تاب الله عليهم ورفع الحظر عنهم وأذن لهم فيما منعهم عنه إنه لغفور رحيم .

فقد ظهر أن الآية متصلة بما قبلها من حديث التحليل والتحريم ، وأنها كالجواب عن سؤال مقدّر ، وأن ما بعدها من قوله : « ثم إن ربك للذين عملوا سوء » الآية ، متصل بها متمم لمضمونها .

قوله تعالى : « ثم إن ربك للذين عملوا سوء يجهالة ثم تابوا من بعد ذلك وأصلحوا إن ربك من بعدها لغفور رحيم » الجهالة والجهل واحد وهو في الأصل ما يقابل العلم لكن الجهالة كثيراً ما تستعمل بمعنى عدم الانكشاف التام للواقع وإن لم يخل المحلّ عن علم ما مصحح للتكليف كحال من يقترف المحرمات وهو يعلم بحرمتها لكن الأهواء النفسانية تغلبه وتحمله على المعصية ولا تدعه يتفكر في حقيقة هذه المخالفة

والمعصية فله علم بما ارتكب ولذلك يؤاخذ ويعاقب على ما فعل وهو مع ذلك جاهل بحقيقة الأمر ولو تبصّر تمام التبصر لم يرتكب .

والمراد بالجهالة في الآية هذا المعنى إذ لو كان المراد هو الأول وكان ما ذكر من عمل السوء مجهولاً من حيث حكمه أو من حيث موضوعه لم يكن العمل معصية حتى يحتاج إلى التوبة فالمغفرة والرحمة .

والآية — كما تقدمت الإشارة إليه — متصلة بما قبلها متممة لمضمونها ، ومعنى الآيتين أنا لم نظلم بني إسرائيل في تحريم الطيبات التي حرّمناها لهم ، بل هم الذين ظلموا أنفسهم حيث ارتكبوا المعاصي وأصروا عليها فأدى ذلك إلى تحريم الطيبات عليهم ، وبعد ذلك كله باب المغفرة والرحمة مفتوح وإن ربك للذين عملوا السوء أي عملوا عملاً سوء وهو السيئة يجهالة ثم تابوا من بعد ذلك وأصلحوا حتى يتبين التوبة وتستقر إن ربك من بعدها أي من بعد التوبة لغفور رحيم .

وفي تقييد التوبة أولاً بالإصلاح ثم إرجاع الضمير أخيراً إليها وحدها في قوله : « إن ربك من بعدها لغفور » دلالة على أن شمول المغفرة والرحمة من تبعات التوبة ، وأما الإصلاح فإنما هو لتبيين التوبة وظهور كونها توبة حقيقية ورجوعاً جدياً لا مجرد صورة خالية عن المعنى .

وقوله في ذيل الآية : « إن ربك من بعدها » تلخيص لتفصيل قوله في صدرها : « إن ربك للذين » النخ ، وفائدته حفظ فهم السامع عن التشوش والضلال وإبراز العناية ببعدية المغفرة والرحمة بالنسبة إلى التوبة نظير ما مرّ من قوله : « ثم إن ربك للذين هاجروا من بعد ما فتنوا ثم جاهدوا وصبروا إن ربك من بعدها لغفور رحيم » .

قوله تعالى : « إن إبراهيم كان أمة قانتاً لله حنيفاً ولم يك من المشركين » الآية ، وما يتلوها على اتصالها بما تقدم من حصر محرمات الأكل في الأربع وتحليل ما وراءها ، وهذه الآية إلى تمام أربع آيات بمنزلة التفصيل لما تقدمها كأنه قيل : هذا حال ملة موسى التي حرّمنا فيها على بني إسرائيل بعض ما أحلّ لهم من الطيبات ، وأما هذه الملة التي أنزلناها إليك فإنما هي الملة التي تحقق بها إبراهيم فاجتبه الله وهداه إلى صراط مستقيم وأصلح بها دينه وآخرته ، وهي ملة معتدلة جارية على الفطرة تحلل الطيبات

وتحرّم الخبائث يجلب العمل بها من الخير ما جلبه لإبراهيم عليه السلام منه .
 فقوله : « إن إبراهيم كان أمة » قال في المفردات ، وقوله : « إن إبراهيم كان أمة قانتاً لله » أي قائماً مقام جماعة في عبادة الله نحو قولهم : فلان في نفسه قبيلة ، انتهى . وهو قريب مما نقل عن ابن عباس ، وقيل : معناه الإمام المقتدى به ، وقيل : إنه كان أمة منحصرة في واحد مدة من الزمان لم يكن على الأرض موحد يوحد الله غيره .

وقوله : « قانتاً لله حنيفاً ولم يك من المشركين » القنوت : الإطاعة والعبادة أو دوامها ، والحنف : الميل من الطرفين إلى حاق الوسط وهو الاعتدال .

قوله تعالى : « شاكراً لأنعمه اجتنابه » إلى صراط مستقيم « الاجتناب من الجبابة وهو الجمع واجتناب الله الإنسان هو إخلاصه لنفسه وجمعه من التفرق في المذاهب المختلفة . وفي تعقيب قوله : « شاكراً لأنعمه » بقوله : « اجتنابه » الخ ، مفصلاً إشعار بالعلية وذلك يؤيد ما تقدم في سورة الأعراف في تفسير قوله : « ولا تجرد أكثرهم شاكرين » الأعراف : ١٧ ، أن حقيقة الشكر هو الإخلاص في العبودية .

قوله تعالى : « وآتيناه في الدنيا حسنة » وإنه في الآخرة لمن الصالحين « الحسنة هي المعيشة الحسنة فقد كان عليه السلام ذا مال كثير ومروءة عظيمة .

وقد بسطنا الكلام في معنى الاجتناب في تفسير سورة يوسف عند الآية ٦ ، وفي معنى الهداية والصراط المستقيم في تفسير الفاتحة عند قوله : « إهدنا الصراط المستقيم » الآية ٦ ، وفي معنى قوله : « وإنه في الآخرة لمن الصالحين » البقرة : ١٣٠ ، فراجع .

وفي توصيفه تعالى إبراهيم عليه السلام بما وصفه من الصفات إشارة إلى أنها من مواهب هذا الدين الحنيف ، فإن انتحل به الإنسان ساقه إلى ما ساق إليه إبراهيم عليه السلام .

قوله تعالى : « ثم أوحينا إليك أن اتبع ملة إبراهيم حنيفاً وما كان من المشركين » تكرر اتصافه بالحنف ونفي الشرك لمزيد العناية به .

قوله تعالى : « إننا جعل السبت على الذين اختلفوا فيه » إلى آخر الآية ، قال في المفردات : أصل السبت القطع ومنه سبت السير قطعه وسبت شعره حلقه ، وأنفه اصطلمه ، وقيل : سمي يوم السبت لأن الله تعالى ابتداءً بخلق السماوات والأرض يوم

الأحد فخلقها في ستة أيام كما ذكره فقطع عمله يوم السبت فسَمي بذلك .

وسبت فلان صار في السبت ، وقوله : « يوم سبتهم شرعاً » قيل : يوم قطعهم للعمل « ويوم لا يسبتون » قيل : معناه لا يقطعون العمل وقيل : يوم لا يكونون في السبت وكلاهما إشارة إلى حالة واحدة ، وقوله : « إنما جعل السبت » أي ترك العمل فيه « وجعلنا نومكم سباتاً » أي قطعاً للعمل وذلك إشارة إلى ما قال في صفة الليل : « لتسكنوا فيه » انتهى .

فالمراد بالسبت على ما ذكره نفس اليوم لكن معنى جعله جعل ترك العمل فيه وتشريعه ، ويمكن أن يكون المراد به المعنى المصدرى دون اليوم المفعول فيه ذلك كما هو ظاهر قوله : « تأتيم حيتانهم يوم سبتهم شرعاً ويوم لا يسبتون لا تأتيمهم » الأعراف : ١٦٣ .

وكيف كان فقد كان من طبع الكلام أن يقال : إنما جعل السبت للذين « حتى يفيد نوعاً من الاختصاص والملك وأن الله شرع لهم في كل أسبوع » يقطعوا العمل يوماً يفرغون فيه لعبادة ربهم وهو يوم السبت كما جعل للمسلمين كل أسبوع يوماً يجتمعون فيه للعبادة والصلاة وهو يوم الجمعة .

فقوله : « إنما جعل السبت على الذين اختلفوا فيه » بتعدية جعل بمعنى دون اللام من قبيل قولهم : لي عليك دين وهذا عليك لا لك فتفيد معنى التكليف والتشديد والابتلاء أي إنما جعل للتشديد عليهم وابتلائهم وامتحانهم فقد كان هذا الجعل عليهم لا لهم كما أنجز أمرهم فيه إلى لعن طائفة منهم ومسح آخرين وقد أشير إلى ذلك في سورة البقرة الآية ٦٥ وسورة النساء الآية ٤٧ .

والأنسب على هذا أن يكون المراد بقوله : « اختلفوا فيه » أي في السبت اختلافهم فيه بعد التشريع فإنهم تفرقوا فيه فرقاً من قبله ومن رده ومن احتال للعمل فيه على ما أشير إلى قصصهم في سور البقرة والنساء والأعراف لا اختلافهم فيه قبل التشريع بأن يعرض عليهم أن يسبتوا في كل أسبوع يوماً للعبادة ثم يجعل ذلك اليوم هو الجمعة فيختلفوا فيه فيجعل عليهم يوم السبت كما وقع في بعض الروايات .

والمعنى إنما جعل يوم السبت أو قطع العمل للعبادة يوماً في كل أسبوع تشديداً وابتلاء وفتنة وكلفة على اليهود الذين اختلفوا فيه بعد تشريعه بين من قبله ومن رده ومن احتال فيه للعمل مع التظاهر بقبوله وإن ربك ليحكم بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون .

وبالبناء على هذا يكون وزان الآية وزان قوله السابق : « وعلى الذين هادوا حراً منا ، الخ » ، في أنها في معنى الجواب عن سؤال مقدر عطفًا على ما مر من حديث النسخ ، والتقدير وأما جعل السبت لليهود فإنما جعل لا لهم بل عليهم ليعتليهم الله ويفتنهم به ويشدد عليهم كما قد تكرر نظائره فيهم لكونهم عاتين معتدين مستكبرين وبالجملة الآية ناظرة إلى الاعتراض بتشريع بعض الأحكام غير الفطرية على اليهود ونسخه في هذه الشريعة .

وإنما لم يضم إلى قوله سابقاً : « وعلى الذين هادوا حرمنا ، الخ » لكون مسألة السبت مغايرة لنسخ مسألة تحليل الطيبات واستثناء محرمات الأكل ، وقد عرفت أن الكلام على اتصاله من قوله : « وعلى الذين هادوا » إلى قوله : « وما كان من المشركين » سبع آيات جامعة ثم اتصلت بها هذه الآية وهي ثامنتها الملحق بها .

ومن هنا يظهر الجواب عما اعترض به أن توسيط جعل السبت بين حكاية أمر النبي ﷺ باتباع ملة إبراهيم عليه السلام وبين أمره ﷺ بالدعوة إليها وبعبارة أخرى وقوع قوله : « إنما جعل السبت » الخ ، بين قوله : « ثم أوحينا إليك » الخ ، وقوله : « ادع إلى سبيل ربك » الخ ، كالفصل بين الشجر والحائه .

ومحصل الجواب أن قوله : « ثم أوحينا إليك أن اتبع ملة إبراهيم » الآية من تمام السياق السابق ، وقوله : « إنما جعل السبت » الآية ، متصل بما تقدمه كما عرفت ، وأما قوله : « ادع إلى سبيل ربك » الآية ، فهو استئناف وأمر بالدعوة إلى سبيل الله بفنون الخطاب لا إلى ملة إبراهيم حتى يتصل بالآية السابقة نوع اتصال وإن كان سبيل الله هو ملة إبراهيم بعينها لكن للفظ حكم والمعنى بحسب المآل حكم آخر ، فافهم .

وللقوم في تفسير الاختلاف اختلاف عميق فمنهم من قال : إن المراد إنما جعل السبت على الذين اختلفوا على نبيهم فيه حيث أمرهم بتعظيم الجمعة فعدلوا عنه وأخذوا

السبت فجعله الله عليهم تشديداً فالاختلاف اختلاف سابق على الجعل لا لاحق به وربما جعل « في » للتعليل فإن الاختلاف على هذا لم يقع في السبت بل من أجل السبت .

وربما قيل: الاختلاف بمعنى المخالفة فإنهم خالفوا نبيهم في السبت ولم يختلفوا فيه .

وربما قيل : إنهم أمروا باتخاذ الجمعة من غير تعيين و وكل ذلك إلى اجتهدهم فاختلفت أخبارهم في تعيينه ولم يهدم الله إليه ووقعوا في السبت .

وربما قيل : إن المراد أنهم اختلفوا فيما بينهم في شأن السبت فطائفة منهم فضلته على الجمعة وطائفة منهم عكست الأمر وفضلت الجمعة عليه . إلى غير ذلك مما قيل ، والأصل في ذلك ما ورد في بعض الروايات من القصة .

وأنت خير بأن شيئاً من الأقوال لا ينطبق على لفظ الآية ذاك الانطباق فالمصير إلى ما قدمناه .

قوله تعالى : « ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن » إلى آخر الآية لا شك في أنه يستفاد من الآية أن هذه الثلاثة : الحكمة والموعظة والمجادلة من طرق التكليم والمفاوضة فقد أمر بالدعوة بأحد هذه الأمور فهي من أنحاء الدعوة وطرقها وإن كان الجدل لا يعد دعوة بمعناها الأخص .

وقد فسر الحكمة - كما في المفردات - بإصالة الحق بالعلم والعقل ، والموعظة كما عن الخليل - بأنه التذكير بالخير فيما يرق له القلب ، والجدال - كما في المفردات - بالمفاوضة على سبيل المنازعة والمغالبة .

والتأمل في هذه المعاني يعطي أن المراد بالحكمة - والله أعلم - الحجة التي تنتج الحق الذي لا مرية فيه ولا ومن ولا إبهام والموعظة هو البيان الذي تلين به النفس ويرق له القلب ، لما فيه من صلاح حال السامع من الغبر والعبر وجميل الثناء ومحمود الأثر ونحو ذلك .

والجدال هو الحجة التي تستعمل لقتل الخصم عما يصر عليه وينازع فيه من غير أن يريد به ظهور الحق بالمؤاخذه عليه من طريق ما يتسله هو والناس أو يتسله هو وحده في قوله أو حجته .

فينطبق ما ذكره تعالى من الحكمة والموعظة والجدال بالترتيب على ما اصطلموا عليه في فن الميزان بالبرهان والخطابة والجدل .

غير أنه سبحانه قيّد الموعظة بالحسنة والجدال بالتي هي أحسن ، ففيه دلالة على أن من الموعظة ما ليست بحسنة ومن الجدال ما هو أحسن وما ليس بأحسن ولا حسن ، والله تعالى يأمر من الموعظة بالموعظة الحسنة ومن الجدال بأحسنه .

ولعل ما في ذيل الآية من التعليل بقوله : « إن ربك هو أعلم بمن ضلّ عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين » يوضح وجه التقييد ، فمعناه أنه سبحانه أعلم بحال أهل الضلال في دينه الحق ، وهو أعلم بحال المهتدين فيه فهو يعلم أن الذي ينفع في هذا السبيل هو الحكمة والموعظة الحسنة والجدال الأحسن لا غير .

والاعتبار الصحيح يؤيد ذلك فإن سبيله تعالى هو الاعتقاد الحق والعمل الحق ومن المعلوم أن الدعوة إليه بالموعظة مثلاً لا يتعمّد بما يعظ به دعوة عملاً إلى خلاف ما يدعو إليه القول ، والدعوة إليه بالمجادلة مثلاً بالمسلّمات الكاذبة التي يتسلّمها الخصم لإظهار الحق إحياء لحق بإحياء باطل وإن شئت فقل : إحياء حق بإماتة حق إلا أن يكون الجدال على سبيل المناقضة .

ومن هنا يظهر أن حسن الموعظة إنما هو من حيث حسن أثره في الحق الذي يراد به بأن يكون الواعظ نفسه متعمّطاً بما يعظ ويستعمل فيها من الخلق الحسن ما يزيد في وقوعها من قلب السامع موقع القبول فيرقّ له القلب ويقشعر به الجلد ويغنيه السمع ويخشع له البصر .

ويتحرز المجادل مما يزيد في تهيج الخصم على الرد والعناد وسوقه إلى المكابرة واللجاج ، واستعمال المقدمات الكاذبة وإن تسلّمها الخصم إلا في المناقضة ويحتارز سوء التعبير والازراء بالخصم وبما يقدره من الاعتقاد والسب والشتم وأي جهالة أخرى فإن في ذلك إحياء للحق بإحياء الباطل أي إماتة الحق كما عرفت .

والجدال أحوج إلى كمال الحسن من الموعظة ولذلك أجاز سبحانه من الموعظة حسنيتها ولم يحز من المجادلة إلا التي هي أحسن .

ثم إن في قوله : « بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن » أخذاً بالترتيب من حيث الأفراد فالحكمة مأذون فيها بجميع أفرادها ، والموعظة منقسمة إلى حسنة وغير حسنة والمأذون فيها منها هي الموعظة الحسنة ، والمجادلة منقسمة إلى حسنة وغير حسنة ثم الحسنة إلى التي هي أحسن وغيرها والمأذون فيها منها التي هي أحسن ، والآية ساكنة عن توزيع هذه الطرق بحسب المدعوتين بالدعوة فالملاك في استعمالها من حيث المورد حسن الأثر وحصول المطلوب وهو ظهور الحق .

فمن الجائز أن يستعمل في مورد جميع الطرق الثلاث وفي آخر طريقان أو طريق واحد حسب ما تستدعيه الحال ويناسب المقام .

ومنه يظهر أن قول بعضهم إن ظاهر الآية أن يجمع عليه السلام في دعوته بين الطرق الثلاث ليس في محله إذ لا دليل على لزوم الجمع بينها بالنسبة إلى كل مدعو وأما بالنسبة إلى جميع المدعوتين فهو حاصل .

وكذا ما ذكره بعضهم أن الطرق الثلاث المذكورة في الآية مترتبة حسب ترتب أفهام الناس في استعدادها لقبول الحق فمن الناس الخواص وهم أصحاب النفوس المشرقة القوية الاستعداد لإدراك الحقائق العقلية وشديدة الانجذاب إلى المبادئ العالية وكثيرة الالفة بالعلم واليقين فهؤلاء يدعون بالحكمة وهي البرهان .

ومنهم عوام وهم أصحاب نفوس كدرة واستعداد ضعيف مع شدة ألفتهم بالمحسوسات وقوة تعلّقهم بالرسوم والعادات قاصرة عن تلقّي البراهين من غير أن يكونوا معاندين للحق وهؤلاء يدعون بالموعظة الحسنة .

ومنهم أصحاب العناد واللجاج الذين يجادلون بالباطل ليدحضوا به الحق ويكابرون ليطفؤا نور الله بأفواههم رسخت في نفوسهم الآراء الباطلة ، وغلب عليهم تقليد أسلافهم في مذاهبهم الخرافية لا ينفعهم المواعظ والعبر ولا يهديهم سائق البراهين وهؤلاء هم الذين أمر بمجادلتهم بالتي هي أحسن .

وفيه أنه لا يخلو من دقة لكن لا ينتج اختصاص كل طريق بما يناسبه من مرتبة الفهم فربما انتفع الخواص بالموعظة والمجادلة ، وربما انتفعت العوام وهم ألفة العادات والرسوم بالمجادلة بالتي هي أحسن ، ولا دلالة في لفظ الآية على ما ذكر من التخصيص .

وكذا ما ذكره بعضهم أن المجادلة بالتي هي أحسن ليست من الدعوة في شيء بل الغرض منها شيء آخر مغاير لها وهو الإلزام والإفحام . قال : ولذلك لم يعطف الجدل في الآية على ما تقدمه بل غير السياق وقيل : « وجادلهم بالتي هي أحسن » . وفيه غفلة عن حقيقة القياس الجدلي فالإفحام وإن كان غاية للقياس الجدلي لكنه ليس غاية دائمية فكثيراً ما يتألف قياس من مقدمات مقبولة أو مسلمة وخاصة في الأمور العملية والعلوم غير اليقينية كالفقه والأصول والأخلاق والفنون الأدبية ولا يراد به الإلزام والإفحام .

على أن في الإلزام والإفحام دعوة كما أن في الموعظة دعوة وإن اختلفت صورتها باختلاف الطرق نعم تغيير السياق لما في الجدل من معنى المنازعة والمغالبة .

قوله تعالى : « وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به ولئن صبرتم لهو خير للصابرين » قال في المفردات : العقوبة والعقاب والمعاقبة تختص بالعذاب ، انتهى . والأصل في معناه العقب وهو مؤخر الرجل وعقيب الشيء وعاقبة الأمر ما يليه من ورائه أو آخره ، والتعقيب الإتيان بشيء . عقيب شيء ومعاقبتك غيرك أن تأتي بما يسوؤه عقيب إتيانه بما يسوؤه فينطبق على المجازاة والمكافأة بالعذاب .

فقوله : « وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به » الخطاب فيه للمسلمين — على ما يفيد السياق — ولازمه أن يكون المراد بالمعاقبة مجازاة المشركين والكفار ، ويقول : « عوقبتم به » عقاب الكفار بإيام ومجازاتهم لهم بما آمنوا بالله ورفضوا آلهتهم .

والمعنى : وإن أردتم مجازاة الكفار وعذابهم فجازوهم على ما فعلوا بكم بمثل ما عذبوكم به مجازاة لكم على إيمانكم وجهادكم في الله .

وقوله : « ولئن صبرتم لهو خير للصابرين » أي صبرتم على 'مر' ما عوقبتم به ولم تعاقبوا ولم تكافؤا لهو خير لكم بما أنكم صابرون لما فيه من إيثار رضى الله وثوابه فيما أصابكم من المحنة والمصيبة على رضى أنفسكم بالتشفي بالانتقام فيكون العمل خالصاً لوجه الكريم ، ولما في الصفع والعفو من أعمال الفتوة ولها آثارها الجميلة .

قوله تعالى : « واصبر وما صبرك إلا بالله » إلى آخر الآية أمر للنبي ﷺ بالصبر وبشرى له أن الله قواه على الصبر على 'مر' ما يلقاه في سبيله فإنه تعالى يذكر أن

صبره إنما هو بحول وقوة من ربه ثم يأمره بالصبر ولازم الأمر قدرة المأمور على المأمور به ففي قوله : « وما صبرك إلا بالله » إشارة إلى أن الله قوّاك على ما أمرك به .

وقوله : « ولا تحزن عليهم » أي على الكافرين لكفرهم ، وقد تقدم تفسير هذا المعنى سابقاً في السورة وغيرها .

وقوله : « ولا تك في ضيق مما يمكرون » الظاهر أن المراد النهي عن التعرج من مكروهم في الحال أو على سبيل الاستمرار دون مجرد الاستقبال .

قوله تعالى : « إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون » أي إن التقوى والإحسان كل منهما سبب مستقل في موهبة النصر الإلهية وإبطال مكر أعداء الدين ودفع كيدهم فالآية تعليل لقوله : « ولا تك في ضيق مما يمكرون » ووعد بالنصر .

وهذه الآيات الثلاث أشبه مضموناً بالآيات المدنية منها بالملكية وقد وردت روايات من طرق الفريقين أنها نزلت في منصرف النبي ﷺ عن أحد وسياقي في البحث الروائي وإن كان من الممكن توجيه اتصالها بما قبلها بوجه كما تصدى له بعضهم .

ومما يجب أن يتنبه له أن الآية التي قبل الثلاثة أجمع لفرض السورة من هذه الثلاث ، وأن لآيات السورة مع الإغماض عن قوله : « والذين هاجروا » الآية ، وقوله : « من كفر بعد إيمانه » إلى تمام بضع آيات ، وقوله : « وإن عاقبتم » إلى آخر السورة ، سياقاً واحداً متصلاً .

(بحث روائي)

في تفسير القمي في قوله تعالى : « وضرب الله مثلاً » الآية ، قال : قال علي بن أبي طالب : نزلت في قوم كان لهم نهر يقال له الثرثار وكانت بلادهم خصبة كثيرة الخير ، وكانوا يستنجون بالمعجن ويقولون : هو ألين لنا ، فكفروا بأنعم الله واستخفوا فحبس الله عنهم الثرثار فجذبوا حتى أحوجهم الله إلى أكل ما يستنجون به حتى كانوا يتقاسمون عليه .

أقول : ورواه في الكافي عنه بإسناده عن عمرو بن شمر عن أبي عبد الله عليه السلام مفصلاً ، والعياشي عن حفص وزيد الشحام عنه .

وفي الدر المنثور أخرج ابن مردويه عن أنس بن مالك قال : قال رسول الله ﷺ : « ما من عبد يشهد له أمة إلا قبل الله شهادتهم » والأمة الرجل فما فوقه إن الله يقول : « إن إبراهيم كان أمة قانتاً لله حنيفاً ولم يك من المشركين » .

أقول : وقد تقدم في تفسير آيات الشهادة ماله تعلق بالحديث .

وفي تفسير العياشي عن سماعة بن مهران قال : سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول : لقد كانت الدنيا وما كان فيها إلا واحد يعبد الله ولو كان معه غيره لأضافه إليه حيث يقول : « إن إبراهيم كان أمة قانتاً لله حنيفاً ولم يك من المشركين » فصبر بذلك ما شاء الله ثم إن الله تبارك وتعالى آنسه بإسماعيل وإسحاق فصاروا ثلاثة .

أقول : ورواه في الكافي بإسناده عن سماعة عن عبد صالح .

وفي الدر المنثور أخرج الشافعي في الام والبخاري ومسلم عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : نحن الآخرون السابقون يوم القيامة بيد أنهم أوتوا الكتاب من قبلنا وأوتيناه من بعدهم ثم هذا يومهم الذي فرض عليهم يوم الجمعة فاختلفوا فيه فهدانا الله له فالناس لنا فيه تبع ، اليهود غداً والنصارى بعد غد .

أقول : وروى مثله عن أحمد ومسلم عن أبي هريرة وحذيفة عنه عليه السلام ولم ترد الرواية في تفسير الآية .

وفيه أخرج ابن مردويه عن أبي ليلى الأشعري أن رسول الله ﷺ قال : تمسكوا بطاعة أئمتكم ولا تخالفوهم فإن طاعتهم طاعة الله ومعصيتهم معصية الله فإن الله إنما بعثني أدعو إلى سبيله بالحكمة والموعظة الحسنة فمن خالفني في ذلك فهو من الهالكين وقد برئت منه ذمة الله وذمة رسوله ومن ولي من أمركم شيئاً فعمل بغير ذلك فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين .

وفي تفسير القمي في قوله تعالى : « وجادلهم بالتى هي أحسن » قال : قال ﷺ : بالقرآن .

وفي الكافي عنه بإسناده عن أبي عمر والزيبري عن أبي عبد الله عليه السلام في قوله تعالى : « ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتى هي أحسن » ، قال : بالقرآن .

أقول : ظاهره أنه تفسير « بالتي هي أحسن » ومحصله الجدل على سنة القرآن الذي فيه أدب الله .

وفي تفسير العياشي عن الحسن بن حمزة قال : سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول : لما رأى رسول الله صلى الله عليه وآله ما صنع بحمزة بن عبد المطلب قال : اللهم لك الحمد وإليك المشتكى وأنت المستعان على ما أرى ثم قال : : لئن ظفرت لأمثلن ولأمثلن ولأمثلن قال : فأنزل الله : « وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به ولئن صبرتم لهو خير للصابرين » فقال رسول الله صلى الله عليه وآله : أصبر أصبر .

وفي الدر المنثور أخرج ابن المنذر والطبراني وابن مردويه والبيهقي في الدلائل عن ابن عباس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله يوم قتل حمزة ومثله به : لئن ظفرت بقريش لأمثلن بسبعين رجلاً منهم ، فأنزل الله : « وإن عاقبتم » الآية ، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله : بل نصبر يا رب فصبر ونهى عن المثلة .

أقول : وروى أيضاً ما في معناه عن أبي بن كعب وأبي هريرة وغيرهما عنه صلى الله عليه وآله وسلم .

مركز تحقيق كتاب توير علوم اسلامی
- تم والحمد لله -



مرکز تحقیقات کامپیوتر علوم اسلامی

(استدراك)

تعلق على ص ٣٢٠ س ٢٠ قوله : « فصدر الآية » هذا بالنظر إلى متن الآية
لكن مقتضى سياق الآيات السابقة عليها كون الدين بمعنى الجزاء ، ويؤيده قوله :
« بوفيتهم » .

مركز تحقیقات کامپیوتر علوم اسلامی



مرکز تحقیقات کامپیوتر علوم اسلامی

فهرس بعض ما في هذا المجلد من المواضيع

رقم الآيات	موضوع البحث	نوع البحث	الصفحة
سورة إبراهيم ٤٢ - ٥٢	كلام في معنى الانتقام ونسبته اليه تعالى	عقلي	٨٦
سورة الحجر ١ - ٩	كلام في أن القرآن مصون عن التحريف في فصول :	عقلي وروائي وتاريخي	
»	الفصل ١ - الاستدلال على نفي التحريف بالقرآن	»	١٠٤
»	الفصل ٢ - الاستدلال عليه بالحديث	»	١٠٧
»	الفصل ٣ - كلام مثبتي التحريف وجوابه	»	١٠٨
»	الفصل ٤ - الجمع الأول للمصحف	»	١١٨
»	الفصل ٥ - الجمع الثاني	»	١٢١
»	الفصل ٦ - حول روايات الجمعين	»	١٢٤
»	الفصل ٧ - الكلام حول روايات الإنساء	»	١٣٢
٢٦ - ٤٨	كلام في الأقضية الصادرة في بدء خلقة الإنسان	قرآني	١٧٣
٨٥ - ٩٩	بحث في كيفية وجود التكليف ودوامه	فلسفي	١٩٩



مرکز تحقیقات کامپیوتر علوم اسلامی

AL-MIZAN

FI

TAFSIR AL-KOR'AN

BY

AL - ALLAMA AB - SAJJID

MORAMMAD ROSAIX AL - TABATABAEE

PUBLISHED BY

Al Adami Library

BEIRUT - LEBANON

P.O. BOX 7120